تاريخ مختصر الدول

ابن العبري

To PDF: http://www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قال مولانا وسيدنا الاب القديس. الطاهر النفيس. العالم العلامة.
ملك العلماء. افضل الفضلاء. قدوة الزمان. فريد الوقت والأوان. افتخار أهل الفضل والحكمة. المفريان المؤيد ماركريغوريوس أبو الفرج ابن الحكيم الفاضل اهرون المتطبب الملطي تغمده الله برحمته الحمد لله الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، ذي الكلمة الاحدية، والحياة الأبدية، معبود العليين في الآفاق، ومسجود السفليين في الأعماق، والسلام على ملائكته المقربين، وأنبيائه المرشدين إلى طاعة الله وتقواه، والسلوك في حفظ مذاهبه ورضاه.

وبعد فهذا مختصر في الدول قصدت في اختصاره الاقتصار على بعض ما أوتي في ذكره اقتصاص إحدى فائدتي الترغيب والترهيب من أمور الحكام والحكماء خيرها وشرها على سبيل الالتقاط من الكتب الموضوعة في هذا الفن بلغات مختلفة سريانية وعربية وغيرها مبتدئاً من أول الخليفة ومنتهياً إلى زماننا. وهو مرتب على عشر دول داولها الله تعالى بين الأمم فتداولتها تداولاً بعد تداول.

الدولة الأولى: دولة الأولياء من آدم أول البرنساء أي الناس.

الدولة الثانية: الدولة المتنقلة من الأولياء إلى القضاة قضاة بني إسرائيل.

الدولة الثالثة: الدولة المتنقلة من قضاة بني إسرائيل إلى ملوكهم.

الدولة الرابعة: الدولة المتنقلة من ملوك إسرائيل إلى ملوك الكلدانيين.

الدولة الخامسة: الدولة المتنقلة من ملوك الكلدانيين إلى ملوك المجوس.

الدولة السادسة: الدولة المتنقلة من ملوك المجوس إلى ملوك اليونانيين الوثنيين.

الدولة السابعة: الدولة المتنقلة من ملوك اليونانيين الوثنيين إلى ملوك الإفرنج.

الدولة الثامنة: الدولة المتنقلة من ملوك الإفرنج إلى ملوك اليونانيين المتنصرين.

الدولة التاسعة: الدولة المتنقلة من ملوك اليونانيين المنتصرين إلى ملوك العرب المسلمين.

الدولة العاشرة: الدولة المتنقلة من ملوك العرب المسلمين إلى ملوك المغول.

الدولة الأولى

للأولياء قبل الدخول إلى أرض الميعاد

قال من عني بأخبار الأمم وبحث عن سير الأجيال أن أصول الأمم من سالف الدهر سبعة: الفرس والكلدانيون واليونانيون والقبط والترك والهند والصين. ثم تفرع كل واحدة من هذه الأمم إلى أمم وتشعبت اللغات وتباينت الأديان. وكانوا جميعاً صابئة يعبدون الأصنام تمثيلاً للجواهر العلوية والأشخاص الفلكية.وهم على كثرة فرقهم وتخالف مذاهبهم طبقتان: طبقة عنيت بالعلوم كالكلدانيين والفرس وسائر من يأتي ذكره في موضعه، وطبقة لم تعن بهذا كأهل الصين والترك والصقالبة والبرابرة والحبشة ومن اتصل بهم.

أما الصين فأكثر الأمم عدداً أفخمهم مملكة وأوسعهم دياراً، ومساكنهم محيطة بأقصى مشارق المعمورة ما بين خط الاستواء إلى أقصى الأقاليم السبعة في الشمال وحظهم من المعرفة التي بزوا فيها سائر الأمم إتقان الصنائع العملية وأحكام المهن التصويرية. وأما الترك فأمة كثيرة العدد أيضا فخمة المملكة وفضيلتهم التي برعوا فيها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها. فهم احذق الناس بالفروسية أبصرهم بالطعن والضرب والرماية. وأما سائر هذه الطبقة التي لم تعن بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس، لان من كان موغلاً في الشمال فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد أمزجتهم وفجج أخلاقهم فعظمت أبدانهم وابيضت الو انهم واستدلت شعورهم فعدموا بهذه دقة الإفهام وثقوب الخواطر فغلب عليهم الجهل والبلادة وفشل فيهم الغيّ والغباوة كالصقالبة ومجاوريهم. ومن كان منهم قريباً من معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمورة في الجنوب لطول مقاربة الشمس رؤوسهم سخنت أمزجتهم واحترقت أخلاطهم فاسودت الو انهم وتفلفلت شعورهم فعدموا بهذه الأناة وثبوت البصائر كالحبشة وباقي السودان إلا الهند فإن الله قد فضلهم على كثير من السمر والبيض وهم معدن الحكمة وينبوع العدل إلا أنهم يثبتون أزل العالم ويبطلون النبوات ويحرمون ذبح الحيوان ويمنعون إيلامه.

"آدم" أبو البشر خلق يوم العروبة سادس الشهر الأول وهو نيسان سنة إحدى للعالم بعد أن خلق الله تعالى في يوم الأحد وهو أول نيسان السماء العليا أي الفلك التاسع المتحرك بالحركة الأولى من المشرق إلى المغرب والأرض وتسع مراتب الملائكة والنور والأركان الأربعة. وخلق تعالى في يوم الاثنين الرقيع

وهو السماء الدنيا أي الفلك الثامن وما في ضمنه من الرقعة السبع المتحركة بالحركة الثانية من المغرب إلى المشرق.

وفي يوم الثلاثاء أمر الله تعالى الماء فاجتمع إلى مكان واحد صائراً بحراً وأظهرت الأرض منبتة عشباً وأشجارا مثمرة وغير مثمرة. وفي يوم الأربعاء قال عز من قائل: لتكن مصابيح أي كواكب في علو الرقيع للفصل بين الليل والنهار ولدلالات الأوقات والأيام والأعوام فرصعت الثوابت بالفلك الثامن والنيران والخمسة المتحيرة كل بفلكه واستولت الشمس على سلطان النهار واستولى القمر على سلطان الليل وبقي الفلك التاسع وحده متطلساً. وفي يوم الخميس خلق الله تعالى التنانين العظام وكل نفس متحركة في الماء وكل طائر ذي جناح. وفي يوم الجمعة أمر الله تعالى الأرض فأخرجت انفساً حيوانية بهائم وسباعاً وحشرات. ثم خاطب ملائكته قائلاً: هلموا نخلق إنسانا بصورتنا ومثالنا عارفاً بالخير والشر مستطيعاً لفعلهما. فظهرت يمين مبسوطة فيها أجزاء من العناصر الأربع ونفخ فيها نسيم الحياة فوجد آدم شاباً. ثم ألقى الله عليه الرقاد وانتزع إحدى أضلاعه من جنبه الأيمن وخلق منها حواء أم البشر واسكنهما فردوس عدن وهو الجنة ومستقرها نحو المشرق أباحهما الأكل من جميع ثمار الجنة خلا شجرة معرفة الخير والشر. وأردف ذلك يوم السبت فلم يخلق فيه شيئاً.

ومن علمائنا مار غريغوريوس النوسوي ويعقوب الرهاوي يزعمان أن جميع المخلوقات إنما وجدت في آن واحد والكتاب الإلهي إنما خصص كون كل كائن بيوم لتعليمنا حسن الترتيب في الأمور وان الله غير موجب بالذات بل فاعل بالاختيار له أن يبرأ ما شاء متى شاء.

وكان آدم وحواء عاريين بغير لباس و لم يستح أحدهما من الآخر حتى دخل الشيطان في الحية وخدعت حواء فأكلت من الثمرة التي نهاهما الله تعالى عن الأكل منها أعطت آدم أيضاً بعلها فأكل. فانفتحت أعين قلبيهما وأحسا بالعري فاستحيا واتزرا بورق التين وأهبط بهما من جنة عدن إلى الأرض على تسع ساعات من نهار الجمعة وكانت خلقتهما في الساعة الأولى من هذا النهار بعينه.

وقد اختلفت علماؤنا في أمر الثمرة المنهي عنها فقال قوم إنها البر وقال آخرون إنها العنب وقال الأكثرون إنها التين وغريغوريوس النوسوي يزعم إنها رمز إلى القوة الشهوانية والنازيتري يرى إنها رمز إلى المراء في ذات الله وصفاته.

وعلى رأي مارثوديوس بعد ثلاثين سنة للانتفاء من الجنة باشر آدم حواء فولدت قايين وقليميا أخته توأمين. وبعد ثلاثين أخرى غشيها فولدت هابيل ولبوذا أخته توأمين.

وبعد سبعين سنة أخرى حاول آدم تزويج كل واحد منهما بتوأمة أخيه. فأبى قايين طالباً توأمته لأجل ذلك قرب قرباناً من ثمار أرضه لكونه فلاحاً فلم يقبل لفساد طريقته. ورفع هابيل قرباناً من أبكار غنمه

لكونه راعياً فقبل لحسن سيرته. فأسر قايين عداوة أخيه فقتله غيلة واستوطن أرض نوذ الخارجة عن حدود ولد أبيه. وحزن آدم على هابيل مائة سنة. ثم عاد مفضياً إلى حواء فولدت شيث والماضي من عمر آدم يومئذ على رأي الاثنين والسبعين حبراً اللذين نقلوا التوراة وكتب الأنبياء لبطليموس ملك مصر قبل مجيء السيد المسيح لذكره التبجيل كما سيأتي شرح ذلك في موضعه مائتان وثلثون سنة. وعلى رأي التوراة التي بأيدي اليهود بعد مجيئه مائة وثلثون سنة. وجميع أيام آدم على الرأيين تسعمائة وثلثون سنة.
"شيث بن آدم" يقال أنه أول من ابتدع الكتابة وشوق ولده إلى الحياة السعيدة التي كانت لأبويه في الجنة فانقطعوا إلى جبل حرمون متعكفين على العبادة والنسك والعفة لا يطورون بجنبة النساء. فسموا بذلك بنو ألوهيم أي الإله. وأولد شيث انوش وله حينئذ على الرأي السبعيني مائتان وخمس سنين وعلى رأي اليهود مائة وخمس سنين وجميع أيامه على الرأيين تسعمائة واثنتا عشرة سنة.

"انوش بن شيث" يقال هو أول من دعا اسم الرب ومنحه الله تعالى معرفة الأكوان ومسير الكواكب وهو وان لم يجانب النساء لم يغفل التقرب إلى الله زلفى. وأولد قينان ابنه وله يومئذ على الرأي السبعيني مائة وتسعون سنة وعلى رأي اليهود تسعون سنة وجميع أيامه على الرأيين تسعمائة وخمس سنين.
"قينان بن انوش" ولد له مهلالايل وعمره على الرأي السبعيني مائة وسبعون سنة وعلى رأي اليهود سيعون سنة وجميع أيامه على الرأيين تسعمائة وعشر سنين.
"مهلالايل بن قينان" ولد له يرد وعمره على الرأي السبعيني مائة وخمس وستون سنة وعلى رأي اليهود خمس وستون سنة وجميع أيامه على الرأيين ثمانمائة وخمس وتسعون سنة.
"يرد بن مهلالايل" ولد له حنوخ وعمره على الرأيين جميعاً مائة واثنتان وستون سنة وجميع أيامه تسعمائة واثنتان وستون سنة. وفي سنة أربعين ليرد هبط بنو ألوهيم من جبل حرمون متآيسين من العود إلى الفردوس ورغبوا في النساء فلم يزوجهم ذوو قرابتهم مستخفين لهم. فاختطبهم قوم قايين باذلين لهم بناتهم فأنكحوهن فولدن جبابرة مبرزين في الحروب والغارات. وقيل أن بنات قايين اخترعن آلات الملاهي زامرات بها ولذلك تسمي السريانية اللحن قينة بالكسر وتسمي العرب الأمة المغنية قينة بالفتح.
"حنوخ بن يرد" ولد له متوشلح وعمره على الرأي السبعيني مائة وخمس وستون سنة وعلى رأي اليهود خمس وستون سنة. هذا حنوخ تمسك بوصايا الله الطاهرة وعمل بها وتتبع الخير وصرف عن الشر مواظباً على العبادة ثلاثمائة سنة فنقله الله إلى حيث شاء حياً وقيل إلى الفردوس.
والأقدمون من اليونانيين يزعمون أن حنوخ هو هرمس ويلقب طريسميجيسطيس أي ثلاثي التعليم لأنه كان يصف الباري تعالى بثلاث صفات ذاتية هي الوجود والحكمة والحياة. والعرب تسميه إدريس. وقيل

أن الهرامسة ثلاثة: الأول هرمس الساكن بصعيد مصر الأعلى وهو أول من تكلم في الجواهر العلوية وانذر بالطوفان وخاف ذهاب العلوم ودرس الصنائع فبنى الأهرام وصور فيها جميع الصناعات والآلات ورسم فيها طبقات العلوم حرصاً منه علىتخليدها لمن بعده. والثاني هرمس البابلي سكن كلواذا مدينة الكلدانيين وكان بعد الطوفان وهو أول من بنى مدينة بابل بعد نمرود بن كوش. والثالث هرمس المصري وهو الذي يسمى طريسميجيسطيس أي المثلث بالحكمة لأنه جاء ثالث الهرامسة الحكماء ونقلت من صحفه نبذ وهي من مقالاته إلى تلميذه طاطي على سبيل سؤال وجواب بينهما وهي على غير نظام وولاء لأن الأصل كان بالياً مفرقاً والنسخة موجودة عندنا بالسريانية. وقيل أن هرمس الأول بنى مائة وثمانين مدينة صغراها الرها وسن للناس عبادة الله والصوم والصلاة والزكاة والتعييد لحلول السيارة ببيوتها وأشرافها وكذلك كلما استهل الهلال وحلت الشمس برجاً من الإثني عشر. وأن يقربوا قرابين من كل فاكهة باكورتها ومن الطيب والذبائح والخمور أنفسها. وحرم السكر والمآكل النجسة. والصابئة تزعم أن شيث بن آدم هو اغاثاذيمون المصري معلم هرمس. وكان اسقلبيياذيس الملك أحد من أخذ الحكمة عن هرمس وولاه هرمس ربع الأرض المعمورة يومئذ وهو الربع الذي ملكه اليونانيون بعد الطوفان. ولما رفع الله هرمس إليه حزن اسقلبيياذيس حزناً شديداً تأسفاً على ما فات الأرض من بركته وعلمه وصاغ له تمثالاً على صورته ونصبه في هيكل عبادته. وكان التمثال على غاية ما يمكن من إظهار أهبة الوقار عليه والعظمة في هيبته ثم صوره مرتفعاً إلى السماء وكان يمثل بين يديه تارة ويجلس أخرى ويتذكر شيئاً من حكمه ومواعظه على العبادة. وبعد الطوفان ظن اليونانيون أن الصورة لاسقلبيياذيس فعظموه غاية التعظيم. وكان أبقراط إذا عهد إلى تلامذته يقول: نشدتكم الله باري الموت والحياة وأبي وأباكم اسقلبيياذيس. وكان يصوره وبيده نبات الخطمي رمزاً منه إلى فضيلة الاعتدال في الأمور واللين والمؤاتاة والمطاوعة في المعاملة. وقال جالينوس: لا يجب أن يرفض الشفاء الذي يحصل عليه المرضى بدخولهم هيكل اسقلبيياذيس. أقول كلما ورد من أخبار ما قبل الطوفان و لم يسند إلى نبأ نبوي فهو حدس وتخمين لعدم المخبر به على الوجه.

"مثوشلح بن حنوخ" ولد له لمك وعمره على الرأي السبعيني مائة وسبع وستون سنة وعلى رأي اليهود مائة وسبع وثمانون سنة وجميع أيامه على الرأيين تسعمائة وتسع وستون سنة.

"لمك بن مثوشلح" ولد له نوح وعمره على الرأي السبعيني مائة وثمان وثمانون سنة وعلى رأي اليهود مائة واثنتان وثمانون سنة. وجميع أيامه على الرأيين سبعمائة وثلث وسبعون سنة. ومات قبل أبيه.

"نوح بن لمك" ولد له شام وعمره على الرأيين خمسمائة سنة. وعلى الرأيين جميع أيامه تسعمائة وخمسون

سنة. وفي سنة ستمائة لعمر نوح تهارج الناس وأباحوا المحظورات وارتكبوا المحارم. وكان نوح باراً صديقاً. وأخبره الله تعالى بحال الطوفان وأمره أن يصنع فلكاً طوله ثلاثمائة ذراعاً وعرضه خمسون ذراعاً في عمق ثلاثين ذراعاً. ونزل إليه هو وزوجته وبنوه الثلاثة: شام وحام ويافث ونساؤهم وأدخل معهم من كل نوع من الطيور والحيوان الطاهر سبعة أزواج ذكوراً وإناثاً. ومن النجس زوجاً ومن الطعام ما يقوته ومن معه قوتاً ماسكاً للرمق. وقيل أن تابوت أبينا آدم أيضا كان معهم في الفلك. ثم هطلت السماء انهطالاً وتواترت الأمطار واستنهرت المياه أربعين يوماً أولها السابع والعشرون من شهر أيار وتغشمرت السيول العمران وغشي الماء كل شيء وركب الجبال الشامخة وعلا عليها خمس عشرة ذراعاً. ودام ذلك سنة كاملة. ثم ذكر الله نوحاً ومن معه في الفلك فأمسك نزول الماء وعصفت الرياح فجففت الأرض واجتنح الفلك إلى جبل قرد ويعرف بالجودي وفي أثناء ذلك بعث نوح الغراب مستكشفاً عن حال الأرض. فلم يعد لاشتغاله بأكل الجيف. واتبعه بحمامة فلم تجد موضعاً للوقوف فعادت إلى نوح. ثم صبر بعد ذلك سبعة أيام وسرح حماماً آخر فرجع إليه مساءً وفي منقاره ورقة من شجرة الزيتون. فعلم أن الماء قد غاض. وبعد أيام أرسل طائراً آخر فلم يعد. فأقام تتمة سنة وخرج هو وآله من الفلك في السابع والعشرين من السنة الثانية وبنى مذبحاً وقرب قرباناً قبله الله وعهد إليه أن لا يورد على خلقه طوفاناً ولا يبيد فيما بعد حيواناً وجعل آية رضوانه قوس قزح المرئية في السحاب. وأطلق الله لنوح أكل لحوم الغنم والمواشي وشرب الخمر ومما كان قد حرم قبل الطوفان. وابتدأ نوح بعمارة الأرض وغرس كرماً وشرب من عصيره وثمل يوماً في خيمته فانكشف. فشهده ابنه حام وهزئ منه. وعرف أخواه شام ويافث ذلك واخذ إزاراً فغطيا أباهما ووليا بمشيان القهقرى حتى لا ينتبه. ولما استيقظ نوح علم ما صنع به فلعن كنعان بن حام قائلاً: إن زرعه من بعده يكون لعبودية الأمم. وإنما لعنه نوح والذنب لأبيه لا له لأنه عرف بالوحي ما سيبدو منه من اتخاذ الملاهي وإنشاء الزمر وإفشاء الزنا وباقي الفواحش التي ارتكبها بنو قايين. وبعد الطوفان قسم نوح المسكونة بين بنيه عرضاً من الجنوب إلى الشمال فأعطى بلاد السودان حاماً وبلاد السمر شاماً وبلاد الشقر ليافث. ثم مات وله تسعمائة وخمسون سنة. فمن خلق العالم إلى ورود الطوفان على الرأي السبعيني ألفان ومائتان واثنتان وأربعون سنة وعلى رأي اليهود ألف وستمائة وست وخمسون سنة وعلى رأي السمرة ألف وثلاثمائة وسبع سنين. وهذا إلى غاية الفساد لاقتضائه إدراك نوح آدم في قيد الحياة بمائتين وثلث وعشرين سنة و لم يأت به خبر من الله ولا عن أنبيائه. وقال انيانوس الراهب الاسكندري إن مدة ما بين ابتداء خلق آدم وبين ليلة الجمعة التي كان فيها الطوفان ألفان ومائتان وست وعشرون سنة وشهر وثلاثة وعشرون يوماً وأربع ساعات.

"شام بن نوح" ولد له ارفخشد وعمره مائة سنة وسنة واحدة. وجميع أيامه ستمائة سنة. وقيل أن نوح أوصى إلى شام ابنه وقال له: إني إذا مت فأخرج تابوت أبينا آدم من الفلك وخذ معك من أولادك ملكيزدق لأنه كاهن الله تعالى وسيرا معاً بالتابوت إلى حيث يهديكما ملاك الرب. فعملا بهذه الوصية وهداهما الملاك إلى جبل بيت المقدس ووضعا التابوت على قلة هناك فغاص فيها. فعاد شام إلى أهله و لم يعد ملكيزدق لكنه بنى ثم مدينة اسمها أورشليم أي قرية السلام ولذلك تسمى هو أيضاً مليخ شليم أي ملك السلام وسكنها باقي أيامه لهجاً بالعبادة وما غشي امرأة ولا أراق دماً كان قربانه خبزاً وخمراً فقط.

ولأن الكتاب الإلهي أبان عن عظم شأنه واعرض عن إبانة نسبه وتاريخي ولادته ووفاته. قال الرسول المغبوط بولس: لا ابتداءً لأيامه ولا انقضاء لسنته. وقد ضرب مثلاً للمسيح في نبوءة داود حيث قال: أنت الكاهن إلى الأبد بهيئة ملكيزدق. وعلى تلك القلة التي فيها قبر آدم صلب السيد المسيح.

"ارفخشد بن شام" ولد له قينان على الرأي السبعيني وعمره مائة وثلاثون سنة وجميع أيامه أربعمائة وخمس وستون سنة وليس لهذا قينان ذكر في التورية العبرية ولا في التي بيد السمرة وهو مذكور في إنجيل لوقا.

"قينان بن ارفخشد" ولد له شالح على الرأي السبعيني وعمره مائة وثلاثون سنة. وجميع أيامه أربعمائة وثلاثون سنة. وإما على رأي اليهود فارفخشد لما أتت عليه خمس وثلاثون سنة ولد له شالح. وكذلك السمرة إنما تجعل شالح ابناً لارفخشد لا لقينان بن ارفخشد. وقيل أن هذا قينان اخترع علم الأفلاك بعد الطوفان وبنوه اتخذوه إلهاً وصاغوا له تمثالاً بعد وفاته وسجدوا له. وهو بنى مدينة حران على اسم هاران ابنه.

"شالح بن قينان" ولد له عابر وعمره على الرأي السبعيني مائة وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود ثلاثون سنة، وجميع أيامه أربعمائة وستون سنة.

"عابر بن شالح" ولد له فالغ وعمره على الرأي السبعيني مائة وثلث وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود أربع وثلاثون سنة. وجميع أيامه ثلاثمائة وثلث وأربعون سنة. ومنه اشتق اسم العبري. وقيل من إبراهيم لعبوره الأنهار مترحاً به من العراق إلى الشام.

ومن أئمتنا باسيليوس وافريم يزعمان أن من آدم إلى هذا عابر كانت لغة الناس واحدة وهي السريانية وبها كلم الله آدم وتنقسم إلى ثلاث لغات أفصحها الآرامية وهي لغة أهل الرها وحران والشام الخارجة.

وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلة. واسمجها الكلدانية النبطية وهي لغة أهل جبال اثور وسواد العراق. ويعقوب الرهاوي يقول: إن اللغة لم تزل عبرية إلى أن تبلبلت الألسن ببابل.

"فالغ بن عابر" ولد له ارعو وعمره على الرأي السبعيني مائة وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود ثلاثون سنة. وجميع أيامه ثلاثمائة وثلث وأربعون سنة. وفي سنة مائة وأربعين لفالغ فلغت الأرض أي قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح. فصار لبني شام وسط المعمورة فلسطين والشام واثور وسامر وبابل وفارس والحجاز. ولبني حام التيمن كله أي الجنوب: إفريقية والزنج ومصر والنوبة والحبشة والسند والهند. ولبني يافث الجربيا أي الشمال: الأندلس والإفرنجة وبلاد اليونانيين والصقالبة والبلغار والترك والأرمن. وبعد وفات فالغ ثارت الفتن بين بنيه وبين بني يقطان أخيه وشرع الناس في تشييد الحصون.

"ارعو بن فالغ" ولد له ساروغ وعمره على الرأي السبعيني مائة واثنتان وثلاثون سنة وعلى رأي اليهود اثنتان وثلاثون سنة. وجميع أيامه ثلاثمائة وتسع وثلاثون سنة. وفي سبعين سنة لارعو قال الناس بعضهم لبعض: هلموا نضرب لبناً ونحرق آجراً ونبني صرحاً شامخاً في علو السماء ويكون لنا ذكراً كي لا نتبدد على وجه الأرض. فلما وجدوا في ذلك بأرض شنعار وهي السامرة"ونمرود بن كوش قات راصفي الصرح بصيده وهو أول ملك قام بأرض بابل وهو الذي رأى شبه إكليل في السماء واتخذ مثله ووضعه على رأسه فقيل إن إكليله نزل من السماء". قال الله تعالى: هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شيء يهتمون به سوف افرق لغاتهم لئلا يعرف أحدهم ما يقول الآخر. فبدد الله شملهم على وجه الأرض و أرسل رياحاً عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه نمرود الجبار وتبلبلت لغات الآدميين ولذلك دعي اسم ذلك الموضع بابل. وبنى نمرود ثلاث مدن ارخ وخيليا"أي الرها ونصيبين" والمدائن.

"ساروغ بن ارعو" ولد له ناحور وعمره على الرأي السبعيني مائة وثلاثون سنة. وعلى رأي اليهود ثلاثون سنة. وجميع أيامه ثلاثمائة وثلاثون سنة. ويقال أن ساروغ اظهر سكة الدراهم والدنانير. وفي أيامه اكثر الناس اتخاذ الأصنام وكان الشياطين يظهرون منها الآيات الباهرة. وساميروس ملك الكلدانيين أبدع المكاييل والموازين ونسج الابريسم واخترع الأصباغ. وقد جاء في الخرافات انه كان له ثلث عيون وقرنان. وفي هذا الزمان اوفيفانوس ملك مصر صنع سفينة وغزا سكان السواحل. وبعده قام فرعون بن سانس ومنه سميت الفراعنة.

"ناحور بن ساروغ" ولد له ترح وعمره على الرأي السبعيني تسع وسبعون سنة وعلى رأي اليهود تسع وعشرون سنة. وجميع أيامه مائتان وسنة واحدة. وفي خمس وعشرين سنة من عمره كان جهاد أيوب الصديق على رأي اروذ الكنعاني. وبنى ارمونيس ملك كنعان سذوم وغامورا على اسم ولديه ومدينة صاعر على اسم أمهما.

"ترح بن ناحور" ولد له إبراهيم وعمره على الرأيين جميعاً سبعون سنة. وجميع أيامه مائتان وخمس

وسبعون سنة. ومات بمدينة حران. وبنى مورفوس ملك فلسطين مدينة دمشق قبل ميلاد إبراهيم بعشرين سنة. وبوسيفوس يقول إن عوص بن آرام بناها ومن هاهنا يتفق التاريخان السبعيني والعبراني.

"إبراهيم بن ترح" ولد له اسحق وعمره مائة سنة. وجميع أيامه مائة وخمس وسبعون سنة. ولما أتت عليه خمس عشرة سنة استجابه الله تعالى في العقاعق التي كانت تفسد في أرض الكلدانيين وتمحق زروعهم. واحرق إبراهيم هيكل الأصنام بقرية الكلدانيين ودخل هاران أخوه ليطفئ النار فاحترق ولذلك فر إبراهيم وعمره ستون سنة مع أبيه ترح وناحور أخيه ولوط بن هاران أخيه المحترق إلى مدينة حران وسكنها أربع عشرة سنة.

ثم خاطبه الله قائلاً: انتقل عن هذه الديار التي هي ديار آبائك إلى حيث آمرك. فأخذ سارا امرأته ولوط ابن أخيه وصعد إلى أرض كنعان وحارب ملوك كدرلعمر وقهرهم. وفي عودة من المحاربة اجتمع بملكيزدق الكاهن الأعظم وخر على وجهه بين يديه وأعطاه عشراً من السلب وباركه ملكيزدق. وفي سنة خمس وثمانين من عمره وعده الله أن يجعل نسله كعدد الكواكب التي في السماء وذريته كرمل البحار فوثق إبراهيم بالله حق الثقة.

وفي هذه السنة دخل إلى مصر ووشى بحسن سارا امرأته إلى فرعون فسأل إبراهيم عنها. فقال: هي أختي من أبي لا من أمي. ولم يكذب بقوله هذا لأنها كانت ابنة عمه فأقام جدهما مكان أبيهما. فاختارها فرعون إلى نفسه مختلياً حتى حقق أنها زوجته فردها إليه مع هدايا جزيلة من جملتها هاجر المصرية أمة سارا وتقدم إليه بالانتزاح من بلده خوفاً من أن يهجس في صدره هاجس سوء ثانياً. ولأنه لم يكن لإبراهيم ولد من امرأته سارا سمحت بجاريتها هاجر فوطئها إبراهيم وولدت له إسماعيل. واستهانت هاجر بسارا مولاتها شامخة عليها بسبب ولدها فأزاحتها سارا من عندها إلى القفر بغيظة منها فتراءى ملك الرب لهاجر قائلاً: لا بيأسي من رحمة ربك فان الله قد بارك على الصبي حين خاطب أباه إبراهيم. وكان خاتمة البركة باللغة السريانية هكذا: وأكبرته طب طب وأعظمته جداً جداً.

أقول قد اتفق في هذه الألفاظ سرٌّ عجيب لاح في عصرنا وهو إنا إذا جمعنا حروفها بحساب الجمل كان الحاصل ستمائة وستة وخمسون سنة وهي المدة من الهجرة إلى السنة التي قتل فيها آخر الخلفاء العباسيين وزال الملك المعظم جداً عن آل إسماعيل. وبعد مائة سنة مضت من عمر إبراهيم ولد له اسحق من سارا. ولما حصل لاسحق تسع عشرة سنة اصعده إبراهيم لجبل نابو ليضحي به ضحية لله تعالى ففداه الله بحمل مأخوذ من الشجرة أنقذه. والحمل مثال لسيدنا يسوع المسيح له المجد الذي فدى العالم بنفسه ولذلك قال في إنجيله المقدس: إن إبراهيم كان يرجو أن يشاهد يومي فشاهد وسر.وقيل في تلك السنة تم ملكيزدق

بناء أورشليم. وفي ثماني وثلاثين سنة من عمر اسحق درجت سارا أمه وعمرها مائة وسبع وعشرون سنة. وتزوج إبراهيم قنطورا ابنة ملك الترك ولما بلغ اسحق أربعين سنة نزل ايليعازر وليد بيت إبراهيم إلى حران وجاء برفقا زوجة اسحق ولما توفي إبراهيم دفن إلى جانب قبر سارا زوجته في المغارة المضاعفة التي ابتاعها من عفرون الحيثاني. وفي زمن إبراهيم كانت ساميرم ملكة اثور وهي بنت التلال خوفاً من عود الطوفان.

"إسحق بن إبراهيم" ولد له يعقوب وعمره ستون سنة. وجميع أيامه مائة وثمانون سنة. وبعد عشرين سنة من تزوجه حبلت رفقا امرأته. ولأنها تألمت بالحبل مضت إلى ملكيزدق لتسأله عن حملها ودعا لها وبشرها بأن أمتين عظيمتين في أحشائك وان الكبير من توأميك يطيع الصغير يعني عيسو أبا الاذوميين وهم الإفرنج الشقر ينقاد ليعقوب أبي الإسرائيليين. وقيل في ذلك الزمان بنيت مدينة اربيل من اربول الملك ومدينة ايريحو من سبعة ملوك كل منهم بنى لها سوراً.

"يعقوب بن اسحق" ولد له لاوي وعمره اثنتان وثمانون سنة. وجميع أيامه مائة وسبع وأربعون سنة. وفي سبع وسبعين سنة من عمره أخذ من عيسو أخيه البكورة ومن اسحق أبيه تبريك البكورة بالحيلة المذكورة في التورية وهي أن اسحق لما طعن في السن ذهب بصره. وكان عيسو ازب ويعقوب اجرد. فلبسته أمه مسك جدي وقدمته إلى اسحق قائلة: هذا عيسو ابنك أعطه بركة بكورته. فجسه إسحاق وقال: مجسة عيسو وشمائل يعقوب. ومع ارتيابه به لم يأب تبريكه. ولما حنق عليه عيسو أخوه هرب من قدامه إلى حران ورأى يعقوب في أول ليلة خرج من بيت أبيه فاراً من أخيه في منامه سلماً منصوباً في الأرض ورأسه إلى السماء والملائكة يصعدون وينزلون عليه وعظمة الله ظاهرة في أعلاه. فانتبه يعقوب وقال: لا ريب أن هذا بيت الله. فأخذ الحجر الذي كان فوق رأسه ونصبه مذبحاً وسكب عليه دهناً تمثيلاً بدهن الميرون الذي به تتقدس هياكل الله عندنا. ووصل يعقوب إلى بيت لابان خاله بحران واختطب راحيل ابنته الصغيرة وقبل أن يرعى غنمه سبع سنين حق المهر. فلما تمت المدة زوجه لابان ابنته الكبرى محتجاً بوجوب تزويج الكبرى قبل الصغرى وزف معها جارية اسمها زلفا. فقبل يعقوب ثانية الرعي سبعاً أخرى حق مهر راحيل. وعند تمام المدة زوجه راحيل ابنته الصغيرة وزف معها جارية اسمها بلها. ومال يعقوب إلى راحيل فمانعها الله الولاد برهة من الزمان. وولدت لايا ستة أولاد البكر روبيل أي العظيم لله ثم شمعون أي الطائع ثم لاوي أي التام ثم يهوذا أي الشاكر ومن ذريته ظهر الملك المسيح المدعو ابن داود بالجسد. ثم ايساخر أي الأجر. ثم زبولون أي النجاة من هول الليل. وولدت راحيل ابنين يوسف أي الزيادة ثم بنيامين أي ابن العزاء. وولدت زلفا ابنين جاذ أي الحظ ثم اشير أي المجد. وولدت بلها ابنين

أيضا دان أي الحكم ونفتالي أي المتضرع وابنة اسمها دينا أي العادلة. جملة البنين اثنا عشر وهم الأسباط أي قبائل بني إسرائيل. وبعد ميلاد لاوي بثلاث سنين ولدت راحيل يوسف وبيع ابن سبعة عشرة سنة وبقي عبداً عشر سنين ومعتقلاً ثلث سنين وأميناً على دار فرعون ثلاثين سنة ووزيراً ثمانين سنة وجميع أيامه مائة وأربعون سنة. وبعد وفاة اسحق حارب عيسو يعقوب أخاه فنصر الله يعقوب. ورماه بسهم فقتله وهزم من معه. وانحدر يعقوب إلى مصر وعمره مائة وثلاثون سنة بعد أن أقحط سنتين. ويهوذا بن يعقوب تزوج امرأة كنعانية اسمها شوع وولدت له ثلث أولاد عير واوانان وشيلا. وتزوج عير امرأة من بنات لاوي اسمها ثامر وكان يضاجعها مضاجعة قوم لوط ومات و لم يرزق ولداً فزوجها يهوذا بولده الآخر وهو اونان ليقيم منها نسلاً لأخيه عير. وكان إذا باشرها سكب ماءه على الأرض فهلك هو أيضاً بغير خلف.

وإما شيلا الأخ الصغير لما رأى هلاك أخويه أبى قربها. والسر في ذلك أن يعقوب طلب من ربه أن لا يترك زرع كنعان الذي لعنه نوح يختلط مع نسله. فاحتالت ثامر كنة يهوذا حتى باشرها يهوذا متنكرة عليه فحملت من حميها واتأمت بابنين هما فرص وزرح وداود النبي من نسل فرص بن يهوذا.

"لاوي بن يعقوب" ولد له قاهاث وعمره سبع وأربعون سنة. وجميع أيامه مائة وسبع وثلاثون سنة. وإنما ذكر لاوي في النسب وان كان روبيل اكبر أولاد يعقوب لان من ذرية لاوي ولد موسى النبي المنقذ لآل إسرائيل من عبودية المصريين والسان لهم سناً إلهية.

"قاهان بن لاوي" ولد له عمرم وعمره ستون سنة. وجميع أيامه مائة وثلث وثلاثون سنة. وفي زمانه صار الطوفان المذكور في كتب الكلدانيين في العراق والملك باثور بالفرس. وقيل في أيام لاوي كان.

"عمرم بن قاهاث" ولد له موسى وعمره خمس وثمانون سنة. وجميع أيامه مائة وسبع وثلاثون سنة.

وعندما ولد موسى وضعه والداه في صندوق مقير ورمياه في النيل خوفاً من فرعون امونفاثيس خانق مولودي العبرانيين فوجدته ابنة فرعون هذا واتخذته ولداً وسلمته إلى يانيس ويمبريس الحكيمين فعلماه الحكمة وقصة تعلمه منهما غير مذكورة في التوراة وقد ذكرها الرسول بولس نقلاً عن ارسطامونيس.

"موسى بن عمرم" بعد ما أتت عليه أربعون سنة من عمره وهو في بيت فرعون رأى شخصاً مصرياً يفتري على شخص إسرائيلي فالتفت إلى جوانبه فلم ير أحداً فضربه وقتله. وبعد أيام رأى إسرائيليين يتخاصمان فأخذ ينكر عليهما. فقال له أحدهما: من جعلك علينا والياً قد جئت تقتلنا كما قتلت بالأمس المصري. ففزع موسى لئلا يظهر ذلك لفرعون فهرب إلى أرض العرب وتزوج صافورا الزنجية ابنة يثرون بن رعوئيل المديني ابن دادان بن يقش بن إبراهيم من قنطورا زوجته التركية. وولدت صافورا الزنجية

لموسى ابنين أحدهما جرشون أي الغريب والآخر ايليعازر أي الله أعانني. ولما بلغ موسى ثمانين سنة وكان يرعى غنم يثرون حميه، تراءى له ملاك الرب في جبل حوريب وهو طور سينا بلهيب النار في العوسج والعوسج لا يحترق فدعاه الله من العوسج قائلاً: يا موسى يا موسى. فقال: ها أنا. فقال له: حل نعليك من قدميك لأن المكان الذي أنت قائم عليه مقدس. ثم قال له الرب: قد سمعت استغاثة شعبي من المصريين ونزلت لخلاصهم على يدك. فقال موسى: من أنا حتى أمضي إلى فرعون رسولاً. فقال له الله: أنا أكون معك. قال موسى: فان قالوا لي ما اسم ربك ماذا أقول لهم. قال: قل اهيا اشر اهيا أي الأزلي الذي لا يزال. فقال موسى: إن لساني ألثغ ثقيل النطق كيف يقبل مني فرعون. قال الله له: إني قد جعلتك إلهاً لفرعون وهرون أخاك نبياً بين يديك يقول لفرعون ما تقص عليه فيرسل ابني بكري إسرائيل وأنا أقسي قلب فرعون فلا يطيعكما فأظهر آياتي بأرض مصر. فلما مضيا موسى وهرون إلى فرعون بالرسالة قال لهما: اصنعا لي آية. فألقى موسى عصاه فإذا هي تنين. فدعا فرعون السحرة ففعلوا كذلك فابتلعت عصا موسى عصيهم. ومع هذا أبى فرعون أن يرسلهم. فصنع الرب بمصر من الآيات ما قد شرح في التورية من تغير الماء دماً وأظهار الجراد والضفدع والظلام والحشرات والنار وغير ذلك. وفي الليلة التي قتل الله فيها جميع أبكار المصريين من بكر فرعون وما دون أذن فرعون لموسى وهرون أن يخرجا بني إسرائيل من مصر ويمضون ويعبدون امام الرب ثم يعودون إلى مصر فاستعار بنو اسرائيل من جيرانهم حلي الذهب والفضة والملابس الفاخرة بحجة العود وخرجوا من مصر ستمائة ألف رجل سوى الحشم والأثقال بعد أن تم لهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثون سنة. ولما لم يرجعوا لما أمروا اتبعهم فرعون وجنوده. فدمدم بنو إسرائيل على موسى قائلين: قد كان الأصلح أن تخدم المصريين ولا نهلك في البر فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وعبر بنو إسرائيل فيه. ودخل فرعون وجنوده خلفهم فغرقوا وسار بنو إسرائيل في البر أياماً. ثم ثاروا على موسى قائلين: كنا نؤثر الموت بمصر ولا نموت بالجوع في هذا البر.فأمطرهم الله تعالى الخبز من السماء وأنزل عليهم المن والسلوى وكان الغمام يظلهم نهاراً وعمود نار يضيئهم ليلاً سائراً بين أيديهم. وقال الله لموسى: اصعد إلي أنت و هرون وناذاب وابيهو ولداه وسبعون شيخاً. ففعلوا ذلك ودنا موسى وحده والباقون وقفوا اسفل الجبل فعرفهم موسى وصايا الله ثم نزلوا وأقام موسى بالجبل أربعين يوماً صائماً. وتقدم الله إليه بالفرائض المكتوبة في لوحين من حجر. ولما استبطأ بنو إسرائيل مجيء موسى قالوا لهرون:قم اعمل لنا إلهاً يمضي أمامنا لأن أخاك ما نعلم ما كان منه. و أحضروه حلي الذهب التي لنسائهم و أولادهم وصاغ منها عجلاً وقال: هذا إلهك يا إسرائيل الذي أخرجك من مصر. ولما عاد موسى وعرف فعلهم غضب غضباً شديداً وضرب باللوحين سفح الجبل وكسرهما وألقى العجل في النار وبرد سبيكته بالمبارد ناعماً وألقاه في البحر وأمر بني إسرائيل أن يشربوا منه جميعهم وقال لبني لاوي: الرب

يأمركم أن يقتل الرجل منكم أخاه ونسيبه. فقتل منهم ثلاثة آلاف رجل.
ثم رقي موسى للجبل مرة ثانية ومعه لوحان آخران من حجر وأقام فيه أربعين يوماً صائماً طاوياً لياليها وعاد نازلاً وبيده اللوحان مكتوباً فيهما العشر وصايا وهي: الرب إلهك واحد.

لا تحنث في يمينك. احفظ يوم السبت. أكرم والديك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تتمن منزل أخيك. لا تتمن قنية رفيقك. وقال الله: ملعون من يشتم والديه. ملعون من يظلم جاره. ملعون من يضل الأعمى عن السبيل. ملعون من يحيف في القضاء على اليتيم والمسكين. ملعون من يضاجع أخته ومن يلامس امرأة أبيه ومن يضرب صاحبه غيلة ومن يرشو في قتل نفس. ملعون من لا يثبت على هذه السنن. فإن أنتم خالفتموها تزرعون ويأكل زرعكم أعداءكم وتنهزمون من غير أن يطردكم أحد وأرسل عليكم الوحوش فتفنيكم ولا تشبعون طعاماً ولا تروون ماءً ولا تقبل لكم صلاة وأخرب أراضكم و أبددكم بين الأمم المبغضة لكم واختس قدركم. وقال الله لموسى: قل لبني إسرائيل يفردون لي ذهباً وفضة ونحاساً وثياب أرجوان وقزاً وإبريسماً ومرعزى وأديماً وخشب شمشار ويعملون لي مسكناً بينهم زمان تقلبهم خارج أرض الميعاد ويكون أخوك هرون وبنوه يلهبون السرج فيه من العشاء إلى الصباح. فعملوا كما أمرهم الله تعالى وسار بنو إسرائيل وموسى أمامهم يعد لهم منزلاً. وتغطرس هرون ومريم على موسى لأجل زوجته الزنجية وقالا: العل موسى وحده كلمه الله فمعنا أيضاً قد تكلم. فقال لهما الله: إن تمت نبوؤتكما فإني سراً أتجلى عليكما وأما موسى فقد ائتمنته على بيتي ومن فم لفم أكلمه. وعند ذلك برصت مريم وابيض جسمها كالثلج. وتضرع موسى إلى الله أن يطهرها. فقال الله: لو أن أباها تفل في وجهها لكان يجب أن تستحي منه فلتنعزل عن الحلة سبعة أيام ثم تدخل. ففعلت وطهرت. فجاء بنو إسرائيل إلى البر المعروف بصين . وماتت هناك مريم أخت موسى وهرون ودفنت حيث توفيت ثم جاءوا إلى جبل هور ومات هناك هرون وولي مكانه ايليعازر ابنه. ولما عبر بنو إسرائيل نهر الأردن قال الله: يا إسرائيل إن عملت بوصايا إلهك بوركت في قريتك بوركت في حقلك بورك ثمار كرومك وولد بعيرك يسلم الله عدوك في يديك ويجيئك عن طريق واحد ويهرب في سبع طرق يبارك الله الأرض التي يعطيك ويجعلك له شعباً مقدساً كوعده لك. وإن خالفت هذه الوصايا تنقلب بركاتك لعنات و يبددك الله في جميع الأمم ويعطيك قلباً فزعاً ووجع العين ورماك بالنيط وتكون مرعوباً بالليل والنهار.
أقول تأمل أيها القارئ كيف جعل الله وعده ووعيده لبني إسرائيل مقصورين على ما يرونه في دنياهم من غير أن يذكر لهم شيئاً من أحوال الآخرة وأمور المعاد وذلك لغلظ طباعهم وقصورهم عن النظر إلى العالم

الروحاني.

ثم أوحى الله إلى موسى قائلاً: ها أنت ماضٍ في طريق آبائك فادع يوشع بن نون تلميذك وأوصه بأن يقوم بتدبير هذا الشعب فإني أعلم أنه يضل بعد موتك ويتخذ الأصنام ويعبدها فيحل غضبي بهم فيلحقهم بؤس وذل. ولست أورثهم أرض الجبابرة المغلة عسلاً ولبناً من قيل ورعهم وصلاحهم لكن لسوء أعمال سكانها قبلهم ولما وعدت به آباءهم إبراهيم واسحق ويعقوب. فلما فرغ موسى مما أوصى به يوشع بن نون خاصة وبني إسرائيل عامة أصعده الله إلى جبل نابو وأراه أرض كنعان وهي أرض الميعاد التي سيورثها لبني إسرائيل. ومات هناك ودفنته الملائكة من غير أن يعرف له قبر إلى آخر الدهر.وكانت سنة مائة وعشرين سنة و لم يضعف بصره و لم تتشنج وجنتاه. ويوشع بن نون امتلأ روح الحكمة بوضع موسى يده عليه وأطاعه بنو إسرائيل. فمن آدم إلى وفاة موسى على الرأي السبعيني ثلاثة آلاف وتسعمائة وإحدى وخمسون سنة وعلى رأي اليهود ألفان وأربعمائة وإحدى وتسعون سنة.

وقيل في زمان موسى صار طوفان ثالث في تاساليا. وانونيوس الحكيم أوجد علم السيميا. وخيرون اخترع الطب. وماينذروس استنبط نوعاً من الشعر يسمى قوموذياً وفيه يذكر الرذائل والأهاجي والقبائح المشتركة بين الناس والبهائم. واستنبط آخر نوعاً آخر من الشعر يسمى طراغوذيا وفيه يذكر الفضائل والمدائح والمراثي المشتركة بين الناس والملائكة. وزعم المعنيون بتعريف طبقات الأمم أنه كان بمصر بعد الطوفان علماء بضروب علوم الفلسفة من الرياضية والطبيعية والإلهية وخاصة بعلم الكيمياء والطلسمات والنيرنجيات والمراءي المحرقة. وتصديق ذلك قول الله في التوراة عن موسى أنه حذق جميع حكم المصريين. وكانت دار الملك والعلم بمصر في قديم الدهر مدينة منف. فلما بنى الاسكندر الإسكندرية رغب الناس في عمارتها لحسن هوائها وطيب مائها وكانت دار العلم والحكمة بمصر إلى أن تغلب عليها المسلمون واختط عمرو بن العاص على نيل مصر المدينة المعروفة بفسطاط عمرو فانسرب العرب والعجم لسكناها فصارت قاعدة مصر.

الدولة الثانية

المنتقلة من الأولياء إلى القضاة

قضاة بني إسرائيل

العبرانيون لمفارزهم باقي الأمم حرموا تعلم الحكمة مقتصرين على علوم الشرائع وسير الأنبياء. فكان أحبارهم أعلم الناس بأخبار الأنبياء وبدو الخليقة ومنهم أخذ ذلك غيرهم. وكانت مساكنهم بلاد الشام وبها كان ملكهم الأول والآخر إلى أن أجلاهم عنها بعد مجيء السيد المسيح حقاً أنكروه طيطوس ابن الملك اسفسيانوس الرومي وفرق ملكهم وبدد جمعهم. فتقطعوا في البلاد أيدي سبا وتفرقوا في أقطارها شذر مذر. فليس في معمور الأرض إلا وفيها منهم في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها إلا ما كان من جزيرة العرب وهي الحجاز ونجد وتهامة واليمن. فإن عمر بن الخطاب أجلاهم عنها. فلما تفرقوا في البلاد ودخلوا الأمم تحركت همم قليل منهم لطلب العلوم النظرية واكتساب الفضائل العقلية فنال أفراد منهم ما شاءوا من فنون الحكمة.

"أيشوع بن نون" خليفة موسى ووصيه دبر بني إسرائيل سبعاً وعشرين سنة وأدخل أولاد الأمة الخارجة من مصر إلى أرض الميعاد دون الآباء كما قال الله لموسى: قل لبني إسرائيل: يا شعب السوء حي أنا إلى الأبد ستضلون ضالين مذبذبين أربعين سنة حتى تقع أجسادكم وتبلى في هذا البر وأولادكم وهم يدخلون أرض الميعاد. وأما أنتم فلا تطأوها سوى كلاب بن يوفنيا وأيشوع بن نون. وقهر أيشوع سبع أمم من الكنعانيين وقتل ملوكهم وأخرب إحدى وثلاثين مدينة وقسم الأرض التي أخذها بين الأسباط وأمرهم أن يهدموا بيوت الأوثان وأن لا يتزوجوا بنساء الأمم الغريبة ولا يأكلوا من ذبائحهم وأن يجتمعوا كل عام إلى بيت المقدس ليقرأ عليهم فينحاس بن اليعازر الكاهن كتاب الله. فخالفوا جميع ذلك وعصوا الله.

فجمعهم أيشوع بن نون في بعض البقاع وظهر لهم ملاك الله في صورة إنسان قائلاً بصوت عالٍ: اسمعوا يا بني إسرائيل قول الله فإنه يقول: أنا ربكم خلصتكم من عبودية المصريين وفلقت لكم البحر و دبرتكم في البر أربعين سنة وأطعمتكم المن والسلوى وأحييتكم عيشاً طيباً. لم يبل لكم لباس و لم يشعث لكم رأس و لم يتسخ لكم ثوب. ثم إني كلمتكم من النار وأنزلت لكم كتاباً وأورثتكم أرضاً تدر اللبن والعسل دروراً. فعصيتموني ونقضتم عهدي ونسيتم آياتي. فباسمي أقسم أن لا أبيد هذه الأمم من بين أيديكم لكن أقرهم بين ظهرانيكم فيكون ذلك سبب بواركم. ولما سمعوا ذلك جلسوا يبكون ولذلك سميت تلك البقعة بقعة البكاء. ثم صرفهم أيشوع إلى منازلهم وتوفي ابن مائة وعشر سنين.

"فينحاس بن اليعازر بن هرون الكاهن" دبر الأمة أربعاً وعشرين سنة على رأي انيانوس. وقال إفريقيانوس: والمشايخ ساسوا ثلاثين سنة. والكتاب الإلهي لم يعين هذه السنين. وفي هذا الزمان زاد بنو إسرائيل في طغيانهم. فقال ملاك الرب لفينحاس: إن هذه الأمة ليست بأهل أن تسمع كلام الله. فاصنع حبّاً من نحاس واجعل فيه خمسة من أسفار التوراة واللوحين وعصا موسى وقضيب هرون الذي أورق وهو يابس وما استبقي من المن تذكاراً وسده برصاص. وعمل فينحاس كما أُمر وحمل الحب وسار الملاك

بين يديه حتى أنزله مغارة في بيت الله الذي بناه سليمان بن داود فانفجرت له صخرة ووضح الحب فيها وأخفى مكانه.

"كوشن الأثيم المتغلب" بعد أن طغى بنو إسرائيل وجاوزوا الحد في العصيان أسلمهم الله في يدي كوشن المارد من الأمم الغريبة فعذبهم وجار عليهم ثمان سنين.
"عثنائيل" لما أجهد كوشن بني إسرائيل استغاثوا إلى الله. فأنشأ لهم رجلاً من سبط يهوذا اسمه عثنائيل ابن أخي كلاب بن يوفنيا فقتل كوشن وولي أمر الأمة أربعين سنة وردهم إلى عبادة الله تعالى ثم مات.
"عجلون" بعد موت عثنائيل بن قيناز طغى بنو إسرائيل وعبدوا الأوثان. فأسلمهم الله في يد عجلون ملك موآب فاستعبدهم ثمان عشرة سنة. ثم ابتهلوا إلى الله. فأنشأ لهم رجلاً من سبط افريم اسمه اهور فقتل عجلون الموآبي أنقذهم من عبوديته.
"اهور بن جارا" هذا كان أعشم قد شلت يمينه واحتال بأن مثل بين يدي عجلون المتغلب وقال له: كلمة الله معي أريد استكتامها. فصرف عجلون كل من كان عنده وقام يدخل إلى خزانة له ليسمعها هناك. فتناول اهور سيفاً صغيراً كان قد شده على فخذه اليمنى بيده اليسرى وضرب به على وسط عجلون فبرز مراق بطنه ومات. وخرج اهور وأغلق الباب عليه ومضى إلى بني إسرائيل وعرفهم الحال. فسروا بذلك وتولى أمرهم اهور اثنتين وستين سنة. ومنهم من قال ثمانين سنة يضيف إليها سني عجلون المتغلب أيضاً.
وفي هذا الزمان بنيت مدينة حلب بأمر بتحوس ملك اثور. وشيدت محكمة اريوس فاغوس بمدينة اثيناس.
وقتل اهور من بني موآب عشرة آلاف رجل.
"شمغر بن عناث" هذا نشأ في أيام اهور وقتل من الفلسطينيين ستين رجلاً بمنخسة الفدان وحكم ثمان عشرة سنة ومات. فطغى بنو إسرائيل بعد وفاته وعبدوا الأوثان. فأسلمهم الله بيدي يابين ملك حاصور من جملة ملوك الكنعانيين.
"يابين ملك حاصور" تغلب على الأمة عشرين سنة وكان لقائد جيشه واسمه سيسرا تسع مائة مركب من حديد تجر كل واحدة منها أربعة أفراس تحمل نفراً من الرجال المقاتلين. وكانت الأمة معه في ضنك شديد. فاستغاثوا إلى الله فأنشأ لهم امرأة نبية اسمها دبورا. فأنقذهم منه.
"دبورا النبية و بارق" لما تولت دبورا النبية وهي من سبط افريم أمر بني إسرائيل أشركت معها في التدبير رجلاً اسمه بارق من سبط نفتالي ووليا الأمر أربعين سنة.
وجيش بارق من بني إسرائيل عشرة آلاف رجل مقاتل والتقى عساكر سيسرا الجمة فانكسر الكنعانيون ونزل سيسرا عن فرسه ملتجئاً إلى امرأة من بني إسرائيل اسمها عنائيل. فعرفته وحوته في مترلها وسقته

عوض الماء الذي طلبه لبناً ودثرته فنام وحيث ثقل في نومه أخذت سكة من حديد وسمرتها في صماخه حتى مات. ثم خرجت إلى باب مترلها فرأت بارق مجداً في طلب سيسرا فقالت له: هلم أريك من تريد. فدخل ورأى سيسرا ملقى ميتاً والسكة في أذنه. ومازال بارق في طلب يابين ملك حاصور حتى ظفر به فقتله.

"المذيانيون" وبعد موت دبورا وبارق توثن بنو إسرائيل كعادتهم وأسلموا في يدي بني مذيان فاستعبدوهم سبع سنين وهرب بنو إسرائيل من شدة ما قاسوا من المذيانيين واتخذوا لهم بيوتاً في الكهوف والمغارات وسكنوها. وصار كلما زرعوا زرعاً صعدت العمالقة والمذيانيون ورعوه و قرفوه و اقحلوا وجه الأرض من كل نبات بكثرة إنعامهم وماشيتهم وأغنامهم.

"جذعون" لما رأى الله ذل بني إسرائيل رحمهم وأرسل ملاكاً إلى رجل اسمه جذعون ابن يواش وأمره أن يتولى خلاص الإسرائيليين. فولي تدبيرهم أربعين سنة وقتل ملوك الأعراب مضطهديهم . وولد له سبعون ولداً ذكوراً. وفي زمانه كان ابولون ملك الزنوج الذي بزمره انخدعت له الصخور أي اطاعته القلوب القاسية.

"ابيملك بن جذعون" الذي ولدت له سريته وولي بعد أبيه ثلث سنين وقتل أخوته التسعة والستين.

"تولع بن فوا" من سبط ايساخر ساس بني إسرائيل عشرين سنة. وفي زمانه بنيت مدينة طرسوس وخربت مدينة ايليون الخراب الذي هو من أعظم الرزايا عند قدماء اليونانيين وقد رثاها اميروس الشاعر في كتابين نقلهما من اليوناني إلى السرياني ثاوفيل المنجم الرهاوي.

"ياثير الجلعدي" ولي تدبير بني إسرائيل اثنتين وعشرين سنة.

"العمونيون" لما طغى بنو إسرائيل في عبادة الأوثان أسلمهم الله في أيدي بني عمون فنكد بهم عيشة الأمة ثمان عشرة سنة.

"يفتاح" هذا قتل ملك بني عمون وهم بنو لوط. وكان قد نذر على نفسه أنه إن ظفر بالعدو وكر منتصراً أول من لمح من ذوي قرابته قربه لله تعالى قرباناً. فلما انتصر وعاد دانياً من مترله أقبلت عليه ابنته العذراء تهنئه بالنصر. فقال لها: كبا كبتني لوجهي يا ابنتي وأنا اليوم اكبيت على وجهي بك. فعلمت ما به واستمهلته شهراً أن تنوح على بكارتها مع أقرانها وترثي على روحها دائرة في الصحاري. فأذن لها في ذلك. وعند تمام المدة ضحى بها ضحية بموجب ذره المكروه. وكان مدة ولايته ست سنين. ومن جعلها أربع وعشرين سنة فإنه يضيف إليها ثماني عشرة سنة التي لولاية العمونيين.

"ابيصان" من أهل بيت لحم حكم سبع سنين وجماعة من المؤرخين لم يتعرضوا لذكر هذا الاسم.

"الون" من سبط زبولون ساس الأمة عشر سنين. وهو غير مذكور في نقل السبعين.
"ابدون بن هليان" حكم ثماني سنين وفي زمانه فارق قوم من ولد عيسو ابن اسحق بن إبراهيم بني إسرائيل وساروا إلى أرض الافرنجة نازلين في بيوت شعر ثم حصلوا تحت يد ملك يسمى لاطين وبعده ملكهم رومالوس الملك الذي بنى مدينة رومية فسمى سكانها روماً ولاطينيين.
"الفلسطينيون" ثم تغلب أهل فلسطين على بني إسرائيل على رأي انيانوس الراهب الإسكندري أربعين سنة. وعلى رأي اندرونيقوس عشرين سنة. وأما اوسابيوس فلم يثبت في الخرونيقون شيئاً من هذه السنين.
"شمشون الجبار المتقشف" حكم عشرين سنة وقهر الفلسطينيين وكان له قوة عجيبة في البطش.
"مشايخ الأمة" حكموا عشرين سنة. وعلى رأي اندرونيقوس عشر سنين. وعلى رأي إفريقيانوس أربعين سنة. هؤلاء هادنوا الأمم التي حواليهم فلم ينصبوا قائد جيش وكان لهم عنه غنى.
"عالي الكاهن" حكم على الرأي السبعيني عشرين سنة وعلى رأي اليهود أربعين سنة.
"شموايل النبي" نذره أبوه لله وهو ابن سنتين فلما ترعرع أتاه الوحي وخدم على الكاهن في هيكل الرب من سن الطفولة إلى أن توفي عالي الكاهن فولي هو أمر بني إسرائيل عشرين سنة.

الدولة الثالثة

المنتقلة من قضاة بني إسرائيل إلى ملوكهم

لما بلغ شموايل النبي من العمر سبعاً وسبعين سنة قال له بنو إسرائيل: انصب لنا ملكاً منا كسائر الأمم. فعلم الله بذلك فأوحى إليه قائلاً: إن بني إسرائيل لم يعصوك أنت لكن إياي عصوا فأخبرهم إني إن نصبت لهم ملكاً استعبدهم وجعل عليهم رؤوس ألوف ومئين ويحرثوا حرثه ويحصدوا حصاده ويعملوا أدوات قتاله ومراكبه. ويتسخر بناتهم كساحات وطحانات وخبازات ويختلس مزارعهم وكرومهم ويعطيها لعبيده ويعشر أموالهم وأغنامهم ودوابهم فيستغيثون منه إلي فلا أجيبهم يومئذٍ. فأعلمهم شموايل بجميع ذلك فلم يقبلوا منه ولكن ألحوا عليه قائلين: لا بد لنا من ملك يسوسنا. فقال الله: سوف أملك عليهم ملكاً.
"شاول" من سبط بنيامين وتسميه العرب طالوت كان شاباً لم يكن في بني إسرائيل أتم منه خلقة.

فضلت أتن لأبيه قيش فخرج مع غلام له طائفين عليها وانتهيا إلى القرية التي فيها شموايل النبي. وقال

الغلام لشاول: ههنا رجل عظيم نذهب إليه لعله يدلنا على الأتن. وعندما هما بذلك خرج إليهم شموايل فقالا له: دلنا على بيت النظار. لأن في ذلك الزمان كانت تسمى الأنبياء نظارة. فقال لهما: أنا النظار أدخلا إلى مترلي وكلا معي طعاماً وأنبئكما عن بغيتكما. فلما دخلا معه البيت قال لهما: لا تهتما بأمر الأتن فقد وجدت و لم تكن لذة بني إسرائيل إلا لك يا شاول ولآل أبيك. فقال لهما شاول مستعفياً: قبيلتي أقل سبط بنيامين. وأخذ شموايل قرن الدهن وأفاضه على رأس شاول قائلاً: إن الله اصطفاك لتكون ملكاً لميراثه. وسيلقاك في مضيك زمرة من الأنبياء ويتنبأون وتتنبأ معهم. فمضى شاول حتى لقي الأنبياء وبين أيديهم صنوج ودفوف فنزل عليه روح الرب وتنبأ معهم. فقال الناس: وشاول أيضاً من الأنبياء. وصار ذلك مثلاً سائراً بينهم. وبعد قليل أقبل ملك العمونيين وهو منوط بجيوش عظيمة طالباً قتال بني إسرائيل. فأرسلوا إليه قائلين: صالحنا على ما نؤديه إليك وتنصرف عنا. فقال لهم: أصالحكم على أن يفقأ كل رجل منكم عينه اليمنى. فسمع ذلك شاول واشتد غضبه وجمع من بني إسرائيل ثلاثمائة ألف مقاتل ومن بني يهوذا ثلاثين ألف مقاتل وسار نحو العمونيين وقاتلهم وهزمهم وحينئذ أذعن له بنو إسرائيل بالملك. ثم قال له شموايل: ربك يقول لك أن تقاتل العمالقة وتبيدهم وتقتل رجالهم ونساءهم وولدانهم وماشيتهم. فسار شاول نحو العمالقة وأبادهم وأسر ملكهم و لم يقتله وأبقى أيضاً نقاوة ماشيتهم. فأوحى الله إلى شموايل يقول له: إني قد رذلت شاول لمخالفته إياي. فاشتد ذلك على شموايل وقال لشاول: ما لي أسمع ثغاء الغنم وخوار البقر. فأجابه شاول قائلاً: إن بني إسرائيل أقبلوا بها ليذبحوها لله ربك. فقال له شموايل: أو لم تعلم أن الله لا يرضى بالذبائح كمرضاته عمن يطيع أمره قد أسخطت ربك رذلك من الملك بمعصيتك له. فقال شاول: استغفر الله فقد أخطأت وأريد أن ترجع معي حتى أسجد له وأتوب إليه. فأبى عليه شموايل وجلس حزيناً. فأوحى الله إليه: حتام تحزن على شاول قم وانطلق إلى شخص اسمه ايشي من قرية بيت لحم فقد ارتضيت من بنيه ملكاً. فمضى إليه شموايل وقال له: أريد أن أمسح أحد أولادك ملكاً. فقال له ايشي: أنى لي بذلك. وأحضر ابنه الكبير فأعجبه حسنه. فأوحى الله إليه أن نظري ليس كنظر البشر فأعرض عنه. ووقف شموايل حتى عرض عليه سبعة من بنيه. فلم يفض القرن على أحدهم. فقال لايشي: هل بقي من بنيك أحد. قال له: بقي غلام هو أصغرهم سناً يرعى الغنم. فقال: ائتني به. فأحضره ايشي و أفاض عليه القرن ومسحه ملكاً ومضى إلى مترله.

وفي تلك الأيام ظهر علج من الفلسطينيين اسمه جولياذ والعرب تسميه جالوت وكان يسب بني إسرائيل ويستهين بهم. فدنا منه داود قائلاً: أنت أتيتني بالسيف والدرقة وأنا أتيتك باسم الرب الذي عيرت صفوفه. وتناول داود حجراً من خريطته فوضعه في مقلاعه ثم رماه فغيبة في جبهة العلج فوقع إلى وجهه

فسل داود سيفه وقطع به رأسه. وأتى بداود إلى شاول فقال له: من أنت يا غلام. قال: ابن عبدك ايشي من بيت لحم. وكان شاول قد أصابه ريح سوء فقيل له: ليكن عندك إنسان جيد الضرب بالصنج ذي الأوتار ليلهيك عما بك. ووصف له داود إنه ماهر في ذلك. فطلبه من أبيه وكان يلهيه. وكانت بنات إسرائيل بعد قتل داود جولياذ يغنين ويفرحن ويقلن: قتل شاول ألوفاً وداود عشرات ألوف. فحسد شاول داود. وزج يوماً برمح لطيف كان عنده بيده نحوه. فارتاع لذلك داود. فخافه شاول ورأسه على ألف رجل. وقال يوماً: من أتاني بغرلة مائتي فلسطيني زوجته ابنتي ملكيل. فخرج داود وقتل منهم مائتي رجل وأتاه بغرلهم فزوجه إياها فأحبت داود حباً شديداً وكذلك أخوها يوناثان وجميع بني إسرائيل. وحذر يوناثان داود من أبيه وهربه إلى بعض الجبال. وخرج شاول في طلبه حتى أتى مع أصحابه إلى مغارة في ذلك الجبل وباتوا فيها. فسار داود ليلاً وأتى إلى المغارة وصادف شاول نائماً فقطع قطعة من ردائه ورجع إلى أصحابه. ولما أصبح النهار وخرج شاول من المغارة ناداه داود وقبل الأرض بين يديه وقال له: لا تسمع فيَّ سيدي قول واشٍ فقد أسلمك الله في يدي اليوم و لم يدنك مني سوء وهذا طرف ردائك معي. قال له شاول: جزاك الله خيراً. إنك ستملك. فاحلف لي انك لا تهلك ذريتي. فحلف له. ومضى شاول إلى مترله. ومات شموايل النبي. وخرج شاول في طلب داود مرة ثانية ونام في بعض الطريق ليلاً مع أصحابه فأتاه داود وهو نائم ورام أصحاب داود قتله فمنعهم قائلاً: لا يحل لأحد أن يمد يده إلى مسيح الرب اتركوه ليومه. ثم أخذ رمحه وكوز الماء وانطلق. فعلم ذلك شاول وقال: أخطأت في طلبك يا داود ولست بعائد. وقاتل الفلسطينيون بني إسرائيل وقتل يوناثان وأخوته وهرب شاول وخاف أن يدركوه فتحامل على سيفه حتى خرج من ظهره وأدركه القوم فقطعوا رأسه وأنفذوه إلى بيوت أصنامهم وصلبوا جسده على سور مدينتهم. وجاء شخص من بني إسرائيل وادعى انه قتل شاول. فقال له داود: كيف طاوعتك نفسك أن تقتل مسيح الله فقتله. وناح داود وأصحابه على شاول ويوناثان ابنه ورثاهما قائلاً: إن حجفة شاول مصبوغة بدم القتلى وقوس يوناثان لم تكن تنثني إلى ورائها وحربة شاول لم تكن تنثني. لقد كان أخف من النسور سيراً وأشجع من الأسد بطشاً. يا بنات إسرائيل ابكينا شاول الذي كان يكسوكن الأرجوان والبهرمان. وكانت مدة ملكه على رأي اوسابيوس أربعين سنة وعلى رأي انيانوس عشرين سنة.

"داود بن ايشي" لما قتل شاول استقام داود في ملكه وقال لناثان النبي يومئذ: أنا ساكن في بيوت الأرز وسكينة الرب"يعني مسكن الزمان" في الخيم. أفلا أبني له بيتاً. فأوحى الله إلى ناثان النبي وقال له: قل لعبدي داود: لا تبني لي بيتاً لأن ابنك الذي أقيمه مكانك هو الذي يبني بيتاً على اسمي. ثم تقدم داود إلى

يوآب قائد جيشه ليحصي عدد مقاتلة بني إسرائيل. فغاب يوآب عنه في مدن بني إسرائيل وقراهم تسعة أشهر وعشرين يوماً. ثم أتاه وقال له: وجدت عدة مقاتلة بني إسرائيل ثمانمائة ألف رجل وبني يهوذا خمسمائة ألف نفس. فأوحى الله إلى جاد النبي قائلاً: قل لداود: قد رأيت الغلبة بكثرة جيوشك و لم تعلم إني الناصر. فها أنا مبتليك عن ذلك بإحدى ثلث. فاختر واحدة منهن إما قحط سبع سنين وإما استيلاء عدو ثلاثة أشهر وإما موتا ثلاثة أيام. فقال داود: أن تكون يد الله مؤدبتنا خير لنا. فاختار الموت. فمات من الصبح إلى ثلث ساعات من النهار سبعون ألفاً من رجال بني إسرائيل. فقال داود: إلهي وسيدي إن كنت قد أخطأت فما ذنب هذه الغنم. أحلل عقوبتك بي وببيت أبي. فرفع الله الموت عنهم. وأتاه مع الملك النبوءة وتلا الزبور وانتخب من سبط لاوي ثمان وثمانين ومائتي شيخ يرتلون المزامير ترتيلاً كل أسبوع أربعة وعشرون منهم اثنا عشر في صف واثنا عشر في آخر.ثم أن داود كبر وبردت حرارة جسمه فطلبوا له فتاة عذراء اسمها ابيشاع الشيلومية، فكانت تحتضنه وتدفئه ليلاً. ولما حضرت وفاته عهد إلى سليمان ابنه وملكه في حياته وقال له:تشجع وتقو وكن رجلاً واحفظ نواميس ربك وصدق قول الله الذي قال لي: إن حفظ بنوك وصاياي لا يزال رجل من نسلك يجلس على كرسيك إلى انقضاء العالم. وكان عمر داود حين ملك ثلاثين سنة وعاش في الملك أربعين سنة وتزوج ثلث نسوة سوى امرأة اوريا أم سليمان وكان له سبعة عشر ولداً. ومات ودفن في أورشليم.

وفي سنة ثمان وعشرون من ملك داود بنيت مدينة افسوس ومدينة ساموس. وفي زمانه كان امبيذقليس الحكيم أحد الأساطين الخمسة أعنيه وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وارسطوطاليس. وهو أول من نفى الصفات عن ذات الباري تعالى قائلاً: ذاته وجوده ووجوده ذاته وإما حياته وحكمته فمعنيان إضافيان لا يوجبان اختلافاً في الذات. وله كتاب في بطلان المعاد الروحاني فضلاً عن الجسماني. وقد انتحل مذهبه سليمان بن داود في كتابه الذي يسمى فيه نفسه قوهلاث أي الجامع الذي ذهب فيه مذهب الدهرية واعلم أنه قد يوجد فيما يفتش عنه من الكتب اختلاف كثير في تواريخ سني الفلاسفة. فذكر في بعضها أن ثاليس الملطي هو أول من تفلسف من اليونانيين وإن الشعر ظهر في أمة يونان قيل الفلسفة بمائتين من السنين و أبدعه اوميروس. وذكر كيريلوس في كتابه الذي رد فيه على يوليانوس فيما ناقض به الإنجيل إن كون ثاليس قبل ابتداء ملك بختنصر يثمان وعشرين سنة. وقال فرفوريوس: أن ثاليس ظهر بعد بختنصر بمائة سنة وثلث وعشرين سنة. وقال آخر: إن أول من تفلسف فيثاغورس. وقال بعض الإسلاميين: إن أول من وصف بالحكمة كان لقمان وكان في زمان داود النبي ومنه اخذ امبيذوقليس. ولأن غرضنا هاهنا ليس تحقيق سني الفلاسفة ولكن ذكر بعض أحوالهم المتشبهة بما يحمد من سيرهم والتذاذ النفس بسماع بعض نكتهم التي جمعت إلى الحكمة الفكاهة وإلى الفائدة المؤانسة وإلى الجد المهازلة وإلى الوقار التبسم

وهي أنفاس تهادت بين نفوس كريمة وسحاب درت من عقول شريفة فلا علينا أكانت الأزمنة التي أورد فيها ذكرهم هي أزمنتهم بأعيانها أو لم تكن. والذي أثبتناه ههنا من أوقات هذه الفلاسفة المتقدمين هو ما نقلناه من كتابي اوسابيوس واندرونيقوس المؤرخين لما رأيناه من موافقة أفضل المجتهدين يعقوب الرهاوي المبرز في اللغات الثلث العبرانية واليونانية والسريانية.

"سليمان بن داود" ولي الملك وهو ابن اثنتي عشرة سنة وعند ذلك أوحى الله إليه في المنام وقال له: سلني ما أحببت حتى أعطيكه. فقال سليمان: يا ربي قوتي تعجز عن التدبير ولا علم لي بالقضاء بين شعبك فامنحني قلباً فهماً وعقلاً رزيناً. فقال له: سأعطيك ما لم يكن لأحد من الملوك. وإن سلكت سبيلي أطلت عمرك ولا أزلت الملك عن بنيك. فأصبح سليمان مسروراً. وجلس على كرسي الملك فأتته امرأتان تختصمان إليه في صبي تدعي كل واحدة منهما أنه ولدها. فقال سليمان لسيافه: اقطع الصبي بنصفين وأعط لكل واحدة نصفه. فقالت الواحدة: نعم حتى لا يكون لي ولا لها. وقالت الأخرى: ادفعه إليها أيها الملك ولا تقتله. فعلم سليمان أنه ابنها فدفعه إليها. فرأى بنو إسرائيل ذلك وتحققوا أن الله قد آتى سليمان حكمة وعلماً. وخضع الملوك له وهادنوه. وكان ارتفاع مملكته التي هي أربعمائة فرسخ في مثلها في عام ستمائة ألف وستمائة وستين قنطاراً ذهباً سوى الهدايا وأرباع المتاجر. والقنطار وهو الككر على ما في التوراة ثلاثة آلاف مثقال بمثاقيل القدس كل مثقال خمسة مثاقيل بمثقالنا. وكان ما يحتاج إليه سليمان لمائدته في كل يوم من الدقيق مائة كر. ومن الثيران ثلاثين رأساً. ومن الغنم مائة رأس. سوى الظباء والأيائل وأنواع الطيور. وكان له سبعمائة زوجة من الحرائر وثلاثمائة جارية من السراري وأربعون ألف رأس من الخيل. وفي رابع سنة لملكه شرع في بنيان بيت المقدس وهو المعروف بالمسجد الأقصى في جبل الاموريين في اندراران اليبوسي وطوله ستون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وعلوه ثلاثون ذراعاً. وتممه في سبع سنين. وفي سنة أربع وعشرين من ملكه خرب مدينة إنطاكية وبنى سبع مدن من جملتها تذمر.

ولما شيد سليمان بيت الرب شكر الله ودعا لبني إسرائيل بالبركة وجثا على ركبتيه وبسط يديه إلى السماء وقال: اللهم إله إسرائيل ليس مثلك في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى قد وفيت لعبدك داود بالوعد الذي وعدته فأسألك إنه إن أثم بنو إسرائيل وانهزموا من أعدائهم ودعوك في هذا البيت فاستجب لهم واغفر خطاياهم وانصرهم على أعدائهم. وإذا أثموا فاحتبس عنهم المطر فأتوا هذا البيت فاهطل لهم مطراً وارو أرضهم بغيثك. وإذا كان في الأرض جوع أو جراد أو موت أو مرض واستغاثوا إليك فاستجب لهم. وإذا أتى أحد الأمم الغريبة إلى هذا البيت ودعاك فاستجب له لتعلم شعوب الأرض

أنك أنت الله وحدك فيخافوك.
ثم قرب قرابين من الذبائح اثنين وعشرين ألف ثور ومائة وعشرين ألف رأس غنم وجعل ذلك عيداً لله سبعة أيام. فكان الملوك يقصدونه ليسمعوا حكمته ويأتونه بالهدايا النفيسة من الذهب والفضة والجواهر والثياب والطيب والسلاح والخيل. واتته ملكة التيمن وقدمت له مائة وعشرين قنطاراً من الذهب وطيباً وجواهر ثمينة وقالت له: يا سليمان لقد زاد خبرك على خبرك. طوبى نسائك طوبى عبيدك السامعين حكمتك. يكون الرب إلهك مباركاً. و أعطاها سليمان من جميع الألطاف أحسنها وعادت إلى بلدها.
و لسليمان كتاب في الغزل ومراودة النساء يسمى شيرث شيرين أي مدحة المدائح ظاهره ينبئ انه يغازل فيه ابنة فرعون السمراء وتغازله. والعلماء منا أولوه فقالوا أن العاشقة النفس الناطقة التي حال حسنها بالشوائب البدنية ومعشوقها باريها المعشوق لذاته من ذاته ومن المبتهجين به. وله أيضاً كتاب الأمثال في الحكمة العملية ناهيك من كتاب. ومات سليمان ودفن في تربة أبيه داود.
"رحبعم بن سليمان" لم يخلف سليمان ولداً سوى هذا رحبعم. فأجلسه بنو إسرائيل مكان أبيه في الملك وقالوا له: إن أباك جفا علينا في المعاملة فخفف أنت عنا. فأجابهم بعد ثلاثة أيام شاور فيها أقرانه قائلاً: إن خنصري أغلظ من إبهام أبي وإن كان أبي أدبكم بالقضبان فأنا أعاقبكم بالسياط. فقال بنو إسرائيل: لا سهم لنا مع بيت داود ولا قسمة لنا مع آل ايشي عليكم بمنازلكم يا بني إسرائيل. فمضى كل إنسان إلى بيته. وانفذ رحبعم رسوله إلى قرى بني إسرائيل يستعطفهم فرجموه بالحجارة ومات.

وكان لسليمان غلام شجاع نجيب اسمه يوربعام بن ناباط فملكته العشرة الأسباط عليهم بأرض السامرة. وبقي لرحبعم بن سليمان سبطا يهوذا و بنيامين وجعل كرسي مملكته بأورشليم. فحاول يوربعام تزهيد بني إسرائيل عن زيارة بيت المقدس واتخذ عجلين من ذهب ونصبهما بمدينة دان وهي بانياس وقال لهم: اغتنموا قرب الطريق وترك الكلفة في السفر إلى أورشليم فهذان إلا هاك يا إسرائيل اللذان أخرجاك من مصر. فأرسل الله نبياً اسمه شمعي إلى يوربعام. فسار إليه وصادفه يبخر قدام عجليه بخوراً. فحلت روح الله على النبي وقال: أيها المذبح أنصت لقول الرب. سيولد لآل داود ابن اسمه يوشيا يذبح عليك كهنتك ويحرق عظام قوامك عليك. وآية ذلك أنك تنصدع الآن ويترل الرماد عنك. فصار كما قال.
وأما رحبعم بن سليمان فإنه ملك على السبطين سبع عشرة سنة وفعل كل قبيح وفي السنة الخامسة من ملكه صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وسلب جميع الآلات وترسة الذهب التي عملها سليمان لبيت الرب. وصاغ رحبعم عوضها نحاساً. ومات رحبعم ودفن في تربة بيت داود.
"ابيا بن رحبعم" في السنة الأولى لجلوسه حاربه يوربعام ابن ناباط ملك العشرة الأسباط بثمانين ألفاً من

الجند. و لاقاه بأربعة آلاف وهزمه. وهلك من بني إسرائيل الذين مع يوربعام في ذلك اليوم خمسون ألفاً من المقاتلة. وكان لأبيا أربع عشرة زوجة وولد له ستة وعشرون ولداً ذكراً وست عشرة بنتاً. وملك ثلث سنين ومات. وكان يتنبأ في زمانه احيا وشمعيا النبيان.

"آسا بن آبيا" ملك إحدى وأربعين سنة. وكان جميل الطريقة. وفي السنة الثانية لملكه مرض يوربعام بن ناباط ملك العشرة الأسباط ومات بعد أن ملك اثنتين وعشرين سنة. وولى بعده ناداب ابنه مدة سنتين. ثم انتقل ملك الأسباط إلى رجل من سبط ايساخر اسمه بعشا بن احيا وملك أربعاً وعشرين سنة. وفي السنة العاشرة لملك آسا ملك السبطين حاربه زرح ملك الزنوج بألف ألف وستمائة ألف رجل من البربر والحبشة والنوبة. فالتقاه آسا بفلاة جادر وهزمه. وبعد خمس سنين احرق الأصنام وخلع أمه الوثنية من الملك ونفى كل زان وزانية من أرضه.

"يوشافاط بن آسا" ملك خمساً وعشرين سنة على السبطين. وفي زمانه مات بعشا ملك الأسباط العشرة وملك بعده آلا ابنه سنتين ثم اغتاله زمري عبده وقائد جيشه وقتله وملك بعده سبعة أيام. ولما رأى مثاورة بني إسرائيل به طالبين ثأر ملكهم أضرم النار في داره واحرقها ونفسه وذريته. وملك بعده عمري وبنى بالشام مدينة عمورية. ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة ومات. وملك بعده أحاب ابنه ثلاثة وعشرين سنة وتزوج امرأة وثنية اسمها إيزبيل ابنة ملك صور. وجدد بناء مدينة أريحا التي لعنها ايشوع ابن نون. ووبخه اليَّا النبي لعبادة الأصنام وهرب إلى البادية وكان الغراب يجيئه بالقوت. وامتنع المطر بدعائه ثلث سنين ونصف. وانزل النار من السماء أحرقت مائة نفس في مرتين. ثم دعا إلى الله ونزل المطر و أروى الأرض.وهرب من شر إيزبيل امرأة أحاب إلى القفر وصام أربعين يوماً بلياليها. ومضى بعد ذلك مع تلميذه اليشع وشق نهر الأردن وجاز في قعره. وارتفع في السحاب ومضى حياً إلى حيث شاء الله تعالى. وفي هذا الزمان كان من أنبياء الحق اليا وتلميذه اليشع وعوبذيا وابيهوذ وعوزيل وميخا بن يمشي. ومن الكذابين صدقيا واليعازر مع أربعمائة أخر. ومات أحاب وملك بعده احاز ابنه سنة واحدة. ووقع من روشن دار له ومات. وملك بعده يورم أخيه اثنتي عشرة سنة.

"يورم بن يوشافاط" ملك ثماني سنين. وتزوج أخت أحاب ملك العشرة الأسباط اسمها عثليا وقتل اخوته كلهم. فنزلت عليه البلوى ومات مبطوناً.

"احزيا بن يورم" ملك سنة واحدة. وفي زمانه انتقل ملك العشرة الأسباط من بيت أحاب إلى رجل اسمه ياهو بن نمشي. هذا قتل يورم بن أحاب وجميع أهل بيته مع إيزبيل امرأته مدحضاً أثرهم.

"عثليا أم احازيا" ملكت سبع سنين. هذه أباحت الزنا للرجال والنساء متظاهرين في مدينة القدس وأبادت ذرية المملكة لتستبد وحدها بها ولا يبقى من ينافسها عليها. و لم ينج سوى يواش حفيدها أي ابن

احزيا ابنها الذي سرقته عمته يوشبع امرأة يوياذع رئيس الكهنة وربته سراً.

"يواش بن احزيا" ملك أربعين سنة. ولي الملك وله يومئذ سبع سنين وذلك لأن يوياذع رئيس الكهنة قتل عثليا الباغية جدته وقلده الملك. و لم يعترف له بجميله لكنه بعد وفاة يوياذع قتل جميع أولاده. ثم اغتاله مماليكه. ومات أيضاً ياهو بن نمشي ملك العشرة أسباط وكان مدة ملكه ثماني وعشرين سنة. وملك بعده ياهو احاز ابنه سبع عشرة سنة ومات. وملك بعده يهواش ابنه ثلث عشرة سنة. وفي سنة ست وثلاثين ليواش بن احزيا توفي اليشع النبي. وكان يتنبأ زخريا النبي.

"اموصيا بن يواش" ملك تسعاً وعشرين سنة. هذا أباد جميع أعداء أبيه الاذوميين وأهل ساعير ونقل آلهتهم إلى أورشليم وعبدها. وغزاه يهواش ملك العشرة الأسباط وثلم في سور أورشليم ثلمة قدرها أربعمائة ذراع ودخلها وسلب مال هيكل الله ودار الملك وعاد إلى شمرين. وقتل اموصيا في الحرب. ومات يهواش وملك بعده يوربعام ابنه إحدى وأربعين سنة.

"عوزيا بن اموصيا" ملك اثنتي وخمسين سنة وفي أيامه كان يونس بن متى المبعوث إلى نينوا. وفي سنة أربع وعشرين من ملكه تعدى طوره ودخل محراب البخور في هيكل الله ليعمل أعمال الكهنة. فبرص جسده كله دفعة و لم يطهر حتى مات. ولما لم ينهه أشعيا النبي ارتفع عنه الوحي ثماني وعشرين سنة حتى مات عوزيا ثم ردت عليه النبوة إحدى وستين سنة أخرى وكان قد تنبأ قبل أربع وعشرين سنة. وفي سنة ثماني وأربعين لملك عوزيا أغار ثغلثفلسر ملك اثور على أورشليم وجميع أرض بني إسرائيل وجلا منهم كثيرين. وفي سنة تسع وعشرين لعوزيا مات يوربعام ملك العشرة الأسباط وملك بعده زخريا ابنه ستة أشهر. وقتله رجل اسمه شالوم وملك بعده شهراً واحداً. ثم قتله رجل اسمه محنيم وملك بعده عشر سنين ومات. وجلس مكانه فقحيا ابنه سنتين ثم قتله فقاح بن روموليا وجلس مكانه عشرين سنة. قال فرفوريوس المؤرخ إن اوميروس الشاعر وايسيدوس في هذا الزمان كانا.

"يوثم بن عوزيا" ولي الملك ست عشرة سنة وسلك السبيل المستقيم قدام ربه ورمم أورشليم وقهر العمونيين وأخذ الجزية.

وفي هذا الزمان كان اوميروس الشاعر على ما نقل عن فرفوريوس. هذا عانى الصناعة الشعرية من أنواع المنطق أجادها وهو معدود في زمرة الحكماء لعلو مرتبته. وقد وضع كتابين في الحروب التي جرت بين اليونانيين على مدينة ايليون ونسختاهما موجودتان عندنا بالسريانية وهما مشحونتان بالألغاز والرموز. وقيل إن انلينيا الماجن جاءه فقال له: اهجني لافتخر بهجائك إذ لم أكن أهلاً لمديحك. فقال له: لست فاعلاً ذلك أبداً قال: فإني أمضي إلى رؤساء اليونانيين فأشعرهم بنكولك. قال اوميروس مرتجلاً: بلغنا أن

كلباً حاول قتال أسد بجزيرة قبرص. فامتنع عليه أنفة. فقال له الكلب: إنني أمضي إلى السباع فأشعرهم بضعفك. قال له الأسد: لأن تعيرني السباع بالنكول عن مبارزتك أحب إلي من أن ألوث شاربي بدمك.
"احاز بن يوثم" ملك ست عشرة سنة وأساء السيرة وقرب الذبائح للجن. حاربه فقاح بن روموليا مستنجداً برصبان ملك الشام وأهلك من آل يهوذا مائة وعشرين ألفاً. ومات فقاح وملك بعده هوشع بن آلا تسع سنين. وفي سنة ثماني لملك احاز غزاه شلمانعسر ملك بابل. وكتب احاز نفسه عبداً له. وأخذ جميع ما وجد في بيت الرب والملك من الذهب والفضة والآنية. وحاصر مدينة شمرين ثلث سنين وفتحها وقتل هوشع وسبى العشرة الأسباط وفرقهم في جبال اثور وأراضي بابل وبلاد الفرس. ومن أفلت من هذا السبي انضاف إلى ملك السبطين يهوذا وبنيامين وبطل بذلك ملك العشرة الأسباط. وفي هذا الزمان عمرت جزيرة رودس وبقيت ألفاً وأربعمائة وخمس سنين إلى أن أخربها المسلمون. وبنيت في بلد فونطوس مدينة طرابيز ونطا.

وفي هذا الزمان اشتهر في الفلسفة ثاليس الملطي على ما ذكره اوسابيوس القيصري في تاريخه المسمى خرونيقون. وقيل هو أول يوناني صار إلى أرض مصر وأخذ الحكمة من القبط ثم رجع إلى ملطية. وكان أول ما اظهر لقومه من الحكمة أنه أنذرهم بكسوف الشمس أنه سيقع في ساعة معينة من نهار معين. فلما صح حكمه مثل عندهم واستطرفوا إنذاره وتلمذ له جماعة منهم. والقبط أخذوا الحكمة من الكلدانيين. و لم يكن لليونانيين قبل ثاليس شيء من الحكمة وإنما كانت حالهم كحال العرب لم يعرفوا غير علم اللغة وتأليف الأشعار والأمثال والخطب. وقيل أول من قال بالاطوماطون هو ثاليس أي أن الوجود لا موجد له واحتج بما شاهد في هذا العالم من الشرور. وهكذا يعتقد أهل الهند. وبعد ثاليس اشتهر في العلوم الرياضية خاصة ابولونيوس النجار وله كتاب المخروطات المؤلف في علم أحوال الخطوط التي ليست بمستقيمة ولا مقوسة بل منحنية. أخرج منه إلى العربية في زمان المأمون سبع مقالات. ومقدمته تدل على أنه ثماني مقالات. وهذا الكتاب مع كتاب آخر من تصنيف ابولونيوس كانا السبب في تصنيف اوقليدس كتابه بعد زمان طويل. وأما اوقليدس النجار فهو من مدينة صور له يد طولى في علم الهندسة. وكتابه المعروف باسطوخيا أي الأركان كتاب جليل القدر عظيم النفع لم يكن لليونان كتاب جامع في هذا الشأن ولا جاء بعده إلا من دار حوله وقال قوله وما في القوم إلا من سلم إلى فضله وشهد بغزير نيله. وله في هذا النوع أيضاً كتاب المفروضات وكتاب المناظر وكتاب تأليف اللحون وغير ذلك. ومن مشاهير الرياضيين ارشيميديس هو يوناني أخذ الحكمة من المصريين. وقيل أن الذي أردم أراضي أكثر قرى مصر وأسس الجسورة المتوصل بها من قرية إلى قرية في زيادة النيل ارشيميديس. وله مصنفات عدة مثل كتاب

الكرة والاسطوانة والمسبع في الدائرة. وقيل أن الروم أحرقت من كتبه خمسة عشر حملاً. وبعده عرف منالاوس المتصدر لإفادة العلوم الرياضية. وله كتاب معرفة تمييز الأجرام المختلطة.

"حزقيا بن احاز" ملك تسعاً وعشرين سنة وأطاع الله وأزال الأصنام. فظفره الله بأعدائه تظفيراً. وفي السنة الرابعة من ملكه صعد شلمانعسر ملك بابل إلى أرض السامرة مرة ثانية وسبى جميع من تبقى من العشرة الأسباط. وفي السنة الثامنة من ملكه أنفذ شلمانعسر قوماً من الاثوريين إلى أرض شمرين ليحرثوها فكانت تخرج عليهم السباع وتقتلهم. فقيل لشلمانعسر: إنما ابتلوا بذلك لأنهم لا يعرفون سنَّة إله تلك الأرض. فأرسل إليهم عوزيا الكاهن ليعلمهم التوراة. فلما تعلموها وعملوا بسنتها أمسكت السباع عن الإضرار بهم. ومن ذلك الزمان صار السمرة لا يقبلون من الكتب الإلهية سوى التوراة. وفي السنة العاشرة من ملك حزقيا غزا سنحاريب ملك اثور ديار القدس وبصلاة حزقيا خلصت أورشليم. ومرض حزقيا ليموت فبكى بكاءً شديداً وناح قائلاً: إن البركة التي جعلها الله في ذرية داود انقطعت مني وعندي تنقضي سلالة ملك ابن ايشي. فزاد الله في حياته خمس عشرة سنة. وولد له ابن فسماه مناشا. وعلى هذا الولد تحمل اليهود نبوءة اشعيا النبي حيث يقول: هو ذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعى اسماً عمنوئيل. قالوا وإنما سمى النبي امرأة حزقيا عذراء لصدور النبوة قبل أن يماسها بعلها. وكان سنحاريب عند نزوله يرسل إلى حزقيا فيقول له: لا تغتر بربك فسأهلكك. فذعر منه حزقيا وانفذ إلى اشعيا النبي يقول له: هذا يوم بلاء فادع إلى ربك. فأوحى الله إلى اشعيا قائلاً: قل لحزقيا: لا تخف من سنحاريب فإني راده في الطريق الذي جاء فيه. وبعث الله ملاكاً فقتل في معسكر سنحاريب مائة ألف وخمسة وثمانين ألفاً من الجند. فعاد منهزماً إلى اثور وهنالك قتله ابناه وهو ساجد في بيت صنمه. ويقال أن هذا سنحاريب جدد عمارة مدينة طرسوس. وعمل حزقيا بحيرة ماء خارج أورشليم وأدخل إليها الماء بالقناة وحفر لها خندقاً. وكان حزقيا لما أتاه رسول سنحاريب أطلعه على جميع ما في بيته. فغضب الله لذلك وقال له: إن جميع ما رأى الاثوريون في بيتك يكون لملك بابل وستكون بنوك خصياناً له. فقال حزقيا: ليت أمناً كان في أيامي. وفي زمانه كان طوبيث الصديق من جالية بني إسرائيل قاطناً بنينوا. وقصة مناولة ملاك الرب إياه مرارة داوى بها عينه وبرئه من عماه مذكورة في كتابه.

"منشا بن حزقيا" ملك خمساً وخمسين سنة واجتمع له ملك الأسباط الاثني عشر بعد سبي شلمانعسر. وارتكب كل محظور ومحرم وعمل صنماً ذا أربعة أوجه وأمر بالسجود له. ونشر اشعيا النبي ناهيه عن المنكر بمنشار مشدوداً بين دفتين. وكان عمر اشعيا مائة وعشرين سنة منها في النبوءة خمس وثمانون سنة. فرذل الله مناشا وأسلمه إلى الاثوريين فأسروه وأخذوه مسلسلاً إلى أثور وسجنوه في برج النحاس بمدينة

نينوا. وعند ذلك تاب إلى الله ودعا دعاءه المشهور. فتاب الله عليه ورده إلى ملكه. وحال وصوله إلى أورشليم أخرج الصنم ذا الوجوه الأربعة من الهيكل وطهره وبنى سور أورشليم الجنوبي.

وفي سنة إحدى وعشرين لملك مناشا بنيت مدينة خلقذونيا. والصقالبة ملكوا إلى أرض فلسطين. وولي مدينة رومية الكبرى اوسطيليوس وهو أول من اختص بالحلى الأرجوانية والقضيب السلطاني. وبنى بوزوس مدينة بوزنطيا. وبعد تسعمائة وسبعين سنة عظمها قوسطنطينوس وسماها قوسطنطينوفوليس.

"امون بن مناشا" ملك اثنتي عشرة سنة وعلى رأي اليهود سنتين. هذا سلك الطريقة القبيحة وعبد آلهة الأمم الخارجة وقتله عبيده في الحرب.

وفي هذا الزمان اشتهرت في الحكمة بجزيرة رودس امرأة تسمى سيبولاً. وبجزيرة سقيليا ارخيلوخوس الخطيب الملقب بالغراب. وسار إليه الطلبة لاستفادة الخطابة منه. وكان من جملة قاصديه فتى من اليونان يقال له ثيسناس ورغب إليه في تعليم هذا الفن وضمن له عن ذلك مالاً معيناً. فأجابه برغبته وعلمه. فلما لقنها حاول الغدر به ورام فسخ ما وافقه عليه فقال له: يا معلم ما حد الخطابة. فقال: إنها المفيدة للإقناع. قال: إني أناظرك الآن في الأجرة فإن أقنعتك بأنني لا أدفعها إليك لم أدفعها إذ قد أقنعتك بذلك. وإن لم أقدر على ذلك فلست أعطيك شيئاً لأنني لم أتعلم منك الخطابة التي هي مفيدة للإقناع. فأجابه المعلم وقال: وأنا أيضاً أناظرك فإن أقنعتك بأنه يجب لي أخذ حقي منك أخذته أخذ من أقنع. وإن لم أقنعك فيجب أيضاً أخذه منك إذ قد نشأت تلميذاً يستظهر على معلمه. فقيل: بيض رديء لغراب رديء أي تلميذ نكد ومعلم نكد.

"يوشيا بن امون" ملك إحدى وثلاثين سنة. وجلس في الملك وله ثماني سنين. وكان جميل المذهب حسن الطريقة. وأمر حلقيا الكاهن أبا ارميا النبي بأن يدخل هيكل الرب ويرممه. وفي ترميمه وجد سفر الناموس وتلاه على يوشيا. فغار على نفسه وأمته وكسر أصنام أبيه وقتل خدمها وأحرق عظام قوامها على مذبحها كما تنبأ شمعي النبي أيام يوربعام ابن ناباط وجدد عيد الفصح بأورشليم. وفي سنة إحدى وثلاثين من ملكه نزل فرعون نخاوث أي الأعرج على الفرات بقرب مدينة منبج طالباً حراب ملك أثور. فسار إليه يوشيا بجيوشه ليمنعه من العبور. فانتصر عليه فرعون فقتله. وحمل ميتاً إلى أورشليم. وكان له أربعة بنين يهواحاز وصدقيا ويوخنيا أبو أب دانيال النبي ويوياقيم أبو الفتيان الثلاثة حننيا وعزريا وميشائل. وفي زمانه كان صفنيا النبي وارميا وحولذى النبية.

"يهواحاز بن يوشيا" ملك ثلاثة أشهر. كان فاسد الطريقة فسباه فرعون الأعرج في عوده وأوثقه بالحديد وأنفذه إلى مصر ومات هناك. ونصب يوياقيم أخاه مكانه.

"يوياقيم بن يوشيا" ملك اثنتي عشرة سنة. وكان قبيح المذهب مذموم الطريقة.وقبل عليه الجزية لملك

مصر كل سنة مائة قنطار ذهباً. وفي السنة الثالثة من ملكه صعد بختنصر ملك بابل إلى بيت المقدس وسباها وجلا أكثر أهلها إلى بابل ومعهم دانيا النبي والفتية الثلاثة أولاد يوياقيم أعمام دانيال النبي ووضع الجزية على يوياقيم ورجع عنه. ثم وصل فرعون الأعرج إلى الفرات مرة ثانية والتقاه بختنصر هناك وقتله. وفي السنة الثامنة من ملك يوياقيم نزل بختنصر إلى أورشليم نزولاً ثانياً وأخذ مالاً من يوياقيم وعاد. وبعد ثلث سنين مات يوياقيم.

"يوياخين بن يوياقيم" وهو المسمى في إنجيل متى يوخنيا. ولما مضت عليه ثلاثة أشهر من ملكه قصده بختنصر وحاصر بيت المقدس. فخرج يوياخين إليه مستأمناً مع أمه وحشمه وعبيده. فجلاهم كلهم إلى بابل و لم يترك في أورشليم إلا شيخاً مسناً وعجوزاً ضعيفة. وولى على من تخلف بأورشليم صدقيا بن يوشيا عم يوياخين وبقي يوياخين معتقلاً في بابل سبعاً وثلاثين سنة.

"صدقيا بن يوشيا" كان اسمه مثنيا وبختنصر سماه صدقيا. ملك إحدى عشرة سنة. ثم عصى ومنع الجزية التي كان يؤديها إلى بختنصر. فعاد إليه وأسره وذبح أولاده بين يديه وسمل عينيه وسار به إلى اثور وجعله يدير الرحى مثل الحمار. وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة ولما مات رميت جثته وراء السور فأكلته الكلاب. وفي هذه المرة دخل بختنصر إلى مصر وجزائر البحر وهدم مدناً كثيرة وأحرق مدينة صور وقتل حيرم ملكها وكان عمره كما يقال خمسمائة سنة. وبعث بختنصر نبوزردن القائد إلى أورشليم فدعثر سورها وأحرق الهيكل. وكان لشمعون رئيس الكهنة عند هذا القائد منزلة فسأله في أمر كتب الوحي فلم يحرقها فجمعها هذا شمعون باتفاق ارميا النبي ووضعاها مع لوحي الناموس وعصا موسى ومجمرة البخور وباقي آلات القدس في تابوت العهد ورميا بها في بعض الآبار و لم يعرف مكانها إلى الآن. وجلس ارميا النبي ينوح على أورشليم عشرين سنة. ثم انتقل إلى مصر فقبض عليه قوم من اليهود وحبسوه في جب ثم أخرجوه ورجموه ومات ودفن في مصر. ثم الاسكندر في زمانه نقل تابوته إلى الإسكندرية فدفن هناك. وكان حزقيال النبي في جملة من سبي إلى بابل. فقتله اليهود لأجل توبيخه لهم. فمن السنة الرابعة من ملك سليمان التي كان فيها الشروع في بنيان هيكل الرب إلى خرابه الكلي وحريقه أربعمائة واثنتان وأربعون سنة. وعلى رأي من جعل مدة ملك صدقيا تسعاً وستين سنة تكون مدة الهيكل عامراً خمسمائة سنة.

الدولة الرابعة

المنتقلة إلى ملوك الكلدانيين

الكلدانيون أمة قديمة الرئاسة نبيهة الملوك وكان منهم النماردة الجبابرة الذين كان أولهم نمرود بن كوش من بني حام باني المجدل. وكان من ولد نمرود بختنصر الذي غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقاً كثيراً وسبى بقيتهم وغزا مصر وفتحها ودوخ كثيراً من البلاد. و لم يزل ملك الكلدانيين ببابل إلى أن ظهر عليهم الفرس وغلبوهم على مملكتهم وأبادوا كثيراً منهم. فدرست أخبارهم وطمست أثارهم. وكانت من الكلدانيين حكماء متوسعون في فنون المعارف من المهن التعليمية والعلوم الرياضية والإلهية وكانت لهم عناية بأرصاد الكواكب وتحقيق بعلم أسرار الفلك ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم وأحكامها. وهم نهجوا لأهل الشق الغربي من معمور الأرض الطريق إلى تدبير الهياكل لاستجلاب قوى الكواكب واظهار طبائعها وطرح إشعاعاتها عليها بأنواع القرابين الموافقة لها وضروب التدابير المخصوصة بها. فظهرت منهم الأفاعيل الغريبة والنتائج الشريفة من إنشاء الطلسمات وما أشبهها. و لم يصل إلينا من مذاهب الكلدانيين في حركات النجوم ولا من أرصادهم غير الأرصاد التي نقلها عنهم بطليموس القلوذي في كتاب المجسطي. فإنه اضطر إليها في تصحيح حركات الكواكب المتحيرة إذ لم يجد لأصحابه اليونانيين أرصاداً يثق بها.

"بختنصر بن نبوفلسر" ملك قبل إحراقه هيكل الرب وخرابه أورشليم تسع عشرة سنة وبعده أربعاً وعشرين سنة. واسمه بالسريانية نبوخذنصر أعني عطارد ينطق. وإنما سمي بذلك لأنه نطق بالعلوم والآداب المنسوبة إلى عطارد. وفي السنة الثالثة من قمعه ملك اليهود رأى مناماً راعت روحه منه واقتصه على علماء بابل. فقالوا هذا خطب عسير لا يكشفه للملك إلا آلهة السماء الذين ليس مسكنهم مع الأرضيين. فاحتدم صدره لذلك غيظاً وتقدم إلى اريوخ صاحب شرطه بإهلاك المنجمين والسحرة و أصحاب الرقي والزجر والفأل. فقال دانيال لاريوخ: مهلاً اتئد ولا تقتل حكيماً ولكن أوصلني إلى الملك. فلما مثل بين يديه مثولاً قال له: أقادر أنت على أن تخبرني بالرؤيا التي رأيت وتعبيرها. فأجابه دانيال قائلاً: إله السماء والأرض هو الذي يبدي السرائر. وأنت أيها الملك رأيت صنماً عظيماً ذا منظر رائع رأسه من الذهب الإبريز وصدره وذراعاه من فضة وبطنه وفخذاه من نحاس وساقاه حديد ورجلاه خزف. ورأيت حجراً انقطع من غير قاطع وضرب رجلي الصنم فهشمها هشماً شديداً. فهذه الرؤيا. وأما التعبير فأنت رأس الذهب بما منحك اللهملكاً عزيزاً وكرامة وجلالة. ويقوم بعدك ملك يكون دونك في العزة. والثالث الممثل بالنحاس يكون دون الثاني. والرابع الممثل بالحديد دون الثالث فيهشم ويدق كثيراً من مجاوريه. أما الأرجل والأصابع التي من حديد وخزف فدليل ممالك مختلفة قوية وواهية. وأما الحجر المنقطع من جبل من غير يد قاطعة فدليل ملك روحاني مبيد كل معبود سوى الواحد الحق يظهر في آخر الأيام. فخر

بختنصر ساجداً لدانيال وأعطاه الألطاف والهدايا ورأّسه على جميع حكماء بابل. وولى أعمامه حننيا وعزريا وميشائل أمر مدينة بابل وسماهم بأسماء نبطية اعني شدراخ وميشاخ وعبد ناغو. ثم اتخذ بختنصر صنماً من ذهب طوله ستون ذراعاً في عرض ستة أذرع. وتقدم إلى جميع عظماء دولته أن يوافوا عيد الصنم. وإنهم إذا سمعوا صوت القرن وباقي أنواع الزمر يخرون سجداً للصنم. فامتثل الجميع أمره ما عدا حننيا وعزريا وميشائل. فسعى بهم قوم إلى بختنصر إنهم لا يعتدون بأمره. فاستشاط من ذلك غضباً وأمر أن يسجر الآتون فوق ما كان يسجر سبعة أضعاف الوقود وأن يكتفوا بسراويلهم وقلانيسهم وبرانسهم وباقي ثيابهم ويزجوا في أتون النار. فلما فعل بهم ذلك أحرقت النار الذين سعوا بهم. فأما هم فمكثوا في النار ممجدين لله وملاك الطل نزل عليهم وأمال عنهم لهيب النار فلم تنك فيهم ولا في ثيابهم ولا في لباسهم. فلما شاهد الملك ذلك بهت تعجباً وقال: أرى الرابع منهم شبيه المنظر ببني الآلهة يعني الملاك. وناداهم بأسمائهم قائلاً: يا عباد الله العلي اخرجوا. فخرجوا من النار و لم يشط شيء من ثيابهم ولا من شعورهم. فرفع بختنصر درجاتهم. ثم رأى بختنصر رؤيا ثانية كأن شجرة في سواء الأرض قد علت حتى بلغت إلى السماء ولها ورق أنيق وثمار كثيرة فيها مطعم لكل بشر. وجميع حيوانات البر وطيور الجو تأوي إلى ظلها. وكأن ملاكاً قديساً نزل من السماء وقال: اقلعوا هذه الشجرة وجذوا أغصانها وانثروا أوراقها وبددوا ثمارها وتتفرق عنها حيوانات البر وطيور الجو وذّروا عروقها في الأرض إلى أن يحول عليها سبعة أحوال. فاقتص بختنصر هذه الرؤيا أيضاً على دانيال وقال له: أنت قادر على تعبيرها لأن فيك روح الآلهة القديسين. فقال دانيال: أيها الملك الرؤيا لمن يشنأك وتعبيرها على أعدائك. أما الشجرة الموصوفة بتلك الصفات الجليلة فإنك أنت الذي عززت حتى ارتفع اسمك إلى السماء. وأما الملاك القديس الذي رأيت وأقواله تلك فتدل على أن الناس يخرجونك من بينهم ليصير لك تعمُّر مع الوحوش وتُطعم العشب طعماً كالثور ويبلك قطر السماء حتى تحول عليك سبعة أحوال. ثم يثوب عقلك إليك وتستوي على كرسي ملكك. فكفر خطاياك بالصدقات وآثامك بالترحم على الضعفاء لتبعد عنك هفواتك.

ومن بعد سنة لما رأى بختنصر أن رقاب أمم المسكونة قد خضعت له ودانت له ملوكها هيبة له وخوفاً من شدة بأسه طغى بقلبه وشمخ بأنفه وأخذته العزة في نفسه. فسمع صوت هاتف يهتف به هتافاً ويقول: لك يقولون يا بختنصر لقد لفظتك مملكتك وسيهيج عليك الناس. فتمت الكلمة عليه في تلك الساعة وطرده الناس ورعى العشب كالثور. وطال شعره وصارت أظافره كمخاليب سباع الطيور حتى أتت عليه سبع سنين. ثم راجعه عقله وطلبه قادته واستوى على سرير مملكته ومنح مزيداً من العظمة وحمد الله وعلم أن سلطانه إلى دهر الداهرين يهب الملك لمن يشاء ويجعله في سفلة الناس وسقاطهم.

وجدت في كتاب عتيق سرياني مجهول أن اوطولوقيوس المهندس اليوناني عرف في زمان بختنصر وكان مشهوراً في وقته. والموجود من كتبه الآن كتاب الكرة المتحركة إصلاح الكندي وكتاب الطلوع والغروب ثلث مقالات. وأما ثاوذوسيوس فلم نقف له على زمان معين وهو من حكماء اليونان المشهورين وله نصانيف حسان. له كتاب الأكر الذي هو اجل الكتب المتوسطات بين كتاب اوقليدس والمجسطي.

وفي هذا الزمان كان فورون الفيلسوف الكلدي. وكانت حكمته هي الحكمة الأولى التي لم تستقر. وكان صاحب فرقة وله جمع يتعلمون منه الفلسفة الطبيعية وذهب إليها فيثاغورس وثاليس الملطي وعامة الطلبة من اليونانيين والمصريين. وكانت هذه الفلسفة شائعة في يونان إلى قبل زمان سقراطيس. ثم مال الناس عنها وقد انتصر لها ناس من المتأخرين منهم محمد بن زكريا الرازي لأنه لم يتوغل في العلم الإلهي ولا فهم غرض ارسطوطاليس فيه فاضطرب رأيه وتقلد آراء سخيفة وانتحل مذهباً خبيثاً مذهب فورون وذم أقواماً لم يفهم عنهم ولا هدي سبيلهم. وفرقة فورون يعرفون بأصحاب اللذة لأنهم كانوا يرون أن الغرض المقصود إليه في تعلم الفلسفة اللذة الحاصلة للنفس بمعرفتها وهي مع البدن لانجائها من عذاب الجهل في الآخرة كما هو رأي أرسطو لأن النفس لا بقاء لها بعد البدن عندهم.

"أول مرودخ بن بختنصر" ملك ثلث سنين. هذا أخرج يوياخين بن يوياقيم من السجن وأكرمه وآكله مؤاكلة بعد سبع وثلاثين سنة وكان فيها معتقلاً. وقتل مرودخ وملك بعده أخوه بلطشاصر.

"بلطشاصر بن بختنصر" ملك سنتين. ثم عمل وليمة عظيمة لألف رجل من أكابر دولته وكان يشرب الخمر بازائهم. وأمر وهو يشرب أن يؤتى بآنية هيكل الرب التي سباها أبوه من أورشليم وشرب فيها مع عظمائه. فظهرت قبلته كفُّ يدٍ كاتبة عقابه في ضوء المصباح على الحائط. فرابته الكتابة وأحضر حكماء بابل ليترجموا الكتابة. فعجزوا عن حلها. فامتعض لذلك امتعاضاً شديداً. فأخبرته أمه عن دانيال النبي أنه دراك غيب وحلال عقد. فاستدعاه وضمن له أن يلبسه الأرجوان وأن يوليه ثلث الملك إن أوَّل الكتابة. فقال دانيال: لتكن مواهبك لك واجعل ذخائر بيتك لغيري. أما الكتابة فقراءتها أُحصي إحصاءً وزن وأُعري. وتأويلها: إن الله أحصى ملكك واستلبه. ووزنك زنة فوجدك شائلاً فلذا أعراك من ملكك فأنت عارٍ عرية. وفي تلك الليلة اغتاله داريوش المادي وقتله.

الدولة الخامسة

المنتقلة إلى ملوك الفرس

أما الفرس فأهل الشرف الشامخ. والعز الباذخ. وأوسط الأمم داراً. وأشرفهم إقليماً. وأسوسهم ملوكاً. تجمعهم وتدفع ظالمهم عن مظلومهم. وتحملهم من الأمور على ما فيه حظهم على اتصال ودوام. واحسن التئام وانتظام. وخواص الفرس عناية بالغة بصناعة الطب ومعرفة ثاقبة بأحكام النجوم. وكانت لهم أرصاد قديمة. وقال بعض علماء العجم: أول من ملك بعد الطوفان كيومرت من بني سام بن نوح وكان يتزل فارس.واتخذ الآلات لإصلاح الطرق وحفر الأنهار وذبح ما يؤكل من الحيوان وقتل السباع. وما زال الملك في ولده إلى أن ملك دارا بن دارا الذي غزاه الاسكندر وقتل في المعركة. ثم ملكت الاشكانية أولهم اشك. ثم اشك بن اشك وهو أول من تسمى بالشاهية. ودام الملك فيهم إلى أن ظهرت المملكة الساسانية أولهم اردشير بن بابك بن ساسان من بني كشتاسب. فأحسن السيرة وبسط العدل. وتوارث بنوه الملك إلى أن ملك يزجرد ابن شهريار بن قباذ بن فيروز بن هرمز بن كسرى انوشروان المعروف بالعادل. وهو آخر ملوك الفرس. فلما ملك انتقضت عليه الدول وتفاقمت أمورها وطلعت أعلام الإسلام بالنصرة وقتل كما يأتي شرح ذلك في موضعه.

"داريوش المادي" واليونانيون يسمونه نابونبذس. ملك سنة واحدة. وقيل تسع سنين. وبه بطلت مملكة النبط الكلدانيين منتقلة إلى الفرس المجوس. وهذا الملك استولى على الملك وهو من أبناء اثنتين وستين سنة. وحسنت منزلة دانيال النبي عنده. وأقام في ولايته مائة وعشرين قائداً ورأس عليهم ثلاثة رجال أحدهم دانيال. وكان يرجع في سرائره إليه. فساء ذلك أرباب الدولة وجعلوا يطلبون عليه حجة يوقعونه بها عن مرتبته. فلم يظفروا منه بهفوة غير إنه يدين بغير دين الملك. فساروا إلى الملك وقالوا: إن دانيال يعبد إلهاً غريباً. وفي سنتنا أن من دان في أرضنا بدين غير ديننا وتعدى سنة أهل ماه وفارس قذف به في جب الأسد. فلما لم يقدر الملك على إبطال شريعة قومه تقدم بقذف دانيال في جب الأسد وقال له: إلهك ينجيك. وانصرف إلى منزله وبات طاوياً وطار عنه نومه إشفاقاً على دانيال. وكان حبقوق النبي في الشام قد طبخ طبيخاً ومضى يطعم الحواصيد فأخذه ملاك الرب بشعر رأسه ووضعه في بابل على فم الجب فقال: دانيال دانيال قم خذ الطعام الذي أنفذ لك ربك. فقال دانيال: ذكرني الله و لم يهملني. وأخذ الملاك لحبقوق ووضعه في موضعه. وجاء الملك داريوش بعد سبعة أيام ليبكي على دانيال لكثرة اهتمامه له. فلما دنا من الجب ناداه: يا دانيال هل قدر معبودك أن ينجيك من السباع. أجابه دانيال قائلاً: أيها الملك عش خالداً إن الهي بعث لي ملاكة وسد أفواه الأسد فلم تهلكني. فحسن موقع ذلك من الملك جداً وأخرج دانيال من الجب وألقى وشاته فيه مع نسائهم وبنيهم وذريتهم. فما استقروا في قرار الجب إلا ومزقتهم الأسد ورضت عظامهم رضاً.

وفي هذا الزمان اشتهر فراخوديس مصنف القصص معلم فيثاغورس.

"كورش الفارسي" ملك إحدى وثلاثين سنة واستولى على ملك العراق وخراسان وأرمينية والشام وفلسطين وغزا بلاد الهند وقتل ملكها. هذا كورش تزوج أخت زوربابيل ابن شلاثيل بن يوياخين بن يوياقيم ملك يهوذا. ولما دخل بها ارتفعت عنده وقال لها: اطلبي مني ما شئت. فطلبت منه عود بني إسرائيل إلى أورشليم وأن يأذن لهم بعمارتها. فجمعهم كورش الملك وخيرهم قائلاً: من اختار الصعود فليصعد ومن أباه فليقم. فكان عدد مؤثري الصعود خمسين ألفاً من الرجال غير النساء والأولاد. فحصل زوربابيل ملكهم ويشوع بن يوزاداق كاهنهم. وعنهما قال ملاك الرب لزخريا النبي: إن هذين ابنا الدلال وهما يقومان بين يدي رب العالمين. فصعدت هذه الشرذمة من بني إسرائيل في السنة الأولى من ملك كورش إلى أورشليم وهموا بعمارتها. ولأن الفلسطينيين مجاوريهم اعنتوهم كان تشييدهم الهيكل على التراخي في ست وأربعين سنة كما قال يوحنا الإنجيلي. ولاختلاط كورش بنسل داود قال عنه اشعيا النبي قبل ولاده: قال الله لمسيحه كورش الذي عضدت بيمينه. وعظم كورش أيضاً شأن دانيال وفوض إليه سياسة ملكه. فغار لله غيرة وكسر الصنم المسمى بيل وقتل التنين معبود البابليين. فمقت ورمي في جب فيه سبعة أسد ونجا منها وهلك مبغضوه. ثم رأى الرؤيا على نهر الفرات وعرفه ملاك الرب مدة السنين التي بقين من السبي ومن ظهور السيد المسيح وآلامه وموته. ومات دانيال ودفن في قصر شوشن اعني مدينة ششتر.

"قمباسوس بن كورش" ملك ثماني سنين. وفي أيامه كانت يهوديث المرأة العبرية التي احتالت على الفرنا الماجوجي صاحب جيش قمباسوس وقطعت رأسه وأمنت اليهود بأسه.

وفي هذا الزمان كان زرادشت معلم المجوسية وأصله من بلد أذربيجان. وقيل: من بلاد أثور. وقيل: إنه من تلامذة اليَّا النبي. وهو عرف الفرس بظهور السيد المسيح وأمرهم بحمل القرابين إليه وأخبرهم أن في آخر الزمان بكراً تحمل بجنين من غير أن يمسها رجل وعند ولادته يظهر كوكب يضيء بالنهار ويرى في وسطه صورة صبية عذراء. وانتم يا أولادي قبل كل الأمم تحسون بظهوره. فإذا شاهدتم الكوكب امضوا حيث يهديكم واسجدوا لذلك المولود وقربوا قرابينكم فهو الكلمة مقيمة السماء.

"داريوش بن بشتسب": ملك ستاً وثلاثين سنة على رأي قليميس واوسابيوس واندرونيقوس. وفي السنة الأولى من ملكه بالقرب من نجاز بنيان هيكل الرب بأورشليم أعني قبله بست سنين تمت السبعون سنة التي للسبي كما أوحى الله إلى ارميا النبي أن تبقى الأمة جالية ببابل. ويؤكد ذلك حجي وزخريا النبيان بابتهالهما إلى الله قائلين: حتام لا ترحم أورشليم وقد أتى على خرابها سبعون سنة. وذلك إذا عددناها

مبتدئين من آخر ملك صدقيا وهي السنة الرابعة والعشرون من ملك بختنصر التي فيها احترق الهيكل وخربت أورشليم وجلي اليهود عن أوطانهم إلى بابل الجلاء الكلي. وأما افريقيانوس فإنه يعدها مبتدئاً من أول ملك صدقيا ليتم في أول ملك كورش عند إرساله الجماعة من بني إسرائيل إلى أورشليم وتقدمه إليهم بعمارتها.

وفي هذا الزمان توفي فيثاغورس الحكيم ابن خمس وتسعين سنة. هذا جعل مبادئ الأكوان الأعداد بدليل أن المركبات مبادئها البسائط. ولا أبسط من الأعداد إذ كل ما عداها يلزمه التركيب من إضافة العدد إليه. واشتهر في الفلسفة ديموقراطيس وهو القائل بانحلال الأجسام إلى أجزاء لا تتجزأ. وديوجانيس الكلبي وكان قد راض أصحابه رياضة فارق فيها اصطلاح أهل المدن من اطراح التكليف. وكان أحدهم يتغوط غير مستتر عن الناس. ويقول فيما يأتيه من ذلك: لا يخلو إما أن يكون ما يفعله قبيحاً على الإطلاق فلا يحسن في موضع دون موضع وعلى صورة دون صورة. وإن كان مما يحسن في موضع دون موضع وعلى صورة دون صورة فهذا أمر اصطلاحي فلا أقف معه. وكانوا يحبون من قرب منهم ويكرهون من بعد عنهم. فقال أهل زمانهم: هذه الأفعال تشبه أفعال الكلاب فسموهم الكلبيين. ومن مشاهير هذا الزمان انكساغورس الطبيعي وفينذارس وسيموندس الموسيقيان وفروطوغورس واسوقراطيس السفسطانيان واريسطوفنيس وقحاليس الشاعران الهاجيان.

وفي هذا الزمان أيضاً عرف ابقراط الطبيب. هذا كان يسكن مدينة حمص ويتردد إلى مدينة دمشق ويأوي إلى بستان كان له فيها ومكانه معروف إلى يومنا هذا في واد هناك يسمى النيرب. وكان رجلاً إلهياً يداوي المرضى مجاناً. وقد أحسن جالينوس في وصفه حيث قال: إن جالينوس أدبه الدرس وأبقراط أدبته الطبيعة. وقال أيضاً: إن ابقراط انغمس في الطبيعة وسرى معها حتى انتهى إلى أعماقها وأخبر عما شاهد هناك. وله من الكتب كتاب افوريسمون أي الفصول وكتاب بروغنوسطيقون أي تقدمة المعرفة وكتاب ابيذيميا أي الأمراض الوافدة وكتاب ماء الشعير وكتاب الأخلاط وكتاب قسطران أي كتاب المدن والماء والهواء وكتاب طبيعة الإنسان وكتاب شجاج الرأس وكتاب دياثيقي أي العهد.

ومن الحكماء المعاصرين لابقراط فيليمون وكان عالماً في فن من فنون الطبيعة اعني الفراسة إذا رأى شخصاً استدل بتركيب أعضائه على أخلاقه. وله فيها كتاب عندنا نسخته بالسرياني. وحكي أنه اجتمع تلاميذ ابقراط وقال بعضهم لبعض: هل تعلمون في زماننا هذا أعلم من هذا الرجل يعنون ابقراط. فقالوا: لا. فقالوا: نمتحن به فيليمون فيما يدعي من الفراسة. فصوروا صورة ابقراط ثم نهضوا إلى فيليمون. وكانت يونان تحكم الصورة بحيث تحكيها على الوجه في قليل أمرها وكثيرها لأنهم كانوا يعبدون الصور فأحكموا لذلك التصور ويظهر التقصير في التصوير من غيرهم ظهوراً بيناً. فلما انهم حضروا عند فيليمون

وقف على الصورة وتأملها وأنعم النظر فيها ثم قال: هذا رجل يحب الزنا. وهو لا يدري من هو المصور. فقالوا: كذبت هذه صورة ابقراط. فقال: لا بد لعلمي أن يصدق فاسألوه. فلما رجعوا إلى ابقراط واخبروه الخبر قال: صدق فيليمون أحب الزنا ولكن أملك نفسي.

"احشيرش بن داريوش" ملك إحدى وعشرين سنة. وفي السنة الثانية من ملكه استولى على مصر. وبعد تسع سنين فتح مدينة اثيناس واحرقها. وقيل في زمانه كانت قضية استير العفيفة ومردخاي البار من أهل يهوذا. وهذا القول غير سديد وإلا لما أهمل ذكرها في كتاب عزرا المستوعب جميع ما جرى لليهود في زمان هذا الملك. والصحيح إنها جرت في أيام ارطحششت المدبر.

"ارطبانس" ملك سبعة اشهر معدودة مع سني احشيرش.

"ارطحششت الطويل اليدين" ويسمى أيضاً اريوخ. ملك إحدى وأربعين سنة. وفي سنة سبع من ملكه أمر عزرا الحبر وهو الذي تسميه العرب العزير أن يصعد إلى أورشليم ويجتهد في عمارتها. وفي سنة عشرين من ملكه أرسل نحميا الساقي الخصي أيضاً ليجد في ترميمها. وفي هذا الزمان لم يكن لليهود نار قدس لأنهم رموها في بئر وقت جلائهم. فأتوا بحمأة منها ووضعوها على حطب القربان فاشتعلت بأمر الله بعد أن طفئت مائة سنة وأربعين سنة بالتقريب. ولما رأى عزرا المعجز استف من سفساف تلك البئر ثلث سفات فأعطي منحة الروح القدس وأنطقه الله بجميع كتب الوحي وأعادها كما كانت.

"احشيرش الثاني" ويسمى اردشير. ملك شهرين. ثم قتله سغدينوس وملك بعده مدة يسيرة.

"سغدينوس" ملك سبعة أشهر وهي مع الشهرين المتقدمين معدودة مع سني اريوخ.

"داريوش نوثوش" أي ابن الأمة. ملك تسع عشرة سنة. وفي سنة خمس عشرة من ملكه خلع المصريون ربقة طاعة الفرس من أعناقهم ونصبوا لهم ملكاً بعد مائة وأربع وعشرين سنة لتسلط الفرس عليهم.

"ارطحششت الثاني" المعروف بالمدبر واليونانيون يسمونه ارطاكسراكسيس. ملك أربعين سنة وتزوج باستير العبرية الصالحة وصلب هامان العملقي الذي زاول زوال الجالية من بني إسرائيل. وذلك بدعاء استير ومردخاي الصديق صاحبها. وفي سنة خمس عشرة من مملكة هذا ارطحششت أخرب افريقيانوس قائد الإفرنج مدينة قرخيذونيا وسمي بلدها باسمه إفريقية.

وفي هذا الزمان كان ميطن واقطمين وهما إمامان في علوم الفلك اجتمعا بالإسكندرية على أحكام آلات الارصاد ورصدا ما أحبا من الكواكب. وقيل أن بين زمانهما وبين بطليموس صاحب المجسطى خمسمائة سنة وسبعين سنة.

"ارطحششت الثالث" المعروف بالأسود.واليونانيون يسمونه اوخوس. ملك سبعاً وعشرين سنة واستعاد

ملك مصر وهزم نقطابيوس ملكها وصار يسيح في بلاد اليونانيين بزي منجم لأنه كان ماهراً في علم الفلك وأسرار الحركات السماوية. وقيل أنه تلطف لمجامعة ألومفيذا امرأة فيليفوس ملك مقدونيا في تنجيمه لها. فحملت منه بالاسكندر ذي القرنين.

"ارسيس بن اوخوس" ملك أربع سنين. وفي زمانه اشتهر سقراطيس الحكيم المتأله. هذا زهد في الدنيا ومتاعها إلى حد انه سكن الحب. وقيل له: إن انكسر الحب ماذا تعمل؟ فقال: إن انكسر الحب لم ينكسر مكانه. وكان يقول: حسن الظاهر تابع للحسن الباطن فيستدل على حسن النفس بحسن البدن. ولأنه كان يختار للتعليم الأحداث الوسام نسبه الاثنيون إلى الفحشاء. ولكثرة تقييده الملك المشتهر بالفجور علم ابنيه انطوس وميليطوس الإفساد عليه وأماته مسموماً.

وبعد موت سقراط صار الصيت لأفلاطون. هذا كان شريف الوالدين نسب أبيه يرتقي إلى فوسيديون ونسب أمه إلى سولون واضع النواميس للاثنيين. وقيل: انه تميز في حداثته في علم الشعر. فلما رأى سقراط يهجن هذا الفن من جملة العلوم أحرق كتبه الشعرية وتلمذ له خمسين سنة ومنه اقتبس الحكمة الفيثاغورية وقال: إن المبادئ ثلاثة الإله والهيولى والصورة. وأثبت وجود الأمثال النوعية في الخارج مجردة عن المواد. وادعى تناسخ النفوس وإن وجدوها قبل وجود الأبدان. كان يأذن لمن عجز عن مكابدة العزوبة من تلامذته أن يشاركه النفر منهم في زوجة واحدة لما في ذلك من قلة المؤنة وكثرة المعونة. وقد عد له ثاون الإسكندري ثلاث وثلاثين كتاباً. والموجود منها الآن كتاب فادن وكتاب طيماوس وكتاب النواميس وكتاب سياسة المدن. ومات وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة. وخلف بستانين ومملوكين وكأساً واحداً وقرطاً كان معلقاً في شحمة أذنه شعاراً بشرفه. وباقي ماله كان قد أخرجه على تزويج بنات أخيه. وكتب على قبره: هاهنا وضع رجل إلهي فاق الناس كلهم في العلم والعفة والنباهة والأخلاق العادلة. فكل من مدح الحكمة فقد مدحه إذ فيه أكثرها. وكتب في الجانب الآخر من التربة: يا أيتها الأرض وإن كنت مخفية جسد أفلاطون لكنك لا يمكنك الدنو من نفسه التي لا تموت. وتولى بعده مدرسته سفوسيفوس ابن عمه.

وفي هذا الزمان اشتهر في الطب روفس وتصدر للتعليم وله في ذلك تصانيف. إلا إنه كان ضعيف النظر مدخول الأدلة رد على أكثر أقواله ارسطوطاليس في كتبه الطبيعيات. ورد عليه جالينوس أيضاً مثل ذلك وأقاما الحجج الواضحة على غلطه. و لم تكن الصناعة تحققت في زمانه تحققها في زمان هذين الفاضلين.

"داريوش بن ارشك" هو دارا بن دارا. ملك ست سنين. ولما بلغه خروج الاسكندر بن فيليفوس اليوناني المقدوني جيش والتقاه في الشام. فانتصر اليونانيون على الفرس وانهزم داريوش طالباً الثغور. فأدركه

الاسكندر عند مدينة أياس التي هي فرضة البحر ببلد قيليقيا وقتله وتزوج ابنته المسماة روشنك. وبطلت وقتئذ مملكة الفرس باستيلاء الاسكندر على الأرض.

وفي هذا الزمان اشتهر في الفلسفة ارسطوطاليس بن نيقوماخس الطبيب من قرية طاجيرا من أعمال مقدونيا. ونسبه من والديه يرتقي إلى اسقليبياذيس. وأخذ الحكمة من أفلاطون وهو ابن سبع عشرة سنة ولازمه عشرين سنة. وكان إذا لم يحضر في الدرس يقول أفلاطون: العقل لم يحضر. كأن الغافلين عن الحق صمٌّ هم عما هم سامعوه. وصار له منزلة عظيمة عند الملوك. وبرأيه كان يسوس الاسكندر ملكه ويتوجه إلى محاربة ملوك الأرض. وتفرغ ارسطوطاليس لتصنيف الكتب المنطقية والحكمة العلمية والعملية.

ويسمى معلماً أول لا لأنه اخترع المنطق اختراعاً كما ظن. لكن لأنه جمع أشتاته ورتبه ترتيباً كما قال حاكياً عن نفسه: إنه قد كان لنا في الصنائع المنطقية أصول مأخوذة ممن سبقنا مستعملة في جزئيات برهانية مثلاً في الهندسة جدلية وخطابية في السؤال والجواب.

وإما في صورة القياس وصورة قياس القياس فأمر قد كددنا في طلبه مدة من العمر حتى استنبطناه. وكان لا يفتر عن الدرس والمطالعة إلا عسى عند النوم. وكان إذا سئل لا يبادر الجواب إلا بعد الفكر. ولا قصد في البحث إلا الحق دون الغلبة. وكان يقول في إبطاله التناسخ: أفلاطون صديق والحق أيضاً صديق فإذا لحظتهما كان اختياري وإكرامي للحق. وكان إذا شعر بتقصير من نفسه لم يستنكف من أن يدفعه.

وكان معتدلاً في الملابس والمأكل والمشرب والمنكح والحركات. ومات وله ثمان وستون سنة. وخلف ابناً وابنة صغيرة وخلف مالاً كثيراً.

واعلم وفقك الله أن الحكماء الذين نظروا في أصول الموجودات دهريون وطبيعيون وإلهيون. فأما الدهريون فهم فرقة قدماء جحدوا الصانع المدبر للعالم وقالوا إن العالم لم يزل موجوداً بنفسه لم يكن له صانع صنعه. والطبيعيون فهم قوم بحثوا عن أفعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من الموجودات حيوان ونبات. وفحصوا عن خواص النبات وتركيب أعضاء الحيوانات فمجدوا الله وتحققوا بمخلوقاته انه قادر حكيم عظيم. إلا أنهم رأوا أن النفس تهلك بهلاك الجسد وأن لا بقاء لها بعده. وأما الآلهيون فهم المتأخرون من حكماء يونان مثل سقراط وهو شيخ أفلاطون. وافلاطون شيخ ارسطوطاليس. وارسطو هو مرتب هذه العلوم ومحررها ومقرر قواعدها ومزين فوائدها ومخمر فطيرها ومنضج قديرها وموضح طرق الكلام وتحقيق قوانينه والراد على الدهرية والطبيعية والمندد عليهم والقائم بإظهار فضائحهم.

وهذب كلام أفلاطون وسقراط وحققه ونمقه ورتبه فجاء كلامه ابضع كلام وأحكم معاني. وكل من نقل كلامه من اليوناني إلى لغة أخرى حرّف وجزّف وما أنصف. وأقرب الجماعة حالاً في تفهمه الفارابي وابن سينا فإنهما تحملا علمه على الوجه المقصود. واعذبا منه لوارد منهله المورود. وكان لارسطو ابن أخ

اسمه ثاوفريسطس وهو أحد تلاميذه الآخذين الحكمة عنه وهو الذي تصدر بعده للإقراء بدار التعليم. وكان فهماً عالماً مقصوداً لهذا الشأن. وقرئت عليه كتب عمه وصنف التصانيف الجليلة واستفيدت منه ونقلت عنه. فمنها كتاب الآثار العلوية وكتاب الأدب وكتاب ما بعد الطبيعة نقله من السرياني إلى العربي يحيى بن عدي. وكتاب الحس والمحسوس نقله أيضاً إبراهيم بن بكوس. وكتب أسباب النبات نقله أيضاً إبراهيم المذكور. وأما نيقوماخس والد ارسطوطاليس فكان متطبباً لفيليفوس أبي الاسكندر وكان حكيماً فيثاغوري المذهب وله من التصانيف كتاب الارثماطيقي وكتاب النغم.

الدولة السادسة

المنتقلة إلى ملوك اليونانيين الوثنيين

أما اليونانيون فكانوا أمة عظيمة القدر في الأمم طائرة الذكر في الآفاق فخمة الملوك. منهم الاسكندر بن فيليفوس المقدوني الذي أجمع ملوك الأرض طراً على الطاعة لسلطانه. وكان من بعده من ملوك اليونانيين البطالسة دامت لهم الممالك وذلت لهم الرقاب. و لم يزل ملكهم متصلاً إلى أن غلب عليهم الروم وهم الإفرنج. وكانت بلاد اليونانيين في الربع الغربي الشمالي من الأرض. ويحدها من جهة الجنوب البحر الرومي ومن جهة الشمال بلاد اللان ومن جهة المغرب تخوم بلاد الامانية ومن جهة المشرق بلاد أرمينية وباب الأبواب. ويتوسط بلاد اليونانيين الخليج المعترض ما بين بحر الروم وبحر نيطس الشمالي فيصير القسم الأعظم منها في حيز المشرق والقسم الأصغر منها في حيز المغرب. ولغة اليونانيين تسمى الاطيقية وهي أوسع اللغات وأجلها. وكانت عامة اليونانيين صابئة معظمة للكواكب دائنة بعبادة الأصنام.

والفلاسفة منهم من أرفع الناس طبقة وأجل أهل العلم مترلة لما ظهر منهم من الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة من العلوم الرياضية والمنطقية والمعارف الطبيعية والإلهية والسياسات المترلية.

"الاسكندر بن فيليفوس":ملك ست سنين بعد قتله داريوش. وكان قد ملك قبل ذلك ستاً أخرى. وفتح بلاداً كثيرة حتى بلغ ملكه إلى أقصى الهند وأوائل حدود الصين. وسمي ذا القرنين لبلوغه قرني الشمس وهما المشرق والمغرب. وقتل خمسةً وثلاثين ملكاً وبنى اثنتي عشرة مدينة منها اثنتان في بلد خراسان وهما هراة و مرو. وواحدة في بلد السغد وهي سمرقند. وأخرى في بلد القبط وهي الإسكندرية. وفي عودته من الهند ووصوله إلى بابل مات مسموماً ووضع في تابوت ذهب وحمل على أكتاف الملوك والأشراف إلى إسكندرية القبط ودفن بها. وكان لما احتضر أمر أن يكتب إلى أمه بالتعزية وأن تتخذ طعاماً وتأمر أن لا

يدخل إليه إلا من لم تصبه مصيبة. ففعلت كذلك فرجع جميع الخلق وحسن بذلك عزاؤها. وبعد موت الاسكندر تقاسم الممالك أربعة من عبيده وهم بطليموس بن لاغوس واريذاوس وانطيوخوس وسلوقوس. وسئل الاسكندر بناء السد سد يأجوج فبناه بحجارة الحديد والنحاس وأضرم عليه صخراً واحداً طوله اثنا عشر ذراعاً وعرضه ثمانية أذرع. ولما فرغ من بناء سد يأجوج جاء إلى موضع السد الأعظم وهو المكان الذي يعرف بالباب والأبواب في مروج بلدان القفجاق فحفر موضع الأساس ومده في الجبال حتى ألحقه بحر الروم. فلم تزل ملوك فارس في طلب هذا الأساس فتجشموا معرة الترك والخزر من بلاد العراق والجبل وأذربيجان واران وأرمينية حتى وجد الأساس يزدجرد بن بهرام جور بن يزدجرد ابن سابور. فابتدأ ببناء السد من حجارة ونحاس ورصاص و لم يتممه. وكان أكثر هم ملوك الفرس بعده في بنائه فما اتفق لهم الفراغ منه حتى سهل الله ذلك على يدي كسرى انوشروان فأحكم بناءه وألصقه برؤوس الجبال ثم مده في البحر على ميل ثم غلق عليه أبواب الحديد وأقام على بنائه سنة وأكثر. فصار يحرسه مائة رجل بعد إن لم تكن تطيقه مائة ألف رجل من الجند. وأذن للمرزبان الذي يقيم هناك بالجلوس على سرير الذهب ولذلك يسمى ملك تلك الناحية ملك السرير.

وفي زمان الاسكندر كان اندروماخس الطبيب الذي زاد في معجون المثروديطوس لحوم الأفاعي فصار نافعاً من نهوشها.

"بطلميوس بن لاغوس" أي ابن الأرنب. ولي مصر وجميع أرض القبط والنوبة أربعين سنة. ومنه سموا ملوك مصر البطالسة. وهو جلا اليهود إلى مصر في أيام حونيا رئيس الكهنة. وحصل لاريذاوس وهو فيليبوس المذكور في السونطاكسيس أي المجسطي مقدونيا وجميع بلاد اليونانيين. ولانطيوخس سوطير أي المخلص إنطاكية وجميع بلاد الشام. وبعد اثنتي عشرة سنة من موت الاسكندر حصل لسلوقوس المسمى نيقاطور أي القاهر ملك بابل وكل العراق وخراسان إلى الهند. ومن أول ولايته يبتدئ هذا التاريخ المعروف بتاريخ الاسكندر وهو الذي يؤرخ به السريان والعبريون. ومن آدم إلى أول هذا التاريخ على رأي ثاوفيل الرهاوي خمسة آلاف ومائة وسبع وتسعون سنة. فإذا زدنا على سني الاسكندر التامة أعني سني سلوقوس هذا المبلغ وعلى الشهور التامة من السنة المنكسرة التي أولها تشرين الأول شهراً واحداً حصل لنا سنون تامة وشهور من السنة المنكسرة التي أولها شهر أيلول وبهذا التاريخ يؤرخ الروم في زماننا هذا.

"بطلميوس فيلاذلفوس" أي محب أخيه. ملك ثماني وثلاثين سنة. وفي زمانه خلع الأرمن طاعة ملوك اليونان ونصبوا لهم ملكاً اسمه ارشك. ومن هنا سموا ارشكونية. ولما ملك هذا بطلميوس حبب إليه العلم

والعلماء وسمع أن في السند والهند وفارس وجرجان وبابل واثور فنوناً من الحكمة غير التي عند اليونان فتقدم إلى وزيره بالاجتهاد في جمع كتب هذه الأمم وتحصيلها والمبالغة في أثمانها وترغيب التجار في جلبها. ففعل ذلك فاجتمع من ذلك في مدة قريبة أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتاباً. فلما علم الملك باجتماعها قال لوزيره: أترى بقي في الدنيا شيء من كتب العلوم لم يكن عندنا. فقال له الوزير: بقي عند اليهود كتب إلهية أوحى الله بها إلى الأنبياء فنطقوا بها. فأمر أن يجد في طلبها. فأطلق سبيل جالية اليهود وطلب من اليعازر رئيس الكهنة أن يسير إليه جماعة من أحبار اليهود المتبحرين في لغتي العبريين واليونانيين لينقلوا له كتب الوحي من اللغة العبرية إلى اللغة اليونانية. فأرسل إليه اثنين وسبعين حبراً ذوي مهارة في النقل من كل سبط ستاً. فرتب الملك كل اثنين منهم في بيت في جزيرة فوروا وأمرهم أن ينقل كل اثنين منهم كل واحد واحد من الكتب الإلهية. وعند الفراغ قوبلت النسخ الستة والثلاثون فوجدت مطابقة لم تتخالف لفظاً ولا معنى فاعتمد على صحة النقل. وهذا النقل السبعيني هو المعتبر عند علمائنا وهو الذي بأيدي الروم وباقي فرق النصارى خلا السريان وخصوصاً المشارقة فإن نسختهم المسماة بسيطة لترك البلاغة في نقلها تطابق نسخة اليهود. وأما المغاربة فلهم النقلان البسيط المنقول من العبري إلى السرياني بعد مجيء السيد المسيح في زمان ادي السليح. وقيل قبله في زمان سليمان بن داود وحيرم صاحب صور. والسبعيني المنقول من اليوناني إلى السرياني بعد ظهور المخلص بزمان طويل.

وفي هذا الزمان كان طيموخاريس الحكيم الرياضي. وكان عالماً بهيئة الفلك وصناعة آلات الأرصاد. وقد ذكر بطلميوس الحكيم في المجسطي أن وقته كان متقدماً لوقته بأربع مائة وعشرين سنة.

"بطلميوس اورغاطيس" أي الصانع ملك ستاً وعشرين سنة. وفي زمانه بنيت قرقيسياء وقالونيقوس وهي الرقة. وحونيا رئيس كهنة اليهود منع الجزية التي كان يعطيها لملوك مصر. فغضب اورغاطيس وهم باستئصال اليهود. فأرسل إليه يوسيفوس الحكيم العبري وهادنه فتهادنت أمور اليهود.

"بطلميوس فيليفاطور" أي محب أبيه. ملك سبع عشرة سنة واضطهد اليهود. وفي آخر ولايته قهره انطيوخس الكبير صاحب الشام. وهذا أيضاً اعتسف اليهود وعنف عليهم وجرت الوقائع المذكورة في القصة الأولى من كتاب المقبانيين.

"بطلميوس افيفانوس" أي المظهر. ملك إحدى وعشرين سنة وأرسل جيشاً مع اسقافوس قائده إلى بلد يهوذا والشام. فحاربه انطيوخس الكبير وانتصر عليه وهزمه واستولى على مدت كثيرة كانت للمصريين. وحينئذ أخلص له اليهود في الطاعة فأحسن إليهم ورصف الحجارة في الطرق المؤدية إلى إنطاكية وعقد القناطر على أكثر أنهار الشام. وفي سنة إحدى عشرة من ملك هذا انطيوخس قهره الإفرنج وكان

يعطيهم الجزية كل سنة ألف قنطار ذهباً وسلم إليهم ولده رهينة. وصالح أيضاً بطلميوس افيفانوس وتزوج ابنته قلاوفطرا. ثم مات وقام بعده ابنه المسمى باسمه انطيوخس وهو الصغير الملقب بأفيفانوس وهو لقب صاحب مصر. هذا وردَّ البيت المقدس ونحس الهيكل بنصبه صنم زاوس وهو المشتري فيه. وألزم اليعازر الكاهن أن يضحي للصنم الأضحية. ولأنه أبى أماته بالعقاب. ثم سعي إليه بامرأة اسمها اشموني مع سبعة بنيها أنهم يسبون الأصنام. فأحضرهم بين يديه وأمر بقطع لسان الأول وأطراف جميع أعضائه وألقاه في الطاجن وسلخ جلدة رأس الثاني. وكذلك أمات الباقين وبعدهم أمهم بأنواع العذاب. ودفنوا في أورشليم. ثم بعد مجيء المخلص نقل مؤمنوا النصارى أجسادهم إلى مدينة إنطاكية وبنوا عليهم كنيسة.
"بطلميوس فيلوميطور" أي محب أمه. ملك خمساً وثلاثين سنة. وفي السنة السادسة عشرة من ملكه مات انطيوخس الصغير غازياً بالفرس. وملك بعده انطيوخس اوفاطور سنتين واضطهد اليهود اضطهاداً شديداً. وولي أمر اليهود يهوذا المقبي وجمع بين الملك والكهنوت ونفى نواب انطيوخس من أرض يهوذا وطهر الهيكل وصار اليهود يحاربون ملوك الروم.

وفي هذا الزمان بنى حونيا رئيس كهنة اليهود هيكلاً بأرض مصر كالذي بأورشليم. وبعد اوفاطور ولي الشام ديميطريوس سوطير وهو ابن سلوقوس. وملك اثنتي عشرة سنة ثم قتله الاسكندروس وقام بعده عشر سنين أطاعه فيلوميطور صاحب مصر وزوجه ابنته قلاوفطرا. وتمت نبوءة دانيال حيث قال: ابنة ملك التيمن تعطى لملك الجربياء. وقيل بالأخرى التي تزوجها انطيوخس الكبير تمت هذه النبوءة.
"بطلميوس اورغاطيس الثاني" ويعرف بابن الهشيم. ملك تسعاً وعشرين سنة. وفي السنة الثالثة من ملكه مات الاسكندروس. وولي الشام بعده ديميطريوس الثاني ثلاث سنين ثم خلع وولي مكانه انطيوخس سيذيطوس سبع سنين ومات. وعاد ديميطريوس إلى الملك أربع سنين. ثم مات وقام بعده انطيوخس اغرياس اثنتي عشرة سنة وحاصر أورشليم في ولاية هورقانس الملك الكاهن. ولأنه ضيق عليها فتح هرقانوس قبر داود النبي ووجد فيه ثلاثة آلاف قنطار من الذهب كان قد خزنها القدماء هناك. فأعطى منها ثلاثمائة قنطار لاغرياس فرحل عنه. وفي هذا الزمان اخرب هورقانس مدينة شمرين وهي نابلس وعصى جماعة من العبيد بجزيرة سقليا فحوصروا في بعض مدنها حتى أكل بعضهم بعضاً.
"بطلميوس فيسقوس"ويسمى أيضاً سوطير. ملك سبع عشرة سنة. وفي السنة الرابعة من ملكه ولي الشام انطيوخس قوزيقوس ثماني عشرة سنة. وفي السنة الحادية عشرة من ملك سوطير مات هورقانس ملك اليهود. وقام بعده اريسطابولس بن يونثان سنة واحدة متتوجاً. ثم اغتاله أخوه انطيغونيس واغتيل من يوحنا أخيه الآخر الذي سمي الاسكندر وولي سبعاً وعشرين سنة وكان ذا بأس. وأما بطلميوس فيسقوس

فعزلته أمه قلاوفطرا وفر منها إلى جزيرة قبرس.

وفي هذا الزمان اشتهر ديسقوريدوس وهو حكيم فاضل حشائشي من أهل مدينة عين زربة. قال جالينوس: تصفحت أربعة عشر مصحفاً في الأدوية المفردة لأقوام شتى فما رأيت فيها أتم من كتاب ديسقوريدوس. ويحيى النحوي الإسكندري يمدحه في كتابه في التاريخ ويقول: تقدمة الأنفس صاحب النفس الزكية النافع للناس المنفعة الجليلة المنعوت المنصوب السائح في البلاد المقتبس العلوم والأدوية المفردة من البراري والجزائر والبحار والمصور لها.

وقد جاء في كتاب المجسطي أن بين رصدي ايبرخس وبطلميوس للاستواء الربيعي مائتين وخمساً وثمانين سنة. وهذا يدل على أنه كان معاصراً لديسقوريدوس. وفاق المتقدمين والمتأخرين وعلاهم بعلم الأرصاد. ومن كتبه أخذ بطلميوس القلوذي وعلى أرصاده بنى. و لم يصل إلينا من كتبه سوى كتاب واحد في أسرار الكواكب ومنه يعرف تحدد الممالك في العالم.

"بطلميوس الاكسندروس" هو أخو فيسقوس الفار إلى قبرص. ملك عشر سنين. وفي السنة الرابعة من ملكه ظفر بقوزيقوس ملك الشام وأحرقه بالنار حياً وولي في الشام سنة واحدة. ثم قام بالشام ملكاً فيليفوس سنتين و رذلته الرعية بسبب إعانته على هلاك قوزيقوس. ودخل الشاميون في طاعة ملوك رومية قبل أن يسموا قياصرة و لم يدخلوا في طاعة البطالسة نفوراً منهم بما فعلوا بملكهم قوزيقوس.

"بطلميوس فيسقوس" هو المسمى سوطير هذا عاد من قبرص إلى مصر ونازع أخاه الاسكندروس فاعتقله وملك بعده ثماني سنين أخرى. ثم مات وأقيم بعده ذيانوسيوس ابنه.

"بطلميوس ذيانوسيوس" ملك ثلاثين سنة. وفي سنة خمس من ملكه مات يوحنا الاسكندر ملك اليهود وخلف ولدين هورقانس واريسطابولوس مسميين باسمي عميهما. وكانت أمهما سيلينا أي القمر ذات سطو. فنصبت هورقانس ابنها رئيس الكهنة واريسطابولوس ابنها الآخر ملكاً. وبعد قليل جلاه بومبيوس قائد جيش قيصر إلى رومية واستقام هورقانس أخوه ملكاً لليهود أربعاً وثلاثين سنة.

"قلاوفطرا" ابنة ذيانوسيوس ملكت اثنتين وعشرين سنة. وفي سنة ثلث من ملكها ولي رومية الكبرى غابيوس الملقب يوليوس وهو أول من دعي قيصراً وتأويله السليل. وإنما سمي بذلك لأن أمه وهي حامل به ماتت حين ولدت فشقوا أحشائها وسلوه منها. ثم صار هذا الاسم نبزاً لكل من ولي رومية. وسمي شهر تموز يوليوس باسمه وكان يسمى أولاً قنطاليس. وبعد أربع سنين مات. وقام بعده اغوسطس قيصر ستاً وخمسين سنة. وفي سنة ست من ملك اغوسطس سبي هورقانس ملك اليهود إلى فارس ووليهم هيروذيس بن انطيفطروس العسقلاني من قبل قيصر وهدم سوري أورشليم واحتجز على تركة الكهنوت و لم يترك

أحداً يتولى رئاسة الكهنة إلا سنة واحدة. وفي السنة الثالثة عشر من ملك اغوسطس تمرد عليه انطونيوس قائد جيشه وانهزم منه إلى مصر بسبب عشقه قلاوفطرا الملكة. فسار نحوه اغوسطس وأسر ولدي قلاوفطرا المسمى أحدهما شمساً والآخر قمراً وقتلهما. ولما سمع انطونيوس وقلاوفطرا بقتل الولدين وكانا محاصرين في بعض الحصون شربا سماً وماتا.

وكان في آخر مملكة البطالسة فطون الفيلسوف ذو يد باسطة في نوعي العدد والمساحة وله كتاب في الحساب إلى قلاوفطرا الملكة. وقلاوفطرا هذه كانت حكيمة تصنف الكتب في أنواع الحكمة ولها القانون المنسوب إليها المختصر وهو قانون مبسوط سهل قريب المأخذ ويقال أنه من تصانيف فطون لها ونحلها إياه فادعته. والله أعلم.

الدولة السابعة

المنتقلة إلى ملوك الإفرنج

الروم هم الإفرنج بلادهم مجاورة لبلاد اليونانيين ولغتهم مخالفة للغتهم. فلغة اليونانيين الاطيقية ولغة الروم اللاطينية. وحد بلاد الروم من جهة الجنوب البحر الرومي الممتد طولاً في المغرب إلى المشرق ما بين طنجة إلى الشام. وحدها من جهة الشمال بعض ممالك الأمم الشمالية من الروس وغيرها. وحدها من جهة الشرق تخوم بلاد اليونانيين. وحدها من جهة المغرب إلى أقصى الأندلس البحر المغربي المحيط المعروف بأوقيانوس. وهذه المملكة ثلاث قطع أولها من جهة المشرق بلاد الامانية ثم وسطها بلاد افرنسة ثم آخرها بلاد الأندلس. وقاعدة هذه المملكة كلها كانت مدينة رومية العظمى من بلاد الامانية إلى أن تغلب اغوسطس أول القياصرة على ملوك اليونانيين وأضاف إلى مملكتهم مملكته فصارت مملكة واحدة رومية عظيمة الشأن كما فعلت الفرس بمملكة الكلدانيين حتى استولت عليها وصيرت المملكتين مملكة واحدة فارسية. وصارت رومية قاعدة هاتين المملكتين إلى أن قام قسطنطينوس بن هيلاني بدين المسيح ورفض دين الصابئة وبنى مدينة بوزنطيا وعظمها وسماها باسمه القسطنطينية واستوطنها فصارت حينئذ قاعدة ملك الروم إلى سنة ألف ومائتين واثنتين وستين للإسكندر حتى قوي العامل على رومية وكثرت جموعه فلبس التاج وسمي ملكاً بكافة ملك قسطنطينية ورضي بسلمه وتميزت مذ ذاك مملكة اللاطينيين من مملكة الاطيقيين من جهة مغاربها. وبعدت أعمالهم من أعمال رومية بمن توسط بينهما من فرق الترك المخيمة هنالك والمخربة لكثير من عمائرها. فلا يصل أحد اليوم من القسطنطينية إلى رومية إلا في البحر. وكان للروم بمدينة رومية وغيرها علماء بأنواع الفلسفة إلا أن لليونانيين من المزية في ذلك والفضل ما لا ينكره

الروميون ولا سواهم.
"اغوسطس قيصر" ملك ستاً وخمسين سنة. وباسمه سمي شهر آب اغوسطس وكان يسمى أولاً سجاسطيلوس. وفي أيامه جدد هيروذيس مدينة نابلس وعظم قصر اسطراطون وسماهما قيصرية وهي المعروفة بفيليبوس. وبنى أيضاً مدينة جبلة.

وفي السنة الثالثة والأربعين من ملك اغوسطس قيصر وهي سنة تسع وثلاثمائة من تأريخ الاسكندر ولد السيد المسيح من مريم العذراء ليلة الثلاثاء في الخامس والعشرين من كانون الأول. وفي تلك السنة كان قد أرسل قيصر الملك قورينوس القاضي مع أصحاب الجزية إلى أورشليم. فصعد يوسف خطيب مريم من الناصرة مدينته إلى أورشليم ليثبت اسمه. وعند موافاتهم قرية بيت لحم ولدت مريم. وأتى المجوس بألطافهم من المشرق فأهدوها إلى المسيح وهي ذهب ومر ولبان. وكانوا قد مروا أولاً بهيروذيس وسألهم عن أمرهم. فقالوا له: إن عظيماً كان لنا وهو قد أنبأنا بكتاب وضعه ذاكراً فيه: سيولد في فلسطين مولود أصله من السماء ويتعبد له أكثر العالم. وآية ظهوره إنكم ترون نجماً غريباً وهو يهديكم إلى حيث هو. فإذا رأيتموه فاحملوا ذهباً ومراً ولباناً وانطلقوا إليه وألطفوه بها واسجدوا له وانصرفوا لئلا ينالكم بلاء عظيم. والآن قد ظهر لنا النجم وأتينا لنتمّ ما أمرنا به. فقال لهم: هيروذيس: قد أصبتم الرأي فانطلقوا وابحثوا عن الصبي نعما. فإذا وجدتموه فأعلموني لأنطلق أنا أيضاً فأسجد له. فمضوا و لم يعودوا إليه. فغضب غضباً شديداً وأمر بذبح جميع أطفال بيت لحم من ابن سنتين وما دون لعدم علمه بوقت ولادة المخلص. وكانت مريم يومئذ ابنة ثلث عشرة سنة وعمرت إحدى وخمسين سنة. وكتب اوتغنيوس الفيلسوف إلى قيصر يعلمه عن مجيء المجوس قائلاً في رسالته: إن فرس المشرق دخلوا سلطانك وقربوا القرابين لصبي ولد بأرض يهوذا. فأما من هو وابن من هو فلم يبلغنا بعد. فأجابه قيصر: إن هيروذيس عاملنا على اليهود هو يعلمنا ما أمر هذا المولود وقضيته. وكتب قيصر إلى هيروذيس يستعلمه الخبر. فكتب إليه وعرفه قول المجوس له وإنه ذبح أطفال بيت لحم أجمعين ليكون قد أتى على نفس الصبي معهم. وفي تلك الليلة التي أتت المجوس هرب يوسف مع مريم والمولود إلى مصر ولبثوا بها سنتين. ولما بلغهم موت هيروذيس عادوا إلى الناصرة مدينتهم. وقبل أن يموت هيروذيس قتل امرأته مريم التي كانت ابنة يوحنا الاسكندر ملك اليهود وأخاها وأمها و بالجملة كل من وجد من نسل الملوك. ثم حدث له استسقاء زقي ونقرس شديد وبقي في عذاب أليم مدة سنتين ثم مات. وولي مكانه ارخيلاوس ابنه تسع سنين. ثم اعتقله اغوسطس وجعل ملك اليهود أرباعاً وولى في الثلاثة الأرباع ثلاثة من أخوة ارخيلاوس وهم هيروذيس وانطيفطرس وفيليفوس. وفي الربع الرابع لوسانيا.

"طيباريوس قيصر" ملك اثنتين وعشرين سنة. وفي السنة الأولى من ملكه عرضت زلزلة عظيمة وسقط فيها مواضع كثيرة ومات خلق من الناس والمواشي. وفي السنة السابعة بنى هيروذيس بن هيروذيس مدينة طبرية على اسم طيباريوس الملك. وفي السنة الرابعة عشرة ولي فيلاطوس القضاء على اليهود ونصب تمثال قيصر في الهيكل واضطرب لذلك اليهود. وبعد ثلاث سنين اعتمد المسيح من يوحنا بن زكريا يوم الأربعاء وقيل: يوم الأحد لستّ خلون من كانون الأخيرة. وكان ابن ثلاثين سنة. ومن هاهنا بدأ بإظهار الآيات الباهرة وإفشاء سر ملكوت الله والحث على العمل بسنة الفضيلة فضلاً عن سنة العدالة. وفي السنة التاسعة عشر من ملك طيباريوس وهي سنة ثلاثمائة واثنتين وأربعين من تاريخ الاسكندر أرسل ابجر ملك الرها فيجاً اسمه حنان إلى المسيح بكتاب يقول فيه: من ابجر الأسود إلى ايشوع المتطبب الظاهر بأورشليم. أما بعد فإنه بلغني عنك وعن طبك الروحاني وإنك تبرئ الأسقام من غير أدوية فحدست إنك إما إله نزلت من السماء أم ابن الإله. فأنا أسألك أن تصير إلي لعلك تشفي ما بي من السقم. وقد بلغني أن اليهود يرومون قتلك. ولي مدينة واحدة نزهة وهي تكفيني وإياك نسكن فيها في هدوء. والسلام. فأجابه المسيح بكتاب قائلاً: طوباك إنك آمنت بي و لم ترني. وأما ما سألتني من المصير إليك فإنه يجب أن أتمم ما أرسلت له وأصعد إلى أبي. ثم أرسل لك تلميذاً لي يبرئ سقمك ويمنحك ومن معك حياة الأبد. فلما أخذ حنان الجواب من المسيح جعل ينظر إليه ويصور صورته في منديل لأنه كان مصوراً وأتى به إلى الرها ودفعه إلى ابجر الأسود. وقيل أن المسيح تمندل بذلك المنديل ماسحاً به وجهه فانتقشت فيه صورته. وبعد صعود المسيح إلى السماء أرسل ادي السليح أحد الاثنين والسبعين إلى الرها وأبرأه من سقامه.

وفي هذه السنة تمت الأربعمائة والتسعون سنة التي أوحى الله إلى دانيال النبي أن سبعين أسبوعاً تطمئن أمتك ثم يأتي الملك المسيح ويقتل. وهذا إذا ابتدأنا بتعديدها من آخر سنة عشرين لملك ارطحششت الطويل اليدين وهي السنة التي أرسل فيها نحميا الساقي إلى أورشليم وجدد العهد بتقريب القرابين وكتب عزرا كتب الوحي. وفي هذه السنة اعني التاسعة عشرة من ملك طيباريوس قيصر صلب المسيح يوم الجمعة في الثالث والعشرين من آذار وكان فصح اليهود يوم السبت وإنما أكله المسيح مع تلاميذه ليلة الجمعة لتعذر إتمامه في وقته بسبب صلبه نهار الجمعة. وكان الصعود يوم الخميس لثلاث خلون من أيار. وصار الفنطيقوسطي يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من أيار.

وفي هذا اليوم سمع كهنة اليهود من داخل الهيكل صوت هاتف يهتف بهم قائلاً: قد أزمعنا على الانتقال من هاهنا. فراعهم ذلك جداً.

فمن بدء العالم إلى مجيء المسيح بمقتضى التوراة التي بأيدي اليهود أربعة آلاف ومائتان وعشر سنين

بالتقريب. وبمقتضى التوراة السبعينية التي بأيدي الروم وسائر فرق النصرانية خلا السريان خمسة آلاف وخمسمائة وست وثمانون سنة بالتقريب. ينقص التاريخ الأول من الثاني ألف وثلاثمائة وخمس وسبعون سنة. وهذا النقص منسوب إلى أحبار اليهود لأن البشارة بالمسيح قد تقدمت في التوراة والأنبياء أنه يبعث في آخر الأزمان و لم يكن لمن سلف من رباني اليهود حيلة في دفع مجيء المسيح غير أن يبدلوا أعمار الآدميين التي منها يوقف على تاريخ العالم فنقصوا من عمر آدم إلى أن ولد شيث مائة سنة وزادوها في باقي عمره. وكذلك عملوا في أعمار باقي ولد آدم إلى إبراهيم. فصار تاريخهم يدل على أن المسيح ظهر في الألف الخامس وهذا قريب من توسط سني العالم التي هي جميعها عندهم سبعة آلاف سنة. فقالوا: نحن بعد في توسط الزمان فلم يحن حين مجيء المسيح. وأما التاريخ السبعيني فيدل على أن المسيح ظهر في الألف السادس فيكون قد حان حينه.

"غاييوس قيصر" ملك أربع سنين. وفي السنة الأولى من ملكه ولي هيروذيس اغريباس على اليهود سبع سنين. وفي هذه السنة قتل فنطيوس فيلاطوس نفسه وأرسل فيليكوس قاضياً إلى أورشليم وملأ محاريب اليهود أصناماً. فأرسلوا رسولين حكيمين هما فيلون ويوسيفوس العبريان إلى قيصر يتضورون من صنيع الناظر. فمضيا واستعطفاه متقدماً بإزالة ما كره اليهود عنهم. وفي السنة الرابعة ورد فطرونيوس الناظر من رومة إلى أورشليم ونصب صورة زاوس أي المشتري في هيكل الرب. وتمت نبوءة دانيال النبي الذي قال: علامة نجسة قائمة حيث لا ينبغي.

"قلوذيوس قيصر" ملك خمس عشرة سنة. وفي السنة الثانية من ملكه ظهر رجل مصري بأرض يهوذا وادعى النبوءة وافسد خلقاً من الناس وأراد أن يكبس أورشليم قهراً. فتوجه إليه فيليكوس البطريق فقتله وقتل عامة أتباعه. وظهر أيضاً رجل يسمى قورينثوس وكان يقول: إن في ملكوت الله أكلاً وشرباً ونكاحاً.

وفي هذا الزمان أمر قلوذيوس قيصر بإحصاء اليهود الذين في سلطانه. فبلغ عددهم ستمائة وأربعاً وتسعين ربوة وأربعة آلاف نفس. وفي يوم عيد الفصح وقع اليهود في الخليطى وضغط الناس بعضهم بعضاً فمات في الزحام ثلاثون ألف نفس. وكان اليهود متفرقين على سبع فرق.

الأولى: الربانيون وهم كتاب الناموس ومعلموه.

والثانية: اللاويون الذين لم يفارقوا خدمة الهيكل.

والثالثة: المعتزلة الذين يؤمنون بقيامة الموتى ويقولون بوجود الملائكة ويصومون يومين في الأسبوع.

والرابعة: الزنادقة الذين يجحدون القيامة والملائكة.

والخامسة: المغتسلون الذين يقولون لا يثاب أحد إن لم يغتسل كل يوم.

والسادسة: النساك الذي لا يأكلون شيئاً فيه روح.
والسابعة: السمرة الذين لا يقبلون من الكتب إلا التوراة وهي المجسمة.
"نارون قيصر" ملك أربع عشرة سنة. وفي السنة الثالثة عشرة من ملكه اضطهد النصارى وضرب عنق فطروس وبولوس وصلبهما منعكسين. وعصى اليهود عليه فغزاهم اسفسيانوس القائد مع جيوش كثيرة وحاصر أورشليم زماناً طويلاً. فلما دنا من فتحها أتاه الخبر بموت نارون وإنه اعتراه جنون في مرضه وقتل نفسه وابنه وزوجته. فنصب اسفسيانوس ابنه طيطوس مكانه في محاربة اليهود ونهض راجعاً إلى رومية وغزا الإسكندرية وافتتحها وركب في البحر وسار إلى رومية وملكها.

" اسفسيانوس قيصر" ملك عشر سنين. وهو بنى قوقلس أي منارة الإسكندرية وطولها مائة وخمس وعشرون خطوة وفي السنة الثانية من ملكه افتتح طيطوس ابنه مدينة أورشليم وقتل فيها زهاء ستين ألف نفس وسبى نيفاً ومائة ألف نفس. ومات فيها من الجوع خلق كثير والباقون تشتتوا في البلاد. ودعثرها وأخرب هيكلها. وتمت نبوءة يعقوب حيث قال: لن تفقد هراوة الملك من يهوذا ولا المنذر أي النبي من ذريته حتى يأتي من له الغلبة وإياه تتوقع الشعوب. وتم أيضاً ما أنذر به المخلص مخاطباً لأورشليم: إنه سيأتي أيام تحيط بك أعداؤك ويكبسونك وبنيك فيك. وكان ذلك بعد أربعين سنة من صلب المسيح. وذكر يوسيفوس العبري أنه ظهر قبل خراب أورشليم علامات فظيعة. وذلك أنه ظهر فوق المدينة نجم طويل كسيفٍ من نار يلمع. وفي عيد الفصح جاءوا ببقرة الذبيحة فولدت حملاً في وسط الهيكل. وأبواب النحاس التي كانت على باب الهيكل و لم تكن تغلق وتفتح دون اجتماع عشرين رجلاً وجدت نصف الليل مفتوحة من غير علة. وكانوا عامة السنة يسمعون في الهيكل أصواتاً مختلفة تقول: إننا سننتقل من هاهنا.
"طيطوس قيصر" ملك سنتين. وفي السنة الثاني لملكه انشق جبل بالروم وخرج منه شهب نار أحرقت مدناً كثيرة. ووقع برومية حريق كثير. وخطب بعض الخطباء ذات يوم خطبة في حفل من الناس وفي جملة الانباز التي نبزها طيطوس اشتق له اسماً من أسماء الله تعالى. ولأنه سر بذلك فاجأه الموت فجأة.
"ذوميطيانوس قيصر" ملك ست عشرة سنة. ونفى من رومية المنجمين وأصحاب الزجر والفأل والعيافة والطيرة. وأمر أن لا يغرس برومية كرم البتة. وفي السنة التاسعة لملكه اضطهد النصارى اضطهاداً شديداً ومع هذا كان الناس يدخلون في دين المسيح أفواجاً ويتمسكون به تمسكاً أشد. فقال فطروفيلس المحصل لارسنيوس الحكيم معلمه ما الذي ألجأ ديونوسيوس رئيس حكماء أثيناس وافريقيانوس الإسكندري ومرطيانوس الباذوي إلى أن يسجدوا لرجل مصلوب. فأجابه قائلاً: إن آلهة السماء اقتضوا هذا. فاستنار

واختار اتّباع النصارى بالسيرة الحسنة وترك الدنيا وملاذها يفيدهم الأيد بالقول والعمل.
وفي هذا الزمان عرف افولونيوس الطلسماطيقي وكان يضاد التلاميذ بأفاعيله المخالفة لأفاعيل المسيح ويقول: الويل لي إن سبقني ابن مريم. وهذا الملك نفى يوحنا الإنجيلي إلى بعض الجزائر. وكتب إليه ديونوسيوس أسقف اثيناس كتاباً يقول فيه: لا يعترينك الضجر والملل فإنه لا يطول سجنك فالمسيح يعمل لك الخلاص فألهم نفسك بالصبر. وبعد قليل قتل دوميطيانوس قيصر على بساطه في مجلسه.
"نارون قيصر الصغير" ملك سنة واحدة. وأمر أن يرد المنفيون. ورجع يوحنا الإنجيلي إلى مدينة افسوس بعد ست سنين لنفيه. ثم جذم نارون ومات في بستان خارج رومية.
"طريانوس قيصر" ملك تسع عشرة سنة. وفي السنة العاشرة لملكه اضطهد النصارى. واستشهد شمعون بن قليوفا أسقف أورشليم ويوحنا السليح وايغناطيوس النوراني أسقف إنطاكية رمي للسباع فافترسته.
وفيلنيوس صاحب الشرط لما عجز من قتل النصارى لكثرتهم طالع قيصر أن أهل هذا المذهب عاملون بجميع سنن الفلاسفة غير أنهم لا يكرمون الأصنام. فأمر قيصر أن لا يجدّ في أذاهم إلا إذا وجد منهم من يتفوه بسب الآلهة فليدن. وفي آخر سنة من ملكه عصت اليهود الذين بجزيرة قبرس والشام والحبشة. ويهود مصر أيضاً نصبوا لهم ملكاً اسمه لومينوس. فجيش وتوجه إلى فلسطين. فطلبته جيوش الروم وقتلته مع ربوات من اليهود في كل مكان.
وفي هذا الزمان ظهر بإنطاكية رجل اسمه سوطرنينوس وكان يقول: إن سبعة من الملائكة خلقوا العالم وإياهم عنى الله بقوله هلموا نخلق إنساناً يشبهنا وصورتنا. وقال: إن التزويج وهيئة أعضاء البضاع للرجال والنساء من فعل الشيطان ولهذا يستقبح الناس كشفها. وظهر أيضاً بسيليذيس القائل بإكرام الحية وتعظيمها لأنها المشيرة على حواء بالمجامعة ولولاها لما تناسل الناس. وظهر أيضاً رجل اسمه قورنثوس وكان يقول: إن العالم خلق الملائكة وإن المسيح ولد من المباضعة. وقيل: أن بيعة الله إلى هذه الغاية التي ظهر فيها هؤلاء المخالفون كانت عذراء من مثل هذه العلوم الشيطانية وخرافات البدع.

"اذريانس قيصر" ملك إحدى وعشرين سنة. وفي أول سنة من ملكه أطلق الديون وأمر المديونين أن لا يقضوا مما عليهم شيئاً البتة وأطلق للناس الاخاريج والأتاوى الديوانية أيضاً. وفي السنة الرابعة بطل الملك من الرها وولي أمرها القضاة من قبل الروم. وأمر اذريانس ببناء مدرسة بمدينة اثيناس ورتب فيها قوماً من الحكماء وحمل إليهم نواميس سولون وذراقون ومن هنالك فاضت الحكم في اثيناس.
وفي هذه السنة ظهر بأورشليم رجل يقال له ابن الكوكب وأضل اليهود مدعياً أنه نزل من السماء كالكواكب ليخلصهم من عبودية الروم. فتبعه خلق كثير منهم. وبلغ الخبر إلى اذريانس فوجه إليه جيوشاً

فقتلوه وغزوا أورشليم وأهلكوا اليهود وخربوا أورشليم غاية الخراب وبنوا قريباً منها مدينة سموها هيليا اذريانس وأسكنوها قوماً غرباء. وأمر اذريانس بصرم آذان الذين تخلفوا من اليهود وسنّ لهم سنّة أن لا ينظروا إلى أورشليم ولا من بعيد.

"طيطوس انطونيانس قيصر" المسمى اوسابيوس ويسمى أيضاً بارّاً وأب البلد. ملك اثنتين وعشرين سنة وأزال عن النصارى الاضطهاد وأباح للناس أن يتدينوا بأي دين شاءوا.

وفي هذا الزمان نبغ في البيعة من المخالفين شخص اسمه ولنطيانوس وكان يقول: إن المسيح أنزل معه جسداً من السماء واجتازه بمريم كاجتياز الماء بالميزاب أي لم يأخذ منها شيئاً. وظهر أيضاً رجل يسمى مرقيون وقال: إن الآلهة ثلاثة عادل وصالح وشرير وأن العادل أظهر أفاعيله في الشرير وهو الهيولي فخلق منها العالم. ولما رأى الصالح العالم قد انجذب إلى جهة الشرير أرسل ابنه ليدعو الناس إلى عبادة أبيه الصالح. فأتى ونسخ التوراة المتضمنة سنة العدل بالإنجيل الذي هو متضمن سنَّة الفضل. فهيج العادل عباده عليه فأمكنهم من نفسه حتى قتلوه وبقيامته من بين الأموات سبى الناس وأصارهم إلى عبادة أبيه. فلما أظهر مرقيون هذه الخزعبلة وعظته الأساقفة زماناً طويلاً فلم يرجع عن خزعبلته وتمادى في أباطيله فنفوه الجماعة وصار لعنة.

وفي هذا الزمان اشتهر جالينوس في الطب ووضع فيه كتباً كثيرة. والموجود في أيدي الناس منها الآن زهاء مائة كتاب. وكان شيخه في الطب طبيباً اسمه اليانوس. وهو الذي توجه إلى مدينة إنطاكية في السنة التي وقع الموتان في أهلها ومعه ترياق الفاروق فمن شرب منه قبل أن يمرض نجا والذين شربوه بعد المرض بعضهم نجا وبعضهم هلك. وكان أصل جالينوس من مدينة برغاموس. وكان اشتغاله في الإسكندرية. والدليل على أنه لم يكن في زمان المسيح كما ظن ولكن بعده قوله في المقالة الأولى من كتاب التشريح أنه صنفه في مبدأ ملك انطونيانس في أول مرة صعد إلى رومية. فمن صعود المسيح إلى هذه الغاية ما ينيف على مائة سنة. وقال أيضاً في شرحه لكتاب أفلاطون في الأخلاق وهو المسمى فادن: أن هؤلاء القوم الذين يسمون نصارى تراهم قد بنوا مذهبهم على الرموز والمعجزات وليسوا بأقل من الفلاسفة الحقيقيين بأعمالهم. يحبون العفة ويدمنون الصوم والصلاة ويجتنبون المظالم. وفيهم أناس لا يدنسون بالنساء. أقول: يريد بالرموز الأمثال المضروبة لملكوت السماء في الإنجيل الطاهر. ومات جالينوس بجزيرة سيقيليا وقد بلغ من العمر ثمانياً وثمانين سنة.

وقد دلت التواريخ أن بطلميوس القلوذي الرياضي كان في هذا الوقت. وهو أول من سطح الكرة واخترع خط الإسطرلاب الذي بأيدي الناس. وكتبه المشهورة في زماننا أربعة: الكتاب الكبير المسمى سونطاكسيس وهو المجسطي. وكتاب جاوغرافيا في صورة الأرض وأطوال وعروض البلدان. وكتاب

الأربع مقالات في أحكام النجوم. وكتاب الثمرة منها أيضاً.
ومن ورود ذكر ثاون الرياضي الإسكندري في المجسطي وذكر بطلميوس في القانون يستدل على إنهما كانا متعاصرين. ولثاون من الكتب الزيج المسمى بالقانون. وكتاب ذات الحلق وهي الآلة التي بها ترصد حركات الكواكب. وكتاب الإسطرلاب وكتاب المدخل إلى المجسطي.
وممن اشتهر عند الناس فضيلته في هذا الزمان الاسكندر الافروديسي شارح كتب ارسطاطاليس المنطقية و الحكمية. وقد جرى بينه وبين جالينوس محاورات عديدة. وكان يسمى جالينوس رأس البغل لقوة رأسه في البحث.

"مرقوس اورليوس قيصر" ملك تسع عشرة سنة وأشرك معه في الملك ولديه انطونيانس ولوقيوس. وفي أول ملكهم ولكش ملك الأرمن أخرب بلاداً كثيرة من أعمال اليونانيين فغزاهم ابنا مرقوس قيصر وانتصرا عليهم وأطاعوهما. وغزا أيضاً لوقيوس الصقالبة والترك وقهرهم. ولذلك يسمى اوطوقراطور أي ضابط الكل. ومات بعد تسع سنين. وولي مكانه قومذوس ابنه ومات مختنقاً.
وفي هذا الوقت ظهر رجل اسمه طيطيانوس وكان يقول بوجود عوالم كثيرة كعالمنا هذا. وأن التزويج كله زنى وشر. وأن بعد الموت أكلاً وشرباً ونكاحاً.
وظهر أيضاً في بلد آسيا مونطانس القائل عن نفسه أنه الفارقليط الذي وعد المسيح أن يوجهه إلى العالم وظهر أيضاً رجل يسمى ابن ديصان لأنه ولد على نهر ديصان فوق مدينة الرها. وكان يسمي الشمس أب الحياة والقمر أم الحياة وإن في أول كل شهر تخلع أم الحياة النور الذي هو لباسها وتدخل على أب الحياة فيجامعها فتلد أولاداً يمدون العالم السفلي بالنمو والزيادة.
"فرطيناخس قيصر" ملك ستة أشهر وقتل غيلة في مجلسه.
"سوريانس قيصر" ملك ثماني عشرة سنة. وفي السنة الأولى من ملكه ثارت فتنة عظيمة بين اليهود والسمرة فتحاربوا وقتل من الفريقين خلق كثير. ومن السنة التاسعة من ملكه إلى آخر عمره اضطهد النصارى اضطهاداً شديداً واعتسفهم بالسجود للأصنام والأكل من ذبائحهم. ثم قتل في غزو الصقالبة.
"انطونيانس قيصر" ملك سبع سنين وأزال عن النصارى الاضطهاد وغزا ما بين النهرين وقتل بين الرها وحرّان.
"ماقرينوس قيصر" ملك سنة واحدة. وفي زمانه وقع حريق فظيع في رومية. ووثب عليه غلمانه وقتلوه.
"انطونيانس قيصر المعروف باليوغالي" ملك أربع سنين. وفي زمانه بنيت مدينة نيقوبوليس. وهي التي يسميها الكتاب الإلهي عماوس. وكان يتولى بنيانها افريقيانوس المؤرخ.

الاسكندروس قيصر" ملك ثلث عشرة سنة. وكان اسم أمه ماما. هذه آمنت بالمسيح وكان منها معونة كثيرة للمؤمنين. وفي السنة الثالثة من ملك هذا الاسكندروس قيصر وهي سنة خمسمائة واثنتين وأربعين للاسكندر ابتدأت مملكة الفرس الأخيرة المعروفة ببيت ساسان. ودامت أربعمائة وثماني عشرة سنة أعني إلى ظهور الإسلام وملكهم.

"مكسيميانوس قيصر" ملك ثلث سنين واضطهد النصارى وقتل سرجيس وباخوس الشاهدين وقوفريانوس الأسقف مع جماعة من المؤمنين.

"غورديانس قيصر" ملك ست سنين. وغزا بلاد فارس وقتل هناك.وفي هذا الوقت افريقيانوس المؤرخ وضع كتباً كثيرة في الأزمنة وسير الملوك والفلاسفة.

"فيليبوس قيصر"ملك سبع سنين وأحسن إلى النصارى ورام الاجتماع مع المؤمنين. فقال له الأسقف: لا يمكنك الدخول إلى البيعة حتى تنتهي عن المحارم وتقتصر على زوجة واحدة من غير ذوات القربى. فكان يحضر وقت الصلاة ويقف خارج البيعة مع الذين ألفوا الدين و لم يكملوا فيه بعد. وفي أول سنة من ملك هذا فيليبوس ملك بفارس سابور بن اردشير إحدى وثلاثين سنة. وفي السنة الثالثة ظهر قوم من أصحاب البدع قائلين: إن من كفر بلسانه وأضمر الإيمان بقلبه فليس بكافر.وفي هذا الزمان بدأت أعمال الرهبان على يدي انطونيوس و فولى المصريين. وهما أول من اظهر لبس الصوف والتخلي في البراري.

"ذوقيوس قيصر" ملك سنة واحدة. ولبغضه فيليبوس قيصر المحسن إلى النصارى عاداهم وشدد عليهم جداً. فكفر كثيرون من المؤمنين إلى أن قتل فقدموا التوبة. وكان ناباطيس القسيس لا يقبل توبتهم قائلاً: إنه لا مغفرة لمن أخطأ بعد المعمودية. فوعظه الآباء كثيراً وسألوه الرجوع إلى رأي الجمهور. فلم يقبل. فاجتمع عليه ستون أسقفاً وأبعدوه عن البيعة وزيفوا تعليمه.

وفي زمان ذوقيوس كان الفتية السبعة أصحاب الكهف الذين هربوا منه واختفوا في مغارة فوق الكهف. ورفع خبرهم إليه فأمر أن يسد باب المغارة عليهم. فألقى الله عليهم سباتاً إلى يوم انبعاثهم من رقادهم.

"غالوس قيصر" هذا أشرك معه في الملك رجلاً يسمى ولسيانوس وملكا سنتين. ثم قتلا في سوق من أسواق رومية يسمى فلامنيوس.

وفي هذا الزمان ظهر في مدينة بوزنطيا قسيس اسمه سابيليوس وقال أن الاقانيم لثلاثة هي الوجود والحكمة والحياة ليست معاني زائدة على ذات الله تعالى بل هي صفات اعتبارية لا مسمى لشيء منها في الخارج إذ الباري تعالى موجود لا بوجود وحكيم لا بحكمة وحي لا بحياة. أقول هذا مذهب انبيذوقليس بعينه في الصفات وقد انتحله فرقة من علماء الإسلامية أيضاً وهي نفاة الصفات.

"اولارينوس قيصر"ملك تسع سنين وشدد على النصارى وعسفهم جداً.ثم غزاه سابور بن اردشير بن بابك ملك فارس ومصر وأسره في المعركة وحدره إلى بابل وسجنه هناك وملك غالوس ابنه مكانه.

"غالوس قيصر الثاني" ملك ست سنين وأزال الاضطهاد عن النصارى خوفاً مما نزل بأبيه من العقوبة.

وفي هذا الزمان ظهر من المبتدعة فولى الشميشاطي وكان يقول: إن جميع معلولات الله تعالى إرادية وليس له معلول ذاتي بته ولذلك لم يلد و لم يولد. ولهذا لم يكن المسيح كلمة الله ولا أيضاً ولد من عذراء كما ورد في ظاهر المذهب وإنما حصل له الكمال بالاجتهاد. فكل من تعاطى رياضته نال درجته. وذكر اوسابيوس المؤرخ عن هذا فوليأنه استعان بامرأة يهودية رأّسها غالوس قيصر على الشام وكانت تستحسن علمه وكلامه. وفوضت إليه بطركية إنطاكية. فكان يجلس على سرير عال وصبايا حسنات النغمة يزمرن زبور داود بين يديه. وكان متهماً بالزنى معهنَّ. فاجتمع عليه عدة من الأساقفة وحرموه واتباعه.

"قلوذيس قيصر" ملك سنتين. وفي أول سنة من ملكه ظهرت في السماء آية إكليل من نار.

"اورلينوس قيصر" ملك ست سنين وهادن سابور ملك فارس وزوجه ابنته. فبنى لها سابور بفارس مدينة شبه بوزنطيا وسماها جنديسابور. وكان قد أرسل اورلينوس في خدمة ابنته جماعة من الأطباء اليونانيين وهم بثوا الطب البقراطي بالمشرق. وفي السنة السادسة لاورلينوس هم بالتضييق على النصارى. وبينما هو يفكر بذلك برق فاستظلمه ومات. وفي هذه السنة ملك بفارس هرمزد سنة واحدة.

وفي هذا الزمان عرف ماني الثنويّ. هذا كان أول أمره يظهر النصرانية وصار قسيساً بالأهواز وكان يعلم ويفسر الكتب ويجادل اليهود والمجوس والوثنيين. ثم مرق من الدين وسمى نفسه مسيحاً واتخذ اثني عشر تلميذاً وأرسلهم إلى بلاد المشرق بأسرها حتى الهند والصين وزرعوا فيها علم الثنوية وهو أن للعالم إلهين أحدهما خير وهو معدن النور والآخر شر وهو معدن الظلمة. وإنهما تمازجا فانتصر الخير على الشر فانتقل الشر إلى جهة الجنوب ليعمل هناك عالماً ويتسلط عليه. ولما شرع وعمل بنا نعش حول القطب الجنوبي كهذه التي حول القطب الشمالي أصلحت الملائكة بينهما بأن ألقى الخير شيئاً من نوره على الهيولي فوجد عالم قابل للكون والفساد وتسلط عليه الشر. ولأن الخير إنما فعل ذلك مكرهاً ومجبراً خلق في السماء سفينتين كبيرتين هما الشمس والقمر وصار يجمع فيهما أنفس الناس ويسترجع نصيبه الذي صار إلى الشر ليخلو الهيولي رويداً رويداً من آثار الخير فيبطل سلطان الشر. وكان يقول بالتناسخ وإن في كل شيء روحاً مستنسخة. وكان يفرط في تمجيد النار وتعظيم شأنها ويؤهلها للتقديس والتسبيح كل ذلك لنورها وإضاءتها وتوسطها في المكان بين الفلكيات والعنصريات. وأهل الأرض للتحقير لكونها مظلمة لا يستضيء باطنها بالفعل ولا بالقوة. وهذا المذهب قد كان قديماً للفرس و لم يبتدعه ماني ولكن شيَّده بالحجج الاقناعية. ونعم ما أجاب عنه الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا إذ قال: كيف السبيل إلى أن يوجد

في النار كل معنى واقع في حيز الخير وفي الأرض كل معنى واقع في حيز الشر. فإن الأرض حيز البقاء والحياة للحيوان والنبات. والنار مفرطة الكيفية مفسدة بتفريق أجزاء المركب وتشتيتها. وقيل أن سابور ملك الفرس قتل ماني وسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه على سور المدينة لأنه كان يدعي الدعاوي العظيمة وعجز عن إبراء ابنه من مرض عرض له.

"طططقيطوس قيصر" ملك ستة أشهر وقتل في المركب وملك بفارس هرمزد.

"فلوريانس قيصر" ملك شهرين وقتل بمدينة طرسوس.

"فروبوس قيصر" ملك سبع سنين. وفي أول سنة من ملكه ملك بفارس ورهران ثلاث سنين وبعده ورهران ابنه سبع عشرة سنة. ثم أن فروبوس قيصر قتل في الحرب بمدينة سرمين.

"قاروس قيصر" ملك سنتين ومات ما بين النهرين. وقتل نوميروس ابنه في الحرب ببلد إفريقية. وقورينوس ابنه الآخر قتل أيضاً في حرب الجرامقة وهم قوم بالموصل أصلهم من الفرس. وفي السنة الثانية لملك قاروس قتل قوزما ودوميانى الشهيدان.

"ذيوقليطيانوس قيصر" ملك عشرين سنة وأشرك معه في الملك ثلاثة نفر أُخر. أحدهم مكسانطيس ابنه وهو كان مقيماً برومية. وقسطنطينوس ببوزنطيا. ومكسيميانوس ختن ذيوقليطيانوس بمصر والشام. وفي هذا الزمان عصى أهل مصر فأرسل إليهم ذيوقليطيانوس جيوشاً فأهلكوهم. وفي السنة الحادية عشرة له ملك بفارس نرسي سبع سنين. وملك بعده هرمزد خمس سنين. وفي السنة التاسعة عشرة أمر بهدم كنائس النصارى فهدمت كلها. وضيق عليهم جداً وقتل منهم خلقاً كثيراً وأحرق كتبهم. وفي هذه السنة عرض جوع عظيم حتى بلغ المدي أعني القفيز الشامي من الحنطة ألفين وخمسمائة درهم. ثم أن ذيوقليطيانوس اعتزل من الملك وخلط نفسه بالعامة إلى وقت وفاته. وفعل مكسيميانوس ختنه أيضاً كذلك. وبقي في الملك مكسانطيس وقسطنطينوس. ومن أول سنة ملك ذيوقليطيانوس وهي سنة خمسمائة وست وتسعون للاسكندر يبتدئ تاريخ ذيوقليطيانوس الذي يؤرخ به القبط ويسمونه تاريخ الشهداء أي الذين استشهدوا في هذه السنة.

وفي دولة ذيوقليطيانوس هذا اشتهر في علم الفلسفة فرفوريوس الصوري وله النباهة فيه والتقدم. ولما صعب على صديق له يسمى خروساوريوس معرفة كلام ارسطاطاليس شكا إليه ذلك. فقال: كلام الحكيم يحتاج إلى مقدمة قصّر عن فهمها طلبة زماننا لفساد أذهانهم. وشرع في تصنيف كتاب ايساغوجي ومعناه المدخل. فأخذ عنه وأضيف إلى كتاب ارسطو وجعل أولاً لها وسار مسير الشمس إلى يومنا هذا. فمن تصانيفه هذا الكتاب وكتاب المدخل إلى القياسات الحملية. وكتابان له إلى رجل اسمه لبانوا. وكتاب

في الرد لمحيوس في العقل والمعقول تسع مقالات توجد سريانياً. وكتاب أخبار الفلاسفة وجد منه المقالة الرابعة بالسرياني. وكتاب الاسطقسات مقالة توجد سريانياً.

"قسطنطيس قيصر الكبير" ملك اثنتي عشرة سنة أخرى بعد موت ذيوقليطيانوس. وكان به برص فأشار عليه خدم الأصنام أن يذبح أطفال المدينة ويغتسل بدمائهم فيبرأ من مرضه. فأخذ جماعة من الأطفال ليذبحهم فصارت مناحة عظيمة في المدينة فأحجم عن قتلهم. وفي تلك الليلة رأى في منامه فطروس وفولوس يقولان له: وجه إلى سيليبيطريس أسقف رومية فجئ به فهو ويبرئ مرضك. فلما أصبح وجه في طلبه. فأتوه به ووعظ الملك وأوضح له سر النصرانية فدعا له. وتعمد فذهب مرضه وأمر ببناء كنائس النصارى المهدومة. ومع هذا كان تمسكه بالدين واهياً.

"قسطنطينوس قيصر القاهر" ملك اثنتين وثلاثين سنة. وفي السنة الثانية له ملك على الفرس سابور بن هرمزد تسعاً وستين سنة. وفي السنة الثالثة لملكه أمر فبني لبوزنطيا سور فزاد في ساحتها أربعة أميال وسماها قسطنطينية ونقل الملك إليها. وفي السنة السابعة استعد لغزو مكسانطيس ابن بنت ذيوقليطيانوس لأنه عصى و لم يبايعه وغلب على رومية. وكان قسطنطينوس يتفكر إلى أي الآلهة يلجئ أمره في هذا الغزو. فبينما هو في هذا الفكر رفع رأسه إلى السماء نصف النهار فرأى راية الصليب في السماء مثال النور وكان فيه مكتوب إن بهذا الشكل تغلب. فصاغ له صليباً من ذهب وكان يرفعه في حروبه على رأس الرمح. ثم أنه غزا رومية فخرج إليه مكسانطيس ووقع في نهر فاختنق. فافتتح قسطنطينوس مدينة رومية. واعتمد في هذا الوقت برومية من اليهود وعبدة الأصنام زهاء اثني عشر ألف خلا النساء والصبيان. ثم تنصرت هيلاني أمه بعد ذلك واعتمدت وشخصت إلى أورشليم حاجّة وطلبت صليب المسيح بعناية وأمرت ببناء كنائس المسيح فيها وأخذت الصليب وحملته إلى قسطنطينية. و لم يزل دين النصرانية يظهر ويقوى إلى أن دخل فيه أكثر الأمم المجاورة للروم من الجلالقة والصقالبة وبرجان والروس واللان والأرمن والكرج وجميع أهل مصر من القبط وغيرهم وجمهور أصناف السودان من الحبشة والنوبة وسواهم. وآمن بعد هؤلاء أصناف من الترك أيضاً.

وبنى قسطنطينوس بيعة عظيمة بالقسطنطينية وسماها أجيا سوفيا أي حكمة القدوس. وبيعة أخرى على اسم السليحين. وبنى بيعة بمدينة بعلبك وكان أهلها يتشاركون في النساء و لم يخلص لأحدهم نسب فكفهم عن ذلك فكفوا. وبنى بإنطاكية هيكلاً ذا ثماني زوايا على اسم السيدة. وفي أيامه حاصر سابور ملك الفرس مدينة نصيبين ثلاثين يوماً. وبدعاء مار يعقوب أسقفها ومار افريم تلميذه رحل عنها خائباً. وفي عودته غزا ما بين النهرين. فنهض قسطنطينوس لمحاربته وعند وصوله إلى نيقوموذيا أدركته المنية سنة

اثنتين وأربعين وستمائة للاسكندر وذلك يوم الأحد لثمانٍ بقين من أيار وكان عمره خمساً وستين سنة. وفي مرضه قسم الملك على أولاده الثلاثة وملّك الكبير المسمى باسمه قسطنطينوس على قسطنطينية. ورتّب الآخر المسمى قسطنطيس على مصر والشام وما بين النهرين وأرمينية. ورتب الصغير المسمى قوسطوس على رومية واسفانيا وما يليها من ناحية المغرب.

وفي هذا الزمان ظهر آريوس المبتدع. هذا كان قسيساً خطيباً بالإسكندرية. فعلا ذات يوم مشهود المنبر ليخطب كعادته وابتدأ بخطبته من كلام سليمان بن داود وهو قوله: الرب خلقني في أول خلائقه. وأخذ يقرر أنه عنى بذلك كلمة الله فهي مخلوقة مبينة بالجوهر لذات الله لأنها عبارة عن العقل الذي هو المعلول الأول وهو أول ما خلق الله. فكتب الملك كتاباً إلى جميع الأساقفة وقال فيه: إنه لاشيء آثر عندي ولا أزين في عيني من خشية الله ومراقبته. وقد رأيت الآن أن تعزموا على القدوم إلى مدينة نيقيا من غير وني لكي تفحصوا عن أمر دينيّ دعت الحاجة إلى تحقيقه. فاجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ونظروا فيما تفوه به آريوس فوجدوه مخالفاً لأصل المذهب فزيفوا علمه الفاسد ورتبوا الأمانة المشهورة واجتمعت الفرق المسيحية كلها على صحتها إلى يومنا هذا. وكان اجتماعهم سنة ستمائة وست وثلاثين للاسكندر.

وكان في هذا المجمع أسقف يرى رأي ناباطيس. فقال له الملك: لم لا توافق الجمهور في قبول من تاب عن معاصيه منيباً إلى الله. فأجابه الأسقف: إنه لا مغفرة لمن فرطت منه كبيرة بعد الإيمان والعماد بدليل قول فولوس الرسول حيث يقول: لا يستطيع الذين ذاقوا كلمة الله أن يدنسوا بالخطيئة ليطهروا بالتوبة ثانية. فقال له الملك هازئاً به: إن كان الأمر كما تزعم فانصب لك سلماً لترق فيه وحدك إلى السماء. ونهض بعض الأساقفة فرفع إلى الملك كتاباً فيه سعاية ببعض الأساقفة. فلما قرأه الملك أمر أن يحرق الكتاب بالنار وقال: لو وجدت أحداً من الكهنة في ريبة لسترته بأرجوانيَّتي.

"قسطنطينوس وقسطوس وقسطنطيس" بنو القاهر ملكوا خمساً وثلاثين سنة. ثم أن قسطنطينوس صار إلى نيقوموذيا فأخذ جسد أبيه فحنطه ووضعه في صندوق ذهب وحمله إلى قسطنطينية ووضعه في هيكل السليحين. وفي هذه السنة صعد سابور ملك الفرس فغزا نصيبين لما بلغه وفاة قسطنطينوس القاهر فحاصرها ثلاثين يوماً ورجع عنها إلى مملكته خائباً وذلك بدعاء القديس مار افريم. فإن الله استجاب دعاءه وأرسل على جيش الفرس بقّاً وهمجاً هزم فيلتهم وخيلهم. ثم إن سابور اضطهد النصارى الذين في سلطانه جداً. وفي هذه السنة مات مار يعقوب أسقف نصيبين وقام مكانه بأبويه.

وفي هذا الزمان عرف الحكيم الفارسي ووضع كتباً كثيرة في تشييد مذهب النصارى ونقض مذهب المجوس. وفي السنة السادسة لملك هؤلاء عرض بأنطاكية رجفات وزلازل كثيرة و لم تزل الأرض ترتجّ عامّة السنة مع سلامة من الفساد. ثم أن قسطنطينوس صاحب القسطنطينية وهو الأخ الكبير قتل في

حرب وقعت بينه وبين أخيه الصغير وهو قسطوس صاحب رومية. وخلف ابنين غالوس ويوليانوس. ثم إن قسطنطيس وهو الأخ الأوسط صاحب مصر والشام نصب غالوس ملكاً على القسطنطينية مكان أبيه. فعصى على عمه الذي نصبه. فسيَّر عمُّه عليه جيشاً وقتله ونصب أخاه يوليانوس مكانه. وبعد قليل قتل قسطوس صاحب رومية. ومات أيضاً قسطنطيس صاحب مصر والشام. واستقل يوليانوس بجميع الممالك.

"يوليانوس قيصر" ملك سنتين بعد موت عميه وسمي بارابطيس أي المارق لأنه خلع ربقة النصرانية من عنقه وعبد الأصنام. ولذلك وثب الوثنيون على النصارى ووقع بينهم بلاء عظيم بالإسكندرية وقتل من الجانبين خلق كثير. ثم أن يوليانوس الملك منع النصارى من الاشتغال في شيء من كتب الفلسفة وسلب آنية الكنائس والديورة واستصفى مال من لم يطعه من النصارى في أكل ذبائح الأصنام وأهلك كثيرين منهم. ثم إنه عزم على غزو الفرس ودخل على أفولون الحبر الخادم للصنم ليستعلم منه هل ينجح في غزوه أم لا. فحكم له أنه يقهر أعداءه على نهر دجلة. فاستكبر لذلك يوليانوس وصال جداً وجمع جيوشه وغزا الفرس. فلما وصل إلى حران وأراد الخروج منها نكّس رأسه ساجداً لآلهة الحرانيين. فسقط تاجه عن رأسه وصرع فرسه الذي كان تحته. فقال له خادم الصنم: إن النصارى الذين معك هم جلبوا عليك هذه البلايا. فأسقط منهم يومئذ زهاء عشرين ألف رجل. وسار حتى وافى المدائن. ولما نشب الحرب بينه وبين الفرس على دجلة صار يسير في صفوف مقاتليه وينشطهم للحرب. فرماه بعض الفرس بسهم فأصاب جنبه فسقط عن دابته. وبينما هو يتعذب إذ أخذ ملء حفنته دماً من دمه فرشّه في الجو نحو السماء وقال: إنك غلبتني يا ابن مريم فرث مع ملك السماء ملك الأرض أيضاً. فمات وحمل إلى مدينته طرسوس ودفن بها.

وكان ليوليانوس هذا كاتب اسمه ثامسطيوس فيلسوف مشهور في زمانه فسر أكثر كتب ارسطوطاليس وصنف كتاباً ليوليانوس في التدبير وسياسة الممالك ورسالة له أيضاً تتضمن الكف عن اضطهاد النصارى وذكر فيها أن الله عز وجل يحب أن يعبد بوجوه مختلفة فإن الفلاسفة أيضاً متشعبة إلى ثلاثمائة مذهب. فأقنعه كلامه فيها وكفه عن أذيتهم فانكف. ومن الفلاسفة القريبة العهد من هذا الزمان نيقولاوس قد تقدم في معرفة الحكمة. وله من التصانيف كتاب من حمل فلسفة ارسطوطاليس ولنا نسخته بالسرياني نقل حنين بن اسحق. وكتاب النبات. وكتاب الرد على جاعل العقل والمعقولات شيئاً واحداً. قال ابن بطلان: أن أصله من اللاذقية وبها ولد. ومنهم دورثيوس وهو رياضي له اليد الطولى في علم الفلك والأحكام النجومية. وتصانيفه مشهورة عند أهل هذا العلم في المواليد والأدوار. ومنهم ديوفنطس وكتابه

أب اسمه في الجبر والمقابلة مشهور وإذا تبحر فيه الناظر رأى بحراً من هذا النوع.

"يوينيانس قيصر" لما قتل يوليانوس المارق بقي عسكر الروم بغير ملك. فاختاروا صاحب جيشه وهو يوينيانس المؤمن بمشورة سابور ملك الفرس. فامتنع وقال: أنني نصراني لا أرضى أن أكون ملكاً للوثنيين. فأعلموه أنهم أيضاً نصارى ومن خوفهم من المارق لم يظهروا أديانهم. فأخرج لهم صليباً من الخزانة ونصبه لهم في المعسكر. وجرى الصلح بينهم وبين الفرس فشيعه سابور إلى نصيبين ووهبها له. ونقل من كان بها من الروم إلى آمد. ومن هذا اليوم صارت نصيبين للفرس. ثم أن يوينيانس توفي بعد أن ملك سنة واحدة.

"اولنطيانس قيصر" ملك ثلاث عشرة سنة. وولى واليس أخاه على المشرق. وخرج على واليس رجل خارجي بقسطنطينية يسمى فروقرينوس. فلزمه واليس وأمر بشد رجليه بشجرتين أدنيت إحداهما من الأخرى فانفسخ بينهما. وسقط برد بقسطنطينية كالحجارة وعرضت رجفات وزلازل وخسف في مواضع كثيرة وانخسفت مدينة نيقيا أيضاً. وظهر قوم يعرفون بالمصلين وكانوا يقولون: كل من صلى وصام اثنتي عشرة سنة يأمر الجبل أن ينتقل من مكانه فينتقل كما جاء في الإنجيل المقدس. فكان إذا تعبد أحدهم هذه المدة خرج فقال للجبل: إيَّاك آمر انتقل عن مكانك. فإذا لم يكن ذلك يئس من قبول عبادته وأخذ في الأكل والشراب والفساد. وفي السنة الثالثة عشرة لاولنطيانس تجاوز الناموس وتزوج بامرأة حسنة الصورة في حال حياة زوجته الناموسية وأطلق للناس أن يجمعوا بين زوجتين إن أرادوا الجمع بينهما. وفي تلك السنة مات.

"واليس قيصر" لما مات أخوه اولنطيانس استقل هو وحده بالملك واستعد لغزو الفرس. فبينا هو يحاربهم إذ دخل إلى قرية كانت إلى جانبه مع نفر من أصحابه. فأخبر الأعداء أنه هناك فأحاطوا بالقرية والقوا فيها ناراً. فاحترق واليس ومن كان معه من أصحابه بعد أن ملك سنتين بعد أخيه.

"غراطيانس قيصر" هو ابن اولنطيانس. ملك سنة واحدة. وفي هذه السنة مات سابور ملك الفرس بعد أن ملك سبعين سنة. وقام بعده اردشير أخوه أربع سنين. ثم غراطيانس أشرك معه في ملكه رجلاً يقال له ثاوذوسيوس وكان وثنياً وآمن بالمسيح واعتمد. وتوفي غراطيانس.

"ثاوذوسيوس قيصر الكبير" ملك سبع عشرة سنة وأمر أن يلزم كل أحد دينه. وفي السنة الخامسة خرج برومية خارجي يسمى مكسيموس. فوجه إليه ثاوذوسيوس جيوشاً فقتل. وفي السنة السادسة ولد له ولد فسماه انوريس. وفي هذه السنة ظهرت في السماء آية كعمود من نار ولبثت شهراً. وفيها عرضت ظلمة شديدة نصف النهار في شهر آذار. ثم أن ثاوذوسيوس مرض فوجه في طلب انوريس ابنه وبايع له ووجهه إلى المغرب. وبايع لارقاذيوس ابنه الآخر ووجهه إلى المشرق. وتوفي وعمره ستون سنة.

"ارقاذيوس قيصر" ملك ثلث عشرة سنة. وفي هذه السنة قام يوحنا فم الذهب بطركاً على قسطنطينية ووضع تفسير الإنجيل وهو ابن ثماني وعشرين سنة. ومنع الكهنة من أمور كثيرة من الفساد. فحسدوه وجعلوا يطلبون عليه عثرة. ونهى الملكة اودكسيا امرأة ارقاذيوس عن اختلاسها كرم امرأة أرملة. ولأنها أبت رشقها في بعض خطبه ذات يوم وشبهها بازبيل امرأة أحاب ملك يهوذا التي أخذت كرماً أيضاً من أرملة. فركبت يوماً من الأيام وأخذت معها تسعة وعشرين أسقفاً ممن عادى يوحنا فم الذهب واجتمعوا بمدينة خلقيذونيا وحرموه أسقطوه من مرتبته بحجة أنه لم يدع النظر في كتب اوريغانيس المخالف.
فاضطرب أهل القسطنطينية لذلك وهموا بإحراق دار الملك. فخافهم الملك وبعث إلى فم الذهب ورده إلى مرتبته. فلما رجع رفع تمثالاً كان للملكة بالقرب من الكنيسة. وخطب ذات يوم وسمى الملكة الملكة هيروذيا أي الملكة التي قتلت يحيى بن زكريا المعمدان. فغضبت غضباً شديداً ووجهت إلى افيفانوس أسقف جزيرة قبرص وسائر الأساقفة فجمعتهم كلهم إلى قسطنطينية. فحرموه ثانيةً ونفوه وكان ذلك في السنة الثامنة لارقاذيوس. فنفي إلى جزيرة في بحر نيطوس وتوفي هناك. وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة.
وثارت الفتن بين الروم والمصريين بسبب عظام يوحنا فم الذهب حتى أتوا بها بعد ثلث وثلاثين سنة لموته فدفنوها بقسطنطينية وأثبتوا اسمه في سفر الحياة مع باقي الآباء القديسين. وفي السنة الخامسة لارقاذيوس ملك على الفرس يزدجرد ابن سابور إحدى وعشرين سنة. ثم أن ارقاذيوس مات وهو ابن ثلاثين سنة وخلف ابنه ثاوذوسيوس ابن ثماني سنين.
"ثاوذوسيوس قيصر الصغير" ملك اثنتين وأربعين سنة. وفي هذا الزمان كثر النصارى في سلطان الفرس وظهرت النصرانية جداً على يدي مروثا أسقف ميافارقين الذي أرسله ثاوذوسيوس الصغير إلى الفرس. ثم إن يزدجرد ملك الفرس مات. وملك بعده ورهران ابنه وتشدد على النصارى. وتواقع الروم والفرس وقتل من الفريقين خلق كثير وكانت الهزيمة على الفرس. وزال التشديد عن النصارى. وفي السنة العاشرة لثاوذوسيوس الصغير عرف شمعون صاحب العمود بإنطاكية وكان يظهر الآيات والعجائب وكان في هذا الزمن من العلماء قوريلوس بطريرك الإسكندرية ونسطوريوس بطريرك القسطنطينية القائل باتحاد المشيئة دون نفس الكلمة. فاسقط لذلك. ومار اسحق تلميذ مار افريم صاحب الميامر المنظومة.
وفي هذا الزمان انبعث أصحاب الكهف من رقدتهم التي رقدوا على عهد ذاقيوس الملك بعد مائتين وأربعين سنة بالتقريب. فخرج ثاوذوسيوس الملك مع أساقفة وقسيسين وبطاركة فنظروا إليهم وكلموهم. فلما انصرفوا من عندهم ماتوا في مواضعهم. وكانت في هذه السنة زلزلة عظيمة بقسطنطينية فهرب عامة الناس إلى خارج المدينة وسقطت بها مواضع كثيرة. وفي سنة ثلث وثلاثين لثاوذوسيوس مات ورهران ملك الفرس وملك بعده يزدجرد ثماني سنين. وفي هذا الزمان خطب يهيبا أسقف الرها ذات يوم خطبة

وقال فيها: إني لست أحسد المسيح على تألهه لأن كل ما صار فيه فأنا مثله. فحرم ونفي من كرسيه. وفي سنة إحدى وأربعين لثلوذوسيوس وُجد رأس يوحنا المعمدان بحمص. وتوفي ثاوذوسيوس وعمره خمسون سنة.

"مرقيانوس قيصر" ملك سبع سنين وتزوج فوليخريا أخت ثاوذوسيوس الصغير التي كانت راهبة لأن جماعة من الأساقفة المرائين أفتوها في أمر الزواج وقد كانت قبل ذلك متهمة بالزناء معه. وفي السنة الثانية لمرقيانوس اجتمع ستمائة وثلاثون أسقفاً بمدينة خلقيذونيا وحرموا ديوسقوروس بطرك الإسكندرية وقالوا بالطبيعتين والاقنوم الواحد على ما هم عليه الروم والإفرنج. ولما ملك مرقيانوس سبع سنين مات وعمره خمس وستون سنة.

"لاون قيصر": ملك ثماني عشرة سنة. وفي أول ملكه ملك على الفرس فيروز ابن يزدجرد سبعاً وعشرين سنة. وفي هذه السنة التي ملك فيها لاون وهي سنة تسع وسبعين وثمانمائة للاسكندر صارت زلزلة قوية بمدينة إنطاكية وخسف فيها مواضع كثيرة. وفي السنة التاسعة له انكسفت الشمس وظهرت النجوم نهاراً. وبعد ذلك بسنة غزا الفرس آمد وخربوها بعد ما حاصروها. ولما مرض لاون بايع لاونطيوس ابن ابنته وعمره ست سنين.

"لاونطيوس قيصر" ملك سنة واحدة. هذا لكونه صبياً خدعته أمه قائلة له: إذا حضر زينون أبوك في الخدمة يجب عليك أن تكرمه وتجلسه معك على السرير وتضع تاجك على رأسه. فلما عمل الصبي بقول أمه صار يجلس زينون معه على السرير. وبعد أيام قلائل مرض الصبي ومات. واستراب الناس بأبويه أنهما قتلاه مستبدين بالمملكة.

"زينون قيصر" ملك خمس عشرة سنة. وفي آخر أيامه عصى السمرة بنابلس ونصبوا لهم ملكاً قتل جمعاً كثيراً من النصارى. فسير عليه زينون جيشاً وقتل الخارجي السامري. ثم مرض زينون ومات وعمره إحدى وستون سنة.

"انسطس قيصر" ملك سبعاً وعشرين سنة. وفي أول ملكه قتل كثيرين من صبيان المكتب لأنهم هجوه. وفي السنة الثالثة له بنيت داراً التي فوق نصيبين. ثم إن انسطس الملك أراد أن يوضع في البيعة قول المؤمنين في صلواتهم إنك صلبت من أجلنا. فاضطرب أهل القسطنطينية كلهم وأخذوا الحجارة ليرجموه بها. فهاله أمرهم وجبن عنهم فوضع تاجه عن رأسه قائلاً: إني أنتهي إلى أمركم فيما تريدون. فكف الشعب عنه. وفي السنة الحادية عشرة له عرض في بلاد الروم جوع شديد وظهر جراد كثير وأفسد عامة غلاتهم. ووضع يعقوب السروجي ميامر على ذلك.

وفي هذا الزمان عرف ساويروس بطرك إنطاكية ووضع كتباً كثيرة في تصحيح القول بالطبيعة الواحدة من طبيعتي اللاهوت والناسوت بغير امتزاج ولا اختلاط بل وفساد بل مع بقائهما على ما كانتا عليه ككون طبيعة الإنسان من طبيعتي النفس والبدن وطبيعة الجسم من طبيعتي الهيولي والصورة من غير انقلاب النفس بدناً ولا الهيولي صورة وبالعكس.

"يوسطينيانس قيصر" ملك تسع سنين. وكان أصله من رومية. هذا أصلح جميع البيع ورد كل من نفاه الملوك قبله. وفي السنة السابعة لملكه اقتتل الروم والفرس إلى شاطئ الفرات وغرق من الروم خلق كثير. وفي هذه السنة سقط ثلج كثير وجليد وأفسد عامة الأشجار مع الكروم. وبعد سنة قلت الأمطار وعزت الغلات ونقص الماء في الينابيع ثم تبع ذلك حر قوي ووباء شديد ودام ست سنين. وفي هذه السنة وجه يوسطينيانس وفداً إلى المنذر ملك العرب ليصالحه لأنه كان غزا الروم وخرب وسبى. وكان سبب الفتنة بين العرب والروم اضطهاد الملك يوسطينيانس الآباء القائلين بالطبيعة الواحدة لأن النصارى العرب يومئذ إنما كانوا يعتقدون اعتقاد اليعقوبية لا غير. وفي هذا الوقت غزا كسرى ملك الفرس مدينة الرها وقتل فيها خلقاً كثيراً. فظهر نجم ذو ذؤابة وثبت أربعين ليلة. وفي السنة التاسعة لملكه أشرك معه في الملك يوسطينيانس الصغير وكان ابن أخته. وبعد ثلاثة أشهر مات.

"يوسطينيانس قيصر الصغير" ملك ثماني وثلاثين سنة وأمر أن يجتمع جميع أساقفة أصحاب ساويروس القائلين بالطبيعة الواحدة إلى قسطنطينية. فلما اجتمعوا وعظهم وعظاً كثيراً وسألهم أن يوافقوا مجمع خلقيذونيا بالقول بالطبيعتين والاقنوم الواحد. فلما لم يقبلوا قوله صرفهم إلى مواضعهم. وفي السنة التاسعة له انكسفت الشمس وثبت كسوفها السنة كلها وزيادة شهرين و لم يكن يظهر من نورها إلا شيء يسير. وكان الناس يقولون أنه قد دخل عليها عرض لا يزول عنها أبداً. وفي هذه السنة ظهر جراد كثير في عامة الأرض وكان الشتاء صعب البرد غزير الثلج ومات فيه خلق كثير. وبعد سنة ظهرت في السماء آية عجيبة بردت حرارة الشمس السنة بأسرها و لم تنضج الثمار في تلك السنة. وفي هذا الزمان عرف سرجيس الرأس عينيٌّ الفيلسوف المترجم الكتب من اليوناني إلى السرياني ومصنفها. وكان على مذهب ساوري. وفي السنة الرابعة عشرة ليوسطينيانس غزا كسرى ابن قباذ إنطاكية وافتتحها وسبى أهلها وحدرهم إلى بابل وبنى لهم مدينة وسماها إنطاكية وتعرف اليوم بالماحوزى الجديدة. وفتح أيضاً فامية والرقة ودارا وحلب.

وكان الروم مشتغلين مع الصقالبة المتاخمين لرومية. فلما فرغوا من مجاهدتهم عطفوا على الفرس وبقيت الحرب بينهم سنتين. وعرض في المشرق جوع شديد ووباء عظيم في الناس والبقر حتى صار الناس يحرثون

أرضهم بالحمير والخيل. وفي السنة الثامنة والعشرين ليوسطينيانس اصطلح الروم والفرس. وفي السنة الخامسة والثلاثين له كتب إلى جميع الأساقفة أن يعملوا عيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الأول. والدنح لستة أيام من كانون الأخير.فامتثلوا أمره خلا الأرمن فإنهم داموا على العادة الأولى في تعييد العيدين في يوم واحد. وفي هذا الوقت ظهر يولياني القائل أن جسد المسيح غير مخلوق وهو جوهر لطيف روحاني لم يصلب بالحقيقة و لم يمت وإنما كان ذلك كله خيالاً. ومع هذا كان يقول بالطبيعة الواحدة.

"يوسطينيانس قيصر الثالث" ملك ثلث عشرة سنة. وهو ابن أخت الذي قبله. وفي السنة الثانية لملكه ظهر في السماء نار تضطرم من ناحية القطب الشمالي وثبتت السنة كلها. وكانت الظلمة تغشي العالم من تسع ساعات من النهار إلى الليل حتى لم يكن أحد يبصر شيئاً. وكان يتزل من الجو شبه الهشيم والرماد. وفي السنة الثالثة له قلت الأمطار وصار الشتاء كالصيف وصار زلزلة شديدة ووباء عظيم. وفي السنة الرابعة له غزا كسرى دارا وأقام عليها ستة أشهر وافتتحها. واستعد يوسطينيانس لغزو الفرس فمرض مرضاً اختلط به عقله فبطل الغزو. ثم تعالج فبرئ وبايع رجلاً يونانياً يسمى طيباريوس وكان من خاصته وجعله قيصراً بعده.

الدولة الثامنة

المنتقلة إلى ملوك اليونانيين المتنصرين

من عهد أغسطوس قيصر إلى أن أقام طيباريوس قيصر والمدة قريبة من ستمائة سنة. كان الملوك على القسطنطينية والبطارقة وجلّ الجند روميين أعني إفرنجا. غير أن الوزراء والكتّاب والرعايا كافة كانوا يونانيين. ثم صارت المملكة أيضاً يونانية. والسبب في ذلك أن يوسطينيانس الأخير لما ابتلي بالمرض الشديد ويئس من حياته لم ير في أهل بيته وخاصته من يفي بسياسة الملك غير وزيره طيباريوس وهو رجل يوناني فبايعه ووضع له التاج بيده. ومن حينئذ صارت مملكة القسطنطينية يونانية. إلى أن استعادها الإفرنج في سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة للاسكندر وهي سنة ستمائة للهجرة. ثم فتحها اليونانيون في أيامنا سنة ألف وخمسمائة وثماني وستين للاسكندر وهي سنة خمس وخمسون وستمائة للهجرة.

"طيباريوس قيصر" ملك أربع سنين. وغزت الفرس رأس العين فوجه إليهم طيباريوس كبير بطارقته المسمى موريقي. فلقيهم هناك فهزمهم. ثم لحق طيباريوس مع موريقي أجناده فغزا الفرس وسبى منهم زهاء ألف نفس ومضى بهم فأسكنهم جزيرة قبرس. وعرضت في هذه السنة زلزلة عظيمة. وعرض في

الصيف أمطار كثيرة وبرد شديد وأظلم الجو وظهر جراد كثير فأكل عامَّة الزروع والعنب والبقول. وفيها عرض وباء شديد. ووجد الناس يعبدون الأوثان فقتلوا. وفي السنة الرابعة لطيباريوس زوج ابنته لموريقي عظيم قواده وبايع له بالعهد وملَّكه وتوفي.

"موريقي قيصر" ملك عشرين سنة. وكان حسن السيرة سهل المعاملة كثير الصدقة. وكان في كل سنة يهيئ طعاماً للفقراء والمساكين ستين مرة ويقوم هو وزوجته من ملكهما فيتوليان خدمتهم وإطعامهم واسقاءهم. وفي السنة الرابعة لموريقي عرض وباء شديد بقسطنطينية ومات من أهلها زهاء أربعمائة ألف نفس. وفي السنة الثامنة لموريقي وثب الفرس على هرمز ملكهم فسملوا عينيه ثم قتلوه وملكوا عليهم بهرام المرزبان. وكان لهرمز ابن حدث اسمه كسرى وهو المعروف بأنوشروان العادل فتنكر كأنه سائل وشق سلطان الفرس حتى جاء نصيبين وصار إلى الرها ومنها إلى منبج وكتب إلى موريقي كتاباً نسخته: للأب المبارك والسيد المقدم موريقي ملك الروم من كسرى بن هرمز ابنه السلام. أما بعد فأني أُعلم الملك أن بهرام ومن معه من عبيد أبي جهلوا قدرهم ونسوا أنهم عبيد وأنا مولاهم وكفروا نعم آبائي لديهم فاعتدوا علي وأرادوا قتلي. فهممت أن أفزع إلى مثلك فأعتصم بفضلك وأكون خاضعاً لك لأن الخضوع لملك مثلك وإن كان عدواً أيسر من الوقوع في أيدي العبيد المردة ولأن يكون موتي على أيدي الملوك أفضل وأقل عاراً من أن يجري على أيدي العبيد. ففزعت إليك ثقةً بفضلك ورجاء أن تترأف على مثلي وتمدني بجيوشك لأقوى بهم على محاربة العدو وأصير لك ولداً سامعاً ومطيعاً إن شاء الله تعالى. فلما قرأ موريقي كتاب كسرى بن هرمز عزم على إجابة مسألته لأنه لجأ إليه وأنجده بعشرين ألفاً وسيَّر له من الأموال أربعين قنطاراً ذهباً. وكتب إليه كتاباً نسخته: من موريقي عبد ايشوع المسيح إلى كسرى ملك الفرس ولدي وأخي السلام. أما بعد فقرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر العبيد الذين تمردوا عليك وكونهم غمطوا أنعم آبائك وأسلافك غمطاً وخروجهم عليك ودحضهم إياك عن ملكك. فداخلني من ذلك أمرً حركني على الترأف بك وعليك وإمدادك بما سألت. فأما ما ذكرت من أن الاستتار تحت جناح ملك عدو والاستظلال بكنفه آثر من الوقوع في أيدي العبيد المردة والموت على أيدي الملوك أفضل من الموت على أيدي العبيد. فإنك اخترت أفضل الخصال ورغبت إلينا في ذلك. فقد صدقنا قولك وقبلنا كلامك وحققنا أملك وأتممنا بغيتك وقضينا حاجتك وحمدنا سعيك وشكرنا حسن ظنك بنا ووجهنا إليك بما سألت من الجيوش والأموال وصيرتك لي ولداً وكنت لك أباً. فاقبض الأموال مباركاً لك فيها وقد الجيوش وسر على بركة الله وعونه. ولا يعترينك الضجر والهلع بل تشمر لعدوك ولا تقصر فيما يجب لك إذا تطأطأت من درجتك وانحططت عن مرتبتك. فإني أرجو أن يظفرك الله بعدوك ويكّبه تحت

موطئ قدميك ويرد كيده في نحره ويعيدك إلى مرتبتك برجاء الله تعالى. فلما وردت الجيوش على كسرى وقبض الأموال وتشجع بقراءة كتاب موريقي سار مع جيوش الروم نحو بهرام فلقيه بين المدائن وواسط فصارت الهزيمة على بهرام وقتل أصحابه كلهم واستباح كسرى عساكر بهرام ورجع إلى مملكته فجلس فيها وبايعه الناس كلهم. ودعا بالروم فأحسن جائزتهم وصرفهم إلى صاحبهم. وبعث إلى موريقي من الألطاف والأموال أضعاف ما كان أخذ منه. ورد دارا وميَّافارقين إلى الروم وبنى هيكلين للنصارى بالمدائن وجعل أحدهما باسم السيدة والآخر باسم مار سرجيس الشهيد.

وفي السنة السادسة عشرة لموريقي كان مطر شديد غرقت به مدن كثيرة مع أهلها ودوابها ومواشيها. ولأن موريقي بعد مصلحته للفرس قطع أرزاق جنوده فاجتمع عظماءُ الروم إلى مدينة هرقلة وأرادوا تمليك فطري أخي موريقي. فهرب منهم ومضى إلى قسطنطينية. وهرب أيضاً موريقي إلى خلقيذونية. فلحقته الروم فألفوه وعليه خلقان في ذي الفقراء والسؤال فقتلوه وملّكوا عليهم رجلاً من بطارقتهم يقال له فوقا.

"فوقا قيصر" ملك ثماني سنين. و لم يكن من بيت الملك. فلما بلغ كسرى بن هرمز قتل موريقي نقض العهد وغزا دارا فافتتحها وافتتح أيضاً آمد وحلب. ثم عطف على قنّسرين ورجع إلى الرها. وفي السنة الثامنة لفوقا خرج عليه خارجيّان أحدهما هرقل والآخر غريغور بإفريقية ووَّجها جيوشاً مع ابنيهما وهما هرقل بن هرقل ونقيطا بن غريغور وتقدما إليهما بقتل فوقا وتعاقدا بينهما أن الملك للسابق إلى القسطنطينية إذا قتل فوقا. فركب هرقل البحر وسار نقيطا في البر وألفى هرقل البحر هادئاً ساكناً فسبق ودخل المدينة وقتل فوقا وملك.

"هرقل قيصر" ملك إحدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر. وفي أول سنة من ملكه أرسل وفداً إلى ملك الفرس ليصالحه. فلم يجبه إلى ذلك بل غزا إنطاكية وفامية وحمص وقيسارية وافتتحها. وفي هذه السنة عرض بالروم جوع شديد حتى أكل الناس الجيف وجلود البهائم. وقصد نقيطا بن غريغور مدينة الإسكندرية فاستولى عليها. وفي السنة الرابعة لهرقل ملكت العرب وهي سنة تسعمائة وخمس وثلاثين للاسكندر. وفي السنة الخامسة لهرقل افتتح الفرس البيت المقدس. وبعد ثلاث سنين افتتحوا الإسكندرية ومصر ووصلوا إلى النوبة وغزوا فلقيذونيا فافتتحوها. وفي السنة العاشرة لهرقل تحركت العرب بيثرب. وفي السنة الخامسة عشرة لهرقل غزا الفرس جزيرة رودس فافتتحوها. وأمر كسرى أن يؤخذ رخام الكنائس التي في جميع المدن التي فتحها وتحدر إلى المدائن. ولقي فيه الناس جهداً جهيداً. وفي هذه السنة غزا أهل هرقل الفرس فافتتحوا مدينة كسرى وسبوا منها خلقاً كثيراً وانصرفوا. وفي السنة السابعة عشر

لهرقل أنكسف نصف جرم الشمس وثبت كسوفها من تشرين الأول إلى حزيران و لم يكن يظهر من نورها إلا شيء يسير.

وفي هذا الزمان كان الحرث بن كلدة طبيب العرب أصله من ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل جنديسابور وغيرها في الجاهلية قبل الإسلام وطبب بأرض فارس وحصّل مالاً. ثم أن نفسه اشتاقت إلى بلاده فرجع إلى الطائف واشتهر وأدرك الإسلام. وكان النبي عليه السلام يأمر من كان به علَّة أن يأتيه فيستوصفه. وكان الحرث يقول: من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء. يُريد بخفة الرداء أن لا يكون عليه دين وقيل مات الحرث في أول الإسلام و لم يصح إسلامه. وفي هذا الزمان كان يعرف اهرون القس الإسكندري. وكناشه في الطب موجود عندنا بالسريانية وهو ثلاثون مقالة. وزاد عليها مقالتين أُخريين.

الدولة التاسعة

المنتقلة إلى ملوك العرب المسلمين

قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي صاحب قضاء مدينة طليطلة: إن العرب فرقتان فرقة بائدة وفرقة باقية. أما الفرقة البائدة فكانت أمماً ضخمة كعاد وثمود وطسم وجديس. ولتقادم انقراضهم ذهبت عنا حقيقة أخبارهم وانقطعت عنا أسباب العلم بآثارهم. وأما الفرقة الباقية فهي متفرعة من جذمين قحطان وعدنان. ويضمها حالان حال الجاهلية وحال الإسلام. فأما حال العرب في الجاهلية فحالٌ مشهور عند الأمم من العز والمنعة وكان ملكهم في قبائل قحطان وكان بيت الملك الأعظم في بني حمير وكان منهم الملوك الجبابرة التبابعة. وأما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين أهل مدر وأهل وبر. فأما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى. وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة. وأما أهل الوبر فهم قطّان الصحارى. وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها منتجعين بمنابت الكلأ مرتادين لمواقع القطر فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال كما قال بعضهم عن ناقته: تقول إذا درأت لها وضيني=أهذا دينه أبداً وديني

أكل الدهر حلٌّ وارتحالٌ أما يبقي عليَّ ولا يقيني

وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع. فإذا جاء الشتاء واقشعرت الأرض انكمشوا إلى أرياف العراق

وأطراف الشام. فشتّوا هناك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بؤس العيش. وكانت أديانهم مختلفة. فكانت حمير تعبد الشمس. وكنانة القمر. وميسم الدبران. ولخم وجذام المشتري. وطيّء سهيلاً. وقيس الشعري العبور. وأسد عطارد. وثقيف بيتاً بأعلى نخلة يقال لها اللات. وكان فيهم من يقول بالمعاد ويعتقد أن من نحرت ناقته على قبره حشر راكباً ومن لم يفعل ذلك حشر ماشياً. فأما علم العرب الذين كانوا يفاخرون به فعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب. وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق. وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله شيئاً منه ولا هيأ طبائعهم للعناية به. فهذه كانت حالهم في الجاهلية. وأما حالهم في الإسلام فعلى ما نذكره بأوجز ما يمكننا وأقصر إن شاء الله.

"محمد بن عبد الله عليه السلام" ذكر النسابون أن نسبته ترتقي إلى إسماعيل ابن إبراهيم الخليل الذي ولدت له هاجر أمة سارة زوجته. وكان ولادته بمكة سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة للاسكندر. ولما مضى من عمره سنتان بالتقريب مات عبد الله أبوه وكان مع أمه آمنة بنت وهب ست سنين. فلما توفيت أخذه إليه جده عبد المطلب وحنا عليه. فلما حضرته الوفاة أوصى ابنه أبا طالب بحياطته فضمه إليه وكفله. ثم خرج به وهو ابن تسع سنين إلى الشام. فلما نزلوا بصرى خرج إليهم راهب عارف اسمه بحيرا من صومعته وجعل يتخلل القوم حتى انتهى إليه فأخذه بيده وقال: سيكون من هذا الصبي أمر عظيم ينتشر ذكره في مشارق الأرض ومغاربها فإنه حيث أشرف أقبل وعليه غمامة تظلله. ولما كمل له من العمر خمس وعشرون سنة عرضت عليه امرأة ذات شرف ويسار اسمها خديجة أن يخرج بمالها تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره. فأجابها إلى ذلك وخرج. ثم رغبت فيه وعرضت نفسها عليه فتزوجها وعمرها يومئذ أربعون سنة. وأقامت معه إلى أن توفيت بمكة اثنتين وعشرين سنة. ولما كمل له أربعون سنة أظهر الدعوة. ولما مات أبو طالب عمه وماتت أيضاً خديجة زوجته أصابته قريش بعظيم أذى. فهاجر عنهم إلى المدينة وهي يثرب. وفي السنة الأولى من هجرته احتفل الناس اليه ونصروه على المكيين أعدائه. وفي السنة الثانية من هجرته إلى المدينة خرج بنفسه إلى غزاة بدر وهي البطشة الكبرى وهزم بثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المسلمين ألفاً من أهل مكة المشركين. وفي هذه السنة صرفت القبلة عن جهة البيت المقدس إلى جهة الكعبة. وفيها فرض صيام شهر رمضان. وفي السنة الثالثة خرج إلى غزاة أحد. وفيها هزم المشركون المسلمين وشجُّ في وجهه وكسرت رباعيته. وفي السنة الرابعة غزا بني النضير اليهود وأجلاهم عن الشام. وفيها اجتمع أحزاب شتى من قبائل العرب مع أهل مكة وساروا جميعاً إلى المدينة

فخرج إليهم. ولأنه هال المسلمين أمرهم أمر بحفر خندق وبقوا بضعةً وعشرين يوماً لم يكن بينهم حرب. ثم جعل واحد من المشركين يدعو إلى البراز. فسعى نحوه علي بن أبي طالب وقتله وقتل بعده صاحباً له. وكان قتلهما سبب هزيمة الأحزاب على كثرة عددهم ووفرة عددهم. وفي السنة الخامسة كانت غزاة دومة الجندل وغزاة بني لحيان. وفي السنة السادسة خرج بنفسه إلى غزاة بني المصطلق وأصاب منهم سبياً كثيراً. وفي السنة السابعة خرج إلى غزاة خيبر مدينة اليهود. وينقل عن علي بن أبي طالب أنه عالج باب خيبر واقتلعه وجعله مجناً وقاتلهم. وفي الثامنة كانت غزاة الفتح فتح مكة وعهد إلى المسلمين أن لا يقتلوا فيها إلا من قاتلهم وأمن من دخل المسجد ومن أغلق على نفسه بابه وكفَّ يده ومن تعلق بأستار الكعبة سوى قوم كانوا يؤذونه. ولما أسلم أبو سفيان وهو عظيم مكة من تحت السيف ورأى جيوش المسلمين قال للعباس يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال له: ويحك إنها النبوة. قال نعم إذن. وفي السنة التاسعة خرج إلى غزاة تبوك من بلاد الروم و لم يحتج فيها إلى حرب. وفي السنة العاشرة حج حجة الوداع. وفيها تنبأ باليمامة مسيلمة الكذاب وجعل يسجع مضاهياً للقرآن فيقول: لقد أنعم الله على الحبلى أخرج منها نسمةً تسعى من بين صفاق وحشاً. وفي هذه السنة وعك عليه السلام ومرض وتوفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر. وكان عمره بجملته ثلاثاً وستين سنة منها أربعون سنة قبل دعوة النبوة ومنها بعدها ثلث عشرة سنة مقيماً بمكة ومنها بعد الهجرة عشر سنين مقيماً بالمدينة. ولما توفي أراد أهل مكة من المهاجرين رده إليها لأنها مسقط رأسه. وأراد أهل المدينة من الأنصار دفنه بالمدينة لأنها دار هجرته ومدار نصرته. وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس لأنه موضع دفن الأنبياء. ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة فدفنوه بحجرته حيث قبض. واختلفوا بعدد أزواجه. وأكثر ما قالوا سبع عشرة امرأة سوى السراري. وولد له سبعة أولاد ثلاثة بنين وأربع بنات كلهم من خديجة إلا إبراهيم ابنه فإنه من ماريا القبطية التي بعث بها المقوقس إلى الإسكندرية مع أختها شيرين. و لم يمت من نسائه قبله إلا اثنتان. و لم يعش من أولاده بعده إلا ابنة واحدة وهي فاطمة زوجة علي بن أبي طالب وتوفيت بعد أبيها بثلاثة أشهر.

وقد وقع في الإسلام اختلافات شتى كما وقع في غيره من الأديان بعضها في الأصول وهي موضوع علم الكلام وبعضها في الفروع وهي موضوع علم الفقه. والخلاف في الأصول فينحصر في أربع قواعد الأولى الصفات والتوحيد. الثانية القضاء والقدر. الثالثة الوعد والوعيد. الرابعة النبوة والإمامة.
وكبار فرق الأصوليين ست. المعتزلة ثم الصفائية وهما متقابلتان تقابل التضاد. وكذلك القدرية تضاد الجبرية. والمرجئة الوعيدية. والشيعية الخوارج. ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل إلى ثلث وسبعين

فرقة. وأما المعتزلة فالذي يعممهم من الاعتقاد القول بنفي الصفات القديمة عن ذات الباري تعالى هرباً من أقانيم النصارى.

فمنهم من قال أنه تعالى عالم لذاته لا بعلم وكذلك قادرٌ وحيّ. ومنهم من قال أنه عالم بعلم وهو ذاته وكذلك قادر وحي فالأول نفى الصفة رأساً والثاني أثبت صفةً هي بعينها ذاتً.واتفقوا على إن كلامه تعالى محدث بخلقه في محل وهو حرف وصوت وكتب مثاله في المصاحف. وبالجملة نفي الصفات مقتبس من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذات الله تعالى واحدة لا كثرة فيها بوجهٍ. وبازاء المعتزلة الصفاتيَّة وهم يثبتون الله صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة وغيرها. وبلغ بعضهم في إثبات الصفات كالسمع والبصر والكلام إلى حد التجسيم فقال: لا بد من إجراء الآيات الدالة عليها كالاستواء على العرش والخلق باليد وغيرهما على ظاهرها من غير تعرض للتأويل. إلا أن قوماً منهم كأبي الحسن الاشعري وغيره لما بشروا علم الكلام منعوا التشبيه وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة وانتقلت سنة الصفاتية إلى الاشعرية.

وأما القدرية فهم معتزلة أيضاً وإنما لقبوا بالقدرية لنفيهم القدر لا لإثباتهم إياه فإنهم يقولون أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً. فالرب تعالى منزه عن أن يضاف إليه شر وظلم. وسموا هذا النمط عدلاً. وحدوه بأنه إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة لمقتضى العقل من الحكمة. وبازاء القدرية الجبرية الذين ينفون الفعل والقدرة على الفعل عن العبد ويقولون أن الله تعالى يخلق الفعل ويخلق في الإنسان قدرة متعلقة بذلك الفعل ولا تأثير لتلك القدرة على ذلك الفعل. ومنهم من يثبت للعبد قدرة ذات أثر ما في الفعل ويقولون أن الله مالك في خلقه يفعل فيهم ما يشاء و لا يسأل عما يفعل. فلو أدخلوا الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً. ولو أدخلهم بأجمعهم النار لم يكن جوراً بل هو في كل ذلك عادل لأن العدل على رأيهم هو التصرف فيما يملكه المتصرف.

وأما المرجئة فهم يقولون بإرجاء حكم صاحب الكبيرة من المؤمنين إلى القيامة أي بتأخيره إليها. فلا يقضون عليه بحكم ما في الدنيا من كونه ناجياً أو هالكاً ويقولون أيضاً أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وبازاء المرجئة الوعيدية القائلون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار وإن كان مؤمناً لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار. وأما الشيعة فهم الذين شايعوا علي بن أبي طالب وقالوا بإمامته بعد النبي. وإن الإمامة لا تخرج من أولاده إلا بظلم. ويجمعهم القول بثبوت عصمة الأيمة وجوباً عن الكبائر والصغائر. فإن الإمامة ركن من أركان الدين لا يجوز للنبي إغفاله ولا تفويضه إلى العامة. ومن غلاة الشيعة النصيرية القائلون بأن الله تعالى ظهر بصورة علي ونطق بلسانه مخبراً عما يتعلق بباطن الأسرار. وقوم منهم غلوا في حق أيمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة وحكموا فيهم بأحكام

إلاهية. وبازاء الشيعة الخوارج فمنهم من خطّأ علي بن أبي طالب فيما تصرف فيه ومنهم من تخطى عن تخطئته إلى تكفيره ومنهم من جوز أن لا يكون في العالم إمام أصلاً وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قرشياً إذا كان عادلاً. فإن عدل عن الحق وجب عزله وقتله. فهذا اقتصاص مذهب الأصوليين على سبيل الاختصار.

وأما مذاهب الفروعيين المختلفين في الأحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية فالمشهورة منها أربعة: مذهب مالك بن أنس. ومذهب أحمد بن إدريس الشافعي. ومذهب محمد بن حنبل. ومذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت. وأركان الاجتهاد أيضاً أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس. وذلك لأنه إذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال وحرام فزعوا إلى الاجتهاد وابتدأوا بكتاب الله تعالى. فإن وجدوا فيه نصاً تمسكوا به وإلا فزعوا إلى سنة النبي فإن رأوا لهم في ذلك خبراً نزلوا إلى حكمه وإلا فزعوا إلى إجماع الصحابة لأنهم راشدون حتى لا يجتمعون على ضلال. فإن عثروا بما يناسب مطلوبهم أجروا حكم الحادثة على مقتضاه وإلا فزعوا إلى القياس لأن الحوادث والوقائع غير متناهية والنصوص متناهية فلا يتطابقان فعلم قطعاً أن القياس واجب الاعتبار ليكون بصدد كل حادثة شرعية اجتهاد قياسي. ومن الأيمة داود الأصفهاني نفى القياس أصلاً. وأبو حنيفة شديد العناية به وربما يقدم القياس الجلي على آحاد الأخبار. ومالك والشافعي وابن حنبل لا يرجعون إلى القياس الجلي ولا الخفي ما وجدوا خبراً أو أمراً. وبينهم اختلاف في الأحكام ولهم فيها تصانيف وعليها مناظرات ولا يلزم بذلك تكفير ولا تضليل. وبالجملة أصول شريعة الإسلام الطهارة في حواشي الإنسان وأطرافه لإرسالها وملاقاتها النجاسات. والصلاة وهي خضوع وتواضع لرب العزة. والزكاة وهي مؤاساة ومعونة وافضال. والصيام وهو رياضة وتذليل وقمع الشهوة تحصل به رقة القلب وصفاء النفس. والحج وهو مثال الخروج عن الدنيا والإقبال على الآخرة وأكثر ما فيه من المناسك امتحان وابتلاء العبد بامتثاله ما شرع له وذلك كالسعي والهرولة في الطواف ورمي الجمار. وأما الجمعة والأعياد فجعلت مجمعاً للأمة يتلاقون فيها ويتزاورون ويستريحون فيها عن كد الكدح. وأما الختان فهو سنة فيه ابتلاء وامتحان وتسليم. وأما تحريم الميتة والدم ففي كراهية النفس ونفر الطبع ما يوجب الامتناع منها.

"أبو بكر الصديق" أعظم خلاف بين الأيمة الإسلامية خلاف الإمامة وعليه سل السيوف. وقد اتفق ذلك في الصدر الأول فاختلف المهاجرون والأنصار فيها. فقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فاستدركهم أبو بكر وعمر في الحال. وقبل أن يشتغلوا بالكلام مد عمر يده إلى أبي بكر فبايعه وبايعه الناس وسكنت الثائرة. وبويع له في شهر ربيع الأول في أول سنة إحدى عشرة يوم توفي النبي عليه السلام في سقيفة بني

ساعدة. وقيل لما بلغ ذلك علي بن أبي طالب لم ينكره. وأكثر ما روي انه قال: ما شاورتني. فقال له أبو بكر: ما اتسع الوقت للمشورة وانا خفنا أن يخرج الأمر منا. ثم صعد المنبر فقال: أقيلوني من هذا الأمر فلست بخيركم. فقال علي: لا نقيلك ولا نستقيلك. فأجمع المهاجرون والأنصار على خلافته. ولما ذاع خبر وفاة النبي عليه السلام ارتد خلق كثير من العرب ومنعوا الزكاة واشتد رعب المسلمين بالمدينة لإطباقهم على الردة. فأووا الذراري والعيال إلى الشعاب. فأمر أبو بكر خالد بن الوليد على الناس وبعثه في أربعة آلاف وخمسمائة. فسار حتى وافى المرتدة وناوشهم القتال وسبى
ذراريهم وقسم أموالهم. وضج أيضاً المسلمون إلى أبي بكر فقالوا: ألا تسمع ما قد انتشر من ذكر هذا الكتاب مسيلمة بأرض اليمامة وادعائه النبوة. فأمر خالد بن الوليد بالمسير إلى محاربته. فسار بالناس حتى نزل بموضع يسمى عقرباء. وسار مسيلمة في جمع من بني حنيفة فنزل حذاء خالد. وكان بينهما وقعات واشتدت الحرب بين الفريقين واقتحم المسلمون بأجمعهم على مسيلمة وأصحابه فقتلوهم حتى احمرت الأرض بالدماء. ونظر عبد أسود اسمه وحشي إلى مسيلمة فرماه بحربة فوقعت على خاصرته فسقط عن فرسه قتيلاً. ومن هناك توجه خالد إلى أرض العراق فزحف إلى الحيرة ففتحها صلحاً. وكان ذلك أول شيء افتتح من العراق. وقد كان أبو بكر وجه قبل ذلك أبا عبيده بن الجراح في زهاء عشرين ألف رجل إلى الشام. وبلغ هرقل ملك الروم ورود العرب إلى أرض الشام فوجه إليهم سرجيس البطريق في خمسة آلاف رجل من جنوده ليحاربهم. وكتب أبو بكر إلى خالد عند افتتاحه الحيرة يأمره أن يسير إلى أبي عبيده بأرض الشام. ففعل والتقى العرب الروم فانهزم الروم وقتل سرجيس البطريق وذلك أنه في هربه سقط من فرسه فركبه غلمانه فسقط فركبوه ثانياً فهبط أيضاً وقال لهم: فوزوا بأنفسكم واتركوني أقتل وحدي. وفي سنة ثلث عشرة للهجرة مرض أبو بكر خمسة عشرة يوماً ومات رحمه الله يوم الاثنين لثمان خلون من جمادى الآخرة وهو ابن ثلاث وستين سنة. وكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا ثمانية أيام. وفيها وهي سنة تسعمائة وست وأربعين للاسكندر خالف هرقل الناموس وتزوج مرطياني ابنة أخيه وولدت منه ابناً غير ناموسي وسماه باسمه مصغراً هريقل.

"عمر بن الخطاب" ويكنى أبا حفص. قيل أن أبا بكر لما دنا أجله قال لعثمان ابن عفان كاتبه: اكتب بسم اله الرحمن الرحيم. هذا ما عمد عبد الله بن أبي قحافة وهو في آخر ساعات الدنيا وبأول ساعات الآخرة. ثم غمي عليه. فكتب عثمان: إلى عمر بن الخطاب. فلما أفاق قال: من كتبت. قال: عمر. قال: قد أصبت ما في نفسي. ولو كتبت نفسك لكنت أهلاً له. واجمعوا على ذلك. وكان يدعى خليفة خليفة رسول الله. قالوا: هذا يطول. فسمي أمير المؤمنين. وهو أو ل من سمي بذلك. ولما استخلف قام في الناس

خطيباً فقال بعد الحمدلة: أيها الناس لولا ما أرجوه من ما أرجوه من خيركم وقوامكم عليه لما أوليتكم إلى غير ذلك. فلما ولي الأمر لم يكن له همة إلا العراق. فعقد لأبي عبيد بن مسعود على زهاء ألف رجل وأمره بالمسير إلى العراق ومعه المثنى بن حارثة وعمرو بن حزم وسليط بن قيس. فساروا حتى نزلوا الثعلبية. فقال سليط: يا أبا عبيد إياك وقطع هذه اللجة فإني أرى للعجم جموعاً كثيرة. والرأي أن تعبر بنا إلى ناحية البادية وتكتب إلى أمير المؤمنين عمر فتسأله المدد. فإذا جاءك عبرت إليهم فناجزهم الحرب. فقال أبو عبيد: جبنت والله يا سليط. فقال المثنى: والله ما جبن ولكن أشار عليك بالرأي فإياك أن تعبر إليهم فلتقي نفسك وأصحابك وسط أرضهم فتنشب بك مخالبهم. فلم يقبل منهما أبو عبيد وعقد الجسر وعبر بمن معه على كره منهما. فعبرا معه. وعبأ أبو عبيد أصحابه ووقف هو في القلب. فزحف إليهم العجم فرشقوهم بالنشاب حتى كثرت في المسلمين الجراحات. فحمل العرب جملة رجل واحد وكشفوا العجم. ثم أن العجم ثابوا وحملوا على المسلمين. فكان أبو عبيد أول قتيل وقتل من المسلمين عالم. فولى الباقون مارين نحو الجسر والمثنى يقاتل من ورائهم لجميعهم حتى عبروا جميعاً وعبر المثنى في آخرهم وقطعوا الجسر. وكتب إلى عمر بما جرى من المحاربة. وكتب إليه عمر أن يقيم إلى أن يأتيه المدد. ثم أن عمر أرسل رسله إلى قبائل العرب يستنفرهم. فلما اجتمعوا عنده بالمدينة ولى جرير بن عبد الله البجلي أمرهم. فسار بهم حتى وافى الثعلبية. وانضم إليه من هناك. ثم سار حتى نزل دير هند. ووجه سراياه للغارة بأرض السواد مما يلي الفرات. فبلغ ذلك ازرميدخت ملكة العجم فأمرت أن ينتدب من مقاتليها اثنا عشر ألف فارس من أبطالهم. فانتدبوا وولت عليهم مهران بن مهرويه عظيم المرازبة. فسار بالجيش حتى وافى الحيرة. ورجعت سرايا العرب واجتمعوا وتهيأ الفريقان للقتال وزحف بعضهم إلى بعض وتطاحنوا بالرماح وتضاربوا بالسيوف. وتوسط المثنى العجم بجلدهم بسيفه. ثم رجع منصرفاً إلى قومه. وصدقهم العجم القتال فثبت بعض العرب وانهزم البعض. فقبض المثنى على لحيته ينتفها. فحملت قبائل العرب وحملت عليهم العجم فاقتتلوا من وقت الزوال إلى أن توارت الشمس بالحجاب. ثم حملوا على العجم. وخرج مهران فوقف أمام أصحابه. فحمل عليه المثنى. فضربه مهران فنبا السيف عن الضربة. وضربه المثنى على منكبه فخر ميتاً وانهزم العجم لاحقين بالمدائن. وثاب المسلمون يدفنون موتاهم ويداوون جرحاهم. فلما نظرت العجم إلى العرب وقد أخذت أطراف بلادهم وشنوا الغارة في أرضهم قالوا: إنما أوتينا من تمليكنا النساء علينا. فاجتمعوا على خلع ازرميدخت بنت كسرى وتمليك غلام اسمه يزدجرد وقد كان نجم من عقب كسرى بن هرمز. فأجلسوه وبايعوه على السمع والطاعة. فاستجاش يزدجرد جنوده من آفاق مملكته وولى عليهم رجلاً عظيماً من عظماء مرازبته له سنٌّ وتجربة يقال له رستم. فوجهه إلى الحيرة ليحارب من ورد عليه هناك من العرب. وعقد أيضاً لرجل آخر من حر سادات العجم يسمى الهرمزان في

جنود كثيرة ووجهه إلى ناحية الأهواز لمحاربة أبي موسى الاشعري ومن معه. وعند الالتقاء قتل هاذان المرزبانان العظيمان. ومرت العرب في أثر العجم يقتلون من أدركه منهم.

وفي خلافة عمر فتح أبو عبيده دمشق بعد حصار سبعة أشهر. وصالح أهل ميسان وطبرية وقيسارية وبعلبك. وفتح حمص بعد حصار شهرين. وفيها كتب عمر إلى معاوية بن أبي سفيان بولاية دمشق. وفيها دخل ميسرة بن مسروق العبسي أرض الروم في أربعة آلاف وهو أول جيش دخل الروم. وفيها فتح عمرو بن العاص مصر عنوةً وفتح الإسكندرية صلحاً. وفيها دخل عياض بن غنم سروج والرها صلحاً. وفيها افتتح أيضاً الرقة وآمد ونصيبين وطور وعبدين وماردين صلحاً. وفتح حبيب بن مسلمة قرقيسياء صلحاً. وفيها فتح عتبة بن تغزوان قرى البصرة ثم سار حتى وافى الأيلة فافتتحها عنوة. ثم صار إلى المدائن فحارب مرزبانها وضرب عنقه وقتل من جنوده مقتلة عظيمة. ثم أن عتبة كتب إلى عمر يستأذنه في الحج. فاستعمل عمر على عملة المغيرة بن شعبة. ثم عزله واستعمل على أرض ميسان أبا موسى الاشعري وأمره أن يبتني بأرض البصرة خططاً لمن عنده من العرب ويجعل كل قبيلة في محلة. وابتنوا لأنفسهم المنازل. وبنى بها مسجداً جامعاً متوسطاً. وعند فراغه من بناء مدينة البصرة اسكن فيها ذرية من كان بها من العرب وسار في جنوده إلى جميع كور الأهواز فافتتحها إلا مدينة تستر فإنهم امتنعوا لحصانتها. وفيها رحل هرقل من إنطاكية إلى القسطنطينية وهو يقول باليونانية سوزه سورية. وهي كلمة وداع لأرض الشام وبلادها. ثم مات هرقل وقام ابنه قسطنطين مكانه وبعد أربعة أشهر قتلته مرطياني امرأة أبيه بالسم وأقامت ابنها هريقل وسمته داود الحديث. فنقم أرباب الدولة أمره وخلعوه وملكوا قسطوس ابن القتيل. وفيها افتتح عبد الله بن بديل أصفان صلحاً. وفيها فتح جرير البجلي همذان. وفيها كانت وقعة نهاوند. وفيها افتتح معاوية عسقلان بصلح في شهر رمضان. ومات عمر يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي الحجة سنة ثلث وعشرين للهجرة وعمره ثلث وستون سنة. وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وسبعة عشر يوماً. قتله أبو لؤلؤة فتى المغيرة بن شعبة في صلاة الفجر. وكان السبب في ذلك أن أبا لؤلؤة جاء إليه يشكو ثقل الخراج وكان عليه كل يوم درهمان. فقال له عمر: ليس بكثير في حقك فإني سمعت عنك أنك لو أردت أن تدير الرحى بالريح لقدرت عليه. فقال: لأدير لك رحى لا تسكن إلى يوم القيامة. فقال: إن العبد أوعد ولو كنت أقتل أحداً بالتهمة لقتلت هذا. ثم أن الغلام ضربه بالخنجر في خاصرته طعنتين. فدعا عمر طبيباً لينظره فسقا لبناً فخرج اللبن بيناً. فقال له: أعهد يا أمير المؤمنين.

وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أي النحوي. وكان اسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة ساوري. ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث. فاجتمع

إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه. فلم يرجع. فأسقطوه عن مترلته. وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية. ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها انسة ما هاله ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه.

ومن الأطباء المشهورين في هذا الزمان بولس الاجانيطي طبيب مذكور في زمانه وكان خيراً خبيراً بعلل النساء كثير المعاناة لهنّ. وكانت القوابل يأتينه ويسألنه عن الأمور التي تحدث للنساء عقيب الولادة فينعم بالجواب لهنَّ ويجيبهنَّ عن سؤالهنّ بما يفعلنه. فلذلك سموه بالقوابلي. وله كتاب في الطب تسع مقالات نقل حنين بن اسحق. وكتاب في علل النساء. ومنهم مغنوس له ذكر بين الأطباء و لم نر له تصنيفاً.

"عثمان بن عفان" ويكنى أبا عمرو. بويع له لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلث وعشرين للهجرة. قيل لما ضرب أبو لؤلؤة عمر بالخنجر وشرب اللبن فخرج من جراحه فقالوا له: اعهد إلى من تكون الخلافة بعدك. قال: لو كان سالم حياً لم أعدل به. قيل له: هذا علي بن طالب وقد تعرف قرابته وتقدمه وفضله. قال: فيه دعابة أي مزاح. قيل: فعثمان بن عفان. قال: هو كلف بأقاربه. قيل: فهذا الزبير بن العوام حواري النبي عليه السلام. قال: بخيل. قيل: فهذا سعد. قال: فارس مقنب. والمقنب ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل. قيل: فهذا طلحة ابن عم أبي بكر الصديق. قال: لولا بأوٌ فيه أي كبر وخيلاء. قيل: فابنك. قال: يكفي أن يسأل واحد من آل الخطاب عن إمرة أمير المؤمنين. ولكن جعلت هذا الأمر شورى بين ستة نفر وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص إلى ثلاثة أيام. فلما دفن عمر جاء أبو عبيدة إلى علي بن أبي طالب فقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وسنة الشيخين. قال: أما كتاب الله وسنة نبيه فنعم. وأما سنة الشيخين فأجتهد رأي. فجاء إلى عثمان فقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وسنة الشيخين. قال: اللهم نعم. فبايعه أبو عبيدة والجماعة ورضوا به. وأول ما فتح في خلافته ماه البصرة وما كان بقى من حدود أصفهان والري على يد أبي موسى الأشعري. ثم بعث عثمان عبد الله بن عامر إلى اسطخر وبها يزدجرد. فركب المفازة حتى أبي كرمان وأخذ على طريق سجستان يريد الصين. وجاء مجاشع إلى سجستان. ثم انصرف لما لم يدرك يزدجرد وعاد إلى فارس.فاشتد خوف يزدجرد واستمد طرخان التركي لنصرته. ولما ورد استخف به وطرده لكلام تكلم به الترك. وعند انصرافهم أرسل ماهويه مرزبان مرو وكان قد خامر على يزدجرد إلى طرخان أن: كر عليه فاني ظاهرك. فكر طرخان على يزدجرد. فولى يريد المدينة. فاستقبله ماهويه فمزقه كل ممزق. وقيل أن يزدجرد انتهى إلى طاحونة بقرية من قرى مرو فقال للطحان: اخفني ولك منطقتي

وسواري وخاتمي. فقال للرجل: إن كرى الطاحونة كل يوم أربعة دراهم. فإن اعطيتنيها عطلتها وإلا فلا. فبينا هو في راجعته إذ غشيته الخيل فقتلوه. وانتزع عثمان عمرو بن العاص عن الإسكندرية وأمر عليها عبد الله بن مسعود أخاه لأمه. فغزا إفريقية وغزا معاوية قبرص وأنقرة فافتتحها صلحاً. ثم أن الناس نقموا على عثمان أشياء منها كلفه بأقاربه. فآوى الحكم بن العاص بن أمية طريد النبي عليه السلام. وأعطى عبد الله بن خالد أربعمائة ألف درهم. وأعطى الحكم مائة ألف درهم. ولما ولي صعد المنبر فتسنم ذروته حيث كان يقعد النبي عليه السلام. وكان أبو بكر يترل عنه درجة وعمر درجتين. فتكلم الناس عن ذلك وأظهروا الطعن. فخطب عثمان وقال: هذا مال الله أعطيه من شئت وامنعه ممن شئت. فأرغم الله انف من رغم انفه. فقام عمار بن ياسر فقال: أنا أول من رغم أنفه. فوثب بنو أمية عليه وضربوه حتى غشي عليه. فحنقت العرب على ذلك وجمعوا الجموع ونزلوا فرسخاً من المدينة وبعثوا إلى عثمان من يكلمه ويستعتبه ويقول له: إما أن تعدل أو تعتزل. وكان أشد الناس على عثمان طلحة والزبير وعائشة. فكتب عثمان إليهم كتاباً يقول فيه: إني أنزع عن كل شيءٍ أنكرتموه وأتوب إلى الله. فلم يقبلوا منه وحاصروه عشرين يوماً. فكتب إلى علي: أترضى أن يقتل ابن عمك ويسلب ملكك. قال علي: لا والله. وبعث الحسن والحسين إلى بابه يحرسانه. فتسور محمد ابن أبي بكر مع رجلين حائط عثمان فضربه أحدهم بغتةً بمشقص في أوداجه وقتله الآخر والمصحف في حجره وذلك لعشر مضين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة بالتقريب وعمره نيف وثمانون سنة.

"علي بن أبي طالب" لما قتل عثمان اجتمع الناس من المهاجرين والأنصار فأتوا علياً وفيهم طلحة والزبير ليبايعوه. فقال علي لطلحة والزبير: إن أحببتما أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما. قالا له: لا بل نبايعك. فخرجوا إلى المسجد وبايعه الناس يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلثن للهجرة. وكان أول مبايعيه طلحة. وكان في إصبعه شلل فتطير منه حبيب بن ذؤيب وقال: يد شلاء لا يتم هذا الأمر ما أخلقه أن يتنكث. وتخلف عن بيعة علي بنو أمية ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة. و لم يبايعه العثمانية من الصحابة وكانت عائشة تؤلب على عثمان وتطعن فيه وكان هواها في طلحة. فبينا هي قد أقبلت راجعة من الحج استقبلها راكب. فقالت: ما ورائك. قال: قتل عثمان. قالت: كأني أنظر إلى الناس يبايعون طلحة. فجاء راكب آخر. فقالت: ما وراءك. قال: بايع الناس علياً. وا عثماناه ما قتله إلا علي. لإصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم. فقال لها الرجل من أخوالها: والله أول من أمال حرفه لأنت. ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. ونعثل اسم رجل كان طويل اللحية وكان عثمان إذا نيل منه وعيب شبه به لطول لحيته. ثم انصرفت عائشة إلى مكة

وضربت فسطاطاً في المسجد. وأراد علي أن يترع معاوية عن الشام فقال له المغيرة بن شعبة: اقررمعاوية على الشام فإنه يرضى بذلك. وسأل طلحة وزبير أن يوليهما البصرة والكوفة. فأبى وقال: تكونان عندي أتجمل بكما فإني استوحش لفراقكما. فاستأذناه في العمرة فأذن لهما. فقدما على عائشة وعظما أمر عثمان. ولما سمع معاوية بقول عائشة في علي ونقض طلحة والزبير البيعة ازداد قوة وجراءة وكتب إلى الزبير: إني قد بايعتك ولطلحة من بعدك فلا يفوتكما العراق. وأعانهما بنو أمية وغيرهم وخرجوا بعائشة حتى قدموا البصرة فأخذوا ابن حنيف أميرها من قبل علي فنالوا من شعره ونتفوا لحيته وخلوا سبيله فقصد علياً وقال له: بعثني ذا لحية وقد جئتك أمرد. قال: أصبت أجراً وخيراً. وقتلوا من خزنة بيت المال خمسين رجلاً وانتهبوا الأموال. وبلغ ذلك علياً فخرج من المدينة وسار بتسعمائة رجل. وجاءه من الكوفة ستة آلاف رجل. وكانت الوقعة بالخريبة. فبرز القوم للقتال وأقاموا الجمل وعائشة في هودج ونشبت الحرب بينهم فخرج علي ودعا الزبير وطلحة وقال للزبير: ما جاء بك. قال: لا أراك لهذا الأمر أهلاً. وقال لطلحة: أجئت بعرس النبي تقاتل بها وخبيت عرسك في البيت. أما بايعتماني. قالا: بايعناك والسيف على عنقنا. وأقبل رجل سعدي من أصحاب علي فقال بأعلى صوته: يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتِ ستركِ وأبحتِ حرمتكِ. ثم اقتتل الناس. وفارق الزبير المعركة فاتبعه عمر بن جرموز وطعنه في جربان درعه فقتله. وأما طلحة فأتاه سهم فأصابه فأردفه غلامه فدخل البصرة وأنزله في دار خربة ومات بها. وقتل تسعون رجلاً على زمام الجمل. وجعلت عائشة تنادي: البقية البقية. ونادى علي: اعقروا الجمل. فضربه رجل فسقط. فحمل الهودج موضعاً وإذا هو كالقنفذ لما فيه من السهام. وجاء علي حتى وقف عليه وقال لمحمد بن أبي بكر: انظر أحية هي أم لا. فأدخل محمد رأسه في هودجها. فقالت: من أنت. قال: أخوك البر. فقالت: عقق. قال: يا أخيّة هل أصابك شيء. فقالت: ما أنت وذاك. ودخل علي البصرة ووبخ أهلها وخرج منها إلى الكوفة. ولما بلغ معاوية خبر الجمل دعا أهل الشام إلى القتال والمطالبة بدم عثمان. فبايعوه أميراً غير خليفة. وبعث علي رسولاً إلى معاوية يدعوه إلى البيعة. فأبى. فخرج علي من الكوفة في سبعين ألف رجل. وجاء معاوية في ثمانين ألف رجل فنزل صفين وهو موضع بين العراق والشام فسبق علياً على شريعة الفرات. فبعث علي الأشتر النخعي فقاتلهم وطردهم وغلبهم على الشريعة. ثم ناوشوا الحرب أربعين صباحاً حتى قتل من العراقيين خمسة وعشرون ألفاً ومن الشاميين خمسة وأربعون ألفاً. ثم خرج علي وقال لمعاوية: علام تقتل الناس بيني وبينك. أحاكمك إلى الله عز وجل فأينا قتل صاحبه استقام الأمر له. فقال معاوية لأصحابه: يعلم أنه لا يبارزه أحد إلا قتله. فأمرهم أن ينشروا المصاحف وينادوا: يا أهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله

ندعوكم إليه. قال علي: هذا كتاب الله فمن يحكم بيننا. فاختار الشاميون عمرو بن العاص والعراقيون أبا موسى الاشعري. فقال الأحنف: إن أبا موسى رجلٌ قريب القعر كليل الشفرة اجعلني مكانه آخذ لك بالوثيقة وأضعك في هذا الأمر بحيث تحب. فلم يرضى به أهل اليمن. فكتبوا القضية على أن يحكم الحكمان بكتاب الله والسنّة والجماعة وصيروا الأجل شهر رمضان. ورحل علي إلى الكوفة ومعاوية إلى الشام. فلما دخل علي الكوفة اعتزل اثنا عشر ألفاً من القراء وهم ينادونه: جزعت من البلية ورضيت بالقضية وحكمت الرجال والله يقول: أن الحكم إلا الله. ثم اجتمع أبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص للتحكم بموضع بين مكة والكوفة والشام بعد صفين بثمانية أشهر وحضر جماعة من الصحابة والتابعين. فقال ابن العباس لأبي موسى: مهما نسيت فلا تنسى أن علياً ليست فيه خلة واحدة تباعده عن الخلافة وليس في معاوية خصلة واحدة تقربه من الخلافة. فلما اجتمع أبو موسى وعمرو للحكومة ضربا فسطاطاً. وقال عمرو:يجب أن لا نقول شيئاً إلا كتبناه حتى لا نرجع عنه. فدعا بكاتب وقال له سراً: ابدأ باسمي. فلما أخذا الكاتب الصحيفة وكتب البسملة بدأ باسم عمرو. فقال له عمرو: امحه وابدأ باسم أبي موسى فإنه أفضل مني وأولى بأن يقدم. وكانت منه خديعة. ثم قال: ما تقول يا أبا موسى في قتل عثمان. قال: قتل والله مظلوماً. قال: أكتب يا غلام. ثم قال: يا أبا موسى إن إصلاح الأمة وحقن الدماء خير مما وقع فيه علي ومعاوية. فإن رأيت أن تخرجهما وتستخلف على الأمة من يرضى به المسلمون فإن هذه أمانة عظيمة في رقابنا. قال: لا بأس بذلك. قال عمرو: اكتب يا غلام. ثم ختما على ذلك الكتاب. فلما قعدا من الغد للنظر قال عمرو: يا أبا موسى قد أخرجن علياً ومعاوية من هذا الأمر فسم له من شئت. فسمى عدة لا يرتضيهم عمرو. فعرف أبو موسى أنه يتلعب به.

ثم قال عمرو: إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أيضاً خلعته كما خلعت هذا الخاتم من يدي. وافترقا. وعزم علي المسير إلى معاوية. وبايعه ستون ألفاً على الموت. فشغلته الخوارج وقتالهم. وأخذ معاوية في تسريب السرايا إلى النواحي التي يليها عمال علي وشن الغارات وبعث جيشاً إلى المدينة ومكة. فبايعه بقية أهلها. ثم تعاقد ثلثة نفر من الخوارج داود والبرك وابن ملجم أن يقتلوا عمرو بن العاص ومعاوية وعلياً ويريحوا العباد من أيمت الضلال. أما داود فإنه أتى إلى مصر ودخل المسجد وضرب خارجة ابن حذاقة فقتله وهو يظنه عمراً. وأخذ داوديه فقتل. وأما البرك فإنه مضى إلى الشام ودخل المسجد وضرب معاوية فقطع منه عرقاً فانقطع منه النسل. فأخذ البرك فقطعت يداه ورجلاه وخلي عنه. فقدم البصرة ونكح امرأة فولدت له. فقال له زياد: يولد لك ولا يولد لمعاوية. فضرب عنقه. وأما ابن ملجم فإنه أتى الكوفة وسم سيفه وشحذه وجاء فبات بالمسجد. فدخل علي المسجد ونبه النيام فركل ابن ملجم برجله وهو ملتف بعباءة

وفتح ركعتي الفجر. فأتاه ابن الملجم فضربه على ضلعه و لم تبلغ الضربة مبلغ القتل ولكن عمل فيه السم. فثار الناس إليه وقبضوا عليه. فقال علي: لا تقتلوه فإن عشت رأيت فيه رأيي وإن مت فشأنكم به. فعاش ثلث أيام ثم مات يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان. فقتل ابن ملجم.

"الحسن بن علي بن أبي طالب" ثم بويع الحسن بن علي بالكوفة. وبويع معاوية بالشام فسي مسجد ايليا. فسار الحسن عن الكوفة إلى لقاء معاوية. وكان قد نزل مسكن من أرض الكوفة. ووصل الحسن إلى المدائن وجعل قيس بن سعد على مقدمته واثني عشر ألفاً. وقدم معاوية على مقدمته بشر بن أرطأة. فكانت بينه وبين قيس مناوشة. ثم تحاجزوا ينتظرون الحسن. "قالوا" فنظر الحسن إلى ما يسفك من الدماء وينتهك من المحارم فقال: لا حاجة لي في هذا الأمر وقد رأيت أن أسلمه إلى معاوية فيكون في عنقه تباعته وأوزاره. فقال له الحسين: أنشدك الله أن تكون أول من عاب أباه ورغب في رأيه. فقال الحسن: لا بد من ذلك. وبعث إلى معاوية يذكر تسليمه الأمر إليه. فكتب إليه معاوية: أما بعد فأنت أولى مني بهذا الأمر لقرابتك وكذا وكذا. ولو علمت أنك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد للعدو لبايعتك. فاسأل ما شئت. فكتب الحسن أموالاً وضياعاً وأماناً لشيعة علي وأشهد على ذلك شهوداً من الصحابة. وكتب في تسليم الأمر كتاباً. فالتقى معاوية مع الحسن على منزل من الكوفة ودخلا الكوفة معاً. ثم قال: يا أبا محمد جدت بشيء لا تجود بمثله نفوس الرجال فقم وأعلم الناس بذلك. فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن الله عز وجل هداكم بأولنا وحقن دمائكم بآخرنا. وإن معاوية نازعني حقاً لي دونه فرأيت أن أمنع الناس الحرب وأسلمه إليه. وإن لهذا الأمر مدة. والدنيا دول. فلما قالها قال له معاوية: اجلس. وحقدها عليه. ثم قام خطيباً فقال: إني كنت شرطت شروطاً أردت بها نظام الألفة. وقد جمع الله كلمتنا وأزال فرقتنا. فكل شرط شرطته فهو مردود. فقام الحسن: ألا وأنا اخترت العار على النار. وسار إلى المدينة وأقام بها إلى أن مات سنة سبع وأربعين من الهجرة. وكانت خلافته خمسة أشهر.

"معاوية بن أبي سفيان" وصار الأمر إلى معاوية سنة أربعين من الهجرة. وكان ولي لعمر وعثمان عشرين سنة. ولما سلم الحسن الأمر إليه ولى الكوفة المغيرة بن شعبة وولى البصرة وخراسان عبد الله بن عامر وولى المدينة مروان بن الحكم. وانصرف معاوية إلى الشام فولى عبد الله بن حازم. ومات عمرو بن العاص بمصر يوم عيد الفطر فصلى عليه ابنه عبد الله ثم صلى بالناس صلاة العيد. وكان معاوية قد أزكى العيون على شيعة علي فقتلهم أين أصابهم.

وفي سنة ست وأربعين من الهجرة وهي سنة تسعمائة وسبع وثمانين للاسكندر أرسل سابور المتغلب على أرمانيا إلى معاوية رسولاً اسمه سرجي يطلب منه النجدة على الروم. وأرسل قسطنطين الملك أيضاً رسولاً

إلى معاوية لاندراا الخصي وهو من أخص خواصه. فأذن معاوية لسرجي أن يدخل أولاً فدخل ثم دخل اندراا. فلما رآه سرجي نهض له لأنه كان عظيماً. فوبخ معاوية لسرجي وقال: إذا كان العبد هالك فكيف مولاه. فقال سرجي: خدعت من العادة. ثم سأل معاوية لاندراا: لماذا جئت. فقال: الملك سيوني لئلا تصغوا إلى كلام هذا المتمرد ولا يكون الملك والمملوك عندك بسواء. فقال معاوية: كلكم أعداء لنا. فأيكم زاذ لنا من المال راعيناه. فلما سمع ذلك اندراا خرج. ومن الغد حضر وسرجي قد سبقه بالدخول. فلما دخل اندراا لم ينهض له. فشتمه اندراا فقال له: يا يؤوس استخففت بي. فقذفه سرجي قذف المخانيث. قال اندراا: سوف ترى. ثم أعاد كلامه الأول على معاوية فقال له معاوية: إن أعطيتمونا كل خراج بلادكم نبقي لكم اسم المملكة وإلا أزحناكم عنها. قال اندراا: كأنك تزعم أن العرب هم الجسم والروم الخيال. نستعين برب السماء. ثم استأذن للرحيل وسار مجتازاً على ملطية. وتقدم إلى مستحفظي الثغور أن يكمنوا لسرجي في الطريق ويلزموه ويحملوه إلى ملطية ويترعوا خصيتيه ويعلقوهما في رقبته ثم يسمروه. ففعلوا به كذلك.

وقيل أن معاوية أول من خطب قاعداً لأنه كان بطيناً بادناً. وأول من قدم الخطبة على الصلاة خشية أن يتفرق الناس عنه قبل أن يقول ما بدا له. ثم أخذ بيعة أهل المدينة ومكة ليزيد ابنه بالسيف وبايعه الشاميون أيضاً. ثم مات معاوية بدمشق في رجب سنة ستين وهو ابن ثمانين سنة. وبايع أهل الشام يزيد بن معاوية.

"يزيد بن معاوية" لما مات معاوية استدعى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهو على المدينة الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير في جوف الليل ونعى لهما معاوية وأخذهما بالبيعة لابنه يزيد. فقالا: مثلنا لا يبايع سراً ولكن إذ نصبح. وانصرفا من عنده وخرجا من تحت الليل إلى مكة وأبيا أن يبايعا. وبلغ أهل الكوفة امتناعهما عن بيعة يزيد فكتبوا إلى الحسين في القدوم عليهم. فأرسل الحسين مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة ليأخذ بيعة أهلها. فجاء واجتمع إليه خلق كثير من الشيعة يبايعون الحسين. وبلغ الخبر عبيد الله بن زياد وهو بالبصرة فتم إلى الكوفة. فسار إليه الشيعة وقاتلوه حتى دخل القصر وأغلق بابه. فلما كان عند المساء وتفرق الناس عن مسلم بعث ابن زياد خيلاً في خفية فقبضوا عليه ورفعوه بين شرف القصر ثم ضربوا عنقه. ولما بلغ الخبر الحسين هم بالرجوع إلى المدينة. وبعث إليه ابن زياد الحر بن يزيد التميمي في ألف فارس. فلقي الحسين بزبالة وقال له: لم أؤمر بقتالك إنما أمرت أن أقدمك إلى الكوفة. فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك إلى الكوفة ولا يردك إلى المدينة حتى أكتب إلى ابن زياد. فتياسر عن طريق التعذيب والقادسية والحر يسايره حتى أنتهى إلى الغاضرية فنزل بها. وقدم عليه عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ومعه شمر ذو الجيوش فنزلوا بين نهري كربلاء وجرت الرسل بينهم وبين الحسين

ومنعوه ومن معه الماء أن يشربوا وناهضهم القتال يوم عاشوراء وهو يوم الجمعة ومعه تسعة عشر إنساناً من أهل بيته فقتل الحسين عطشاناً وقتل معه سبعة من ولد علي بن أبي طالب وثلاثة من ولد الحسين. وتركوا علي ابن الحسين لأنه كان مريضاً. فمنه عقب الحسين إلى اليوم. وقتل من أصحابه سبعة وثمانون إنسانا. وساقوا علي بن الحسين مع نسائه وبناته إلى ابن زياد. فزعموا أنه وضع رأس الحسين في طست وجعل ينكت في وجهه بقضيب ويقول: ما رأيت مثل حسن هذا الوجه قط. ثم بعث به وبأولاده إلى يزيد بن معاوية. فأمر نسائه وبناته فأقمن بدرجة المسجد حيث توقف الاسارى لينظر الناس إليهم. وقتل الحسين سنة إحدى وستين من الهجرة يوم عاشوراء وهو يوم الجمعة. وكان قد بلغ من السن ثمانياً وخمسين سنة. وكان يخضب بالسواد. ثم بعث يزيد بأهله وبناته إلى المدينة. وللروافض في هذه القصة زيادات وتهاويل كثيرة. ولما احتضر يزيد بن معاوية بايع ابنه معاوية ومات وهو ابن ثماني وثلاثين سنة. وكان ملكه ثلث سنين وثمانية أشهر.

"معاوية بن يزيد" ولما مات يزيد صار الأمر إلى ولده معاوية وكان قدرياً لأن عمر المقصوص كان علمه ذلك فدان به وتحققه. فلما بايعه الناس قال للمقصوص: ما ترى. قال: إما أن تعتدل أو تعتزل. فخطب معاوية بن يزيد فقال: إن جدي معاوية نازع الأمر من كان أولى به وأحق. ثم تقلده أبي. ولقد كان غير خليق به. ولا أحب أن ألقى الله عز وجل بتبعاتكم. فشأنكم وأمركم ولوه من شئتم. ثم نزل وأغلق الباب في وجهه وتخلى بالعبادة حتى مات بالطاعون. وكانت ولايته عشرين يوماً. فوثب بنو أمية على عمر المقصوص وقالوا: أنت أفسدته وعلمته. فطمروه ودفنوه حياً. وأما ابن الزبير فلما مات يزيد دعا الناس إلى البيعة لنفسه وادعى الخلافة فظفر بالحجاز والعراق وخراسان واليمن ومصر والشام إلا الأردن. "مروان بن الحكم" بويع بالأردن سنة أربع وستين للهجرة وهو أول من أخذ الخلافة بالسيف. وسار إليه الضحاك بن قيس فاقتتلوا بمرج راهط من غوطة دمشق. فقتل الضحاك. وخرج سليمان بن صرد الخزاعي من الكوفة في أربعة آلاف من الشيعة يطلبون بدم الحسين فبعث إليه مروان بن الحكم عبيد الله بن زياد فالتقوا برأس العين فقتل سليمان وتفرق أصحابه. ومات مروان بدمشق وكانت ولايته سبعة أشهر وأياماً. وبايع أهل الشام عبد الملك بن مروان.

قال ابن جلجل الأندلسي أن ماسرجويه الطبيب البصري سرياني اللغة يهودي المذهب. وهو الذي تولى في أيام مروان تفسير كناش اهرون القس إلى العربي. وحدث أيوب بن الحكم أنه كان جالساً عند ماسرجويه إذ أتاه رجل من الخوز فقال: إني بليت بداء لم يبل أحد بمثله. فسأله عن دائه. فقال: اصبح وبصري مظلم علي وأنا أصيب مثل لحس الكلاب في معدتي فلا تزال هذه حالي إلى أن أطعم شيئاً فإذا

طعمت سكن ما أجد إلى وقت انتصاف النهار. ثم يعاودني ما كنت فيه. فإذا عاودت الأكل سكن ما بي إلى وقت صلاة العتمة. ثم يعاودني فلا أجد له دواء إلا معاودة الأكل. فقال له ماسرجويه: على دائك هذا غضب الله. فإنه أساء لنفسه الاختيار حين قرنه بسفلة مثلك ولوددت أن هذا الداء تحول إلي وإلى صبياني فكنت أعوضك مما نزل بك مثل نصف ما أملك. فقال له الخوزي: ما افهم عنك. قال ماسرجويه: هذه صحة لا تستسحقها أسأل الله نقلها عنك إلى من هو أحق بها منك.

"عبد الملك بن مروان" بويع سنة خمس وستين بالشام. وأما ابن الزبير فبعث أخاه مصعباً على العراق. فقدم البصرة وأعطاه أهلها الطاعة واستولى مصعب على العراقيين. فسار إليه عبد الملك بن مروان فالتقوا بسكن. وقتل مصعب واستقام العراق لعبد الملك. وكان الحجاج بن يوسف على شرطه. فرأى عبد الملك من نفاذه وجلادته ما أعجب به ورجع إلى الشام ولا هم له دون ابن الزبير. فأتاه الحجاج فقال: ابعثني إليه فإني أرى في المنام كأني أقتله وأسلخ جلده. فبعثه إليه. فقتله وسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه. وكانت فتنة ابن الزبير تسع سنين منذ موت معاوية إلى أن مضت ست سنين من ولاية عبد الملك. وولي الحجاج الحجاز واليمامة. وبايع أهل مكة لعبد الملك بن مروان. وزعم قوم أن الحجاج بلاء صبه الله على أهل العراق. و لم قدم الكوفة دخل المسجد وصعد يوماً المنبر وسكت ساعة ثم نهض وقال: والله يا أهل العراق إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها.فكأني أنظر إلى الدماء من فوق العمائم واللحى. وفي سنة سبعين للهجرة وهي سنة ألف للاسكندر استجاش يوسطينيانوس ملك الروم على من بالشام من المسلمين. فصالحه عبد الملك على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار. وقيل كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً. وفي سنة ثلث وثمانين بنى الحجاج مدينة واسط. وفي سنة ست وثمانين توفي عبد الملك بن مروان. وكان يقول: أخاف الموت في شهر رمضان. فيه ولدت وفيه فطمت وفيه جمعت القرآن وفيه بايع لي الناس. فمات في النصف من شوال حين أمن الموت على نفسه. وكان ابن ستين سنة وكانت خلافته من لدن قتل ابن الزبير ثلث عشرة سنة.

واختص بخدمة الحجاج بن يوسف تياذوق وثاودون الطبيبان. أما تياذوق فله تلاميذ أجلاء تقدموا بعده ومنهم من أدرك الدولة العباسية كفرات بن شحناثا في زمن المنصور. وأما ثاودون فله كناش كبير عمله لابنه. وقيل دخل إلى الحجاج يوماً فقال له الحجاج: أي شيء دواء أكل الطين. فقال: عزيمة مثلك أيها الأمير. فرمى الحجاج بالطين و لم يعد إلى أكله بعدها.

"الوليد بن عبد الملك" لما ولي الأمر أقر العمال على النواحي. وفي ولايته خرج قتيبة بن مسلم إلى ما وراء النهر. فجاشت الترك والسغد والشاش وفرغانة وأحدقوا به أربعة أشهر. ثم هزمهم وافتتح بخاراً. ثم مضى

حتى أناخ على سمرقند فافتتحها صلحاً. وفي أيامه مات الحجاج. ذكروا أنه أخذه السل وهجره النوم والرقاد. فلما احتضر قال لمنجم عنده: هل ترى ملكاً يموت. قال: نعم أرى ملكاً يموت اسمه كليب. فقال: أنا والله كليب بذلك سمتني أمي. قال المنجم: أنت والله تموت كذلك دلت عليه النجوم. قال له الحجاج: لاقدمنك أمامي. فأمر به فضرب عنقه. ومات الحجاج وقد بلغ من السن ثلثاً وخمسين سنة. وولي الحجاز والعراق عشرين سنة. وكان قتل من الأشراف والرؤساء مائة ألف وعشرين ألفاً سوى العوام ومن قتل في معارك الحروب. وكان مات في حبسه خمسون ألفا رجل وثلاثون ألف امرأة. ومات الوليد سنة ست وتسعين وكانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر. وبنى مسجد دمشق وكان فيه كنيسة فهدمها. وبنى مسجد المدينة والمسجد الأقصى. وأعطى المجذمين ومنعهم من السؤال إلى الناس. وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً. ومنع الكتاب النصارى من أن يكتبوا الفاتر بالرومية لكن بالعربية. وفتح في ولايته الأندلس وكاشغر والهند. وكان يمر بالبقال فيقف عليه يأخذ منه حزمة بقل فيقول: بكم هذا. فيقول: بفلس. فيقول: زد فيها. وكان صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع. وقيل إنه كان لحاناً لا يحسن النحو. دخل عليه أعرابي فمتَّ إليه بصهر له.فقال له الوليد: من ختنك بفتح النون. فقال: بعض الأطباء. فقال سليمان: إنما يريد أمير المؤمنين من ختنك وضم النون. فقال الأعرابي: نعم فلان. وذكر ختنه. وعاتبه أبوه عبد الملك على ذلك وقال له: لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم. فجمع أهل النحو ودخل بيتاً و لم يخرج منه ستة أشهر. ثم خرج وهو أجهل منه يوم دخله. فقال عبد الملك: قد أعذر.

"سليمان بن عبد الملك" وفي سنة ست وتسعين بويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي فيه مات الوليد أخوه. قالوا أنه كان خيراً فصيحاً نشأ بالبادية عند أخواله بني عبس. ورد المظالم وآوى المشترين وأخرج المحبسين. وفي سنة ثماني وتسعين من الهجرة وهي سنة ألف وسبعة وعشرين للاسكندر جهز سليمان جيشاً مع أخيه مسلمة ليسير إلى القسطنطينية. وسار حتى بلغها في مائة ألف وعشرين ألفاً وعبر الخليج وحاصر المدينة. فلما برح بأهلها الحصار أرسلوا إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً. فأبى أن يفتتحها إلا عنوةً. فقالت الروم: للاون البطيرق: إن صرفت عنا المسلمين ملكناك علينا. فاستوثق منهم وأتى مسلمة وطلب الأمان لنفسه وذويه ووعده أن يفتح له المدينة غير أنه ما تهيأ ذلك ما لم يتنح عنهم ليطمئنوا ثم يكر عليهم. فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق. ودخل لاون فلبس التاج وقعد على سرير الملك. واعتزل الملك ثاوذوسيوس ولبس الصوف منعكفاً في بعض الكنائس. ولأن مسلمة لما دنا من القسطنطينية أمر كل فارس أن يحمل معه مدين من الطعام على عجز فرسه إلى القسطنطينية لما دخل لاون المدينة وتنحى مسلمة اعدَّ لاون السفن والرجال فنقلوا في ليلةٍ ذلكالطعام و لم يتركوا منه إلا ما لم يذكر

وأصبح لاون محارباً وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها. وبلغ الخبر لمسلمة فأقبل راجعاً ونزل بفناء القسطنطينية ثلاثين شهراً فشتا فيها وصاف وزرع الناس. ولقي جنده ما لم يلقه جيش آخر حتى كان الرجل يخاف أ، يخرج من العسكر وحده من البلغاريين الذين استجاشهم لاون ومن الإفرنج الذين في السفن ومن الروم الذين يحاربونهم من داخل. وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق. وسليمان بن عبد الملك مقيم بدابق ونزل الشتاء فلم يقدر أن يمدهم حتى مات لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين.فرحل مسلمة عن القسطنطينية وانصرف وكانت خلافته أعني سليمان سنتين وثمانية أشهر. وكان بايع ابنه أيوب فمات قبله فاستخلف عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. ولما احتضر سليمان قيل له: اوصِ. فقال: إن بنيَّ صبية صغار. افلح من كانت له الكبار.

"عمر بن عبد العزيز" لما استخلف عمر بن عبد العزيز وبويع له صعد المنبر وأمر برد المظالم ووضع اللعنة عن أهل البيت وكانوا يلعنونهم على المنابر وحض على التقوى والتواصل وقال: والله ما أصبحت ولي على أحد من أهل القبلة موجدة إلا على أسراف ومظلمة. ثم تصدق بثوبه ونزل. وتوفي عمر بن عبد العزيز في رجب لخمس بقين منه سنة إحدى ومائة. وكانت شكواه عشرين يوماً. ولما مرض قيل له: لو تداويت. فقال: لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها نعم المذهوب إليه ربي. وكان موته بدير سمعان ودفن به. وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر. وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة. قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر أعوده فإذا هو على فراش من ليف وتحته وسادة من أديم مسجى بشملة ذابل الشفة كاسف اللون وعليه قميص وسخ. فقلت لأختي فاطمة وهي امرأته: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين. فقالت: نفعل. ثم عدت فإذا القميص على حاله. فقلت: ألم آمركم أن تغسلوا قميصه. فقالت: والله ما له غيره. فسبحت الله وبكيت وقلت: يرحمك الله لقد خوفتنا بالله عز وجل وأبقيت لنا ذكراً في الصالحين . قيل وكانت نفقته كل يوم درهمين. وفي أيامه تحركت دولة بني هاشم.

"يزيد بن عبد الملك" يكنى أبا خالد. عاشر بني مروان. ولما ولي الأمر استعمل على العراقين وخراسان عمر بن هبيرة الفزازي وبعث مسلمة بن عبد الملك لقتال يزيد ابن المهلب. فقتله وبعث برأس يزيد وكان يزيد بن عبد الملك صاحب لهوٍ وقصفٍ وشغف بحبابة المغنية واشتهر بذكرها. وقيل كان يزيد قد حج أيام سليمان أخيه فاشترى حبابة بأربعة آلاف دينار فقال سليمان: لقد هممت أن أحجر على يزيد. فلما سمع يزيد ردها فاشتراها رجل من أهل مصر. فلما أفضت الخلافة إليه قالت له امرأته سعدة: هل بقي من الدنيا شيء تتمناه. فقال: نعم حبابة. فأرسلت فاشترتها وصنعتها وأتت بها يزيد وأجلستها من وراء الستر فقالت: يا أمير المؤمنين أبقي من الدنيا شيء تتمناه. قال: قد أعلمتك. فرفعت الستر وقالت: هذه حبابة.

وقامت وتركتها عنده. فحظيت سعدة عنده وأكرمها. وقال يوماً وقد طرب بغناء حبابة: دعوني أطير. وأهوى ليطير. فقالت: يا أمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة. فقال: واللخ لأطيرن. فقالت: فعلى من تدع الأمة والملك. قال لها: عليك والله. وقبل يدها. فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك ما أسخفك. وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان. فرماها بحبة عنب فاستقبلتها بفيها فدخلت حلقها فشرقت ومرضت بها وماتت. فتركها ثلاثة أيام لا يدفنها حتى نتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر إليها ويبكي. فلما دفنت بقي بعدها خمسة عشر يوماً ومات ودفن إلى جانبها سنة خمس ومائة. وكانت ولايته أربع سنين وشهراً وله أربعون سنة.

"هشام بن عبد الملك" قي هذه السنة استخلف هشام بن عبد الملك لليالٍ بقين من شعبان. وكان عمره يومئذ أربعاً وثلاثين سنة. أتاه البريد بالخاتم والقضيب وسلم عليه بالخلافة وهو بالرصافة. فركب منها حتى أتى دمشق. وفي أيامه خرج يزيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب فقدم الكوفة وأسرعت إليه الشيعة وقالوا: لنرجو أن يكون هذا الزمان الذي تهلك فيه بنو أمية. وجعلوا يبايعونه سراً. وبايعه أربعة عشر ألفاً على جهاد الظالمين والرفع عن المستضعفين. وبلغ الخبر يوسف بن عمر وهو أمير البصرة فجد في طلب زيد. وتواعدت الشيعة بالخروج وجاءوا إلى يزيد فقالوا: ما تقول في أبي بكر وعمر. قال: ما أقول فيهما إلا خيراً. فتبرأوا منه ونكثوا بيعته وسعوا به إلى يوسف. فبعث في طلبه قوماً. فخرج زيد و لم يخرج معه إلا أربعة عشر رجلاً. فقال: جعلتموها حسينية. ثم ناوشهم القتال. فأصابه سهم بلغ دماغه فحمل من المعركة ومات تلك الليلة ودفن. فلما أصبحوا استخرجوه من قبره فصلبوه. فأرسل هشام إلى يوسف: احرق عجل العراق. فأحرقه. وهرب ابنه يحيى حتى أتى بلخ. قيل كان هشام محشواً عقلاً. وتفقد هشام بعض ولده فلم يحضر الجمعة. فقال: ما منعك من الصلاة.قال: نفقت دابتي. قال: أفعجزت عن المشي. فمنعه الدابة سنة. وأتي هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط. فقال: اكسروا الطنبور على رأسه. فبكى الرجل لما ضربه. فقيل: عليك بالصبر. فقال: أتراني أبكي للضرب بل إنما أبكي لاحتقاره البربط إذ سماه طنبوراً. وقيل: وكتب إليه بعض عماله: قد بعثت إلى أمير المؤمنين بسلة دراقن. فكتب إليه: قد وصل الدراقن فأعجبتنا فزد منه واستوثق من الوعاء. وكتب إلى عامل آخر قد بعث بكمأة: قد وصلت الكمأة وهي أربعون وقد تغير بعضها. فإذا بعثت شيئاً فأجد حشوها في الظرف بالرمل حتى لا يضطرب ولا يصيب بعضها بعضاً. وقيل له: أتطمع في الخلافة وأنت بخيل جبان. وقيل له: أتطمع في الخلافة وأنت بخيل جبان. قال: و لم لا أطمع فيها وأنا حليم عفيف. ومات هشام بالرصافة سنة خمس وعشرين ومائة. وكانت ولايته عشرين سنة وعمره خمساً وخمسين سنة وكان مرضه الذبحة.

قيل أول من قدم خراسان من دعاة بني العباس سنة تسع ومائة زياد في ولاية أسد بعثه محمد الإمام ابن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وقال له: الطف بمضر. ونهاه عن رجل من نيسابور يقال له غالب لأنه كان مفرطاً في حب بني فاطمة. فلما قدم زياد دعا إلى بني العباس وذكر سيرة بني أمية وظلمهم. وقدم عليه غالب وتناظرا في تفضيل آل علي وآل العباس وافترقا. وأقام زياد بمرو. ورفع أمره إلى أسد وخوف من جانبه فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة. وفي سنة ثماني عشرة ومائة توجه عمار ابن يزيد إلى خراسان ودعا إلى محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس. فأطاعه الناس وتسمى بخداش وأظهر دين الخرمية ورخص لبعضهم في نساء بعض وقال لهم: إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج. وإن تأويل الصوم أن يصام عن ذكر الإمام فلا يباح باسمه. والصلاة فالدعاء له والحج فالقصد إليه.

"الوليد بن يزيد بن عبد الملك" كان يزيد أبوه عقد ولاية العهد له بعد أخيه هشام ابن عبد الملك. فلما ولي هشام أخو يزيد أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب وتهاون بالدين واستخف به. فتنكر له هشام وأض به وكان يعتبه ويتنقصه ويقصر به. فخرج الوليد ومعه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالازرق. وكان يقول لأصحابه: هذا المشؤوم قدمه أبي على أهل بيته فصيره ولي عهده ثم يصنع بي ما ترون لا يعلم أن لي في أحد هوى إلا عبث به. و لم يزل الوليد مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام. وأتاه رجلان على البريد فسلما عليه بالخلافة. فوجم ثم قال: أمات هشام. فقالا: نعم. فأرسل إلى الخزان. فقال: احتفظوا بما في أيديكم. فأفاق هشام فطلب شيئاً. فمنعوه. فقال: إنّا الله كأنّا كنا خزاناً للوليد. ومات في ساعته. وخرج عياض كاتب الوليد من السجن فختم أبواب الخزائن وأنزل هشاماً عن فراشه. وما وجدوا له قمقماً يسخن فيه الماء حتى استعاروه. ولا وجدوا كفناً من الخزائن. فكفنه غالب مولاه. وضيق الوليد على أهل هشام وأصحابه وكان يقول: كلناه بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به أصبعاً. فلما ولي الوليد أجرى على زمني أهل الشام وعميانهم وكساهم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد الناس في العطاء عشرات و لم يقل في شيء يسأله: لا. ثم عقد لابنيه الحكم وعثمان البيعة من بعده وجعلهما وليي عهده أحدهما بعد الآخر. وفي هذه السنة أعني سنة خمس وعشرين ومائة قتل يحيى بن يزيد بن علي بن الحسين ابن علي ابن أبي طالب بجرجان وصلب ثم أنزل وأحرق ثم رض وحمل في سفينة وذر في الفرات. وفيها قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتله ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان سبب قتله ما تقدم من خلاعته ومجانته. فلما ولي الخلافة و لم يزدد من الذي كان فيه من اللهو والركوب للصيد وشرب الخمر ومنادمة الفساق إلا تمادياً ثقل ذلك على رعيته وجنده وكرهوا أمره. ولما حاصروه في قصره دنا من الباب وقال لهم: ألم أزد في أعطياتكم. ألم أرفع المؤن عنكم. ألم أعط فقراءكم. فقالوا: إنّا ما ننقم عليك في أنفسنا إنما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح

أمهات أولاد أبيك. قال: حسبكم فلعمري لقد أكثرتم وأغرقتم والله لا يرتق فتقكم ولا يلم شعثكم ولا تجمع كلمتكم. فنزل من الحائط إليه عشرة رجال فاحتزوا رأسه وسيروه إلى يزيد. فنصبه على رمح وطاف به بدمشق. وسجن ابنيه الحكم وعثمان. وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. وكان عمره اثنتين وأربعين سنة.

وفي هذه السنة وجه ابراهيم بن محمد الأمام أبا هام بكير إلى خراسان. فقدم مرو وجمع النقباء والدعاة فنعى له محمد الامام ودعاهم إلى ابنه ابراهيم الأمام. فقبلوه ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة شيعة بني العباس.

"يزيد بن الوليد بن عبد الملك" سمي الناقص لأنه نقص الزيادة التي كان الوليد زادها في عطيات الجند. وكان محمود السيرة مرضي الطريقة. أمر بالبيعة لأخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. وتوفي بدمشق لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة. وكانت خلافته ستة أشهر. وكان عمره ستاً وأربعين سنة. وكانت أمه أم ولد اسمها شاه فرند ابنة فيروز ابن يزدجرد بن شهريار بن كسرى وهو القائل:

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدي وجدي خاقانُ

وإنما جعل قيصر وخاقان جديه لأن أمه فيروز ابنة كسرى وأمها ابنة قيصر وأم كسرى ابنة خاقان ملك الترك.

"ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك" فلما مات يزيد بن الوليد قام بالأمر أخوه ابراهيم بعده غير أنه لم يتم له الأمر وكان يسلم عليه تارةً بالخلافة وتارة بالامارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما. فمكث سبعين يوماً ثم سار إليه مروان بن محمد فخلعه. ثم لم يزل حياً حتى أصيب سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

"مروان بن محمد بن مروان بن الحكم" لما مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك سار مروان في جنود الجزيرة إلى الشام لمحاربة ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك. ولما دخل دمشق أتى بالغلامين الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك مقتولين فدفنهما وبايعه الناس. فلما استقر له الأمر رجع إلى منزله بحران فطلب منه الأمان لابراهيم ابن الوليد وسليمان بن هشام بن عبد الملك فأمنهما. وفي هذه السنة أعني سنة سبع وعشرين ومائة حارب سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد وانهزم أصحاب سليمان وقتل منهم نحو ستة آلاف. وفيها توجه سليمان بن كثير ولا هز بن قريط وقحطبة إلى مكة فلقوا ابراهيم بن محمد الأمام بها وأوصلوا إلى مولى له عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم ومسكاً ومتاعاً كثيراً. وكان معهم أبو مسلم. فقال سليمان لابراهيم الامام: هذا مولاك. فأمر ابراهيم أبا مسلم على خراسان.

وفي سنة تسع وعشرين ومائة بعث ابراهيم الامام إلى أبي مسلم بلواء يدعى الظل وراية تدعى السحاب فعقدهما على رمحين وأظهر الدعوة العباسية بخراسان وتأول الظل والسحاب أن السحاب يطبق الأرض وكما أن الأرض لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي آخر الدهر. وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة حج ابراهيم بن محمد الامام ومعه أخواه أبو العباس وأبو جعفر وولده وعمه ومواليه على ثلاثين نجيباً عليهم الثياب الفاخرة والرحال والأثقال. فشهره أهل الشام وأهل البوادي والحرمين معما انتشر في الدنيا من ظهور أمرهم. وبلغ مروان خبر حجهم فكتب إلى عاملة بدمشق يأمره بتوجيه خيل إليه. وكان مروان بأرض الشام. ووجه العامل خيلاً فهجموا على ابراهيم فأخذوه وحملوه إلى سجن حران فأثقلوه بالحديد وضيقوا عليه الحلقة حتى مات. ولما أحس ابراهيم بالطلب أوصى إلى أخيه أبي العباس ونعي نفسه إليه وأمره بالمسير إلى الكوفة بأهل بيته. فسار معه أخوه أبو جعفر وعمه وستة رجال حتى قدموا الكوفة مستخفين.

"أبو العباس السفاح" وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة خرج أبو العباس بن محمد الامام بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ليلة الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول من دار أبي مسلمة بالكوفة فصلى المغرب في مسجد بني أيوب ودخل منزله. فلما أصبح غدا عليه القواد في التعبية والهيئة وقد أعدوا له السواد والمركب والسيف. فخرج أبو العباس فيمن معه إلى القصر الذي للأمارة. ثم خرج إلى المقصورة وصعد المنبر وبايعه الناس. ثم وجه عمه عبد الله إلى مروان وهو نازل بالزاب. فوقاع عبد الله مروان فهزمه. فمر مروان على وجهه ومضى فعبر جسر الفرات فوق حران وجمع جمعاً عظيماًبنهر فطرس من أرض فلسطين. وعبر أيضاً عبد الله الفرات وحاصر دمشق حتى افتتحها وقتل من بها من بني أمية وهدم سورها حجراً حجراً ونبش عن قبور بني أمية وأحرق عظامهم بالنار. ثم ارتحل نحو مروان فهزمه واستباح عسكره. وهرب مروان إلى أرض مصر فاتبعه جيش عبد الله واستدلوا عليه وهو في كنيسة في بوصير فطعنه رجل فصرعه واحتز آخر رأسه وبعث به إلى أبي العباس السفاح. وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وفي سنة ست وثلاثين ومائة مات السفاح بالانبار مدينته التي بناها واستوطنها لثلث عشرة سنة مضت من ذي الحجة بالجدري. وكان له يوم مات ثلث وثلاثون سنة. وكانت ولايته من لدن قتل مروان أربع سنين. وكان أبو العباس رجلاً طويلاً أبيض اللون حسن الوجه يكره الدماء ويحامي على أهل البيت.

"أبو جعفر المنصور" هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بويع له سنة سبع وثلاثين ومائة. وفي هذه السنة قتل أبو مسلم الخراساني قتله المنصور بسبب أنهما حجا معاً في أيام السفاح. وكان أبو

مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطرق. وكان الذكر له. فحقد أبو جعفر ذلك عليه. ولما صدر الناس عن الموسم تقدم أبو مسلم في الطريق على أبي جعفر فأتاه خبر وفاة السفاح فكتب إلى أبي جعفر يعزيه عن أخيه و لم يهنه بالخلافة و لم يقم حتى يلحقه و لم يرجع إليه. فخافه أبو جعفر المنصور وأجمع الرأي وعمل المكايد وهجر النوم إلى أن اقتنصه. وكان أبو مسلم استشار رجلاً من أصحابه بالري في رجوعه إلى المنصور فقال: لا أرى أن تأتيه وأرى أن تمتدّ إلى خراسان. فلما لم يقبل منه وسار نحو المنصور قيل له: تركت الرأي بالريّ فذهب مثلاً. فلما دنا أبو مسلم من المنصور أمر الناس بتلقيه وأكرامه غاية الكرامة. ثم قدم فدخل على المنصور وقبل يده. فأمره أن ينصرف ويروح نفسه ليلته ويدخل الحمام. فانصرف. فلما كان من الغد أعد المنصور من أصحاب الحرس أربعة نفر وأكمنهم خلف الرواق وقال لهم: إذا أنا صفقت بيديّ فشأنكم. وأرسل إلى أبي مسلم يستدعيه ودخل على المنصور فأقبل عليه يعاتبه ويذكر عثراته. فمما عد عليه أن قال: ألست الكاتب إليّ تبدأ بنفسك. ودخلت علينا وقلت: أين بان الحارثية. ويأتيك كتابي فتقرأه استهزاءً ثم تلقيه إلى مالك ابن الهيثم ويقرأه وتضحكان. فجعل أبو مسلم يعتذر إليه ويقبل الأرض بين يديه. فقال المنصور: قتلني الله إن لم أقتلك. وصفق بيديه فخرج الحراس يضربونه بسيوفهم وهو يصرخ ويستأمن ويقول: استبقني لعدوك يا أمير المؤمنين. فقال له المنصور: وأي عدو لي أعدى منك. وقيل كانت عند أبي مسلم ثلث نسوة وكان لايطأ المرأة منهم في السنة إلا مرة واحدة. وكان من أغير الناس لا يدخل قصره أحد غيره وفيه كوى يطرح منها لنسائه ما يحتجن إليه. قالوا ليلة زفت إليه امرأته أمر بالبرذون الذي ركبته فذبح وأحرق سرجه لئلا يركبه ذكر بعدها. قالوا وكان من أشد الناس طمعاً وأكثرهم طعاماً يخبز كل يوم في مطبخه ثلثة آلاف قرف ويطبخ مائة شاة سوى البقر والطير. وكان له ألف طباخ وآلة المطبخ تحمل على ألف ومائتي رأس من الدواب. وقيل كان أبو مسلم شجاعاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة. وقيل بل كان فاتكاً قليل الرحمة قاسي القلب سوطه سيفه قتل ستمائة ألف ممن يعرف صبراً سوى من لايعرف ومن قتل في الحروب والهيجات. وسئل بعضهم: أبو مسلم كان خيراً أو الحجاج. قال: لا أقول أن أبا مسلم خير من أحد ولكن الحجاج كان شراً منه. وزعم قوم أن أبا مسلم كان من قرية من قرى مرو. ويقال: بل كان من العرب سمع الحديث وروى الأشعار. وقيل كان عبداً. وقد نسبه بعض الشعراء إلى الأكراد حين هجاه. وفي سنة أربعين ومائة سير المنصور عبد الوهاب ابن أخيه ابراهيم بن محمد الأمام في سبعين ألف مقاتل إلى ملطية. فنزلوا عليها وعمروا ماكان خربه الروم منها. ففرغوا من العمارة في ستة أشهر. واسكنها المنصور أربعة آلاف من الجند وأكثر فيها من السلاح والذخائر وبنى حصن قلوذية. وفي هذه السنة خرج الروندية على المنصور بمدينة الهاشمية وهم قوم من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن ربهم الذي يطعمهم

ويسقيهم هو المنصور. وجعلوا يطوفو بقصره ويقولون: هذا قصر ربنا فأنكر ذلك المنصور وخرج إليهم ماشياً إذ لم يكن في القصر دابة. ونودي في أهل السوق فاجتمعوا وحملوا عليهم وقاتلوهم فقتلوا أعني الروانديه جميعاً وهم يومئذ ستمائة رجل. وفي السنة الرابعة والأربعين أخذ المنصور من أولاد الحسين بن علي بن أبي طالب اثني عشر إنساناً ورحلهم من المدينة إلى الكوفة وحبسهم في بيت ضيق لا يمكن لأحد من مقعده يبول بعضهم على بعض ويتغوط ولا يدخل عليهم روح الهواء ولا تخرج عنهم رائحة القذارة حتى ماتوا عن آخرهم. فخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة وجمع الجموع وتسمى بالمهدي. وخرج ابراهيم أخوه بالبصرة في ثلاثين ألفاً. وقتلا و لم ينجحا. وفي سنة خمس وأربعين ومائة ابتدأ المنصور في بناء عمارة مدينة بغداد. وسبب ذلك أنه كان قد ابتنى الهاشمية بنواحي الكوفة. فلما ثارت الروانديه به فيها كره سكناه لذلك ولجوار أهل الكوفة أيضاً

فإنه كان لا يأمن أهلها على نفسه وكانوا قد أفسدوا جنده. فخرج بنفسه يرتاد موضعاً يسكنه هو وجنده. فقال له أهل الحذق: إنّا نرى يا أمير المؤمنين أن يكون على الصراة وبين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر فإذا قطعته لم يصل إليك. وأنت متوسط للبصرة والكوفة و واسط والموصل والسواد. ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك. وتجيئك الميرة فيها من البر والبحر. فازداد المنصور حرصاً على النزول في ذلك الموضع. ولما عوم على بناء بغدا أمر بنقض المدائن وايوان كسرى. فنقضه ونقله إلى بغداد. فنقضت ناحية من القصر الأبيض وحمل نقضه فنظر وكان مقدار ما يلزمهم له أكثر من ثمن الجديد فأعرض عن الهدم. وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض. وعمل له سورين للداخل أعلى من الخارج. وبنى قصره في وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصليّ أن ينحرف إلى باب البصرة. وكانت الأسواق في مدينته فجاءه رسول لملك الروم. فأمر الربيع فطاف به في المدينة. فقال: كيف رأيت. قال: رأيت بناء حسناً إلا أني رأيت أعداءك معك وهم السوقة. فلما عاد الرسول عنه أمر بأخراجهم إلى ناحية الكرخ وأمر أن يجعل في كل ربع من مدينته بقال يبيع البقل والخل حسب. في سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت الأمام. وفي سنة ثماني وخمسين ومائة سار المنصور من بغداد ليحج فنزل قصر عبدويه فانقض في مقامه هنالك كوكب بعد إضاءة الفجر وبقي أثره بيناً إلى طلوع الشمس. فأحضر المهدي ابنه وكان قد صحبه ليودعه فوصاه بالمال والسلطان. وقال له أيضاً: أوصيك بأهل البيت أن تظهر كرامتهم فإن عزك عزهم وذكرهم لك وما أظنك تفعل. وانظر مواليك وأحسن إليهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدةٍ إن نزلت بك وما أظنك تفعل. وانظر هذه المدينة وأياك أن تبني المدينة الشرقية فإنك لاتتم بناءها وأظنك ستفعل. وإياك أن تدخل النساء في أمرك وأظنك ستفعل. هذه وصيتي إليك والله خليفتي عليك. ثم ودعه وبكى كل منهما إلى

صاحبه. ثم سار إلى الكوفة وكلما سار متزلاً اشتد وجعه الذي مات به وهو القيام. فلما وصل إلى بئر ميمون مات بها مع السحر لستّ خلون من ذي الحجة سنة ثماني وخمسين ومائة. وحمل إلى مكة وحفروا له مائة قبر ليعموا على الناس ودفن في غيرها مكشوف الرأس لاحرامه وكان عمره ثلاثاً وستين سنة وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة. وقيل في صفته وسيرته أنه كان أسمر نحيفاً خفيف العارضين وكان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس وأشدهم احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان. فإذا لبس ثيابه وخرج هابه الأكابر فضلاً عن الأصاغر. و لم ير في داره لهو ولا شيء من اللعب والعبث. قال حماد التركي: كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة فقال: انظر ما هذا. فذهبت فإذا خادم له قد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فأخبرته فقال: وأي شيء الطنبور. فوصفته له. فقال: ما يدريك أنت ما الطنبور. قلت: رأيته بخراسان. فقام ومشى إليهن. فلما رأينه تفرقن. فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور وأخرجه فباعه. و لم أفضى إليه الأمر أمر بتغيير الزي وتطويل القلانس. فجعلوا يحتالون لها بالقصب من داخل. وأمر بعد دور أهل الكوفة وقسمة خمسة دراهم على كل دار. فلما عرف عددهم جباهم أربعين درهماً أربعين درهماً.

وكان المنصور في صدر أمره عندما بنى بغداد أدركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة. وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه. فقيل له عن جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري انه أفضل الأطباء. فتقدم بإحضاره. فأنفذه العامل بجنديسابور بعد ما أكرمه. فخرج ووصى ولده بختيشوع بالبيمارستان واستصحب معه تلميذه عيس ابن شهلاثا ولما وصل إلى بغداد أمر المنصور بإحضاره. فلما وصل إلى الحضرة دعا له بالفارسية والعربية. فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره وأمره بالجلوس وسأله عن أشياء فأجابه عنها بسكون. وخبره بمرضه. فقال له جيورجيس: أنا أدبرك بمشية الله وعونه. فأمر له في الوقت بخلعة جليلة وتقدم إلى الربيع بإنزاله في أجمل موضع من دوره وإكرامه كما يكرم أخص الأهل. و لم يزل جيورجيس يتلطف له في تدبيره حتى برئ من مرضه وفرح به فرحاً شديداً. وقال له يوماً: من يخدمك ههنا. قال: تلامذتي. فقال له الخليفة: سمعت أته ليست لك امرأة. فقال : لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها. وانصرف من الحضرة ومضى إلى البيعة. فأمر المنصور خادمه سالماً أن يحمل من الجواري الروميات الحسان ثلاثاً إلى جيورجيس مع ثلاثة آلاف دينار. ففعل ذلك. فلما انصرف جيورجيس إلى مترله عرفه عيسى بن شهلاثا تلميذه بما جرى وأراه الجواري. فأنكر أمرهن وقال لعيسى: يا تلميذ الشيطان لم أدخلت هؤلاء إلى مترلي. أردت أن تنجسني. امضِ وردهن على أصحابهن. فمضى إلى دار الخليفة وردهن على الخادم. فلما اتصل الخبر إلى المنصور أحضره وقال له: لم رددت الجواري.

قال: لا يجوز لنا معشر النصارى أن نتزوج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها. فحسن موضع هذا من الخليفة وزاد موضعه عنده. وهذا ثمرة العفة. ولما كان في سنة اثنتين وخمسين ومائة مرض جيورجيس مرضاً صعباً. ولما اشتد مرضه أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج ماشياً إليه وتعرف خبره. فخبره وقال له: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الانصراف إلى بلدي لانظر أهلي وولدي وإن متُّ قبرت مع آبائي. فقال له: يا حكيم اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة. قال جيورجيس قد رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار. فضحك المنصور من قوله ثم قال: إنني منذ رأيتك وجدت راحة من الأمراض التي كانت تعتادني. فقال جيورجيس: أنا أحلف بين يدي أمير المؤمنين عيس تلميذي فهو ماهر. فأمر لجيورجيس بعشرة آلاف دينار وأذن له بالانصراف وأنفذ معه خادماً وقال: إن مات في الطريق فاحمله إلى منزله ليدفن هناك كما أحب. فوصل إلى بلده حياً. ثم أمر المنصور بإحضار عيسى ابن شهلاثا. فلما مثل بين يديه سأله عن أشياء فوجده ماهراً فاتخذه طبيباً. ولما استصحبه المنصور بدأ في التشاور والأذية خاصة على المطارنة والأساقفة ومطالبتهم بالرشى. ولما خرج المنصور في بعض أسفاره وصل إلى قريب نصيبين. فكتب عيسى إلى قوفريان مطران نصيبين يتهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمسه منه. وكان عيسى قد التمس أن ينفذ له من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر. وكتب في كتابه إلى المطران: ألست تعلم أن أمر الخليفة في يدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته؟ فلما وقف المطران على الكتاب احتال في التوصل إلى الربيع وشرح له صورة الحال فأقرأه الكتاب وأوصله الربيع إلى الخليفة ووقفه على حقيقة الأمر. فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيس الطبيب وتأديبه ونفيه. ففعل به ذلك ونفي أقبح نفي. وهذا ثمرة الشر. وكان نوبخت المنجم الفارسي يصحب المنصور وكان فاضلاً حاذقاً خبيراً باقتران الكواكب وحوادثها. ولما ضعف عن الصحة قال له المنصور: أحضر ولدك ليقوم مقامك. فسير ولده أبا سهل. قال أبو سهل: فلما دخلت على المنصور ومثلت بين يديه قيل لي: تسمَّ لأمير المؤمنين. فقلت: اسمي خرشاذماه طيماذاه ماباذار خسرو ابهمشاذ. فقال لي المنصور: كل ما ذكرت فهو اسمك! "قال" قلت: نعم. فتبسم المنصور ثم قال: ما صنع أبوك شيئاً فاختر مني إحدى خلتين إما أن اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيماذ وإما أن تجعل لك كنية تقوم مقام الاسم وهي أبو سهل. قال أبو سهل: قد رضيت بالكنية. فبقيت كنيته وبطل اسمه.

"المهدي بن المنصور" لما مات المنصور ببئر ميمون لم يحضره عند وفاته إلا خدمه والربيع مولاه. فكتم الربيع موته وألبسه وسنده وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى شخصه منها ولا يفهم أمره وأدنى أهله منه. ثم قرب منه الربيع كأنه يخاطبه. ثم رجع إليهم وأمرهم عنه بالبيعة للمهدي بن المنصور بن محمد

الامام ولابن عمه عيسى بن موسى بن محمد الامام بعده. فبايعوا. ثم أخرجهم. وبعد ذلك خرج إليهم باكياً مشقوق الجيب لاطماً رأسه. ثم وجه إلى المهدي بخبر وفاة المنصور وبالبيعة له ولابن عمه عيسى بن موسى بعده. فأبى عيسى بن موسى من البيعة للمهدي وامتنع بالكوفة وأراد أن يتحصن بها. فبعث المهدي أبا هريرة في ألف فارس فأخذه إلى المهدي. و لم يزل يراوضه ويراوده حتى أجاب إلى خلع نفسه. فعوضه عنها عشرة آلاف دينار وبايع للمهدي ولابنه موسى الهادي. وفي أيام المهدي خرج بخراسان رجل يقال له يوسف البرم واستغوى خلقاً فبعث إليه المهدي جيوشاً ففضوا جموعه وأسوره وحملوه إلى المهدي. فأمر به فصلب. وخرج المقنع وادعى النبوة وقال بتناسخ الأرواح واتبه ناس كثيرون. وكان هذا رجلاً أعور من قرية بمرو يقال لها كره. وكان لايسفر عن وجهه لأصحابه فلذلك قيل له المقنع. وكان يحسن شيئاً من الشعبذة وأبواب النيرنجيات فاستغوى أهل العقول الضعيفة واستمالهم، فبعث المهدي في طلبه فصار إلى مار وراء النهر وتحصن في قلعة كنس وجمع فيها من الطعام والعلوفة وبث الدعاة في الناس وأدعى إحياء الموتى وعلم الغيب. وألح المهدي في طلبه فحوصر. فلما اشتد الحصار عليه وأيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله كلهم وسقاهم السم فماتوا عن آخرهم. وأحرق كل ما في القلعة من دابة وثوب وطعام. وألقى نفسه في النار لئلا يلقى جسده العدو. ودخل العسكر القلعة ووجدوها خالية خاوية. وكان ذلك مما زاد في افتتان من بقي من أصحابه بما وراء النهر. وكان وعدهم أن تتحول روحه إلى قالب رجل أشمط على برذون أشهب وإنه يعود إليهم بعد كذا سنة ويملكهم الأرض. فهم بعد يتنظرونه ويسمون المبيضة. وفي سنة خمس وستين ومائة سير المهدي ابنه الرشيد لغزو الروم. فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية. وصاحب الروم يومئذ ايريني امرأة لاون الملك. وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها. فجزعت المرأة من المسلمين وطلبت الصلح من الرشيد. فجرى الصلح بينهم على الفدية وأن تقيم له الادلاء والأسواق في طريقه. وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً مخوفاً من أحد جانبيه جبل وعر ومن جانبه الآخر نهر ساغريس. فأجابته إلى ذلك ومقدار الفدية سبعون ألف دينار لكل سنة ورجع عنها. واو كانت ذات همة لأمكنها منع المسلمين من الخروج والفتك بهم. وفي سنة تسع وستين ومائة عزم المهدي على خلع ابنه الموسى الهادي والبيعة للرشيد بولاية العهد. فبعث إليه وهو بجرجان في المعنى. فلم يفعل وامتنع من القدوم أيضاً. فسار المهدي يريده. فلما بلغ ماسبذان. عمدت حسنة جاريته إلى كمثرى فأهدته جارية أخرى كان المهدي يتخطاها وسمت منه كمثراة هي أحسن الكمثرى. فاجتاز الخادم بالمهدي وكان يعجبه الكمثرى فأخذ تلك الكمثراة المسمومة فأكلها. فلما وصلت إلى جوفه صاح: جوفي جوفي. فسمعت حسنة بموته فجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول: أردت أن أنفرد بك فقتلتك. فمات من يومه وكان موته في المحرم لثمان بقين منه سنة تسع وستين ومائة وكانت خلافته عشر سنين

وتوفي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ودفن تحت جوزة كان يجلس تحتها.

حكي إنه لما هم المهدي بالخروج إلى ماسبذان تقدم إلى حسنة حظيته أن تخرج معه. فأرسلت إلى توفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي وهو رئيس منجمي المهدي قائلة له: إنك أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفراً لم يكن في الحساب. فعجل الله موتك وأراحنا منك. فلما بلغته رسالتها قال للجارية التي أتته بها: إرجعي إليه وقولي لها أن هذه الإشارة ليست مني. وإما دعاؤك علي بتعجيل الموت فهذا شيء قد قضى الله به وموتي سريع فلا تتوهمي أن دعوتك استجيبت. ولكن أعدي لنفسك تراباً كثيراً. فإذا أنا مت فاجعليه على رأسك. فما زالت متوقعة تأويل قوله منذ توفي حتى توفي المهدي بعد عشرين يوماً. وكان توفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى. وله كتاب تاريخ حسن ونقا كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة.

وفي هذا الزمان اشتهر في الطب أبو قريش طبيب المهدي وهو المعروف بعيسى الصيدلاني. ولم يذكر هذا في جملة الأطباء لأنه كان ماهراً بالصناعة وإنما يذكر لظريف خبره وما فيه من العبرة وحسن الاتفاق. وهو أن هذا الرجل كان صيدلانياً ضعيف الحال جداً. فتشكت الخيزران حظية المهدي وكانت من مولدات المدينة. وتقدمت إلى جاريتها بأن تخرج القارورة إلى طبيب غريب لا يعرفها. وكان أبو قريش بالقرب من القصر الذي للمهدي. فلما وقع نظر الجارية عليه أرته القارورة. فقال لها: لمن هذا الماء؟ فقالت: لامرأة ضعيفة. فقال: بل لملكة جليلة عظيمة الشأن وهي حبلى بملك. وكان هذا القول منه على سبيل الرزق. فانصرفت الجارية من عنده وأخبرت الخيزران بما سمعت منه. ففرحت بذلك فرحاً شديداً وقالت: ينبغي أن تضعي علامة على دكانه حتى إذا صح قوله اتخذناه طبيباً لنا. وبعد مدة ظهر الحبل وفرح به المهدي فرحاً شديداً. فأنفذت الخيزران إلى أبي قريش خلعتين فاخرتين وثلاثمائة دينار وقالت: استعن بهذه على أمرك. فإن صح ما قلته استصحبناك. فعجب أبو قريش من ذلك وقال: هذا من عمدي ربي عز وجل لأنني ما قلته للجارية إلا وقد كان هاجساً من غير أصل. ولما ولدت الخيزران موسى الهادئ سر المهدي سروراً عظيماً. وحدثته الخيزران الحديث فاستدعى أبا قريش وخاطبه. فلم يجد عنده علماً بالصناعة إلا شيئاً يسيراً من علم الصيدلة. إلا أنه اتخذه طبيباً لما جرى منه واستصحبه وأكرمه الإكرام التام وحظي عنده.

"الهادي بن المهدي" لما توفي المهدي كان الرشيد معه في ماسبذان. فكتب إلى الآفاق بوفاة المهدي والبيعة لموسى الهادي. وسار نصير الوصيف إلى الهادي بجرجان يعلمه بوفاة المهدي والبيعة له. فنادى بالرحيل.

ولما قدم بغداد استوزر الربيع. وفي هذه السنة وهي سنة تسع وستين ومائة تتبع الهادي الزنادقة وقتل منهم جماعة كانوا إذا نظروا إلى الناس في الطواف يهزلون ويقولون: ما أشبههم ببقر تدوس البيدر. وقتل أيضاً يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب.

وفي سنة سبعين ومائة توفي الهادي. وسبب وفاته إنه لما ولي الخلافة كانت أمه الخيزران تستبد بالأمور دونه. وكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى أجابتها سبيلاً. فقالت: لا بد من الإجابة إليه. فغضب الهادي وقال: والله لا قضيتها لك. قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً. قال: لا أبالي. فقامت مغضبة. فقال: مكانك. والله لئن بلغني أنه وقف في بابك أحد من قوادي لأضربنَّ عنقه. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك. أما لم مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك! فانصرفت وهي لا تعقل. ووضعت جواريها عليه لما مرض فقتلنه بالغم وبالجلوس على وجهه. فمات ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول. وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وكان عمره ستاً وعشرين سنة.

"هرون الرشيد بن المهدي" لما توفي الهادي بويع الرشيد هرون بالخلافة في الليلة التي مات فيها الهادي. وكان عمره حين ولي اثنتين وعشرين سنة. وأمه الخيزران. ولما مات الهادي خرج الرشيد فصلى عليه بعيساباذ. ولما عاد الرشيد إلى بغداد وبلغ الجسر دعا الغواصين وقال: كان أبي قد وهب لي خاتماً شراؤه مائة ألف دينار. فأتاني رسول الهادي أخي يطلب الخاتم وأنا ههنا فألقيته في الماء. فغاصوا عليه وأخرجوه فسر به. ولما مات الهادي هجم خزيمة بن خازم تلك الليلة على جعفر بن الهادي فأخذه من فراشه وقال له: لتخلعنها أو لأضربن عنقك. فأجاب إلى الخلع. وأشهد الناس عليه. فحظي بها خزيمة.

وقيل لما مات الهادي جاء يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد فأعلمه بموته. فبينما هو يكلمه إذ أتاه رسول آخر يبشه بمولود. فسماه عبد الله وهو المأمون. فقيل: في ليلة مات خليفة وقام خليفة وولد خليفة. وفي هذه السنة ولد الأمين واسمه محمد في شوال وكان المأمون أكبر منه. ولما ولي الرشيد استوزر يحيى البرمكي.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة بايع الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ولقبه المأمون وسلمه إلى جعفر بن يحيى البرمكي. وفيها حملت بنت خاقان الخزر إلى الفضل بن يحيى البرمكي. فماتت ببرذعة فرجع من معها إلى أبيها فأخبروه أنها قتلت غيلة فتجهز إلى بلاد الإسلام. وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن لاون وأقروا أمه ايريني. وغزا المسلمون الصائفة فبلغوا أفسوس مدينة أصحاب الكهف. وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة خرج الخزر بسبب ابنه خاقان من بابا الأبواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وانتهكوا أمراً عظيماً لم يسمع

بمثله في الأرض.

وفي سنة ست وثمانين ومائة أخرج الرشيد البيعة للقاسم ابنه بولاية العهد بعد المأمون وسماه المؤتمن. وفي سنة سبع وثمانين ومائة خلعت الروم ايريني الملكة وملكت نيقيفور وهو من أولاد جبلة. فكتب إلى الرشيد: من نيقيفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب. أما بعد فإن الملكة ايريني حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها. لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما أخذت وإلا فالسيف بيننا وبينك. فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب وكتب في ظهر الكتاب: من هرون أمير المؤمنين إلى نيقيفور زعيم الروم. قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه. ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة فأحرق وخرب ورجع. وفي هذه السنة أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى البرمكي وحبس أخاه الفضل وأباه يحيى بالرقة حتى ماتا. وكتب إلى العمال في جميع النواحي بالقبض على البرامكة واستصفى أموالهم. وفي سنة تسعين ومائة ظهر رافع بن الليث بما وراء النهر مخالفاً للرشيد بسمرقند. وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب رافع. ولما صار ببعض الطريق ابتدأت به العلة. ولما بلغ جرجان في صفر اشتد مرضه. وكان معه ابنه المأمون. فسيره إلى مرو ومعه جماعة من القواد. وسار الرشيد إلى طوس. واشتد به المرض حتى ضعف عن الحركة. ووصل إليه هناك بشير بن الليث أخو رافع أسيراً فقال له الرشيد: والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة لقلت: اقتلوه. ثم دعا بقصاب فأمر به ففصل أعضاءه. فلما فرغ منه أغمي عليه ثم مات ودفن بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة. وكان عمره سبعاً وأربعين سنة. وكان جميلاً وسيماً أبيض جعداً قد وخطه الشيب. وكان بعهده ثلاثة الأمين وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ثم المأمون وأمه أم ولد اسمها مراجل ثم المؤتمن وأمه أم ولد. قيل: وكان الرشيد يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا من مرض. وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته.

قيل أن الرشيد في بدء خلافته سنة إحدى وسبعين ومائة مرض من صداع لحقه. فقال ليحيى بن خالد بن برمك: هؤلاء الأطباء ليسوا يفهمون شيئاً وينبغي أن تطلب لي طبيباً ماهراً. فقال له عن بختيشوع بن جيورجيس. فأرسل البريد في طلبه إلى جنديسابور. ولما كان بعد أيام ورد ودخل على الرشيد. فأكرمه وخلع عليه خلعة سنية ووهب له مالاً وافراً وجعله رئيس الأطباء. ولما كان في سنة خمس وسبعين ومائة مرض جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك. فتقدم الرشيد إلى بختيشوع أن يخدمه. ولما أفاق الجعفر من مرضه قال لبختيشوع: أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه. قال له بختيشوع: لست أعرف

في هؤلاء الأطباء أحذق من ابني جبريل. فقال له جعفر: أحضرنيه. فلما أحضره شكا إليه مرضاً كان يخفيه. فدبره في مدة ثلاثة أيام وبرئ. فأحبه جعفر مثل نفسه. وفي بعض الأيام تمطت حظية الرشيد ورفعت يدها فبقيت مبسوطة لا يمكنها ردها والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان فلا ينفع ذلك شيئاً. فقال له جعفر عن جبريل ومهارته. فأحضره وشرح له حال الصبية. فقال جبريل: إن لم يسخط أمير المؤمنين علي فلها عندي حيلة. قال له الرشيد: ما هي؟ قال: تخرج الجارية إلى هاهنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريد وتتمهل علي ولا تسخط عاجلاً. فأمر الرشيد فخرجت وحين رآها جبريل أسرع إليها ونكس رأسها وأمسك ذيلها فانزعجت الجارية ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها. فقال جبريل: لقد برئت يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد للجارية ابسطي يدك يمنة ويسرة. ففعلت. فعجب الرشيد وكل من حضر وأمر لجبريل في الوقت بخمسمائة ألف درهم وأحبه. ولما سئل عن سبب العلة قال: هذه الصبية انصب إلى أعضائها وقت الغشيان خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة ولأجل أن سكون حركة الغشيان تكون بغتة جمدت الفضلة في بطون الأعصاب وما كان يحلها إلا حركة مثلها فاحتلت حتى انبسطت حرارتها وحلت الفضلة فبرئت.

ومن أطباء الرشيد يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة. وخدم الرشيد ومن بعده إلى أيام المتوكل وكان معظماً ببغداد جليل القدر وله تصانيف جميلة. وكان يعقد مجلساً للنظر ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة. وكان يدرس ويجتمع إليه تلاميذ كثيرون. وكان في يوحنا دعابة شديدة يحضره من يحضره لأجلها في الأكثر. وكان من ضيق الصدر وشدة الحدة على أكثر مما كان عليه جبريل بن بختيشوع. وكانت الحدة تخرج من يوحنا الفاظاً مضحكة. فما حفظ من نوادره أن رجلاً شكا إليه علة كان شفاه منها الفصد فأشار عليه به. فقال له: لم أعتد الفصد. قال له يوحنا: ولا أحسبك اعتدت العلة من بطن أمك. وصار إليه قسيس وقال: قد فسدت علي معدتي. فقال له يوحنا: استعمل جوارشن الخوزي. فقال له: قد فعلت. قال: فاستعمل الكموني. قال: قد استعملت منه أرطالاً. فأمره باستعمال البنداذيقون. فقال: قد شريت منه جرة. قال: استعمل المروسيا. فقال له: قد فعلت وأكثرت. فغضب يوحنا وقال له: إن أردت أن تبرأ فأسلم فإن الإسلام يصلح المعدة. وكان بختيشوع بن جبريل يداعب يوحنا كثيراً. فقال له في مجلس ابراهيم بن المهدي وهم في معسكر المعتصم بالمدائن سنة عشرين ومائتين: أنت أبا زكريا أخي ابن أبي. فقال يوحنا لإبراهيم: اشهد على أقراره فوالله لأقاسمنه ميراثه من أبيه. فقال له بختيشوع: إن أولاد الزنا لا يرثون. فانقطع يوحنا و لم يحر جواباً. ومن الأطباء في أيام الرشيد صالح بن بهلة الهندي. ومن عجيب ما جرى له أن الرشيد في بعض الأيام قدمت له

الموائد. فطلب جبريل بن بختيشوع يحضر أكله على عادته في ذلك فلم يوجد فلعنه الرشيد. فبينما هو في لعنته إذ دخل عليه. فقال له: أين كنت وطفق يذكره بشرّ. فقال: إن أشتغل أمير المؤمنين بالبكاء على ابن عمه ابراهيم بن صالح وترك تناولي بالسب كان أشبه. فسأله عن خبر ابراهيم. فأعلمه أنه خلفه وبه رمق ينقضي آخره وقت صلاة العتمة. فاشتد جزع الرشيد من ذلك وأمر برفع الموائد وكثر بكاؤه. فأشار جعفر بن يحيى البرمكي أن يمضي صالح الطبيب الهندي إليه ويعاينه ويجس نبضه. فمضى وتأمله ورجع إلى جعفر قائلاً: إن مات هذا من هذه العلة كل امرأة لي طالق ثلاثاً بتاتاً. فلما كان وقت العتمة ورد كتاب صاحب البريد بوفاة ابراهيم على الرشيد فأقبل يلعن الهند وطبهم. فحضر صالح بين يدي الرشيد فقال: الله الله أن تدفن ابن عمك حياً فوالله ما مات. قم حتى أريك عجباً. فدخل إليه الرشيد ومعه جماعة من خواصه. فأخرج صالح أبرة كانت معه وأدخلها بين ظفر ابهام يده اليسرى ولحمه. فجذب ابراهيم يده وردها إلى بدنه. فقال صالح: يا أمير المؤمنين هل يحس الميت بالوجع. ثم نفخ شيئاً من الكندس في أنفه. فمكث مقدار سدس ساعة ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس وكلم الرشيد وقبل يده. وسأله الرشيد عن قضيته. فذكر أنه كان نائماً نوماً لا يذكر أنه نام مثله قط طيِّباً إلا أنه رأى في منامه كلباً قد أهوى إليه فتوقاه بيده فعض ابهام يده اليسرى عضة انتبه بها وهو يحس بوجعها وأراه موضع الابرة. وعاش ابراهيم بعد ذلك دهراً وولي مصر وتوفي بها وهناك قبره.

"الأمين بن الرشيد" انتهى الامر إليه بعد أبيه باثني عشر يوماً. بويع له في عسكر الرشيد وكان المأمون حينئذ بمرو. وفي سنة أربع وتسعين ومائة قدم الفضل ابن الربيع العراق من طوس ونكث عهد المأمون وسعى في إغراء الأمين وحثه على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد. فأمر الأمين بالدعاء على المنابر لابنه موسى ونهى عن الدعاء للمأمون. وأمر بأبطال ما ضرب المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان. وندب الأمين علي بن عيسى بن ماهان للقاء المأمون. ولما عزم على المسير من بغداد ركب إلى باب زبيدة أم الأمين ليودعها. فقالت له: يا علي أعرف لعبد الله المأمون حق ولادته ولا تقتسره اقتسار العبيد إذا ظفرت به ولا تعنف عليه في السير وإن شتمك فاحتمله. ثم دفعت إليه قيداً من فضة وقالت: قيده بهذا القيد. ثم خرج علي في عشرة آلاف فارس. وبلغ الخبر المأمون فتسمى بأمير المؤمنين وانهض هرثمة بن أعين في أقل من أربعة آلاف فارس وعلى مقدمته طاهر بن الحسين. ثم خرج طاهر في أصحابه من الري على خمسة فراسخ. وسار إليه علي وزحف الناس بعضهم إلى بعض وحملت ميمنة علي وميسرته على ميسرة طاهر وميمنته فأزالتاهما عن موضعيهما. وحمل قلب طاهر على قلب علي فهزموه. ورجع المنهزمون من معسكر طاهر على من بازائهم فهزموهم. ورمى رجل اسمه داود شاه علياً بسهم فقتله.

وحمل رأسه إلى طاهر وأنفذه إلى المأمون. وكان علي قليل الاحتياط من طاهر. وكان يقول لأصحابه: ما بينكم وبين أن ينقصف طاهر انقصاف الشجر من الريح إلا أن نعبر عقبة همذان. ولما قتل علي بعث المأمون إلى طاهر بالهدايا وأمره أن يمضي إلى العراق. فأخذ طاهر على طريق الاهواز وأخذ هرثمة على طريق حلوان. فشغب الجند على محمد الامين ووثبوا عليه وخلعوه وحبسوه مع أمه زبيدة وولده. ثم أخرجوه وبايعوه وكان حبسه يومين. ثم حاصر طاهر وهرثمة محمداً الامين وجعلا يحاربان أصحابه سنة ببغداد فقل أصحابه وخفت يده من المال وضعف أمره. فوجه إلى هرثمة يسأله الأمان. فأمنه وضمن له الوفاء من المأمون. فلما علم ذلك طاهر اشتد عليه وأبى أن يدعه يخرج إلى هرثمة وقال: هو في حيزي والجانب الذي أنا فيه وأنا أخرجته بالحصار حتى طلب الامان فلا أرضى أن يخرج إلى هرثمة فيكون له الفتح دوني. وكان الأمين يكره الخروج إلى طاهر لمنام رآه. فلما كان ليلة الاحد لخمس بقين من محرم سنة ثماني وتسعين ومائة خرج بعد العشاء الآخرة إلى صحن الدار ودعا بابنيه وضمهما إليه وقبلهما وقال: استودعكما الله عز وجل. ثم جاء راكباً إلى الشط. فإذا حراقة هرثمة فصعد إليها وأمر هرثمة الحراقة أن تدفع. فأدركهم أصحاب طاهر في الزواريق وحملوا على الحراقة بالنفط والحجارة فانكفأت بمن فيها وسقط هرثمة إلى الماء فتعلق الملاح بشعره فأخرجه. وأما الأمين فإنه لما سقط إلى الماء شق ثيابه وسبح حتى خرج بشط البصرة. فأخذه أصحاب طاهر وجاءوا إلى بيت وهو عريان عليه سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقة خلقة فحبسوه هناك. فلما انتصف الليل دخل عليه قوم من العجم معهم السيوف مسلولة. فلما رآهم جعل يقول: ويحكم أنا ابن عم رسول الله أنا ابن هرون أنا أخو المأمون. الله الله في دمي. فضربه رجل منهم بالسيف في مقدمة رأسه ونخسه آخر في خاصرته وركبوه فذبحوه ذبحاً وأخذوا رأسه ومضوا به إلى طاهر. فبعث به إلى المأمون. وكانت خلافة الأمين أربع سنين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة. وقيل: لمل ملك الأمين وكاتبه المأمون وأعطاه بيعته طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره وأمره ونهيه ووجه إلى البلدان في طلب أصحاب اللهو وضمهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق وقسم ما في بيوت الاموال من الجواهر في خصيانه ونسائه الاحرار وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس.

فقال أبو نواس في ذلك:

عجب الناس إذ رأوك على صو ... رة ليث يمر مر السحابِ

سبحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقابِ

واحتجب عن أخوته وأهل بيته واستخف بهم وبقواده وأمر ببناء مجالس لمنتزهاته ولهو وأحبته. وأمر قيمة جواريه أن تهيئ له مائة جارية صانعة فتصعد إليه عشر عشر بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد. وقيل أنه لما أتاه نعي علي بن عيسى كان يصطاد السمك. فقال للذي أخبره بذلك: دعني فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئاً بعد. وبالجملة لم يوجد في سيرته ما يستحسن ذكره من حكمة ومعدلة أو تجربة حتى تذكر.

"المأمون بن الرشيد" لما خلص المأمون بعث إلى علي بن موسى بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فأقدمه خراسان وجعله ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده وزوجه ابنته أم حبيبة ولقبه الرضا من آل محمد. وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة وكتب بذلك إلى الآفاق أنه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً أفضل ولا أروع ولا أعلم من علي بن موسى فلذلك عقد له العهد من بعده. فشق ذلك على بني هاشم وغضب بنو العباس فقالوا: لا تخرج الخلافة منا إلى أعدائنا. فخلعوا المأمون وبايعوا ابراهيم بن المهدي بن المنصور بن محمد الامام بن علي بن عبد الله بن عباس وسموه المبارك. وفي سنة ثلاث وثمانين مات علي بن موسى الرضا وكان سبب موته أنه أكل عنباً فأكثر منه فمات فجأة في آخر صفر بمدينة طوس فدفنه المأمون عند قبر أبيه الرشيد. وفي هذه السنة خلع أهل بغداد ابراهيم بن المهدي فاختفى ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة و لم يزل متوارياً. وقدم المأمون بغداد وانقطعت الفتن. وفي هذه السنة وهي سنة أربع ومائتين مات الإمام محمد بن ادريس الشافعي. وفي سنة عشر ومائتين في ربيع الآخر أُخذ ابراهيم بن المهدي وهو متنقب مع امرأتين وهو في زي امرأة أخذه حارس أسود ليلاً فقال: من انتن وأين تردن هذا الوقت. ولما استراب بهن رفعهن إلى صاحب المسلحة. فأمرهن أن يسفرن. فامتنع ابراهيم. فجذبه فبدت لحيته فرفعه إلى بابا المأمون واحتفظ به إلى بكرة. فلما كان الغد أقعد ابراهيم في دار المأمون والمقنعة في عنقه والملحفة على صدره ليراه بنو هاشم. ثم عفا عنه وأمنه ونادمه. وفي سنة سبع عشرة ومائتين سار المأمون إلى بلد الروم فأناخ على لؤلؤة مائة يوم. ثم رحل عنها وترك لها عجيفاً. فخدعه أهلها وأسروه فبقي عندهم ثمانية أيام ثم أخرجوه. وفي سنة ثماني عشرة ومائتين كتب المأمون إلى اسحق بن ابراهيم في امتحان القضاة والمحدثين بالقرآن فمن أقر أنه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى أعلمه به ليأمر فيه برأيه. وفي هذه السنة مرض المأمون مرضه الذي مات به لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة. وكان سبب مرضه أنه كان جالساً على شاطئ البدندون وأخوه أبو اسحق المعتصم عن يمينه وهما قد دليا أرجلهما في الماء. فبينما هو متعجب من عذوبته وصفائه وشدة برده إذ جاءته الألطاف من العراق وكان فيها رطب ازاذ كأنما جني تلك الساعة. فأكل منه وشرب من ذلك الماء

فما قام إلا وهو محموم وكانت منيته من تلك العلة. فلما أنه مرض خلع أخاه القاسم المؤتمن وأخذ البيعة لأخيه أبي اسحق المعتصم وأمر أن يكتب إلى البلاد الكتب من عبد الله المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي اسحق المعتصم بن هرون الرشيد. ولما حضره الموت كان عنده ابن ماسويه الطبيب. وكان عنده من يلقنه فعرض عليه الشهادة. فأراد الكلام فعجز عنه. ثم أنه تكلم فقال: يا من لايموت أرحم من يموت. ثم توفي من ساعته. فحمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس فدفناه بدار خاقان خادم الرشيد. وكانت خلافته عشرين سنة. وكان ربعة أبيض جميلاً طويل اللحية رقيقها قد وخطه الشيب وقيل كان أسمر تعلوه صفرة. وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة.

قال القاضي صاعد بن أحمد الاندلسي أن العرب في صدر الاسلام لم تعن بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها. فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية. فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك إليهم ثابت الهممن غفلتها وهبت الفطن من ميتتها. وكان أول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور. وكان مع براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم. ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هرون الرشيد تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة. فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجاد له مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن. ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي بأخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتفضلهم في كثير منها. أما في أحكام الصنعة فكالنحل المحكمة لتسديس مخازن قوتها. وأما في الجرأة والشجاعة فكالأسد وغيره من السباع التي لا يتعاطى الانسان إقدامها ولا يدعي بسالتها. وأما في الشبق فكالخنزير وغيره مما لا حاجة إلى ابانته. فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم. فمن المنجمين في أيام المأمون حبش الحاسب المروزي الأصل البغدادي الدار. وله ثلاثة أزياج. أولها المؤلف على مذهب السند هند. والثاني الممتحن وهو أشهرها ألفة بعد إن رجع إلى معاناة الرصد وأوجبه الامتحان في زمانه. والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاة. وله كتب غير هذه. وبلغ من عمره مائة سنة. ومنهم أحمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل إلى هيئة الافلاك يحتوي على جوامع كتاب

بطليموس بأعذب لفظ وأبين عبارة. ومنهم عبد الله بن سهل بن نوبخت كبير القدر في علم النجوم. ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي. وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجه الأول والثاني ويعرف بالسند هند. ومنهم ماشاء الله اليهودي. كان في زمن المنصوروعاش إلى أيام المأمون وكان فاضلاً أوحد زمانه له حظ قوي في سهم الغيب. ومنهم يحيى ابن أبي المنصور رجل فاضل كبير القدر إذ ذاك مكين المكان. ولما عزم المأمون على رصد الكواكب تقدم إليه وإلى جماعة من العلماء بالرصد وإصلاح آلاته. ففعلوا ذلك بالشماسية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق. قال أبو معشر: اخبرني محمد بن موسى المنجم الجليس وليس بالخوارزمي قال: حدثني يحيى بن منصور قال: دخلت إلى المأمون وعنده جماعة من المنجمين وعنده رجل يدعي النبوة وقد دعا له المأمون بالعاصمي و لم يحضر بعد ونحن لا نعلم. فقال لي ولمن حضر من المنجمين: اذهبوا وخذوا الطالع لدعوى الرجل في شيء يدعيه وعرفوني ما يدل عليه الفلك من صدقه وكذبه. و لم يعلمنا المأمون أنه متنبئ. "قال" فحملنا إلى بعض تلك الصحون فأحكمنا أمر الطالع وصورنا موضع الشمس والقمر في دقيقة واحدة وسهم السعادة منهم وسهم الغيب في دقيقة واحدة مع دقيقة الطالع والطالع الجدي والمشتري في السنبلة ينظر إليه والزهرة وعطارد في العقرب ينظران إليه. فقال كل من حضر من القوم: ما يدعيه صحيح. وأنا ساكت فقال لي المأمون: ما قلت أنت؟ فقلت: هو في طلب تصحيحه وله حجة زهرية عطاردية. وتصحيح الذي يدعيه لا يتم له ولا ينتظم. فقال لي: من أين قلت هذا؟ قلت: لأن صحة الدعاةي من المشتري ومن تثليث الشمس وتسديسها إذا كانت الشمس غير منحوسة وهذا الطالع يخالفه لأنه هبوط المشتري والمشتري ينظر إليه نظرة موافقة إلا أنه كاره لهذا البرج والبرج كاره له فلا يتم التصديق والتصحيح. والذي قال من حجة زهرية وعطاردية. إنما هو ضرب من التخمين والتزويق والخداع يتعجب منه ويستحب. فقال لي المأمون: أنت لله درك. ثم قال: أتدرون من الرجل؟ قلنا له: لا. قال: هذا يدعي النبوة. فقلت: يا أمير المؤمنين أمعه شيء يحتج به؟ فسأله. فقال: نعم معي خاتم ذو فصين ألبسه فلا يتعين منه شيء يحتج به ويلبسه غيري فيضحك ولا يتمالك من الضحك حتى يترعه. ومعي قلم شامي آخذه فأكتب به ويأخذه غيري فلا ينطلق اصبعه. فقلت: يا سيدي هذه الزهرة وعطارد قد عملا عملهما. فأمره المأمون بعمل ما ادعاه. فقلنا له: هذا ضرب من الطلسمات. فما زال به المأمون أياماً كثيرة حتى أقر وتبرأ من دعوة النبوة ووصف الحيلة التي احتالها في الخاتم والقلم. فوهب له ألف دينار. فتلقيناه بعد ذلك فإذا هو أعلم الناس بعلم التنجيم. قال أبو معشر:وهو الذي عمل طلسم الخنافس في دور كثيرة من دور بغداد. قال أبو معشر: لو كنت مكان القوم لقلت أشياء ذهبت عليهم كنت أقول:الدعوى باطلة لأن البرج منقلب والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والكوكبان الناظران في برج كذاب وهو العقرب. ومن الحكماء

يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان أميناً على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعاني ألكن اللسان في العربية وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب. ومن الأطباء سهل بن سابور ويعرف بالكوسج. كان بالأهواز وفي لسانه لكنة خوزية وتقدم بالطب في أيام المأمون. وكان إذا اجتمع مع يوحنا ابن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة و لم يقصر عنهم في العلاج. ومن دعاباته أنه تمارض وأحضر شهوداً يشهدهم على وصيته وكتب كتاباً أثبت فيه أولاده فأثبت في أوله جيورجيس ابن بختيشوع والثاني يوحنا بن ماسويه وذكر أنه أصاب أميهما زناً فأحبلهما. فعرض لجيورجيس زمع من الغيظ وكان كثير الالتفات. فصاح سهل: صري وهك المسيه ارخؤا في أذنه آية خرسي. أراد بالعجمة التي فيه: صرع وحق المسيح اقرؤا في أذنه آية الكرسي. ومن دعاباته أنه خرج في يوم الشعانين يريد المواضع التي تخرج إليها النصارى فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة أحسن من هيئته. فحسده على ذلك فصار إلى صاحب مسلحة الناحية فقال له: إن ابني يعقني وإن أنت ضربته عشرين درة موجعة أعطيتك عشرين دينار. ثم أخرج الدنانير فدفعها إلى من وثق به صاحب المسلحة: ثم اعتزل ناحية إلى أن بلغ يوحنا الموضع الذي هو فيه فقدمه إلى صاحب المسلحة وقال: هذا ابني يعقني ويستخف بي. فجحد أن يكون ابنه. فقال: يهذي هذا. قال سهل: انظر يا سيدي. فغضب صاحب المسلحة ورمى يوحنا من دابته وضربه عشرين مقرعة ضرباً موجعاً مبرحاً. ومن أطباء المأمون جبريل الكحال. كانت وظيفته في كل شهر ألف درهم. وكان أول من يدخل إليه كل يوم. ثم سقطت منزلته بعد ذلك. فسئل عن سبب ذلك فقال: إني خرجت يوماً من عند المأمون فسألني بعض مواليه عن خبره فأخبرته أنه قد أغفى. فبلغه ذلك فأحضرني ثم قال: يا جبريل اتخذتك كحالاً أو عاملاً للاخبار علي. اخرج من داري. فأذكرته حرمتي فقال: إن له لحرمةً فليقتصر به على إجراء مائة وخمسين درهماً في الشهر ولا يؤذن له في الدخول.

"المعتصم بن الرشيد" هو اسحق محمد بن هرون الرشيد. بويع له بعد موت المأمون فشغب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون. فخرج إليهم العباس فقال: ما هذا الحب البارد وقد بايعت عمي. فسكنوا. ودخل كثير من أهل الجبال وهمذان واصفهان وماسبذان وغيرهم في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان. فوجه إليهم المعتصم العساكر فأوقعوا بهم فقتلوا منهم ستون ألفاً وهرب الباقون إلى بلد الروم. وفي سنة تسع عشرة ومائتين أحضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن. فلما لم يجب بكونه مخلوقاً أمر به فجلد جلداً شديداً حتى غاب عقله وتقطع جلده. وكان أبو هرون بن البكاء من العلماء المنكرين لخلق القرآن يقر بكونه مجعولاً لقول الله: أنا جعلناه قرآناً عربياً. ويسلم أن كل مجعول مخلوق

ويحجم عن النتيجة ويقول: لا أقول مخلوق ولكنه مجعول. وهذا عجب عاجب. وفي سنة عشرين ومائتين عقد المعتصم للأفشين حيدر بن كاوس على الجبال ووجهه لحرب بابك فسار إليه. وكان ابتداء خروج بابك سنة إحدى ومائتين وهزم من الجيوش السلطان عدةً وقتل من قواده جماعة ودخل الناس رعب شديد وهول عظيم واستعظموه واحتوى إليه القطاع وأصحاب الفتن وتكاثفت جموعه حتى بلغ فرسانه عشرين ألفاً سوى الرجالة وأخذ يمثل بالناس. وكان أصحابه لا يدعون رجلاً ولا امرأة ولا صبياً ولا طفلاً مسلماً أو ذمياً إلا قطعوه وقتلوه وأحصي عدد القتلى بأيديهم فكان مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة انسان. فلما انتدب الافشين لحر بابك إلى البذ مدينته. فلما ضاق أمره خرج هارباً ومعه أهله إلى بلاد الروم في زي التجار. فعرفه سهل بن سنباط الارمني البطريق فأسره. فافتدى نفسه بمال عظيم. فلم يقبل منه وبعثع إلى الافشين بعد ما ركب الارمن من أمه وأخته وامرأته الفاحشة بين يديه. وكذا كان يفعل الملعون بالناس إذا أسرهم مع حرمهم. وحمل الافشين بابك إلى المعتصم وهو بسر من رأى. فأمر بإحضار سياف بابك فحضر فأمره أن يديه ورجليه فقطعها فسقط. فأمر بذبحه وشق بطنه. وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه بسامرا. وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين خرج توفيل بن ميخائيل ملك الروم إلى بلاد الإسلام فبلغ زبطرة فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء. وأغار على ملطية وغيرها وسبى المسلمات ومثل بمن صار يديه من المسلمين فسمل أعينهم وقطع آنافهم وآذانهم. فلما بلغ الخبر المعتصم استعظمه وتوجه إلى بلاد الروم وفتح عمورية وقتل ثلاثين ألفاً وأسر ثلاثين ألفاً. وفي سنة خمس وعشرين ومائتين تغير المعتصم على الافشين لأنه كاتب مازيار أصبهبذ طبرستان وحسن له الخلاف والمعصية وأراد أن ينقل الملك إلى العجم فقتله وصلبه بإزاء بابك. ووجده بقلفته لم يختن. وأخرجوا من منزله أصناماً فأحرقوه بها. وفي سنة سبع وعشرين ومائتين توفي المعتصم أبو اسحق يوم الخميس لثماني عشرة مضت من ربيع الأول عن ثمانية بنين وثماني بنات وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وكان عمره سبعاً وأربعين سنة. وحكي أن المعتصم بينما هو يسير وحده قد انقطع عن أصحابه في يوم مطر إذ رأى شيخاً معه حمار عليه شوك وقد زلق الحمار وسقط في الأرض والشيخ قائم. فنزل عن دابته ليخلص الحمار. فقال له الشيخ: بأبي أنت وأمي لا تهلك ثيابك. فقال له: لا عليك. ثم أنه خلص الحمار وجعل الشوك عليه وغسل يده ثم ركب. فقال له الشيخ: غفر الله لك يا شاب. ثم لحقه أصحابه فأمر له بأربعة آلاف درهم. وهذا دليل على غاية ما يمكن أن يكون من طيب أعراق الملوك وسعة أخلاقهم.

قال حنين: إن سلمويه كان عالماً بصناعة الطب فاضلاً في وقته. ولما مرض عاده المعتصم وبكى عنده وقال له:أشر علي بعدك بمن يصلحني. فقال: عليك بهذا الفضولي يوحنا بن ماسويه. وإذا وصف شيئاً خذ

أقله اخلاطاً. ولما مات سلمويه قال المعتصم: سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي. وامتنع عن الأكل في ذلك اليوم وأمر بإحضار جنازته إلى الدار وأن يصلى عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى. ففعل ذلك وهو يراهم. وكان سلمويه يفصد المعتصم في السنة مرتين ويسقيه عقيب كل فصد دواء. فلما باشره يوحنا أراد عكس ما كان يفعله سلمويه فسقاه الدواء قبل الفصد. فلما شربه حمي دمه وحم ومازال جسمه ينقص حتى مات وذلك بعد عشرين شهراً من وفاة سلمويه. وخدم الافشين زكريا الطيفوري وذكر: إني كنت مع الافشين في معسكره وهو في محاربة بابك. فجرى ذكر الصيادلة فقلت: أعز الله الأمير إن الصيدلاني لا يطلب منه شيء كان عنده أو لم يكن إلا أخبر بأنه عنده. فدعا الافشين بدفتر من دفاتر الاسروشنية فأخرج منها نحواً من عشرين اسماً ووجه إلى الصيادلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الاسماء. فبعض أنكرها وبعض ادعى معرفتها وأخذ الدراهم من الرسل ودفع إليهم شيئاً من حانوته.فأمر الافشين بإحضار جميع الصيادلة فمن أنكر معرفة تلك الاسماء أذن له بالمقام في معسكره ونفى الباقين.

"الواثق بالله هرون بن المعتصم" بويع له في اليوم الذي مات فيه أبوه. وفي هذه السنة مات ثوفيل ملك الروم وكان ملكه اثنتي عشرة سنة وملكت بعده امرأته ثاودورا وابنها ميخائيل بن ثوفيل وهو صبي. وفي سنة ثماني وعشرين ومائتين غزا المسلمون في البحر جزيرة صقلية وفتحوا مدينة مسيني. وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين كان الفداء بين المسلمين والروم على يد خاقان خادم الرشيد واجتمع المسلمون على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وأمر الواثق خاقان خادم الرشيد أن يمتحن أسارى المسلمين فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة فودي به وأعطي ديناراً ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم. فلما كان في يوم عاشوراء أتت الروم ومن معهم من الاسارى وكان الأمر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الاسير فيطلق الروم أسيراً فيلتقيان في وسط الجسر فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا وإذا وصل الرومي إلى الروم صاحوا: كرياليسون حتى فرغوا. فكان عدة أسارى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفساً والنساء والصبيان ثمانمائة. وأهل ذمة المسلمين مائة نفس. ولما فرغوا من الفدية غزا المسلمون شاتين فأصابهم ثلج ومطر فمات منهم مائتا نفس وأسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير.

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين مات الواثق في ذي الحجة لست بقين منه وكانت علته الاستسقاء فعولج بالإقعاد في تنور مسخن فوجد بذلك خفة فأمرهم من الغد بالزيادة في اسخانه ففعل ذلك وقعد فيه أكثر من اليوم الأول فحمي عليه فأخرج منه في محفة فمات فيها و لم يشعر بموته حتى ضرب وجهه المحفة. ولما اشتد مرضه أحضر المنجمين منهم الحسن بن سهل بن نوبخت فنظروا في مولده فقدروا له أن يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم فلم يعش بعد قولهم إلا عشرة أيام وكانت خلافته خمس سنين وتسعة

أشهر وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة.

لهذا حسن المذكور تصنيف وهو كتاب الأنواء. فآل نوبخت كلهم فضلاء ولهم فكرة صالحة ومشاركة في علوم الأوائل ولا مثل هذا. حدث أحمد بن هرون الشرابي بمصر أن المتوكل على الله حدثه في خلافة الواثق أن يوحنا بن ماسويه كان مع الواثق على دكان في دجلة وكان مع الواثق قصبة فيها شص وقد ألقاها في دجلة ليصيد بها السمك فحرم الصيد فالتفت إلى يوحنا وكان على يمينه وقال: قم يا مشؤوم عن يميني. فقال يوحنا: يا أمير المؤمنين لا تتكلم بمحال يوحنا أبوه ماسويه الخوزي وأمه رسالة الصقلبية المبتاعة بثمانمائة درهم وأقبلت به السعادة إلى أن صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم حتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله فمن أعظم المحال أن يكون هذا مشؤوماً ولكن إن أحب أمير المؤمنين بأن أخبره بالمشؤوم من هو أخبرته. فقال: من هو؟ فقال: من ولده أربع خلفاء ثم ساق الله إليه الخلافة فترك خلافته وقصورها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الريح عليه فيغرقه ثم تشبه بأفقر قوم في الدنيا وشرهم صيادو السمك. قال المتوكل: فرأيت الكلام قد نجع فيه إلا أنه أمسك لمكاني.

"المتوكل على الله جعفر بن المعتصم" بويع له بعد موت أخيه الواثق وكان عمره يوم بويع ستاً وعشرين سنة. وفي سنة ثلث وثلاثين ومائتين وثب ميخائيل بن توفيل بأمه ثاودورا فألزمها الدير وقتل القتيط لأنه اتهمها به وكان ملكها ست سنين. وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهو المنتصر والمعتز والمؤيد وعقد لكل واحد منهم لواءً وولى المنتصر العراق والحجاز واليمن والمعتز خراسان والري والمؤيد الشام. وفي سنة ست وثلاثين ومائتين أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي وأن يبذر ويسقى موضعه وأن يمنع الناس من إتيانه. وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين ولى المتوكل يوسف بن محمد أرمينية واذربيجان ولما صار إلى اخلاط أتى بقراط بن اشوط البطريق فأمر بأخذه وتقييده وحمله إلى المتوكل فاجتمع بطارقة أرمينية مع ابن أخي بقراط وتحالفوا على قتل يوسف ووافقهم على ذلك موسى بن زرارة وهو صهر بقراط على ابنته فوثبوا بيوسف واجتمعوا عليه في قلعة موش في النصف من شهر رمضان وذلك في شدة من البرد وكلب الشتاء فخرج إليهم يوسف وقاتلهم فقتلوه وكل من قاتل معه. وأما من لم يقاتل فقالوا له: انزع ثيابك وانج بنفسك عرياناً ففعلوا ومشوا عراة حفاة فهلك أكثرهم من البرد. فلما بلغ المتوكل الخبر وجه بغا الكبير إليهم طالباً بدم يوسف فسار وأباح على قتلة يوسف فقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً وسبى خلقاً كثيراً ثم سار إلى مدينة تفليس وحاصرها ودعا النفاطين فضربوا المدينة بالنار فأحرقوها وهي من خشب الصنوبر فاحترق بها نحو خمسين ألف انسان. وفي سنة ثماني وثلاثين

ومائتين جاءت ثلاثمائة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأناخ أحدهم في مائة مركب بدمياط وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون ماؤها إلى صدر الرجل فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر فجازه قوم من المسلمين فسلموا وغرق كثير من نساء وصبيان. ومن كان به قوة سار إلى مصر. واتفق وصول الروم وهي فارغة من الجند فنهبوا واحرقوا وسبوا وأحرقوا جامعها وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحم ستمائة امرأة وساروا إلى مصر ونهبوها ورجعوا ولم يعرض لهم أحد. وفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين كانت زلازل هائلة وأصوات منكرة بقومس ورساتيقها في شعبان فتهدمت الدور وهلك تحت الهدم بشر كثير قيل كانت عدتهم خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً. وكان أكثر ذلك بالدامغان. وكان بالشام وفارس وخراسان وباليمن مع خسف. وتقطع جبل الأقرع وسقط في البحر فمات أهل اللاذقية من تلك الهدة. وفي سنة سبع وأربعين ومائتين قتل المتوكل وهو ثمل بسر مرأى ليلة الأربعاء ثالث يوم من شوال قتله غلام تركي اسمه باغر وكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وعمره أربعين سنة وقتل معه الفتح ابن خاقان لأنه رمى بنفسه على المتوكل وقال: ويلكم تقتلون أمير المؤمنين فبعجوه بسيوفهم فقتلوه. ويقال أن ابنه المنتصر دس لقتله فعاش بعده ستة أشهر. وفي سنة الزلازل أخرج المتوكل أحمد ابن حنبل من الحبس ووصله وصرفه إلى بغداد وأمر بترك الجدل في القرآن وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلق أو غير خلق.

قال بعض الرواة: دخل بختيشوع بن جبريل الطبيب يوماً إلى المتوكل وهو جالس على سدة في وسط داره الخاصة فجلس بختيشوع على عادته معه فوق السدة وكان عليه دراعة ديباج رومي وكان قد انشق ذيلها قليلاً فجعل المتوكل يحادث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق حتى بلغ إلى حد النيفق ودار بينهما الكلام يقتضي أن سأل المتوكل بختيشوع بماذا تعلمون أن الموسوس يحتاج إلى الشد. قال بختيشوع: إذا بلغ إلى فتق دراعة طبيبه إلى حد النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره وأمر له بخلعة حسنة ومال جزيل. وهذا يدل على لطف منزلة بختيشوع عند المتوكل وانبساطه معه. وقال المتوكل يوماً لبختيشوع: ادعني. قال: نعم وكرامة. فاضافه وأظهر من التجمل والثروة ما أعجب المتوكل والحاضرين. واستكثر المتوكل لبختيشوع ما رآه من نعمته وكمال مروءته فحقد عليه ونكبه بعد أيام يسيرة فأخذ له مالاً كثيراً وحضر الحسين ابن مخلد فختم على خزائنه وباع شيئاً كثيراً وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونبيذ وأمثال هذه فاشتراه الحسين بستة آلاف دينار وذكر إنه باع من جملته باثني عشر ألف دينار وكان هذا في سنة أربع وأربعين ومائتين وتوفي بختيشوع سنة ست وخمسين ومائتين. وفي أيام المتوكل استهر حنين بن اسحق الطبيب النصراني العبادي ونسبته إلى العباد وهم قوم من نصارى العرب من قبائل شتى

اجتمعوا وانفردوا عن الناس في قصور ابتنوها بظاهر الحيرة وتسموا بالعباد لأنه لا يضاف إلا إلى الخالق وأما العبيد فيضاف إلى المخلوق الخالق. وكان اسحق والد حنين صيدلانياً بالحيرة فلما نشأ حنين أحب العلم فدخل بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه وجعل يخدمه ويقرأ عليه. وكان حنين صاحب سؤال وكان يصعب على يوحنا فسأله حنين في بعض الأيام مسألة مستفهم فحرد يوحنا وقال: ما لأهل الحيرة والطب عليك ببيع الفلوس في الطريق.فأمر به فأخرج من داره. فخرج حنين باكياً وتوجه إلى بلاد الروم وأقام بها سنتين حتى أحكم اللغة اليونانية وتوصل في تحصيل كتب الحكمة غاية إمكانه وعاد إلى بغداد بعد سنتين ونهض من بغداد إلى أرض فارس ودخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد حتى برع في اللسان العربي ثم رجع إلى بغداد. قال يوسف الطبيب: دخلت يوماً على جبريل بن بختيشوع فوجدت عنده حنيناً وقد ترجم له بعض التشريح وجبريل يخاطبه بالتبجيل ويسميه الربان فأعظمت ما رأيت وتبين ذلك جبريل مني فقال: لا تستكثر هذا مني في أمر هذا الفتى فوالله لئن مد له في العمر ليفضحن سرجيس. وسرجيس هذا هو الرأس عيني اليعقوبي ناقل علوم اليونانيين إلى السرياني. ولم يزل أمر حنين يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل واتصل خبره بالخليفة المتوكل فأمر بإحضاره. ولما حضر اقطع اقطاعاً سنياً وقرر له جارٍ جيد. واحب امتحانه ليزول عنه ما في نفسه عليه إذ ظن أن ملك الروم ربما كان عمل شيئاً من الحيلة فاستدعاه وأمر أن يخلع عليه وأخرج له توقيعاً فيه اقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم فشكر حنين هذا الفعل. ثم قال له بعد اشياء جرت: أريد أن تصف لي دواءً يقتل عدواً نريد قتله وليس يمكن إشهار هذا ونريده سراً. فقال حنين: ما تعلمت غير الأدوية النافعة ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها فإن أحب أن أمضي وأتعلم فعلت. فقال: هذا شيء يطول بنا. ثم رغبه وهدده وحبسه في بعض القلاع سنة ثم أحضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً. فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية. قال الخليفة: فإنني أقتلك. قال حنين: لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف الأعظم. فتبسم المتوكل وقال له: طب نفساً فإننا أردنا امتحانك والطمأنينة إليك. فقبل حنين الأرض وشكر له. فقال الخليفة: ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق الأمر منا في الحالين. قال حنين: شيئان هما الدين والصناعة. أما الدين فإنه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء. وأما الصناعة فإنها فإنها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصورة على معالجاتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بإيمان مغلظة أن لا يعطوا دواءً قتالاً لأحد. فقال الخليفة: إنهما شرعان جليلان. وأمر بالخلع فافيضت عليه وحمل المال معه فخرج وهو أحسن الناس حالاً وجاهاً. وكان الطيفوري النصراني الكاتب يحسد حنيناً ويعاديه.

واجتمعا يوماً في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل بين يدي الصورة. فقال حنين لصاحب البيت: لم تضيع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وإنما هي صور. فقال الطيفوري: إن لم يستحقوا الإكرام فأبصق عليهم فبصق فأشهد عليه الطيفوري ورفعه إلى المتوكل فسأله إباحة الحكم عليه لديانة النصرانية فبعث إلى الجاثليق والاساقفة وسئلوا عن ذلك فأوجبوا حرم حنين فحرم وقطع زناره وانصرف حنين إلى داره ومات من ليلته فجأة وقيل أنه سقى نفسه سماً.
وكان لحنين ولدان داود واسحق. فأما اسحق فخدم على الترجمة وتولاها واتقنها وأحسن فيها وكانت نفسه أميل إلى الفلسفة. وإما داود فكان طبيباً للعامة وكان له ابن أخت يقال له حبيش بن الاعسم أحد الناقلين من اليوناني والسرياني إلى العربي. وكان يقدمه على تلاميذه ويصفه ويرضى نقله. وقيل من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له فإن أكثر ما نقله حبيش نسب إلى حنين. وكثيراً ما يرى الجهال شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش فيظن الغر منهم أنه حنين وقد صحف فيكشطه ويجعله حنين.
"المنتصر بن المتوكل" بايع له قتلة أبيه تلك الليلة التي قتلوا المتوكل. فلما أصبح يوم الأربعاء حضر القواد والكتاب والجند والوجوه الجعفرية فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب كتاباً يخبر فيه عن المنتصر أن الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتله فبايع الناس وانصرفوا. وفي سنة ثماني وأربعين ومائتين جدَّ وصيف وبغا وباقي الأتراك في خلع المعتز والمؤيد وألحوا على المنتصر وقالوا: نخلعهما ونبايع لابنك عبد الوهاب. فلم يزالوا به حتى اجابهم وخلعهما بالكره منه ومنهما. ثم دعاهما وقال لهما: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ولكن هؤلاء "وأومأ إلى سائر الموالي الأتراك ممن هو قائم وقاعد" ألحوا علي في خلعكما. وفي هذه السنة وهي سنة ثماني وأربعين ومائتين مات المنتصر يوم الأحد لخمس ليالٍ خلون من ربيع الآخر بالذبحة وكانت علته ثلاثة أيام. قيل وكان كثير من الناس حين أفضت الخلافة إليه إلى أن مات يقولون: إنما مدة حياته سنة أشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه تقوله العامة والخاصة. وكان عمره خمساً وعشرين سنة وستة أشهر وخلافته ستة أشهر.

"المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم" لما توفي المنتصر اجتمع الموالي في الهاروني من الغد وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وتشاوروا وكرهوا أن يتولى الخلافة واحد من ولد المتوكل لئلا يغتالهم فاجمعوا على المستعين أحمد بن محمد المعتصم وبايعوه. وفي سنة تسع وأربعين ومائتين سغب الجند والشاكرية ببغداد لما رأوا من استيلاء الترك على الدولة يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون من أحبوه من غير ديانة ولا نظر للمسلمين. فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء والنفير وفتحوا السجون وأخرجوا من فيها وأحرقوا أحد الجسرين وقطعوا الآخر وانتهبوا دور أهل اليسار وأخرجوا أموالاً كثيرة ففرقوها فيمن نهض

إلى حفظ الثغور وأخرجوا المعتز من الحبس وأخذوا من شعره وكان قد كثر وبايعوا له بالخلافة وخلعوا المستعين وكانت أيامه سنتين وتسعة أشهر. فسار المستعين إلى بغداد سنة إحدى وخمسين ومائتين وحوصر بها. ثم في سنة اثنتين وخمسين ومائتين خلع نفسه من الخلافة فبايع للمعتز بن المتوكل وخطب للمعتز ببغداد. فلما بايع المستعين للمعتز وجهه إلى البصرة ومنها إلى اواسط وتقدم بقتله فقتل وحمل رأسه إلى المعتز فقال: ضعوه حتى أفرغ من الدست. فلما فرغ نظر إليه وأمر بدفنه. وفي هذه السنة حبس المعتز المؤيد أخاه ثم أخرجه ميتاً لا أثر فيه ولا جرح فقيل أنه أدرج في لحاف سمور وأمسك طرفاه حتى مات.

وفي سنة أربع وخمسين ومائتين ولى الأتراك أحمد بن طولون مصر وكان طولون مملوكاً تركياً للمأمون وولد له ولده أحمد في سنة عشرين ومائتين ببغداد. وكان أحمد عالي الهمة يستق بعقول الأتراك وأديانهم يثقون به في العظائم وتشاغل بالخير والصلاح فتمكنت في القلوب محبته وآل أمره إلى أن استولى على مصر وجميع مدن الشام. وفي سنة خمس وخمسين ومائتين صار الأتراك إلى المعتز يطلبون أرزاقهم فماطلهم بحقهم. فلما رأوا أنه لا يحصل منه شيء دخل إليه جماعة منهم فجروا برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس في الدار وكان يرفع رجلاً ويضع رجلاً لشدة الحر. ثم سلموه إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات. وكانت خلافته من لدن بويع بسامرا إلى أن خلع أربع سنين وسبعة أشهر.

وفي هذه السنة مات سابور بن سهل صاحب بيمارستان جنديسابور وكان فاضلاً في وقته وله تصانيف مشهورة منها كتاب الأقراباذين المعول عليه في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة إثنان وعشرون باباً.

وتوفي نصرانياً في يوم الأثنين لتسع بقين من ذي الحجة.

"المهتدي بن الواثق" بويع له لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين و لم تقبل بيعته حتى أتى المعتز فخلع نفسه وأقر بالعجز عما أسند إليه وبالرغبة في تسليمها إلى محمد بن الواثق فبايعه الخاصة والعامة. وبعد قتل المعتز طلبت أمه الأمان لنفسها فأمنوها وظفروا لها بخزائن في دار تحت الأرض ووجدوا فيها ألف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار وقدر مكوك زمرد ومقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار ومقدار كيلجة من الياقوت الأحمر. وكان طلب منها ابنها المعتز مالاً يعطي الأتراك فقالت: ما عندي شيء. فسبوها وقالوا: عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار وعندها هذا المال جميعه. وفي منتصف رجب خلع المهتدي وتوفي لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه سنة ست وخمسين ومائتين وكانت خلافته أحد عشر شهراً وعمره ثمانياً وثلاثين سنة.

"المعتمد بن المتوكل" ولما أخذ المهتدي وحبس أحضر أبو العباس أحمد بن المتوكل وكان محبوساً بالجوسق

فبايعه الأتراك وغيرهم ولقب المعتمد على الله. ثم أن المهتدي مات ثاني يوم بيعة المعتمد. وفي سنة إحدى وستين ومائتين ولى المعتمد ابنه جعفر العهد ولقبه المفوض إلى الله وولى أخاه أبا محمد العهد بعد جعفر ولقبه الموفق بالله. وفي سنة أربع وستين ومائتين دخل عبد الله بن رشيد بن كاووس بلد الروم في أربعة آلاف فارس فغنم وقتل. فلما رحل عن البدندون خرج عليه بطريق سلوقية وبطريق خرشنة وأصحابها وأحدقوا بالمسلمين. فنزل المسلمون فعرقبوا دوابهم وقتل الروم من قتلوا وأسر عبد الله بن رشيد وحمل إلى ملك الروم. وفي سنة خمس وستين ومائتين وقع خلاف بين المعتمد وأحمد بن طولون فسار إلى سيما وإلى حلب وبقية العواصم فوجده بانطاكية فحاصره بها وفتحها فظفر بسيما وقتله وجاء إلى حلب وملكها وملك دمشق وحمص وحماة وقنسرين إلى الرقة. وأمر المعتمد بلعب ابن طولون على المنابر فلعن ببغداد وسائر العراق ولعن ابن طولون المعتمد علىالمنابر في جميع أعماله بمصر وغيرها. وفي سنة سبعين ومائتين مات ابن طولون في ذي القعدة وخلف سبعة عشر ابناً أحدهم خمارويه وسبع عشرة بنتاً وترك أموالاً جمة ومماليك كثيرة. وكان كثير الصداقات والخيرات. وقام ولده خمارويه بعده بالملك أحسن قيام ودبر أحسن تدبير. وفي سنة ثماني وسبعين ومائتين عرض للموفق وجع النقرس واشتد به فلم يقدر على الركوب. فعمل له سرير عليه قبة وكان يقعد عليه هو وخادم له يبرد له رجله بالثلج ثم صارت علة رجله داء الفيل وكان يحمل سريره أربعون رجلاً بالنوبة. فقال لهم يوماً: قد ضجرتم من حملي بودي لو كنت كواحد منكم أحمل على رأسي وآكل وأنا في عافية. فوصل إلى داره لليلتين خلتا من صفر وشاع موته. وعلى يديه جرى أكثر الحروب مع الزنج وباقي الخوارج. ولما مات الموفق اجتمع القواد وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض ولقب المعتضد بالله. وفي سنة تسع وسبعين ومائتين توفي المعتمد ليلة الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب وكان قد شرب على الشط في الحسني يوم الأحد شراباً كثيراً وتعشى فأكثر فمات ليلاً. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة. وكان في خلافته محكوماً عليه قد تحكم عليه أبو أحمد الموفق أخوه وضيق عليه حتى أنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها.

وكان استخص الموفق أخوه المعتمد جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر البلخي واتخذه منجماً له وكان معه في محاصرته للزنج بالبصرة. وقيل أن أبا معشر كان في أول أمره من أصحاب الحديث ببغداد وكان يضاغن أبا يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ويغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة. فدس عليه الكندي من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فدخل في ذلك فلم يكمل له فعدل إلى علم أحكام النجوم وانقطع شره عن الكندي. ويقال إنه تعلمالنجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره. وكان فاضلاً حسن القريحة صنف كتباً عدة في هذا الفن. فضربه المستعين أسواطاً لأنه أصاب في شيء أخبر به قبل وقته. وكان يقول: اصبت فعوقبت. وجاوز أبو معشر المائة من عمره ومات بواسط. وقيل كان أبو

معشر مدمناً على شرب الخمر مشتهراً بمعاقرتها وكان يعتريه صرع عند أوقات الامتلاآت القمرية. وأما يعقوب الكندي فكان شريف الأصل بصرياً وكان أبوه اسحق أميراً على الكوفة للمهدي والرشيد. وكان يعقوب عالماً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة والهيئة وله في أكثر هذه العلوم تآليف مشهورة من المصنفات الطوال. و لم يكن في الاسلام من اشتهر عند الناس بمعاناة علم الفلسفة حتى سموه فيلسوفاً غير يعقوب هذا وعاصر قسطا بن لوقا البعلبكي وقسطا هذا الفيلسوف نصراني في الدولة الاسلامية دخل إلى بلاد الروم وحصل من تصانيفهم الكثيرة وعاد إلى الشام واستدعي إلى العراق ليترجم الكتب وله تصانيف مختصرة بارعة. وقيل اجتذبه سنحاريب إلى أرمينية وأقام بها إلى أن مات هناك وبنى على قبره قبة إكراماً له كإكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع. قال المؤرخ: لو قلت حقاً قلت أنه أفضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني.

وفي آخر دولة المعتمد تحرك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة وكان ابتداء أمرهم أم رجلاً فقيراً قدم من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه فأقام على ذلك مدة. وكان إذا قعد إليه رجل ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا وأعلمه أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت النبي عليه السلام. فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير واتخذ منهم اثني عشر نقيباً على عدد الحوارين وأمرهم أن يدعوا الناس إلى مذهبهم. فبلغ خبره عامل تلك الناحية فأخذه وحبسه وحلف أنه يقتله وأغلق باب البيت عليه وجعل المفتاح تحت وسادته واشتغل بالشرب. فسمعت جارية له بيمينه فرقت للرجل. فلما نام العامل أخذت المفتاح وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه. فلما أصبح العامل فتح الباب ليقتله فلم يره وشاع ذلك في الناس وافتتن به أهل تلك الناحية وقالوا رفع. ثم ظهر في ناحية أخرى ولقي جماعة من أصحابه وغيرهم وقال لهم: لا يمكن أن ينالني أحد بسوء. فعظم في أعينهم. ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام و لم يوقف له على خبر وسمي باسم رجل كان ينزل عنده وهو كرمتية ثم خفف فقيل قرمطة. وكان فيما حكي عن القرامطة من مذهبهم أنهم جاءوا بكتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة أن المسيح تصور له في جسم انسان وقال له: إنك الداعية وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك يحيى بن زكريا وإنك روح القدس وعرفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها والصوم يومان في السنة وهما المهرجان والنيروز. وأن النبيذ حرام والخمر حلال ولا يؤكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب.

"المعتضد بن الموفق" بويع له في صبيحة الليلة التي مات فيها عمه المعتمد. ولما ولي المعتضد بعث خمارويه بن أحمد بن طولون له هدايا وألطافاً شريفة ورسولاً وسأله أن يزوج ابنة خمارويه المسماة قطر الندى بعلي بن المعتضد. فقال المعتضد: أنا أتزوجها. فسر خمارويه بذلك. وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين خرج المعتضد إلى الموصل قاصداً للأعراب والأكراد فسار إليهم فأوقع بهم وقتل منهم وغرق منهم في الزاب خلق كبير. وسار المعتضد إلى الموصل يريد قلعة ماردين وكانت لحمدان فهرب حمدان منها وخلف ابنه بها فنازلها المعتضد وقاتل من فيها يومه ذلك. فلما كان الغد ركب المعتضد فصعد إلى باب القلعة وصاح: يا ابن حمدان. فأجابه. فقال: افتح الباب. ففتحه فقعد المعتضد في الباب وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها. ثم ظفر بحمدان بعد عوده إلى بغداد جاءه مستأمناً إليه. وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين جهز خمارويه ابنته أحسن جهاز وبعث بها إلى المعتضد في المحرم. وفي هذه السنة لثلاث خلون من ذي الحجة قتل خمارويه بدمشق ذبحه على فراشه بعض خاصته. ولما قتل أقعدوا مكانه ابنه هرون والتزم أنه يحمل من مصر إلى خزانة المعتضد في كل سنة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين سارت الصقالبة إلى الروم فحاصروا القسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وخربوا البلاد. فلما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً جمع من عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة ففعلوا وكشفوهم وأزاحوهم عن القسطنطينية. فلما رأى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسه فأخذ سلاحهم وفرقهم في البلدان حذراً من جنايتهم عليه. وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم وكان جملة من فودي به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس. وفي هذه السنة وهي سنة أربع وثمانين ومائتين كان المنجمون يوعدون بغرق أكثر الأقاليم إلا إقليم بابل فإنه يسلم منه اليسير وإذ ذلك يكون بكثرة الأمطار وزيادة المياه في الأنهار والعيون. فقحط الناس وقلت الأمطار وغارت المياه حتى استسقى الناس ببغداد مرات. وفي سنة خمس وثمانين ومائتين ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد بالبحرين واجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وقوي أمره فقاتل ما حوله من القرى ثم صار إلى القطيف وأظهر أنه يريد البصرة. فأمر المعتضد ببناء سور على البصرة فعمل وكان مبلغ الخرج عليه أربعة عشر ألف دينار. وفي سنة ثماني وثمانين ومائتين وقع الوباء بأذربيجان فمات منه خلق كثير إلى أن فقد الناس ما يكفنون به الموتى وكانوا يطرحونهم في الطريق. وفيها سارت الروم إلى كيسوم فنهبوها وغنموا أموال أهلها وأسروا منها نحو خمسة عشر ألف انسان من رجل وصبي وامرأة. وفي سنة تسع وثمانين ومائتين انتشر القرامطة بسواد الكوفة فأخذ رئيسهم وسير إلى المعتضد وأحضره وقال له: اخبرني هل تزعمون أن روح الله تحل في أجسادكم. فقال له الرجل: يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك وأن حلت روح ابليس فما ينفعك ولا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصك. فقال: ما

تقول فيما يخصني. فقال: أقول أن النبي عليه السلام مات وأبوكم العباس حي فهل طلب الخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك. ثم مات أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى موضع العباس و لم يوصى إليه. ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس و لم يوصى إلى العباس ولا أدخله فيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها. فأمر به المعتضد فعذب وخلعت عظامه ثم قطعت يداه ورجلاه ثم قتل. وبعد قليل في هذه السنة في ربيع الآخر لثمان بقين منه توفي المعتضد فاجتمع القواد وجددوا البيعة لابنه المكتفي وكانت خلافة المعتضد تسع سنين وتسعة أشهر وعمره سبع وأربعين سنة.

وقيل كان المعتضد أسمر نحيفاً شهماً شجاعاً وكان فيه شح وكان عفيفاً مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ومع ذلك جاوز الحد في الحلم. قال الوزير عبد الله بن سليمان بن وهب: كنت عند المعتضد يوماً وخادم بيده المذبة إذ ضربت قلنسوة المعتضد فسقطت فكدت اختلط إعظاماً للحال و لم يتغير المعتضد وقال: هذا الغلام قد نعس. و لم ينكر عليه. فقبلت الأرض وقلت: والله يا أمير المؤمنين ما سمعت بمثل هذا ولا ظننت أن حلماً يسعه. قال: وهل يجوز غير هذا

أنا أعلم أن هذا الصبي البائس لو دار في خلده ما جرى لذهب عقله وتلف والانكار لا يكون إلا على المعتمد دون الساهي الخاطئ.

وفي أيام المعتضد علت منزلة بني موسى بن شاكر وهم ثلاثة محمد وأحمد والحسن. وكان موسى بن شاكر يصحب المأمون و لم يكن موسى من أهل العلم بل كان في حداثته حرامياً يقطع الطريق ثم أنه تاب ومات وخلف هؤلاء الأولاد الثلاثة الصغار فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي وأثبتهم مع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة وكانت حالهم رثة رقيقة. على أن أرزاق أصحاب المأمون كلهم كانت قليلة. فخرج بنو موسى ابن شاكر نهاية في علومهم وكان أكبرهم وأجلهم أبو جعفر محمد وكان وافر الحظ من الهندسة والنجوم ثم خدم وصار من وجوه القواد إلى أن غلب الأتراك على الدولة. وكان أحمد دونه في العلم إلا صناعة الحيل فإنه فتح له فيها ما لم يفتح مثله لأحد. وكان الحسن وهو الثالث منفرداً بالهندسة وله طبع عجيب فيها لا يدانيه أحد علم كل ما علم بطبعه و لم يقرأ من كتب الهندسة إلا ست مقالات من كتاب أوقليذس في الأصول فقط وهي أقل من نصف الكتاب ولكن ذكره كان عجيباً وتخيله كان قوياً. وحكي أن المروزي قال عنه يوماً للمأمون أنه لم يقرأ من كتاب أوقليذيس إلا ست مقالات. أراد بذلك كسره. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين لم يكن يسألني عن شكل من أشكال المقالات التي لم أقرأها إلا استخرجته بفكري وأتيته به و لم يكن يضرني أنني لم أقرأها ولا تنفعه قراءته لها إذ كان من الضعف فيها بحيث لم تغنه قرآته في أصغر مسألة من الهندسة فإنه لا يحسن أن يستخرجها. فقال له المأمون: ما أدفع قولك ولكني ما أعذرك ومحلك من الهندسة محلك أن يبلغ بك الكسل أن لا تقرأه كله

وهو للهندسة كحروف ا ب ت ث للكلام والكتابة. وفي دار محمد بن موسى تعلم ثابت بن قرة بن مروان الصابئ الحراني نزيل بغداد فوجب على محمد حقه فوصله بالمعتضد وأدخله في جملة المنجمين. وبلغ ثابت هذا مع المعتضد أجل المراتب وأعلى المنازل حتى كان يجلس بحضرته في كل وقت ويحادثه طويلاً ويضاحكه ويقبل عليه دون وزرائه وخاصته. وله مصنفات كثيرة في التعليمات الرياضية والطب والمنطق وله تصانيف بالسريانية فيما يتعلق بمذهب الصابئة في الرسوم والفروض والسنن وتكفين الموتى ودفنهم وفي الطهارة والنجاسة وما يصلح من الحيوان للضحايا وما لا يصلح وفي أوقات العبادات وترتيب القراءة في الصلاة. والذي تحققنا من مذهب الصابئة أن دعوتهم هي دعوة الكلدانين القدماء بعينها وقبلتهم القطب الشمالي ولزموا فضائل النفس الأربع. والمفترض ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل لتنقضي مع الطلوع ثماني زكعات في كل ركعة ثلاث سجدات. والثانية انقضاؤها مع نصف النهار والزوال خمسركعات في كل ركعة ثلاث سجدات. والثالثة مثل الثانية تنقضي مع الغروب. والصيام المفرض عليهم ثلاثون يوماً أولها الثامن من اجتماع آذار. وتسعة أيام أولها التاسع من اجتماع كانون الأول. وسبعة أيام أولها ثامن شباط. ويدعون الكواكب. وقرابينهم كثيرة لا يأكلون منها بل يحرقونها. ولا يأكلون الباقلى والثوم وبعضهم اللوبياء والقنبيط والكرنب والعدس. وأقوالهم قريبة من أقوال الحكماء ومقالاتهم في التوحيد على غاية من التقانة ويزعمون أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف ثم تصير إلى رحمة الله تعالى. وكان في دولة المعتضد أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي أحد فلاسفة الاسلام وله تآليف جليلة في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب وكان حسن المعرفة جيد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف وكان أولاً معلماً للمعتضد ثم نادمه وخص به وكان يفضي إليه بأسراره كلها ويستشيره في أمور مملكته وكان الغالب على أحمد هذا علمه لا عقله واتفق أن أفضى إليه بسر فأذاعه فأمر المعتضد بقتله فقتل.

"المكتفي بن المعتضد" لما توفي المعتضد كتب الوزير إلى أبي محمد علي بن المعتضد وهو المكتفي وعرفه أخذ البيعة له وكان بالرقة فأخذ له البيعة علىمن عنده من الأجناد وسار إلى بغداد فدخلها لثمانٍ خلون من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين ومائتين. وفيها ظهر بالشام رجل من القرامطة وجمع جموعاً من الأعراب وأتى دمشق وبها طغج بن جف من قبل هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون وكانت بينهم وقعات. وفي سنة احدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون إلى ما وراء النهر وكان في عسكرهم سبعمائة قبة تركية ولا تكون إلا للرؤساء منهم. فسار إليهم جيش المسلمين وكبسوهم مع الصبح فقتلوا منهم خلقاً عظيماً وانهزم الباقون. وفيها خرج الروم في عشرة صلبان مع كل صليب عشرة

آلاف إلى الثغور فأغاروا وسبوا وأحرقوا. وفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين جهز المكتفي إلى هرون بن خمارويه جيشاً في البر والبحر فحاصروه بمصر وجرى بينهم قتال شديد ووقعات كثيرة آخرها أن بعض الرماة من أصحاب المكتفي رمى هرون بمزراق معه فقتله وانهزم المصريون وكان هو آخر أمراء آل طولون وانقرضت الدولة الطولونية في هذه السنة. وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين أغارت الروم على قورس ودخلوها فأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من أهلها لأنهم قتلوا أكثرهم. وفي سنة خمس وتسعين ومائتين من ذي القعدة توفي المكتفي بالله وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة. وفي أيام المكتفي اشتهر يوسف الساهر الطبيب ويعرف أيضاً بالقس وكان مشهور الذكر مكباً على الطب كثير الاجتهاد في تحصيل الفوائد وسمي الساهر لأنه كان لاينام في الليل إلا ربعه أو أزيد ثم يسهر في طلب العلم. وقيل إنما سمي الساهر لأن سرطان كان في مقدم رأسه وكان يمنعه من النوم. وإذا تأمل متأمل كناشه رأى فيه أشياء تدل على أنه كان به هذا المرض.

"المقتدر بن المعتضد" لما ثقل المكتفي في مرضه استشار الوزير وهو حينئذ العباس بن الحسن أصحابه فيمن يصلح للخلافة. فقالوا له: اتق الله ولا تولِّ من قد لقي الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه وتحنك وحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم. فقال الوزير: صدقتم ونصحتم. فبمن تشيرون؟ قالوا: أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد. قال: ويحكم هو صبي. قال ابن الفرات: إلا أنه ابن المعتضد ولا نأتي برجل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا. فركن الوزير إلى قولهم فلما مات المكتفي نصب جعفراً للخلافة وأخذ له البيعة ولقبه المقتدر بالله. فلما بويع المقتدر استصغره الوزير وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة. وكثر كلام الناس فيه فعزم على خلعه. ثم في سنة ست وتسعين ومائتين اجتمع القواد والقضاة مع الوزير على خلع المقتدر بالله والبية لابن المعتز. ثم أن الوزير رأى أمره صالحاً مع المقتدر فبدا له في ذلك. فوثب به الحسين بن حمدان فقتله وخلع المقتدر وبايع الناس ابن المعتز ولقب المرتضي بالله ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى الدار التي كان مقيماً فيها لينتقل هو إلى دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الإمهال إلى الليل. وعاد الحسين بن حمدان بكرة غد إلى دار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرجالة من وراء الستور عامة النهار فانصرف عنهم آخر النهار. فلما جنَّه الليل سار عن بغداد بأهله وماله إلى الموصل لا يدري لم فعل ذلك و لم يكن بقي مع المقتدر من القواد غير مؤنس الخادم ومؤنس الخازن. ولما رأى ابن المعتز ذلك ركب معه وزيره محمد بن داود وغلام له وساروا نحو الصحراء ظناً منهم أن من بايعه من الجند يتبعونه. فلما لم يلحقهم أحد رجعوا واختفوا ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدور وخرج المقتدر بالعسكر وقبض على جماعة وقتلهم وكتب إلى أبي

الهيجاء بن حمدان يأمره بطلب أخيه الحسين فانهزم الحسين وأرسل أخاه ابراهيم يطلب له الأمان فأجيب إلى ذلك ودخل بغداد وخلع عليه وعقد له على قم وقاشان فسار إليها. وفي هذه السنة سقط ببغداد ثلج كثير من بكرة إلى العصر فصار على الأرض أربع أصابع وكان معه برد شديد وجمد الماء والخل والبيض وهلك النخل وكثير من الشجر. وفي سنة ثلاث وثلاثمائة خرج الحسين بن حمدان بالجزيرة عن طاعة المقتدر فجهز الوزير رائق الكبير في جيش وسيره إليه فالتقيا واقتتلا قتالاً شديداً فانهزم رائق وغنم الحسين سواده. فسمع ذلك مؤنس الخادم وجد بالسير نحو الحسين فرحل الحسين نحو أرمينية مع ثقله وأولاده وتفرق عسكره عنه فأدركه جيش مؤنس وأسروه ومعه ابنه عبد الوهاب. وعاد مؤنس إلى بغداد على الموصل ومعه الحسين فأركب على جمل هو وابنه وعليهما البرانس واللبود الطوال وقمصان من شعر أحمر وحبسا. وفي هذه السنة خرج مليح الأرمني إلى مرعش فعاث في بلدها وأسر جماعة ممن حولها وعاد. وفي سنة خمس وثلاثمائة وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأكرما إكراماً تاماً كثيراً ودخلا على الوزير وهو في أكمل هيئة وأديا الرسالة إليه.

ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطفت الاجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة. فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفداء وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وانفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين. وفيها أطلق أبو الهيجاء بن حمدان وأخوته وأهل بيته من الحبس. وفي سنة تسع وثلاثمائة قتل الحسين الحلاج بن منصور. وكان ابتداء حاله أنه كان يظهر الزهد ويظهر الكرمات وقيل أنه حرك يوماً يده فانتثر على قوم دراهم. فقال بعض من تفهم أمره ممن حضر: أرى دراهم معروفةً ولكني أؤمن بك وخلقٌ معي إن أعطيتني درهماً عليه اسمك واسم أبيك. فقال: و كيف لا يصنع. فقال له: من حضر ما ليس بحاضر صنع ما ليس بمصنوع. و كان قدم من خراسان إلى العراق و سار إلى مكة فأقام بها سنة في الحجر لا يستظل تحت سقف شتاءً و لا صيفاً و رئي في جبل أبي قبيس على صخرة حافياً مكشوف الرأس و العرق يجري منه إلى الأرض. و عاد الحلاج إلى بغداد فافتتن به خلق كثير و اعتقدوا فيه الحلول و الربوبية. ثم نقل عنه إلى الوزير حامد أنه أحيا جماعة من الموتى. فلما سأله الوزير عن ذلك أنكره و قال: أعوذ بالله أن أدعي النبوة أو الربوبية و إنما أنا رجل أعبد الله. فلم يتمكن الوزير من قتله حتى رأى كتاباً له فيه: أن الإنسان إذا أراد الحج و لم يمكنه أفرد من داره بيتاً طاهراً فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله و فعل ما يفعل الحجاج بمكة ثم يطعم ثلاثين يتيماً و يكسوهم و يعطي كل واحد منهم سبعة دراهم. فأحضر الوزير القضاة و وجوه الفقهاء و استفتاهم. فكتبوا بإباحة دمه فسلمه الوزير إلى صاحب الشرطة فضربه ألف سوط فما تأوه لها ثم قطع يده ثم رجله ثم

الأخرى ثم يده ثم قتل و أحرق و ألقي رماده في دجلة و نصب الرأس ببغداد. و اختلف في بلدة الحلاج و منشأه فقيل من خراسان و قيل من نيسابور و قيل من مرو و قيل من الطالقان و قيل من الري. و قيل كان رجلاً محتالاً مشعوذاً يتعاطى مذاهب الصوفية و يدعي أن الإلهية قد حلت فيه وأنه هو هو. و قيل له و هو مصلوب: قل لا إلاه إلا الله. فقال: إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج. و امتحنه أبو الحسين علي ابن عيسى و ناظره فوجده صفراً من العلوم فقال له: تعلمك طهورك و فروضك أجدى عليك من رسائل لا تدري ما تقول فيها. لم تكتب إلى الناس بقولك: تبارك ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته. ما أحوجك إلى الأدب. و قال أبو الحسن بن الجندي أنه رأى الحلاج و شاهد من شعابيذه أشياء منها تصويره بين يديه بستاناً فيه زروع و ماء. و في سنة خمس عشرة و ثلاثمائة استشعر مؤنس الخادم خوفاً من المقتدر. فاجتمع إليه جميع الأجناد و قالوا له: لا تخف نحن نقاتل بين يديك إلى أن ينبت لك لحية. فوجه إليه المقتدر رقعة بخطه يحلف له على بطلان ما قد بلغه. فقصد دار المقتدر في جمع من القواد و دخل إليه و قبل يده. و حلف له المقتدر على صفاء نيته له. و في سنة سبع عشرة و ثلاثمائة خلع المقتدر بالله من الخلافة و بويع أخوه القاهر بالله محمد بن المعتضد فبقي يومين ثم أعيد المقتدر. و كان السبب في ذلك استيحاش مؤنس الخادم. و في سنة عشرين و ثلاثمائة سار مؤنس الخادم إلى الموصل مغاضباً و وجه خادمه بشرى برسالة إلى المقتدر. فسأله الوزير الحسين عن الرسالة فقال: لا أذكرها إلا للمقتدر كما أمرني صاحبي. فشتمه الوزير و شتم صاحبه و أمر بضربه و صادره بثلاثمائة ألف دينار. فلما بلغ مؤنساً ما جرى على خادمه و هو بحربى ينتظر أن يطيب المقتدر قلبه و يعيده سار نحو الموصل و معه جميع القواد فاجتمع بنو حمدان على محاربته. و لما قرب مؤنس من الموصل كان في ثمانمائة فارس و اجتمع بنو حمدان في ثلاثين ألفاً فالتقوا و اقتتلوا فانهزم بنو حمدان و استولى مؤنس على أموالهم و ديارهم فخرج إليه كثير من العساكر من بغداد و الشام و مصر لإحسانه إليهم و أقام بالموصل تسعة أشهر ثم انحدر إلى بغداد و نزل بباب الشماسية. و أشار على المقتدر أصحابه بحضور الحرب فإن القوم متى رأوه عادوا جميعهم إليه فخرج و هو كاره و بين يديه الفقهاء و القراء و معهم المصاحف منشورة و عليه البردة و الناس حوله. فوقف على تل عال بعيد عن المعركة. فأرسل قواده يسألونه التقدم. فلما تقدم من موضعه انهزم أصحابه قبل وصوله

إليهم. فأراد الرجوع فلحقه قوم من المغاربة و شهروا عليه سيوفهم. فقال: ويحكم أنا الخليفة. قالوا: قد عرفناك يا سفلة. و ضربه واحد بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض و ذبحه بعضهم و رفعوا رأسه على خشبة و هم يكبرون و يلعنونه و أخذوا جميع ما عليه حتى سراويله و تركوه مكشوف العورة إلى أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له في موضعه و دفن و عفا قبره. و لما حمل رأس المقتدر إلى

مؤنس بكى و لطم وجهه و رأسه و أنفذ إلى دار الخليفة من منعها من النهب. و كانت خلافة المقتدر خمساً و عشرين سنة و عمره ثماني و ثلاثين سنة.

و في سنة سبع عشرة و ثلاثمائة مات محمد بن جابر بن سنان أبو عبد الله الحراني المعروف بالبتاني أحد المشهورين برصد الكواكب و يعلم أحد من الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب و امتحان حركاتها. و كان أصله من حران صابئاً. و في سنة عشرين و ثلاثمائة توفي محمد بن زكريا الرازي و كان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم ترك ذلك و أقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً و ألف كتباً كثيرة أكثرها في صناعة الطب و سائرها في المعارف الطبيعية و دبر بيمارستان الري ثم بيمارستان بغداد زماناً. و كان في بصره رطوبة لكثرة أكله الباقلي ثم عمي في آخر عمره بماء نزل في عينيه. و جاءه كحال ليقدحهما فسأله عن العين كم طبقة هي. فقال لا أعلم. فقال له: لا يقدح عيني من لا يعلم ذلك. فقيل له: لو قدحت لكنت أبصرت. قال: لا قد أبصرت في الدنيا حتى مللت. و قيل أن أبا محمد بن زكريا الرازي أوحد دهره و فريد عصره جمع المعرفة بعلوم القدماء لا سيما الطب و كان شيخاً كبير الرأس مسفطاً. و لم يكن يفارق النسخ إما يسود أو يبيض. و ألف في الكيمياء اثني عشر كتاباً و ذكر أنها أقرب إلى الممكن منه إلى الممتنع. و كان كريماً متفضلاً باراً بالناس حسن الرأفة بالفقراء و الأعلاء حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة و يمرضهم. و حكي عن الكعبي أنه قال لابن زكريا: رأيتك تدعي ثلاثة أصناف من العلوم و أنت أجهل الناس بها تدعي الكيمياء و قد حبستك زوجتك على عشرة دراهم فلو ملكت يوماً قدر مهرها ما رافعتك إلى الحاكم فحضرت معها و حلفت لها عليه. و تدعي الطب و تركت عينك حتى ذهبت. و تدعي النجوم و العلم بالكائنات و قد وقعت في نوايب لم تشعر بها حتى أحاطت بك. أقول الطعن الأول مباين لما نقل من حسن رأفته بالفقراء و لا يبعد أن الأخر قول حاسد. و من الأطباء الذين للمقتدر بختيشوع بن يحيى و سنان بن ثابا بن قرة الصابئ والد ثابت بن سنان صاحب التارخ. و لم يكن في أطبائه أخص من هذين. و سيأتي قصة سنان في باب خلافة القاهر.

"القاهر بن المعتضد" لما قتل المقتدر عظم قتله على مؤنس و قال: الرأي أن ننصب و لده أبا العباس فإنه تربيتي و هو صبي عاقل فيه دين و كرم و وفاء بما يقول. فاعترضعليه اسحق النوبختي و قال: بعد الكد استرحنا من خليفة له أم و خالة و خدم يدبرونه فنعود إلى تلك الحال لا و الله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه و يدبرنا. و ما زال حتى رد مؤنساً عن رأيه و ذكر له أبو منصور بن محمد بن المعتضد فأجابه مؤنس إلى ذلك. و كان النوبختي في ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه فإن القاهر قتله كما سيأتي ذكره. و أمر مؤنس بإحضار محمد ابن المعتضد فبايعوه بالخلافة لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين و ثلاثمائة و

لقبوه بالله. و كان مؤنس كارهاً لخلافته و يقول: إنني عارف بشره و شؤمه. و لما بويع استحلفه مؤنس لنفسه و لحاجبه بليق و لعلي بن بليق. و استحجب القاهر علي بن بليق و تشاغل القاهر بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر و حرمه ثم أحضر القاهر أم المقتدر عنده و كانت مريضة قد ابتدأ بها استسقاء فسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المتاع و الثياب و لم تعترف بشيء من المال و الجواهر. فضربها أشد ما يكون من الضرب و علقها برجلها و ضرب المواضع الغامضة من بدنها. فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه. و صادر جميع حاشية المقتدر و أصحابه و وكل على بيع أملاك أم المقتدر و حل وقوفها فبيع جميع ذلك. و في سنة إحدى و عشرين و ثلاثمائة استوحش مؤنس و بليق الحاجب و ولده علي الوزير و أبو علي بن مقلة من القاهر و ضيقوا عليه و وكلوا على دار الخليفة أحمد بن زيرك و أمروا بتفتيش كل من يدخل الدار و يخرج منها و أن يكشف وجوه النساء المنقبات. ففعل ذلك و زاد عليه حتى أنه حمل إلى دار القاهر لبنٌ فأدخل يده فيه لئلا يكون فيه رقعة. فعلم القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ في الحيلة و التدبير عليهم و أرسل إلى الساجية أصحاب يوسف بن أبي الساج يغريهم بمؤنس و بليق و يحلف لهم على الوفاء فتغيرت قلوبهم. فبلغ ابن مقلة أن القاهر يجتهد في التدبير عليهم فذكر ذلك لمؤنس و بليق و ابنه فاتفق رأيهم على خلع القاهر إلا مؤنس فإنه قال لهم: لست أشك في شر القاهر و خبثه و لقد كنت كارهاً لخلافته و أشرت بابن المقتدر فخالفتموني و قد بالغتم الآن في الاستهانة به و ما صبر على الهوان إلا من خبث طويته ليدبر عليكم فلا تعجلوا حتى تؤنسوه و ينبسط إليكم ثم اعملوا على ذلك. فقال علي ابن بليق و ابن مقلة: ما يحتاج إلى هذا التطويل فإن الحجبة لنا و الدار في أيدينا و ما يحتاج أن نستعين في القبض عليه بأحد لأنه بمنزلة طائر في قفص. و اتفقوا على أن يدخل علي بن بليق على القاهر و يكون قد أمر جماعة من عسكره بالركوب إلى أبواب دار الخليفة فيقبض عليه. فهم في هذا أن خضر ظريف السكري في زي امرأة فاجتمع بالقاهر فذكر له جميع ما قد عزموا عليه فأخذ حذره و أنفذ إلى الساجية أحضرهم متفرقين و أكمنهم في الدهليز و الممرات و الرواقات. و حضر علي بن بليق بعد العصر و في رأسه نبيذ و معه عدد يسير من غلمانه بسلاح خفيف و طلب الإذن فلم يؤذن له فغضب و أساء أدبه. فخرج إليه الساجية و شتموا أباه. فألقى نفسه إلى طيارة و عبر إلى الجانب الغربي و اختفى من ساعته. و بلغ الخبر ابن مقلة فاستتر. و أنكر بليق ما جرى على إبنه و سب الساجية و حضر دار الخليفة ليعاتب على ذلك فلم يوصله القاهر إليه و أمر بالقبض عليه و على ابن زيرك. و راسل القاهر مؤنساً يسأله الحضور عنده و قال: أنت عندي بمنزلة الوالد و ما أحب أن أعمل شيئاً إلا عن رأيك. فاعتذر مؤنس عن الحركة و أنه قد استولى عليه الكبر و الضعف. فأظهر له الرسول النصح و قال: إن تأخرت طمع و لو رآك نائماً ما تجاسر على أن يوقظك. فسار مؤنس إليه فلما دخل الدار قبض عليه القاهر و

حبسه. قيل لما علم القاهر بمجيء مؤنس هابه و هاله أمره و ارتعد و تغيرت أحواله و زحف من صدر فراشه ثم ربط جأشه. و لما قبض على مؤنس شغب أصحابه و ثاروا و تبعهم سائر الجند. و كان القاهر قد ظفر بعلي بن بليق فدخل القاهر إليه و أمر به فذبح و أخذوا رأسه فوضعوه في طشت ثم مضى القاهر و الطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه و فيه رأس ابنه. فلما رآه بكى و أخذ يقبله و يترشفه. فأمر القاهر فذبح أيضاً و جعل رأسه

في الطشت و حمل بين يدي القاهر و مضى حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه. فلما رأى الرأسين تشهد و لعن قاتلهما. فقال القاهر: جروا برجل الكلب الملعون فجروه و ذبحوه و جعلوا رأسه في طشت و أمر فطيف بالرؤوس في جانبي بغداد و نودي عليها: هذا جزاء من يخون الإمام و يسعى في فساد دولته. و في أيام القاهر كان ابتداء دولة بني بويه و هم ثلاثة عماد الدولة علي و ركن الدولة الحسن و معز الدولة أحمد أولاد أبي شجاع بويه بن فناخسرو من ولد يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس. و هذا نسب عريق في الفرس و لا شك أنهم نسبوا إلى الديلم حيث طال مقامهم ببلادهم. و قيل أن أبا شجاع بويه كان متوسط الحال و رأى في منامه كأنه يبول فخرج من ذكره نار عظيمة استطالت و علت حتى كادت تبلغ السماء ثم انفرجت فصارت ثلث شعب و تولد من تلك الشعب عدة شعب فأضاءت الدنيا بتلك النيران و رأى البلاد و العباد خاضعين لتلك النيران. فمضى بويه إلى رجل يقول عن نفسه أنه منجم و معزم و معبر المنامات و يكتب الرقي و الطلسمات و قص عليه منامه. فقال المنجم: هذا منام عظيم لا أفسره إلا بخلعة و فرس. فقال بويه: و الله ما أملك إلا الثياب التي على جسدي فإن أخذتها بقيت عرياناً. قال المنجم: فعشرة دنانير. قال: و الله ما أملك دينارين فكيف عشرة. فأعطاه شيئاً. فقال المنجم: اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض و يعلو ذكرهم في الآفاق و يولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب. فقال أبو شجاع بويه: اما تستحي تسخر منا أنا رجل فقير و أولادي هؤلاء مساكين فكيف يصيرون ملوكاً. قال المنجم: اذكروا لي هذا إذا قصدتكم و أنتم ملوك. فاغتاظ منه بويه و قال لأولاده: اصفعوا هذا الحكيم فقد أفرط في السخرية بنا. فصفعوه و أخرجوه. ثم خرج أولاد بويه من الديلم و صاروا إلى مرداويج بطبرستان فقبلهم أحسن قبول و خلع عليهم و قلد عماد الدولة علي بن بويه كرج. فاستمال أهلها بالصلات و الهبات فأحبوه و ملكوه و قوي جنابه و استولى على أصفهان و عظم في عيون الناس و ملك أرجان أيضاً. و أنفذ أخاه ركن الدولة الحسن إلى كارزون و غيرها من أعمال فارس. فاستخرج منها أموالاً جليلة و عاد إلى أخيه غانماً سالماً. و في سنة اثنتين و عشرين و ثلاثمائة استولى عماد الدولة علي بن بويه على شيراز و ملكها. و في هذه السنة خلع القاهر في جمادى الأولى و ذلك أن لبن مقلة كان مستتراً و القاهر يتطلبه و كان يراسل قواد الساجية و الحجرية و يخوفهم

من شر القاهر و يذكر لهم غدره و نكثه مرة بعد أخرى كقتل مؤنس و بليق و ابنه بعد الإيمان لهم إلى غير ذلك. و كان ابن مقلة يجتمع بسيما زعيم الساجية تارةً في زي أعمى و تارةً في زي مكد و تارة في زي امرأة و يغريه بالقاهر. ثم إن ابن مقلة أعطى منجماً كان لسيما مائتي دينار. و كان يذكر أن طالعه يقتضي أن ينكبه القاهر. و أعطى أيضاً شيئاً لمعبر كان لسيما يعبر لهالمنامات و كان يحذره من القاهر. فازداد نفوراً. فاتفق مع أصحابه و مع الحجرية على خلع القاهر. و بلغ ذلك الوزير فأرسل الحاجب سلاماً و عيسى الطبيب ليعلماه بذلك فوجداه نائماً قد شرب أكثر ليلته فلم يقدرا على إعلامه بذلك. فزحف الحجرية و الساجية إلى الدار. و لما سمع القاهر الأصوات و الغلبة استيقظ و هو مخمور و طلب باباً يهرب منه فقيل له: أن الأبواب جميعها مشحونة بالرجال. فهرب إلى سطح حمام. فأخذوه من هناك و حبسوه و كانت خلافته عاماً واحداً و سبعة أشهر. ثم عاش خاملاً إلى أن مات سنة ثمان و ثلاثين و ثلاثمائة.

عيسى الطبيب المذكور ههنا هو ابن يوسف المعروف بابن العطار كان متطبب القاهر و ثقته و مشيره و سفيره بينه و بين وزرائه و تقدم في وقته تقدماً كثيراً. و شاركه سنان ابن ثابت بن قرة في الطب و كان خصيصاً بالقاهر و كان عيسى أشد تقدماً منه. و لكثرة اغتباط القاهر بسنان أراده على الإسلام فامتنع امتناعاً شديداً كثيراً. فتهدده القاهر فخافه لشدة سطوته فأسلم و أقام مدة. ثم رأى من القاهر أنه إذا أمره بشيء أخافه فانهزم إلى خراسان و عاد توفي ببغداد في سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة. و من ظريف ما جرى لسنان في امتحان الأطباء عند تقدم الخليفة إليه بذلك أنه أحضر إليه رجل مليح البشرة و الهيئة ذو هيبة و وقار فأكرمه سنان على موجب منظره و رفعته. ثم التفت إليه سنان فقال: قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً أحفظه عنه و أن يذكر شيخه في الصناعة. فأخرج الشيخ من كمه قرطاساً فيه دنانير صالحة و وضعها بين يدي سنان و قال: و الله ما أحسن أكتب و لا أقرأ شيئاً جملةً و لي عيال و معاشي دار دائره و أسألك أن لا تقطعه عني. فضحك سنان و قال: على شريطة أنك لا تهجم على مريض بما لا تعلم و لا تشير بفصد و لا بدواء مسهل إلا بما قرب من الأمراض. قال الشيخ: هذا مذهبي مذ كنت ما تعديت السكنجبين و الجلاب. و انصرف. و لما كان من الغد حضر إليه غلام شاب حسن البزة مليح الوجه ذكي. فنظر إليه سنان فقال له: على من قرأت. قال: على أبي. قال: و من يكون أبوك. قال: الشيخ الذي كان عندك بالأمس. قال: نعم الشيخ. و أنت على مذهبه. قال: نعم. قال: لا تتجاوزه و انصرف مصاحباً. و لسنان تصانيف جيدة و كان قوياً في علم الهيئة و له في ذلك أشياء ظاهرة تغني عن الإطالة بذكرها.

"الراضي بن المقتدر" لما قبضوا القاهر سألوا عن المكان الذي فيه أبو العباس أحمد بن المقتدر فدلوهم عليه فقصدوه و فتحوا عليه و دخلوا فسلموا بالخلافة و أخرجوه و أجلسوه على السرير و لقبوه الراضي بالله يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين و عشرين و ثلاثمائة و بايعه القواد و الناس. و أرادوا علي بن عيسى على الوزارة فقال الراضي: إن الوقت لا يحتمل أخلاق علي و ابن مقلة أليق بالوقت. فأحضره و استوزره. فلما استوزر أحسن إلى كل من أساء إليه و أحسن سيرته. و في سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة عظم أمر الحنابلة و قويت شوكتهم و صاروا يكبسون دور القواد و العامة و إن وجدوا نبيذاً أراقوه و إن وجدوا مغنية ضربوها و كسروا آلة الغناء فأرهجوا بغداد. و ركب صاحب الشرطة و نادى في جانبي بغداد ألا يجتمع من الحنابلة اثنان و لا يصلي منهم إمام إلا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح و العشائين. فلم يفد فيهم. فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم و يوبخهم على اعتقاد التشبيه و غيره. فمنه: إنكم تارةً تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين و تذكرون الكف و الأصابع و الرجلين و النعلين الذهب و الشعر القطط و النزول إلى الدنيا. فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات ما أغواه. و أمير المؤمنين يقسم بالله جهداً ألية يلزمه الوفاء بها لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم و معوج طريقكم هذه ليوسعنكم ضرباً و تشديداً و قتلاً و ليستعملن السيف في رقابكم و النار في منازلكم و محالكم. و في سنة أربع و عشرين و ثلاثمائة ألجأت الضرورة الراضي إلى أن قلد أبا بكر محمد بن رائق إمارة الجيش و جعله أمير الأمراء و ولاه الخراج و المعاون و الدواوين في جميع البلاد و أمر أن يخطب له على جميع المنابر و بطلت الوزارة من ذلك الوقت فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور إنما كان ابن رائق و كاتبه ينظران في الأمور جميعاً و كذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده و صارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون و يطلقون للخليفة ما يريدون. و في سنة ست وعشرين و ثلاثمائة استولى معز الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه على الأهواز. و فيها كتب أبو علي بن مقلة إلى الراضي يشير عليه بالقبض على ابن رائق و أصحابه و يضمن أنه يستخرج منهم ثلاثة آلاف ألف دينار و أشار عليه بإقامة بجكم مقام ابن رائق و طلب ابن مقلة من الراضي أن ينتقل و يقيم عنده بدار الخليفة فأذن له في ذلك. فلما حصل بدار الخليفة اعتقله في حجرة و عرض على ابن رائق خط ابن مقلة. فشكر الراضي. و ما زال ابن رائق يلح في طلب ابن مقلة حتى أخرج من محبسه و قطعت يده. ثم عولج فبرأ فعاد يكاتب الراضي و يخطب الوزارة و يذكر أن قطع يده لم يمنعه عن عمله و كان يشد القلم على يده المقطوعة و يكتب و يهدد ابن رائق. فأمر الراضي بقطع لسانه. ثم نقل إلى محبس ضيق و لم يكن عنده من يخدمه فآل به الحال إلى أنه كان يستقي الماء بيده

اليسرى و يمسك الحبل بفمه.و لحقه شقاء شديد إلى أن مات. و فيها دخل بغداد و لقي الراضي و قلده إمرة الأمراء مكان ابن رائق. و في سنة تسع و عشرين و ثلاثمائة مات الراضي بالله بالاستسقاء في منتصف ربيع الأول و كانت خلافته ست سنين و عشرة أشهر و كان أديباً شاعراً سمحاً سخياً يحب محادثة الأدباء و الفضلاء و الجلوس معهم.

و كان ببغداد في خلافة الراضي بعد سنة عشرين و ثلاثمائة و قبل سنة ثلاثين متى لبن يونس المنطقي النصراني عالم بالمنطق شارح له مكثر و طي الكلام قصده التعليم و التفهيم و هو من أهل دير قنى ممن نشأ في اسكول مار ماري قرأ على روفيل و بنيامين الراهبين اليعقوبيين. و متى نسطوري النحلة ذكره محمد بن اسحق النديم في كتابه و قال: إليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره و مصره.

"المتقي بن المقتدر" لما مات الراضي كان بجكم بالكوفة فورد كتابه مع الكوفي كاتبه يأمر فيه أن يجتمع مع أبي القاسم وزير الراضي العلويون و القضاة و العباسيون و وجوه البلد و يشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة. فاتفقوا كلهم على ابراهيم ابن المقتدر و بايعوه و لقبوه المتقي لله و سير الخلع و اللواء إلى بجكم إلى واسط و أقر سليمان على وزارته و ليس له منها إلا اسمها و إنما التدبير كله إلى الكوفي كاتب بجكم. و في هذه السنة و هي سنة تسع و عشرين و ثلاثمائة قتل بجكم قتله الأكراد و هو يتصيد في نهر جور. و لما قتل بجكم دخل أبو عبيد الله البريدي بغداد فنزل بالشفيعي و لقيه الوزير و القضاة و الكتاب و أعيان الناس فأنفذ إليه المتقي يهنئه بسلامته و أنفذ له طعاماً عدة ليال ثم أنفذ البريدي إلى المتقي يطلب خمسمائة ألف دينار ليفرقها في الجند. فامتنع عليه. فأرسل إليه يتهدده و يذكره ما جرى على المعتز و المستعين و المهتدي. فأنفذ إليه تمام خمسمائة ألف دينار و لم يلق البريدي المتقي مدة مقامته ببغداد. فلما حصل المال في يد البريدي لم يؤثر الجند من المال بطائل فشغبوا عليه و حاربوه فهرب منهم هو و أخوه و ابنه و أصحابه و انحدروا في الماء إلى واسط و استولى كورتكين الديلمي على الأمور ببغداد و دخل إلى المتقي فقلده إمارة الأمراء و خلع عليه. و بعد قليل عاد محمد بن رائق من الشام إلى بغداد وصار أمير الأمراء. و في سنة ثلاثين و ثلاثمائة قتل ابن رائق و قلد ناصر الدولة ابن حمدان أمرة الأمراء و خلع على أخيه أبي الحسن علي و لقبه سيف الدولة. و بعد قليل ثار الأتراك بسيف الدولة فكبسوه ليلاً فهرب من معسكره فلما بلغ الخبر أخاه ناصر الدولة سار إلى الموصل و كانت إمارته ثلاثة عشر شهراً و تولى توزون إمارة الأمراء. و في سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة توفي السعيد نصر بن حمدان بن اسمعيل صاحب خراسان و ما وراء النهر و كان حليماً كريماً عاقلاً. و حكي عنه أنه طال مرضه فبقي به ثلاثة عشر شهراً فبنى له في قصره بيتاً و سماه بيت العبادة فكان يلبس ثياباً نظافاً و يمشي إليه حافياً و يصلي فيه و يدعو و يتضرع و

تجنب المنكرات و الآثام إلى أن مات. و تولى بعده خراسان و ما وراء النهر ابنه نوح و لقب الأمير الحميد. و فيها خلع المتقي على توزون الأمير التركي و جعله أمير الأمراء. و فيها أرسل ملك الروم إلى المتقي يطلب منه منديلاً مسح بها المسيح وجهه فصارت صورة وجهه فيها و إنما في بيعة الرها و ذكر أنه إن أرسلها إليه أطلق عدداً كثيراً من أسارى المسلمين. فاستفتى المتقي القضاة و الفقهاء فأنكر بعضهم تسليمها و أجاب بعضهم قائلاً: إن خلاص المسلمين من الأسر و الضر و الضنك الذي هم فيه أوجب. فأمر المتقي بتسليم المنديل إلى الرسل و أرسل معهم من يتسلم الأسارى. و في سنة اثنتين و ثلاثين و ثلاثمائة ظهر ببغداد لص فأعجز الناس فأمنه ابن شيرزاد و هو من أكابر قواد توزون و خلع عليه و شرط عليه أن يوصل كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه هو و أصحابه و كان يستوفيها منه بالرواتب و هذا ما لم يسمع بمثله من شره. و فيها ازداد خوف المتقي من توزون أمير الأمراء و كان توزون بواسط فأنفذ المتقي يطلب من ناصر الدولة ابن حمدان إنفاذ جيش ليصحبوه إلى الموصل فأنفذهم مع ابن عمه. فخرج المتقي إليهم في حرمه و أهله و وزيره و ساروا إلى الموصل و أقام المتقي بها عند ابن حمدان ثم سار منها إلى الرقة و أنفذ رسلاً إلى توزون في الصلح. فحلف توزون للخليفة و الوزير و انحدر المتقي من الرقة في الفرات فلما وصل إلى هيت أقام بها و أنفذ من يجدد اليمين على توزون. فعاد و حلف و سار عن بغداد ليلتقي المتقي فالتقاه بالسندية و نزل و قبل الأرض و قال: ها انا قد وفيت بيميني و الطاعة لك. ثم وكل به و بالوزير و بالجماعة و أنزلهم في مضرب نفسه مع حرم المتقي ثم كحله فأذهب عينيه و عمي المتقي. و انحدر توزون من الغد إلى بغداد و الجماعة في قبضته. فكانت خلافة المتقي ثلاث سنين و ستة أشهر.

"المستكفي بن المكتفي" لما قبض توزون على المتقي أحضر المستكفي بالله و هو أبو القاسم عبد الله بن المكتفي إليه إلى السندية و بايعه هو و عامة الناس في سنة ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائة. و كان سبب البيعة له ما حكاه بعض خواص توزون قال: إنني دعاني صديق لي فمضيت إليه فذكر لي أنه تزوج إلى قوم و أن امرأة منهم قالت له أن هذا المتقي قد عاداكم و عاديتموه و كاشفكم و لا يصفو قلبه لكم و ههنا رجل من أولاد الخلافة و ذكرت عقله و دينه تنصبونه للخلافة فيكون صنيعكم و غرسكم و يدلكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره و تستريحون من الخوف و الحراسة. فقلت له: أريد أن أسمع كلام المرأة. فجاءني بها و رأيت امرأة عاقلة جزلة. فذكرت لي نحواً من ذلك و أحضرت الرجل أيضاً عندي في زي امرأة فعرفني نفسه و ضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار و خاطبني خطاب رجل لبيب فهم. فأتيت توزوت فأخبرته فوقع الكلام في قلبه و جرى ما جرى. و صارت تلك المرأة قهرمانة المستكفي و سمت نفسها علم و غلبت

على أمره كله. و فيها سار سيف الدولة إلى حلب فملكها و كان مع المتقي بالرقة فلما عاد المتقي إلى بغداد قصد سيف الدولة حلب و استولى عليها ثم سار منها إلى حمص فلقيه بها عسكر الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر و الشام مع مولاه كافور فاقتتلوا فانهزم عسكر الإخشيد و كافور و ملك سيف الدولة مدينة حمص. و سار إلى دمشق فحاصرها فلم يفتحها أهلها له فرجع عنها. و في سنة أربع و ثلاثين و ثلاثمائة في المحرم مات توزون في داره ببغداد. فاجتمع الأجناد و عقدوا الئاسة عليهم لزيرك بن شيرزاد و حلفوا له و حلف له المستكفي و دخل إليه ابن شيرزاد و عاد مكرماً يخاطب بأمير الأمراء. و بعد مدة يسيرة قدم معز الدولة بن بويه إلى بغداد و اختفى المستكفي و ابن شيرزاد. فلما استتر سار الأتراك الذين في خدمته إلى الموصل. فلما بعدوا ظهر المستكفي و عاد إلى دار الخلافة و أظهر السرور بقدوم معز الدولة و دخل إليه معز الدولة بن بويه و بايعه و حلف له المستكفي. و ظهر ابن شيرزاد أيضاً و لقي معز الدولة فولاه أمر الخراج و جباية الأموال. و كانت إمارة ابن شيرزاد ثلاثة أشهر و عشرين يوماً. و خلع المستكفي على معز الدولة و لقبه ذلك اليوم معز الدولة و لقب أخاه علياً عماد الدولة و لقب أخاه الحسن ركن الدولة و أمر أن يضرب ألقابهم و كناهم على الدراهم و الدنانير. و في هذه السنة بلغ معز الدولة أن علم قهرمانة المستكفي عازمة على إزالته فحضر معز الدولة و الناس عند الخليفة في اثنين و عشرين من جمادى الآخرة ثم حضر رجلان من نقباء الديلم فتناولا يد المستكفي فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها إليهما فجذباه عن سريره و جعلا عمامته في حلقه و ساقاه ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها. و أخذت علم القهرمانة فقطع لسانها. و كانت مدة خلافة المستكفي سنة واحدة و أربعة أشهر و ما زال مغلوباً على أمره مع توزون و ابن شيرزاد. و لما بويع المطيع سلم إليه المستكفي فسمله و أعماه و بقي محبوساً إلى أن مات.

و كان في هذا الزمان من الأطباء المشهورين هلال بن ابراهيم ابن زهرون الصابئ الحراني الطبيب نزيل بغداد و كان حاذقاً عاقلاً صالح العلاج متفنناً تقدم عند أجلاء بغداد و خالطهم بصناعته و خدم أمير الأمراء توزون. و حكى عنه ولده ابراهيم قال: رأيت والدي في يوم من أيام خدمته لتوزون و قد خلع عليه وحمله على بغل حسن بمركب ثقيل و وصله بخمسة آلاف درهم و هو مع ذلك مشغول القلب منقسم الفكر. فقلت له: ما لي أراك يا سيدي مهموماً و يجب أن تكون في مثل هذا اليوم مسروراً. فقال: يا ابني هذا الرجل يعني توزون جاهل يضع الأشياء في غير موضعها و لست أفرح بما يأتيني منه من جميلة عن غير معرفة. أتدري ما سبب هذه الخلعة. قلت: لا. قال: سقيته دواءً مسهلاً فحاف عليه فأسحجه فقام عدة مرار مجالس دماً عبيطاً حتى تداركته بما أزال ذلك عنه و كفي المحذور فيه فاعتقده بجهله أن في خروج ذلك الدم صلاحاً له فأنعم علي بما تراه و لست آمن أن يستشعر في السوء من غير استحقاق

فتلحقني منه الأذية.

"المطيع بن المقتدر" هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر. بويع له يوم الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة سنة أربع و ثلاثين و ثلاثمائة و ازداد أمر الخلافة إدباراً و لم يبق بيد المطيع إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجاته. و في هذه السنة في ذي الحجة مات الأخشيد صاحب ديار مصر بدمشق و ولي الأمر بعده ابنه أبو جور و استولى على الأمر كافور الخادم الأسود. فسار كافور إلى مصر. فقصد سيف الدولة دمشق فملكها. ثم جاء كافور من مصر فأخرج أهل دمشق سيف الدولة عنهم. و في سنة سبع و ثلاثين سار سيف الدولة بن حمدان إلى بلد الروم فلقيه الروم و اقتتلوا فانهزم سيف الدولة و أخذ الروم مرعش و أوقعوا بأهل طرسوس. و في سنة ثماني و ثلاثين و ثلاثمائة توالت على عماد الدولة علي بن بويه الأسقام بمدينة شيراز فلما أحس بالموت و لم يكن له ولد أنفذ إلى أخيه ركن الدولة يطلب منه أن ينفذ إليه لبنه عضد الدولة فناخسروا ليجعله ولي عهده.فوصل إليه فأجلسه في داره على السرير و وقف هو بين يديه و أمر الناس بالانقياد له و كان يوماً عظيماً مشهوداً. و في سنة تسع وثلاثين و ثلاثمائة دخل سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم فغزا و أوغل فيها و سبى و غنم. فلما أراد الخروج أخذو عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين أسراً و قتلاً و استرد الروم الغنائم و السبي و غنموا أثقال المسلمين و أموالهم و نجا سيف الدولةفي عدد يسير. و في سنة ثلاث و أربعين و ثلاثمائة مات الأمير نوح بن نصر الساماني في ربيع الآخر و ملك خراسان بعده ابنه عبد الملك. و فيها غزا سيف الدولة ابن حمدان بلاد الروم و قتل ابن نيقيفور الدمستق فعظم الأمر عليه.فجمع عساكر كثيرة من الروم و الروس و البلغار و قصد الثغور فسار إليه سيف الدولة فالتقوا و اشتد القتال بينهم و صبر الفريقان. ثم انتصر المسلمون و انهزم الروم و استؤسر صهر الدمستق و ابن ابنته. و في سنة تسع و أربعين و ثلاثمائة غزا أيضاً سيف الدولة بلاد الروم و سبى و غنم و أسر و بلغ إلى خرشنة. ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس: الرأي أن لا تعود في الدرب الذي دخلت منه و لكن ترجع معنا في مسالك نعرفها. فلم يقبل منهم و كان معجباً برأيه يحب أن يستبد و لا يشاور أحداً لئلا يقال أنه أصاب برأي غيره و عاد في الدرب الذي دخل منه. فظهر الروم عليه و استردوا ما معه من الغنائم و وضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلاً و أسراً و تخلص هو في ثلاثمائة رجل بعد جهدٍ و مشقةٍ. و في سنة خمسين و ثلاثمائة سقط الفرس تحت عبد الملك بن نوح صاحب خراسان فمات من سقطته. و ولي بعده أخوه منصور ابن نوح. و في سنة إحدى و خمسين و ثلاثمائة في المحرم نزل الروم مع الدمستق على عين زربة و فتحوها بالأمان فدخلها و نادى في البلد أول الليل بأن يخرج جميع أهلها إلى المسجد و من تأخر في مترله قتل. فخرج من

أمكنه الخروج. فلما أصبح أنفذ رجاله و كانوا ستين ألفاً فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال و النساء و الصبيان ممن وجدوه خارج المسجد. و أمر من في المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك و من أمسى قتل. فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعةٌ و مروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات و قتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار. فلما أدرك الصوم انصرف الروم إلى القيسارية على أن يعودوا بعد العيد. و فيها استولى الروم على مدينة حلب و عادوا عنها بغير سبب. و فيها ملك الروم عليهم نيقيفور الدمستق و جعلوا شخصاً يسمى شوموشقيق دمستقاً له. و في سنة أربع و خمسين و ثلاثمائة فتح الروم مصيصة و طرسوس. و في سنة ست خمسين و ثلاثمائة مات معز الدولة بن بويه ببغداد و جلس ابنه بختيار في الإمارة و لقب عز الدولة. و كانت إحدى يدي عز الدولة مقطوعة قطعت في بعض الحروب. و فيها قبض أبو تغلب على أبيه ناصر الدولة بن حمدان و حبسه في القلعة لأنه كان قد كبر فساءت أخلاقه و ضيق على أولاده و خالفهم في أغراضهم للمصلحة فضجروا منه. و في سنة سبع و خمسين و ثلاثمائة ملك الروم مدينة إنطاكية. و في سنة إحدى وستين و ثلاثمائة سار المعز لدين الله العلوي صاحب بلاد المغرب من إفريقية يريد الديار المصرية فأقام قريباً من مدينة قيروان و لحقه رجاله و عماله و أهل

بيته و جميع ما كان له في قصره من الأموال و الأمتعة حتى ان الدنانير سبكت و جعلت كهيئة الطواحين و حمل كل طاحونتين على جمل ثم سار حتى وصل إلى الإسكندرية. و أتاه أهل مصر و أعيانها فلقيهم و أكرمهم و أحسن إليهم و سار فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين و ستين و ثلاثمائة و ملك الديار المصرية بلا ضربٍ و لا طعنٍ. و في سنة اثنتين و ستين و ثلاثمائة سار الدمستق إلى آمد و بها هزارمرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان. فكتب إلى أبي تغلب يستصرخه و يستنجده. فسير إليه أخاه هبة الله بن ناصر الدولة فاجتمعا على حرب الدمستق و سارا إليه فالتقياه سلخ رمضان و كان الدمستق في كثرة و لقياه في مضيق لا تجول فيه الخيل. و الروم على غير أهبة الحرب فانهزموا. و أخذ المسلمون الدمستق أسيراً و لم يزل محبوساً إلى أن مرض سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة فبالغ أبو تغلب في علاجه و جمع الأطباء فلم ينفعه ذلك و مات. و في سنة ثلاث و ستين في منتصف ذي القعدة خلع المطيع نفسه من الخلافة و سلمها إلى ولده الطائع لله فكانت مدة خلافته تسعاً و عشرين سنة و خمسة أشهر.

و في سنة تسعٍ و ثلاثين و ثلاثمائة توفي محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي بمدينة دمشق. و فاراب هي إحدى مدن الترك فيما وراء النهر. و دخل أبو نصر العراق و استوطن بغداد و قرأ بها العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان المتوفي في أيام المقتدر و استفاد منه و برز في ذلك على أقرانه و أربى عليهم في التحقيق و أظهر الغوامض المنطقية و كشف سرها و قرب متناولها و جمع ما يحتاج إليه منها في

كتبٍصحيحة العبارة لطيفة الإشارة منبهةٍ على ما أغفله الكندي و غيره من صناعة التحليل و أنحاء التعاليم فجاءت كتبه المنطقية و الطبيغية و الإلهية و السياسية الغاية الكافية و النهاية الفاضلة. و كان أبو نصر الفارابي معاصراً لأبي بشر متى بن يونس إلا أنه كان دونه في السن و فوقه في العلم. و قدم أبو نصر الفارابي على سيف الدولة أبي الحسن علي بن أبي الهيجاء بن حمدان إلى حلب و أقام في كنفه مدة بزي أهل التصوف و قدمه سيف الدولة و أكرمه و عرف موضعه من العلم و مترلته من الفهم و رحل في صحبته إلى دمشق فأدركه أجله بها.

و كان في أيام المطيع لله و في إمارة الأقطع معز الدولة أحمد بن بويه ثابت بن سنان ابن ثابت بن قرة و كان بارعاً في الطب عالماً بأصوله فكاكاً للمشكلات من الكتب. و كان يتولى تدبير البيمارستان ببغداد في وقته. و عمل ثابت هذا كتاب التاريخ المشهور في الآفاق الذي ما كتب كتاب في التاريخ أكثر مما كتبه و هو من سنة نيف و تسعين و مائتين إلى حين وفاته في شهور سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة. و عليه ذيل ابن أخته هلال و لولاهما لجهل شيءٌ كثيرٌ من التاريخ في المدتين. و في هذا الزمان اشتهر يحيى بن عدي بن حميد ابن زكريا التكريتي المنطقي نزيل بغداد. إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه. قرأ على أبي نصر الفارابي. و كان نصرانياً يعقوبي النحلة و كان ملازماً للنسخ بيده كتب كثيراً من الكتب و كان يكتب خطاً قاعداً بيناً في اليوم و الليلة مائة ورقة و أكثر. و له تصانيف و تفاسير و نقول عدة. و مات ثالث عشر آب سنة ألف و مائتين و خمس و ثمانين للإسكندر و دفن في بيعة القطيعة ببغداد و كان عمره إحدى و ثمانين سنة شمسية.

"الطائع بن المطيع" و اسمه أبو الفضل عبد الكريم وسبب خلافته أن أباه المطيع لحقه فالج ثقل لسانه منه و تعذرت الحركة عليه و هو يستر ذلك. فانكشف حاله لسبكتكين فدعاه إلى أن يخلع نفسه و يسلم الخلافة إلى ولده الطائع لله ففعل ذلك في سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة. و فيها خطب للمعز لدين الله العلوي صاحب مصر بمكة و المدينة في الموسم. و فيها وصل عضد الدولة و استولى على العراق و قبض على بختيار ثم عاد فأخرجه و عاد بختيار إلى مكة كما كان أمير الأمراء. و في سنة خمس و ستين و ثلاثمائة مات المعز العلوي بمصر و هو أول الخلفاء العلويين ملك مصر و استخلف عليها ابنه العزيز. و في سنة ست و ستين و ثلاثمائة في المحرم توفي ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه و استخلف على ممالكه ابنه عضد الدولة. و فيها مات منصور بن نوح صاحب خراسان ببخارا و ولي الأمر بعده ابنه نوح. و في سنة سبع و ستين سار عضد الدولة إلى بغداد و أرسل إلى بختيار يدعو إلى طاعته و أن يسير عن العراق

إلى أي جهةٍ أراد إلا الموصل. فخرج بختيار عن بغداد عازماً على قصد الشام. و دخل عضد الدولة بغداد و خطب له فيها بخلاف العادة و ضرب على بابه ثلث نوب و لم تجر بذلك عادة من تقدمه. و أما بختيار لما سار عن بغداد إلى الحديثة أتاه أبو تغلب في عشرين ألف مقاتل و سارا جميعاً نحو العراق. فبلغ ذلك عضد الدولة فسار عن بغداد نحوهما. فالتقوا بنواحي تكريت فهزمهما و أسر بختيار و قتله. و سار نحو الموصل و استولى على ملك بني حمدان. و سار أبو تغلب ابن ناصر الدولة بن حمدان إلى الشام فوصل إلى دمشق و قتل بها.و في سنة تسع و ستين و ثلاثمائة راسل عضد الدولة أخويه فخر الدولة و مؤيد الدولة يدعوهما إلى طاعته و موافقته. أما مؤيد الدولة فأجاب راغباً و أما فخر الدولة فأجاب جواب المناظر المناوي فنقم عليه عضد الدولة ذلك و سار نحو همذان و بها فخر الدولة فخافه ذاكراً قتل ابن عمه بختيار فخرج هارباً و قصد جرجان فنزل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير و التجأ إليه فأمنه و آواه و حمل إليه فوق ما حدثته به نفسه. و في هذه السفرة حدث لعضد الدولة صرع و كان هذا قد أخذه بالموصل فكتمه و صار كثير النسيان لا يذكر الشيء إلا بعد جهدٍ و كتم ذلك أيضاً. و هذا دأب الدنيا لا تصفو لأحد. و فيها شرع عضد الدولة في عمارة بغداد و كانت قد خربت بتوالي الفتن فيها و عمر مساجدها و أسواقها و أدر الأموال على الأئمة و العلماء و القراء و الغرباء و الضعفاء الذين يأوون إلى المساجد. و جدد ما دثر من الأنهار و أعاد حفرها و تسويتها. و فيها تجددت وصلة بين الطائع لله و بين عضد الدولة فتزوج الطائع ابنته و كان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله و لي عهده فتكون الخلافة في ولدٍ لهم فيه نسب و كان الصداق مائة ألف دينار. و فيها كانت فتنة عظيمة بين عامة شيراز من المسلمين و المجوس و نهبت فيها دور المجوس و ضربوا و قتل منهم جماعة فسير إليهم عضد الدولة من جمع له كل من له في ذلك أثر و ضربهم و بالغ في تأديبهم و زجرهم. و في سنة إحدى و سبعين و ثلاثمائة فتح البيمارستان العضدي غربي بغداد و نقل إليه جميع ما يحتاج إليه من الأدوية. و فيها أرسل عضد الدولة القاضي أبا بكر المعروف بابن الباقلاني رسولاً إلى ملك الروم فلما وصل قيل له ليقبل الأرض بين يديه فامتنع. فعمل الملك باباً صغيراً ليدخل منه القاضي منحنياً. فلما رأى القاضي الباب علم ذلك فاستدبره و دخل منه. فلما دخل و جازه استقبل الملك قائماً. و في سنة اثنتين و سبعين و ثلاثمائة اشتد الصرع الذي كان يعتاده عضد الدولة فخنقه فمات منه ثامن شوال ببغداد. و كانت ولايته بالعراق خمس سنين و نصفاً. و جلس ابنه صمصام الدولة أبو كاليجار للعزاء فأتاه الطائع لله معزياً. و كان عمر عضد الدولة سبعاً و أربعين سنة. و كان قد سير ولده شرف الدولة أبا الفوارس إلى كرمان مالكاً لها. و كان عضد الدولة عاقلاً فاضلاً حسن السياسة كثير الإصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي محباً للفضائل و أهلها باذلاً في مواطن العطاء و مانعاً في أماكن الحرم ناظراً في عواقب الأمور. و لما توفي عضد الدولة ولي

الأمر بعده ولده صمصام الدولة أبو كاليجار و خلع على أخويه أبي الحسين أحمد و أبي طاهر فيروزشاه فأقطعهما

فارس. و كان أخوهم الآخر شرف الدولة بكرمان فسبقهما إلى شيراز فملكها. و في سنة ثلاث و سبعين و ثلاثمائة مات مؤيد الدولة بجرجان و كانت علته الخوانيق. و عاد فخر الدولة أخوه إلى مملكته و اتفق مع صمصام الدولة و صارا يداً واحدةً. و فيها دخل باد الكردي الحميدي إلى الموصل و استولى عليها و قويت شوكته و حدث نفسه بالتغلب على بغداد و إزالة الديلم عنها. فخافه صمصام الدولة و أهمه أمره و شغله عن غيره و جمع العساكر فساروا إلى باد فخرج إليهم و لقيهم في صفر سنة أربع و سبعين فأجلت الوقعة عن هزيمة باد و أصحابه و ملك الديلم الموصل. و في سنة سبع و سبعين سار شرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة من الأهواز إلى واسط فملكها. فخافه أخوه صمصام الدولة و سار في طيار إليه في خواصه فلقيه و طيب قلبه فلما خرج من عنده قبض عليه و سار فوصل إلى بغداد في شهر رمضان و أخوه صمصام الدولة معه تحت الاعتقال و كانت إمارته بالعراق أربع سنين. و في سنة تسع و سبعين و ثلاثمائة اعتل شرف الدولة فلما اشتدت علته قيل له: الدولة مع صمصام الدولة على خطر فإن لم تقتله فأسمله. فسمله و حبسه مع أخيه طاهر في بعض القلاع التي بفارس. و فيها في مستهل جمادى الآخرة مات الملك شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة مستسقياً و كانت إمارته بالعراق سنتين و ثمانية أشهر و كان عمره ثمانياً و عشرين سنة. و ولي الأمر بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر. و أما ابنه أبو علي فكان سيره إلى بلاد فارس و أصحبه الخزائن و العدد و جماعة كثيرة من الأتراك. ثم أن المرتبين في القلعة التي فيها صمصام الدولة و أخوه أبو طاهر لما بلغهم الخبر بموت شرف الدولة أطلقوهما و معهما فولاذ فساروا إلى شيراز و اجتمع على صمصام الدولة و هو أعمى كثير من الديلم و استولى على فارس و ملكها. و أما أبو علي بن شرف الدولة فأرسل إليه عمه بهاء الدولة و طيب قلبه و وعده فسار إليه فقبض عليه ثم قتله بعد ذلك بيسير. و فيها ملك أبو طاهر إبراهيم و أبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان الموصل. و في سنة ثمانين و ثلاثمائة جمع باد الأكراد و سار نحو الموصل فخرج إليه أبو طاهر و الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان فناوشاه القتال. و أراد بادٌ الانتقال من فرسٍ إلى آخر فسقط فأراده أصحابه على الركوب فلم يقدروا فتركوه و انصرفوا فعرفه بعض العرب فقتله و صلبت جثته على دار الإمارة فثار العامة و قالوا: رجل غاز و لا يحل فعل هذا به فأنزلوه و كفنوه و صلوا عليه و دفنوه و ظهر منهم محبةٌ كثيرةٌ له. و لما قتل باد الكردي سار ابن أخته أبو علي بن مروان في طائفةٍ من الجيش إلى حصن كيفا و هو على دجلة فملكه و نزل فقصد حصناً حصناً حتى ملك ما كان لخاله. و بعد مدةٍ يسيرةٍ قتل بآمد قتله إنسانٌ يقال له ابن دمنة وقف له في الدركاه و ضربه بالسكين في مقاتله. و ملك

ميافارقين بعده أخوه ممهد الدولة بن مروان و استولى على آمد عبد البر شيخ البلد و زوج ابن دمنة قاتل أبي علي ابنته. فعمل له ابن دمنة دعوة و قتله و ملك آمد و عمر البلد و أصلح أمره مع ممهد الدولة و هادى ملك الروم و صاحب مصر و غيرهما من الملوك و انتشر ذكره. و في سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة قبض بهاء الدولة على الطائع بن المطيع. و حمل إلى دار بهاء الدولة فحبس بها و أشهد عليه بالخلع و أخذ بهاء الدولة ما في دار الخلافة من الذخائر فمشى به الحال و كانت مدة خلافة الطائع سبع عشرة سنة و ثمانية أشهر و لم يكن له من الحكم في ولايته ما يعرف به حال يستدل به على سيرته.

و في سنة تسع و ستين و ثلاثمائة توفي ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني الصابىء ببغداد و كان طبيباً حاذقاً مصيباً. حكى عنه أبو الفرج ابن أبي الحسن بن سنان قال: كنت و إبراهيم الحراني يوماً في دار أبي محمد المهلبي الوزير فتقدم أبو عبد الله بن الحجاج الشاعر إلى الحراني فأعطاه مجسه. فقال له: قلت لك غلظ غذاك و أظنك أسرفت و ذلك حتى أكلت مضيرة بلحم عجل. فقال: كذلك و الله كان. و عجب هو و الجماعة منه. و مد إليه أبو العباسالمنجم يده فأخذ مجسه فقال: فأنت يا سيدي أسرفت في التبريد أيضاً و أظنك قد أكلت إحدى عشرة رمانة. فقال أبو العباس المنجم: هذه نبوة لا طب. و زاد الهجب و التفاوض في ذلك. و كنت أنا أيضاً أكثرهم استطرافاً و تعجباً. فلما خرجنا قلت له: يا سيدي أبا الحسن صناعة الطب معروفة بيننا لا يخفى عني شيء منها فبين لي من أين ذلك النص على أن المضيرة كانت بلحم عجل لا بقرة و لا ثور و من أين لك الدليل على أن عدد الرمان إحدى عشرة. فقال: هو شيءٌ يخطر ببالي فينطق به لساني. فقلت: صدقتني و الله إذاً أرني مولدك. و جئت معه إلى الدار و نظرت في مولده فرأيت سهم الغيب في درجة الطالع مع درجة المشتري و سهم السعادة فقلت له: يا عزيزي هذا يتكلم لا أنت و كلما تصيب في الطب من مثل هذا الحدس و القول فهذا سببه و أصله.

و حكي أن عضد الدولة فناخسرو شاهنشاه بن بويه كان إذا افتخر بالعلم و المعلمين يقول: معلمي في الكواكب الثابتة و أماكنها عبد الرحمن الصوفي و في حل الزيج الشريف ابن الأعلم و في النحو أبو علي الفارسي. و كان عبد الرحمن بن عمر بن سهل أبو الحسين الصوفي الرازي فاضلاً نبيهاً و من تصانيفه كتاب الصور السمائية مصور و الأرجوزة و كتاب مطارح الشعاعات. و توفي في سنة ست و سبعين و ثلاثمائة و كان عمره خمساً و ثمانين سنة. و أما ابن الأعلم فاسمه علي بن الحسين رجل علوي شريف عالم بعلم الهيئة و صناعة التسيير مذكور مشهور في وقته و كان قد تقدم عند عضد الدولة. و لما توفي عضد الدولة نقصت حاله و تأخر أمره عند صمصام الدولة ابنه فانقطع عنهم و أقام منقطعاً و حج في شهور

سنة أربع و سبعين و ثلاثمائة و في عودته مات بمنزلةٍ تعرف بالعسيلة. و كان في هذه المدة جماعة صالحة من مشاهير الحكماء منهم التميمي المقدسي الطبيب كان بمصر في حدود سبعين و ثلاثمائة أحكم ما علمه من علم الطب غاية الأحكام و كان له غرام و عناية تامة في تركيب الأدوية و عنده غوصٌ و استغراقٌ في طلب غوامض هذا النوع و كان منصفاً في مذاكراته غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة. و منهم علي بن العباس المجوسي فاضل كامل فارسي الأصل يعرف بأبي ماهر و طالع هو و اجتهد و صنف للملك عضد الدولة بن بويه كتابه المسمى بالملكي و هو كتاب جليل و كناش نبيل مال الناس إليه في وقته و لزموا درسه إلى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا فمالوا إليه و تركوا الملكي بعض الترك. و الملكي في العمل أبلغ و القانون في العلم أثبت. و منهم نظيف القس الرومي كان طبيباً عالماً بالنقل من اليوناني إلى العربي و لم يكن سعيد المباشرة و لا منجح المعالجة و كان الناس يتطيرون به و يولعون به إذا دخل إلى مريض حتى أنه حكى في بعض أوقاته أن عضد الدولة أنفذه إلى بعض القواد ليعوده في مرض كان عرض له. فلما خرج من عند القائد استدعى القائد ثقته و أنفذه إلى حاجب عضد الدولة يستعلم منه نية الملك فيه. و يقول: إن كان ثم تغير نية فليأخذ له الإذن في الانصراف و البعد فقد قلق لما جرى. و سأله الحاجب عن السبب. فقال: ما أعرف أكثر من أنه جاء نظيف الطبيب و قال له: مولانا الملك أنفذني لعيادتك. فمضى الحاجب و أعاد بحضرة عضد الدولة هذا القول. فضحك و أمره بإعلامه حسن نية الملك فيه و حملت إليه خلع سنية سكنت نفسه بها. و منهم عبيد الله بن الحسن أبو القاسم المعروف بغلام زحل المنجم مقيم ببغداد من أفاضل الحساب و المنجمين أصحاب الحجج و البراهين و له يدٌ طولى فيما يعانيه من هذا الشأن. ذكر أنه اجتمع يوماً عند أبي سليمان المنطقي جماعةٌ من سادة علماء الأوائل و أخذوا في المذاكرة فذكروا في علم النجامة و قالوا: هي من العلوم التي لا تجدي فائدة و لا يصح لها حكم. فأطالوا القول في ذلك. فقال بعضهم: أيها القوم اختصروا الكلام و قربوا البغية هل تصح الأحكام. فقال غلام زحل: عن هذا جواب يستثبت على كل وجه. فقيل: لم بين. قال لأن صحتها و بطلانها يتعلقان بآثار الفلك و قد يقتضي شكل الفلك في زمان أن لا يصح منها شيء و إن غيص على دقائقها و بلغ إلى أعماقها. و قد يزول ذلك الشكل فيجيء زمان لا يبطل منها شيء فيه و إن قورب في الاستدلال. و قد يتحول هذا الشكل في وقتٍ آخر إلى أن يكثر الصواب فيها و الخطأ. و متى وقف الأمر على هذا الحد فلا يثبت على قولٍ قضاء و لا يوثق بجواب. فقال أبو سليمان المنطقي: هذا أحسن ما يمكن أن يقال في هذا الباب. و منهم مسكويه أبو علي الخازن من كبار فضلاء العجم و أجلاء فارس له مشاركةٌ حسنةٌ في العلوم الأدبية و العلوم القديمة كان خازناً للملك عضد الدولة بن بويه مأموناً لديه أثيراً عنده. و له تصانيف في العلوم و مناظرات و محاضرات. و قال أبو علي بن سينا في بعض كتبه و قد ذكر

مسألة فقال: و هذه المسألة حاضرت بها أبا علي مسكويه فاستعادها كرات و كان عسر الفهم فتركه و لم يفهمها على الوجه. و عاش زماناً طويلاً إلى أن قارب سنة عشرين و أربعمائة. و حكي أن عضد الدولة لما قدم إلى بغداد قيل له عن أبي الفضل جعفر بن المكتفي بالله أنه من أولاد الخلفاء و أنه فاضل كبير القدر عالم بعلومٍ متعددةٍ من علوم الأوائل متحقق بذلك أتم تحقيق. فاشتاقت نفسه إليه فسير إليه سراً و كان يجتمع به خفية و يأتيه في خفٍ و إزار فإذا حصل في داره أقعده في موضعٍ خالٍ بغير إزار. فإذا خلا عضد الدولة استدعاه فإذا شاهده تطاول له في القيام و أكرمه و خلا به و سأله عن فنه في علم أحكام النجوم و أخبار الحدثان فيخبره من ذلك بما يعجب منه و لا يبعد وقوعه. و توفي جعفر هذا سنة سبعٍ و سبعين و ثلاثمائة. و من جملة من اختص بشرف الدولة بن عضد الدولة من الحكماء أحمد بن محمد الصاغاني أبو حامد كان فاضلاً في الهندسة و علم الهيئة و كان ببغداد يحكم الآلات الرصدية غاية الإحكام. و لما بنى شرف الدولة بيت الرصد في طرف بستان دار المملكة و تقدم برصد الكواكب السبعة و اعتمد في ذلك على ويجن الكوهي و رصد و كتب مختصرين بصورة الرصد كان ممن شاهد ذلك و كتب خطه بتصحيح نزول الشمس في برجين أحمد بن محمد المنطقي الصاغاني. و مات أحمد هذا سنة تسعٍ و سبعين و ثلاثمائة ببغداد. وأما ويجن بن وشم أبو سهل الكوهي فكان حسن المعرفة بالهندسة و علم الهيئة متقدماً فيهما إلى الغاية المتناهية. و كان رصده لحلول الشمس برجي السرطان و الميزان سنة ألفٍ و مائتين و تسعٍ و تسعين للإسكندر. و كان من جملة من حضر هذين الرصدين من العلماء إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابيء صاحب الرسائل أصل سلفه من حران و نشأ ببغداد و تأدب بها و كان بليغاً في صناعتي النظم و النثر و له يد طولى في علم الرياضة و خصوصاً في الهندسة و الهيئة و له فيهما مصنفات. و ديوان رسائله مجموه. و خدم ملوك العراق من بني بويه و اختلفت به الأيام ما بين رفع و وضع و تقديم و تأخير و اعتقال و إطلاق.و توفي سنة أربع و ثمانين و ثلاثمائة. قال أبو حيان التوحيدي: سألني وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة عن زيد بن رفاعة في حدود سنة ثلاث و سبعين و ثلاثمائة و قال: لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني و مذهباً لا عهد لي به. و قد بلغني أنك تغشاه و تجلس إليه و تكثر عنده. و من طالت عشرته لإنسان أمكن اطلاعه على مستكن رأيه. فقلت: أيها الوزير هناك ذكاء غالب و ذهن وقاد. قال: فعلى هذا ما مذهبه. قلت: لا ينسب إلى شيء لكنه قد أقام بالبصرة زماناً طويلاً و صادف بها جماعة لأصناف العلم فصحبهم و خدمهم و كانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة و تصافت بالصداقة و اجتمعت على القدس و الطهارة و النصيحة فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله و ذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد تدنست بالجهالات و اختلطت بالضلالات و لا سبيل إلى غسلها و تطهيرها إلا بالفلسفة و

زعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية و الشريعة العربية فقد حصل الكمال و صنفوا خمسين رسالة في خمسين نوعاً من الحكمة و مقالة حادية و خمسين جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار و الإيجاز و سموها رسائل إخوان الصفا و كتموا فيها أسماءهم و بثوها في الوراقين و وهبوها للناس و حشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية و الأمثال الشرعية و الحروف المجتمعة و الطرق المموهة و هي مبثوثة من كل فنٍ بلا إشباع و لا كفاية و فيها خرافات و كنايات و تلفيقات و تلزيقات فتعبوا و ما أغنوا و غنوا و ما أطربوا و نسجوا فهلهلوا و مشطوا ففلفلوا و بالجملة فهي مقالات مشوقات غير مستقصاة و لا ظاهرة الأدلة و الاحتجاج. و لما كتم مصنفوها أسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها فكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدس و التخمين. فقوم قالوا: هي من كلام بعض الأئمة العلويين. و قال آخرون: هي تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الأول.

"القادر بن اسحق بن المقتدر" لما قبض الطائع ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة و اتفقوا على القادر بالله أبي العباس أحمد بن اسحق المقتدر و كان بالبطيحة. و لما وصل الرسل إليه كان تلك الساعة يحكي مناماً رآه تلك الليلة يدل على خلافته. فبويع له يوم حادي عشر من شهر رمضان سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة. و فيها مات سعد الدولة ابن سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب بالقولنج و ولي بعده ابنه أبو الفضائل و وصى إلى لؤلؤة به و بسائر أهله. و في سنة اثنتين و ثمانين و ثلاثمائة نزل ملك الروم بإرمينية وحصر خلاط و ملازكرد و أرجيش فضعفت نفوس الناس عنه ثم هادنه أبو علي الحسن ابن مروان مدة عشر سنين و عاد ملك الروم. و في سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة توفي العزيز العلوي صاحب مصر و عمره اثنتان و أربعون سنة و ثمانية أشهر بمدينة بلبيس و ولي بعده ابنه أبو علي المنصور و لقب الحاكم بأمر الله. و كان العزيز يحب العفو و يستعمله فمن حلمه أنه كان بمصر شاعر كثير الهجاء فهجا يعقوب بن كلس الوزير و أبا نصر كاتب الإنشاء فقال:

قل لأبي نصر كاتب القصر و المتأني انقض ذا الأمر
انقض عرى الملك للوزير تفز منه بحسن الثنا و الذكر
و أعط و أمنع و لا تخف أحداً فصاحب القصر ليس بالقصر
و ليس يدري ماذا يراد به و هو إذا ما درى فما يدري

فشكاه الوزير إلى العزيز و أنشده الشعر. فقال له: هذا شيءٌ اشتركنا في الهجاء به فشاركني في العفو عنه.

و في سنة سبعٍ و ثمانين و ثلاثمائة توفي الأمير نوح بن منصور صاحب بخارا و ولي الأمر بعده ابنه منصور. و فيها مات سبكتكين و ملك بعده اسماعيل. ثم أرسل إليه و هو بغزنة أخوه يمين الدولة محمود من نيسابور يعرفه أن أباه إنما عهد إليه لبعده عنه و يذكره ما يتعين من تقديم الكبير. فلم يجبه إلى ذلك. فسار إليه و قاتله و قبض عليه ثم أعلى منزلته و شركه في الملك. و فيها مات فخر الدولة ابن ركن الدولة بن بويه و قام بملكه بعده ولده مجد الدولة أبو طالب رستم و عمره أربع سنين و كان المرجع إلى أمه في تدبير الملك و عن رأيها يصدرون. و فيها توفي مأمون ابن محمد صاحب خوارزم و ولي الأمر بعده ولده علي. و في سنة إحدى و أربعمائة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم العلوي صاحب مصر بأعماله كلها و هي الموصل و الأنبار و المدائن و الكوفة و غيرها. و في سنة ثلاث و أربعمائة قتل شمس المعالي قابوس بن وشمكير و كان سبب قتله أنه كان مع كثرة فضائله و مناقبه عظيم السياسة شديد الأخذ قليل العفو يقتل على الذنب اليسير. فضجر أصحابه منه و مضوا إلى الدار التي هو فيها و قد دخل إلى الطهارة متخففاً فأخذوا ما عليه من كسوةٍ و كان الزمان شتاءً و كان يستغيث: أعطوني و لو جل فرس. فلم يفعلوا فمات من شدة البرد. و ولي بلاده ابنه منوجهر و لقب فلك المعالي. و كان قابوس عزيز الأدب وافر العلم له رسائل و شعر حسن و كان عالماً بالنجوم و غيرها من العلوم. و فيها توفي بهاء الدولة ابن عضد الدولة بن بويه و هو الملك حينئذٍ بالعراق و ولي بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع. و في سنة سبعٍ و أربعمائة قتل خوارزمشاه أبو العباس مأمون بن مأمون و ملك يمين الدولة خوارزم. و في سنة ثماني و أربعمائة خرج الترك من الصين في عددٍ كثير يزيدون على ثلاثمائة ألف خركاه و ملكوا بعض البلاد و غنموا و سبوا و بقي بينهم و بين بلاساغون ثمانية أيام. ولما سمعوا بجمع عساكر طغان خان عادوا إلى بلادهم. فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم و هم آمنون لبعد المسافة فكبسهم و قتل منهم زيادة على مائتي ألف رجل و غنم من الدواب و أواني الذهب و الفضة و معمول الصين ما لا عهد لأحد بمثله. و في سنة إحدى عشرة و أربعمائة عظم أمر أبي علي مشرف الدولة ابن بهاء الدولة ثم ملك العراق و أزال عنه أخاه سلطان الدولة. و فيها فقد الحاكم بن العزيز ابن المعز العلوي صاحب مصر بها و لم يعرف له خبر. و قيل أنه خرج يطوف ليلته على رسمه و عادته و أصبح عند قبر الفقاعي و توجه إلى شرق حلوان و معه ركابيان فأعادهما فعادا و ذكرا أنهما خلفاه عند العين و بقي الناس على رسومهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه. فلما أبطأ خرج جماعة من خواصه فبلغوا حلوان و دخلوا في الجبل فبصروا بالحمار الذي كان عليه و قد ضربت يداه بسيفٍ و عليه سرجه و لجامه. فاتبعوا الأثر فانتهى بهم إلى البركة فرأوا ثيابه و هي سبع قطع صوف و هي مزررة بحالها لم تحل و فيها أثر السكاكين فعادوا و لم يشكوا في قتله. و كان عمره سبعاً و ثلاثين سنة و ولايته خمساً و عشرين سنة. و كان جواداً بالمال

سفاكاً للدماء و كانت سيرته عجيبةً أمر بسب الصحابة و كتب إلى سائر عماله بذلك. ثم أمر بعد ذلك بمدةٍ بالكف عن السب و هدم بيعة القيامة ببيت المقدس ثم عاد بناها. و حمل أهل الذمة على الإسلام أو المسير إلى مأمنهم أو لبس الغيار فأسلم كثيرٌ منهم. ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقاه فيقول له: أريد العود إلى ديني فيأذن له. و منع النساء عن الخروج من بيوتهن و قتل من خرج منهن. فشكى إليه من لا قيم لها يقوم بأمرها فأمر الناس أن يحملوا كلما يباع في الأسواق إلى الدروب و يبيعوه على النساء و أمر من يبيع أن يكون معه شبه المغرفة بساعدٍ طويل يمده إلى المرأة و هي من وراء الباب و فيه ما تشتريه فإذا رضيته و ضعت الثمن في المغرفة و أخذت ما فيها لئلا يراها. فنال من ذلك شدةً عظيمة. و لما عدم الحاكم بويع ابنه أبو الحسن علي و هو صبي و لقب الظاهر لإعزاز دين الله و باشرت ست الملك أخت الحاكم الأمور بنفسها و قامت هيبتها عند الناس و استقامت الأمور. و عاشت بعد الحاكم أربع سنين و ماتت. و في سنة

أربع عشرة و أربعمائة استولى علاء الدولة أبو جعفر بن كاكويه على همذان و ملكها. و فيها توفي علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور و إليه انتهى الخط. و في سنة خمس عشرة في شوال توفي الملك سلطان الدولة بشيراز و ملك بعده ابنه أبو كاليجار. و في سنة ست عشرة و أربعمائة توفي الملك مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة و خطب ببغداد لأخيه أبي طاهر جلال الدولة. و فيها ملك نصير الدولة بن مروان صاحب ديار بكر مدينة الرها و كانت لرجلٍ من بني نمير يسمى عطيراً و فيه شرٌ و جهل فكتب الرهاويون ليسلموا إليه البلد فسير إليهم نائباً كان بآمد يسمى زنكي فتسلمها و قتل عطيراً. و في سنة عشرين و أربعمائة أوقع يمين الدولة بالأتراك الغزية أصحاب أرسلان بن سلجوق و كانوا يفسدون بخراسان و ينهبون فيها فأرسل إليهم جيشاً فسبوهم و أجلوهم عن خراسان فسار منهم أهل ألفي خركاه فلحقوا بأصفهان. و أما طغرلبك و داود و أخوهما بيغو و هم بنو ميكائيل بن سلجوق بن تقاق فإنهم كانوا بما وراء النهر و طائفة من الغز الذين كانوا بخراسان وصلوا إلى أذربيجان و ساروا إلى مراغة فدخلوها و أحرقوا جامعها و قتلوا من عوامها مقتلةً عظيمةً و من الأكراد الهذبانية ثم سار طائفة منهم إلى الري و طائفة إلى همذان فملكوها. و فيها ملك الغز الموصل و وثب بهم أهل الموصل. و في سنة إحدى و عشرين و أربعمائة مات يمين الدولة محمود بن سبكتكين و ملك ولده محمد ثم خلعه أخوه مسعود و ولي مكانه. و في سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة في ذي الحجة توفي الإمام القادر بالله و عمره ست و ثمانون سنة و عشرة أشهر و خلافته إحدى و أربعون سنة. و كانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم و الأتراك فلما وليها ألقى الله هيبته في قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة. و كان حليماً كريماً ديناً و كان يخرج من داره في زي العامة و يزور قبور الصالحين كقبر معروف و غيره.

و في سنة ثماني و أربعين و ثلاثمائة انتقل إلى العراق محمد بن محمد بن يحيى بن الوفاء البوزجاني من بلد نيسابور قرأ عليه الناس و استفادوا و صنف كتباً جمةً في العلوم العددية و الحسابية و له كتاب مجسطي و فسر متاب ديوفنطوس في الجبر و المقابلة.

و في سنة ثماني و تسعين و ثلاثمائة توفي أبو علي عيسى بن زرعة النصراني اليعقوبي المنطقي ببغداد و هو أحد المتقدمين في علم المنطق و الفلسفة و أحد النقلة المجودين و له تصانيف مذكورة و نقولٌ من السرياني إلى العربي.

و من الأطباء المتقدمين بالديار المصرية منصور بن مقشر أبو الفتح المصري النصراني و له مترلة سامية من أصحاب القصر و لا سيما في أيام العزيز منهم. و اعتل منصور هذا في أيام العزيز في سنة خمس و ثمانين و ثلاثمائة و تأخر عن الركوب فلما تماثل منصور ابن مقشر كتب إليه العزيز بخطه: بسم الله الرحمن الرحيم طبيبنا سلمه الله سلام الله الطيب و أتم النعمة عليه. و صلت إلينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب و برئه. و الله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا. أقالك الله العثرة و أعادك إلى أفضل ما عودك من صحة الجسم و طيبة النفس و خفض العيش بحوله و قوته. و خدم منصور هذا بعد العزيز الحاكم ابنه أيضاً. و اتفق أن عرض لرجل الحاكم عقد زمن و لم يبرأ. فكان ابن مقشر و غيره من أطباء الخاص المشاركين له يتولون علاجه فلا يؤثر ذلك إلا شراً في العقد. فأحضر له جرائحي يهودي كان يرتزق بصناعة مداواة الجراح في غاية الخمول. فلما رأى العقد طرح عليه دواءً يابساً فشقه و شفاه في ثلاثة أيام. فأطلق له الحاكم ألف دينار و خلع عليه و لقبه بالحقير النافع و جعله من أطباء الخاص. و لما ولي الحاكم الأمر بمصر و كان يميل إلى الحكمة بلغه خبر أبي علي بن الحسين بن الهيثم المهندس البصري أنه صاحب تصانيف في علم الهندسة عالمٌ بهذا الشأن متقنٌ له متفننٌ فيه قائمٌ بغوامضه و معانيه. فتاقت نفسه إلى رؤيته. ثم نقل له عنه أنه قال: لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالةٍ من حالاته من زيادةٍ و نقصٍ. فازداد الحاكم إليه شوقاً و سير إليه سراً جملةً من مال فأرغبه في الحضور. فسار نحو مصر و لما وصلها خرج الحاكم للقائه و التقيا بقريةٍ على باب القاهرة المعزية تعرف بالخندق و أمر بإنزاله و إكرامه و أقام ريثما استراح و طالبه بما وعد به من أمر النيل فسار معه جماعةٌ من الصناع ليستعين بهم على هندسةٍ كانت خطرت له. و لما سار إلى الإقليم بطوله و رأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية و هي على غاية من إحكام الصنعة و جودة الهندسة و ما اشتملت عليه من أشكالٍ سماويةٍ و مثالاتٍ هندسيةٍ و تصويرٍ معجزٍ تحقق أن الذي يقصده ليس بممكن فإن من تقدمه لم يعزب عنهم علم ما علمه و لو أمكن لفعلوا. فانكسرت همته و وقف خاطره. و وصل إلى الموضع المعروف

بالجنادل قبلي مدينة أسوان و هو موضعٌ مرتفعٌ ينحدر فيه ماء النيل فعاينه و باشره و اختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده و تحقق الخطأ عما وعد به و عاد منخجلاً منخذلاً و اعتذر بما قبل الحاكم ظاهره و وافقه عليه. ثم إن الحاكم ولاه بعض الدواوين فتولاها رهبةً لا رغبةً. و تحقق الغلط في الولاية لكثرة استحالة الحاكم و إراقته الدماء بغير سببٍ أو بأضعف سببٍ من خيال مخيلة. فأجال أبو الحسن بن الهيثم فكرته في أمرٍ يتخلص به فلم يجد طريقاً إلى ذلك إلا إظهار الجنون و الخيال فاعتمد ذلك و شاع. فأحيط على موجوده بيد الحاكم و نوابه. و جعل برسمه من يخدمه و يقوم بمصالحه و قيد و ترك في موضعٍ من مترله. و لم يزل على ذلك إلى أن مات الحاكم. و بعد ذلك بيسير أظهر العقل و عاد إلى ما كان عليه و أقام متنسكاً منقبعاً و اشتغل بالتصنيف و النسخ و الإفادة و كان له خطٌ قاعدٌ في غاية الصحة. و حكي عنه أنه كان ينسخ فيمدة سنة ثلاثة كتبٍ في ضمن أشغاله و هي إقليذس و المتوسطات و المجسطي و يشكلها فإذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة و خمسين ديناراً مصرية. و صار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج إلى مواكسة و لا معاودة قول فيجعلها مؤنته لسنته. و لم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة بعد سنة ثلاثين و أربعمائة. و أما تصانيفه فهي كثيرةٌ مشهورة.

"القائم بن القادر" و لما توفي القادر بالله جددت البيعة لابنه القائم بأمر الله سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة و كان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى و عشرين. و فيها أعني سنة اثنتين و عشرين ملك الروم مدينة الرها و كانت بيد نصير الدولة بن مروان. و فيها سارت عساكر السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب خراسان إلى كرمان فملكوها. و في سنة خمس و عشرين و أربعمائة كانت حرب شديدة بين نور الدولة و دبيس و أخيه أبي قوام ثابت ثم اصطلحا و تحالفا. و سار البساسيري نجدة لثابت فلما سمع بصلحهم عاد إلى بغداد. و هؤلاء أمراء عرب من بني أسد و خفاجة. و فيها توفي رومانوس ملك الروم و ملك بعده رجلٌ صيرفي ليس من بيت الملك و إنما ابنة قسطنطين اختارته و تزوجته. و في سنة سبع و عشرين و أربعمائة توفي الظاهر لإعزاز دين الله الخليفة العلوي بمصر و كان له مصر و الشام و الخطبة له بافريقية. و ولي بعده ابنه أبو تميم و لقب المستنصر بالله. و في سنة تسع و عشرين و أربعمائة دخل ركن الدين أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق مدينة نيسابور مالكاً لها. و في سنة ثلاثين و أربعمائة وصل الملك مسعود من غزنة إلى بلخ و أجلى السلجوقية عن خراسان. و فيها خطب شبيب بن وثاب النميري صاحب حران و الرقة للإمام القائم بأمر الله و قطع خطبة المستنصر بالله العلوي المصري. و في سنة اثنتين و ثلاثين و أربعمائة اتفق أنوستكين الخصي البلخي في جماعة من الغلمان الدارية و ثاروا بالملك مسعود و قبضوا عليه و أقاموا أخاه محمداً و سلموا عليه

بالإمارة. فأحضر أخاه الملك مسعوداً و قال له: لا قابلتك على فعلك بي. و ذلك لأنه كان سمله و أعماه. فانظر أين تريد أن تقيم حتى أحملك إليه ومعك أولادك و حرمك. فاختار قلعة كرى فأنفذه إليها. ثم إن أحمد ابن محمد دخل إلى أبيه فطلب خاتمه ليختم به بعض الخزائن فأعطاه. فسار به غلمانه إلى القلعة و أعطوا الخاتم لمستحفظيها و قالوا: معنا رسالة إلى مسعود فأدخلوهم إليه فقتلوه. فلما وصل الخبر إلى مودود بن مسعود و هو بخراسان عاد مجداً بعساكره إلى غزنة فتصاف هو وعمه محمد و قبض عليه و على ولده أحمد و أنوستكين الخصي البلخي فقتلهم و قتل أولاد عمه جميعهم و قتل كل من كان له في القبض على والده صنع. و في سنة ثلاث و ثلاثين و أربعمائة ملك السلطان طغرلبك جرجان و طبرستان. و فيها توفي ميخائيل ملك الروم و ملك بعده ابن أخيه ميخائيل أيضاً. و في سنة خمس و ثلاثين توفي الملك جلال الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ببغداد و ملك أبو كاليجار ابن سلطان الدولة بن بهاء الدولة. و في سنة تسع و ثلاثين وقع الصلح بين الملك كاليجار و السلطان طغرلبك. و في سنة أربعين و أربعمائة مات الملك أبو كاليجار ببغداد و ملك ابنه الملك الرحيم. و في سنة إحدى و أربعين ملك البساسيري الأنبار و دخلها أصحابه و فيها مات مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة و ملك عمه عبد الرشيد. و في سنة اثنتين و أربعين ملك السلطان طغرلبك أصفهان. و في سنة ست و أربعين استولى طغرلبك على إذربيجان. و في سنة سبعٍ و أربعين وصل طغرلبك إلى بغداد و خطب له بها. و في سنة خمسين و أربعمائة سار طغرلبك في أثر البساسيري ودبيس و معهما أهلهما فأوقع بهم الأتراك و قتلوا البساسيري و دخلوا في الظعن فساقوه جميعه. و كان البساسيري مملوكاً تركياً من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة و هو منسوبٌ إلى بساسير مدينته. و في سنة إحدى و خمسين أصلح دبيس بن مزيد و أحضر إلى خدمة السلطان طغرلبك فأحسن إليه. و في سنة خمسٍ و خمسين سار السلطان طغرلبك من بغداد إلى بلد الجبل فوصل إلى الري فمرض بها و توفي و كان عمره سبعين سنة تقريباً و كان عقيماً لم يلد ولداً. و ملك بعده الب أرسلان بن داود جغرى أخي السلطان طغرلبك. و في سنة ثمان و خمسين ولدت صبية بباب الازج ولداً برأسين و رقبتين و وجهين و أربع أيدٍ على بدنٍ واحد. و في سنة إحدى و ستين احترق جامع دمشق فدثرت محاسنه و زال ما كان فيه من الأعمال النفيسة. و كان سبب ذلك حربٌ وقعت بين المغاربة أًحاب المصريين و المشارقة فضربوا داراً مجاورةً للجامع بالنار فاحترقت و اتصلت النار بالجامع. و في سنة ثلاث و ستين و أربعمائة خرج رومانوس ملك الروم الملقب

ديوجانيس و هو اسمٌ من أسماء الحكماء في مائة ألف و وافى بتجمل كثير و زي عظيم فوصل إلى ملازكرد من أعمال خلاط و كان السلطان الب أرسلان بمدينة خونج من أذربيجان فسار إليه في خمسة

عشر ألف فارس إذ لم يتمكن من جمع العساكر لبعدها و قرب العدو. فجد في السير فلما قرب العسكران أرسل السلطان إلى رومانوس الملك يطلب منه المهادنة. فقال: لا أهادنه إلا بالري. فانزعج السلطان لذلك. فلما كان يوم الجمعة بعد الزوال صلى و بكى فبكى الناس لبكائه. و قال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما هنا سلطان يأمر و ينهى. و ألقى القوس و النشاب و أخذ السيف و الدبوس و عقد ذنب فرسه بيده و فعل عسكره مثله و لبس البياض و تحنط و قال: إن قتلت فهذا كفني.و زحف إلى الروم و زحفوا إليه و اشتد القتال فانهزم الروم و قتل منهم خلقٌ و أسر الملك أسره بعض المماليك اسمه شادي و كان قد ح ضر عنده مع رسولٍ فعرفه فلما رآه نزل و سجد له و قصد به السلطان. فضربه ثلاث مقارع بيده و قال له: ألم أرسل إليك في المهادنة فأبيت. فقال: دعني من التوبيخ و افعل ما تريد. فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني. فقال: القبيح. قال له: فما تظن أنني أفعل بك. قال: إما أن تقتلني و إما أن تشهرني في بلادك. و الأخرى بعيدة و هي العفو و قبول الأموال و اصطناعي نائباً عنك. قال: ما عزمت على غير هذا. ففداه بألف ألف دينار و أن يطلق كل أسيرعنده من المسلمين. و استقر الأمر على ذلك و أجلسه معه على سريره و أنزله في خيمةٍ و أرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها و أطلق جماعة من البطارقة و خلع عليه و عليهم و سير معه عسكراً يوصلوه إلى مأمنه و شيعه فرسخاً. و أما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد. فلما وصل رومانوس الملك إلى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف و أظهر الزهد و أرسل إلى ميخائيل يعرفه ما تقرر مع السلطان. و جمع رومانوس ما عنده من المال و كان مائتي ألف دينار فأرسله إلى السلطان و حلف له أنه لا يقدر على غير ذلك. و في سنة خمسٍ و ستين و أربعمائة قصد السلطان الب أرسلان محمد بن داود جغري بك ما وراء النهر فعقد على جيحون جسراً و عبر عليه في نيف و عشرين يوماً و عسكره يزيد على مائتي ألف فارس فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة اسمه يوسف الخوارزمي و حمل إلى قرب سريره مع غلامين. فتقدم أن يضرب له أربعة أوتاد و يشد أطرافه إليها. فقال له يوسف: يا مخنث مثلي يقتل هذه القتلة. فغضب السلطان و أخذ القوس و النشاب و قال للغلامين: خلياه. فخلياه. و رماه السلطان بسهمٍ فأخطأه. فوثب يوسف يريده. فقام السلطان عن السرير و نزل عنه فعثر فوقع على وجهه. فبرك عليه يوسف و ضربه بسكينٍ كانت معه في خاصرته. و نهض السلطان فدخل إلى خيمةٍ أخرى. و ضرب بعض الفراشين يوسف بمرزبةٍ على رأسه فقتله. و لما جرح السلطان الب أرسلان أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه و قام بوزارته نظام الملك.

و في سنة سبعٍ و ستين و أربعمائة ليلة الخميس ثالث عشر شعبان توفي القائم بأمر الله.و لما أيقن بالموت

أحضر النقيبين و قاضي القضاة و الوزير ابن جهير و أشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم ولي عهده. و كان عمر القائم ستاً و سبعين سنة و ثلاثة أشهر و خلافته أربعاً و أربعين سنة و تسعة أشهر.

و في هذه السنين اشتهر بعلوم الأوائل أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني مبحرٌ في فنون الحكمة اليونانية و الهندية و تخصص بأنواع الرياضيات و صنف فيها الكتب الجليلة و دخل إلى بلاد الهند و أقام بها عدة سنين و تعلم من حكمائها فنونهم و علمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم. و مصنفاته كثيرةٌ متقنةٌ محكمةٌ غاية الإحكام. و بالجملة لم يكن في نظرائه في زمانه و بعده إلى هذه الغاية أحذق منه بعلم الفلك و لا اعرف بدقيقه و جليله. و عرف أيضاً بالعلوم الحكمية أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الشيخ الرئيس. و حكى عن نفسه قال: إن أبي كان رجلاً من أهل بلخ و انتقل منها إلى بخارا في أيام نوح بن منصور و اشتغل بالتصرف بقرية خرميثن و تزوج أمي من قريةٍ يقال لها أفشنة و ولدت منها و ولد أخي ثم انتقلنا إلى بخارا و أحضرت معلم القرآن و الأدب و كملت العشر من العمر و قد أتيت على القرآن و على كثيرٍ من الأدب. حتى كان يقضى مني العجب. و أخذ والدي يوجهني إلى رجلٍ كان يبيع البقل و يقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارا أبو عبد الله الناتلي و كان يدعي الفلسفة و أنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه. فقرأت ظواهر المنطق عليه و أما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة. ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي و أطالع الشروح و كذلك كتاب إقليذس فقرأت من أوله خمسة أشكالٍ أو ستةٍ عليه ثم توليت حل الكتاب بأسره. ثم انتقلت إلى المجسطي. و فارقني الناتلي. ثم رغبت في علم الطب و صرت أقرأ الكتب المصنفة فيه و تعهدت المرضى فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف و أنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثم توفرت على القراءة سنةً و نصفاً و كلما كنت أتحير في مسألةٍ و لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع و صليت و ابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المغلق منه و المتعسر. و كنت أرجع بالليل إلى داري و أضع السراج بين يدي و أشتغل بالقراءة و الكتابة فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعفٍ عدلت إلى شرب قدحٍ من الشراب ريثما تعود إلي قوتي ثم أرجع إلى القراءة و متى أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها حتى أن كثيراً منها انفتح لي وجوهها في المنام. و لم أزل كذلك حتى أحكمت علم المنطق و الطبيعي و الرياضي. ثم عدلت إلى العلم الإلهي و قرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت أفهم ما فيه و التبس علي غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة و صار لي محفوظاً و أنا مع ذلك لا أفهمه و أيست من نفسي و قلت: هذا كتابٌ لا سبيل إلى فهمه. و إذا أنا يوماً حضرت وقت العصر في الوراقين و بيد دلال مجلد ينادي عليه فعرضه علي فرددته رد متبرمٍ معتقد أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: اشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم و

صاحبه محتاجٌ إلى ثمنه. فاشتريته فإذا هو كتابٌ لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة. فرجعت إلى بيتي و أسرعت قراءته فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه قد صار لي على ظهر القلب و فرحت بذلك و تصدقت بشيْ على الفقراء شكراً لله تعالى. فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها و كنت إذ ذاك للعلم أحفظ و لكنه اليوم معي أنضج و إلا فالعلم واحدٌ لم يتجدد لي بعده شيء. ثم مات والدي و تصرفت بي الأحوال و تقلدت شيئاً من أعمال السلطان. و دعتني الضرورة إلى الارتحال من بخارا و الانتقال عنها إلى جرجان و كان قصدي الأمير قابوس فاتفق في أثناء هذا أخذ قابوس و حبسه و موته. ثم مضيت إلى دهستان و مرضت بها مرضاً صعباً و عدت إلى جرجان و أنشأت في حالي قصيدةً فيها بيت القائل:

لما عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدمت المشتري

قال أبو عبيدة الجوزجاني: إلى ههنا انتهى ما حكاه الشيخ عن نفسه. و في هذا الموضع أذكر أنا بعض ما شاهدت من أحواله في حال صحبتي له و إلى حين انقضاء مدته. قال: في مدة مقامه بجرجان صنف أول القانون و مختصر المجسطي و غير ذلك. ثم انتقل إلى الري و اتصل بخدمة السيدة و ابنها مجد الدولة. ثم خرج إلى قزوين و منها إلى همذان فاتصل بخدمة كدبانويه و تولى النظر في أسبابها. ثم سألوه تقلد الوزارةفتقلدها. ثم اتفق تشويش العسكر عليه و إشفاقهم منه على أنفسهم فكبسوا داره و أخذوه إلى الحبس و أخذوا جميع ما كان يملكه و ساموا الأمير شمس الدولة قتله فامتنع منه و عدل إلى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم. فتوارى الشيخ في دار بعض أصدقائه أربعين يوماً. فعاد الأمير و قلده الوزارة ثانياً. و لما توفي شمس الدولة و بويع ابنه طلبوا أن يستوزر الشيخ فأبى عليهم و توارى في دار أبي غالب العطار و هناك أتى على جميع الطبيعيات و الإلهيات ما خلا كتابي الحيوان و النبات من كتاب الشفاء. و كاتب علاء الدولة سراً يطلب المسير إليه فاتهمه تاج الملك بمكاتبته وأنكر عليه ذلك و حث في طلبه. فدل عليه بعض أعدائه فأخذوه و أدوه إلى قلعةٍ يقال لها بردجان و أنشأ هناك قصيدةً فيها:

دخولي باليقين كما تراه و كل الشك في أمر الخروج

و بقي فيها أربعة أشهر. ثم أخرجوه و حملوه إلى همذان ثم خرج منها متنكراً و أنا و أخوه و غلامان معه في زي الصوفية إلى أن وصلنا إلى أصفهان فصادف في مجلس علاء الدولة الإكرام و الإعزاز الذي يستحقه مثله. و صنف هناك كتباً كثيرةً. "قال" و كان الشيخ قوي القوى كلها و كانت قوة المجامعة من قواه الشهوانية أقوى و أغلب و كان كثيراً ما يشتغل به فأثر في مزاجه. و كان سبب موته قولنج عرض له و

لحرصه على برئه حقن نفسه في يومٍ واحدٍ ثماني مرات فتقرح بعض أمعائه و ظهر به سحج و عرض له الصرع الذي قد يتبع القولنج و صار من الضعف بحيث لا يقدر على القيام. فلم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي لكنه مع ذلك لا يتحفظ و يكثر التخليط في أمر المعالجة و لم يبرأ من العلة كل البرء و كان ينتكس و يبرأ كل وقت. ثم قصد علاء الدولة همذان و سار معه الشيخ فعاودته في الطريق تلك العلة إلى أن وصل إلى همذان و علم أن قوته قد سقطت و أنها لا تفي بدفع المرض فأهمل مداواة نفسه و أخذ يقول: المدبر الذي كان يدبرني قد عجز عن التدبير و الآن فلا تنفع المعالجة. و بقي على هذا أياماً ثم انتقل إلى جوار ربه و دفن بهمذان و كان عمره ثمانياً و خمسين سنة و كان موته في سنة ثمان و عشرين و أربعمائة. و فيه قال بعضهم:

ما نفع الرئيس من حكمه الطب و لا حكمه على النيرات

ما شفاه الشفاء من ألم الموت و لا نجاه كتاب النجاة

و قيل أول حكيم توسم بخدمة الملوك أرسطوطاليس و كان الحكماء قبله مثل فيثاغوروس و سقراطيس و أفلاطون يترفعون عن ذلك و لا يقربون أبواب السلاطين. و الدليل على ذلك أن بعض ملوك اليونانيين كان مجتازاً بمكانٍ كان فيه سقراطيس جالساً فلما دنا بقربه و هو لم ينهض و لم يتحرك من مكانه و لا يلتفت فأقبل إليه بعض الغلمان فركله برجله. فقال له: لم تركلني. قال له: أما تبصر الملك كيف لا تنهض و تقوم له. أجابه سقراطيس قائلاً: كيف أقوم لعبد عبدي. فالتفت الملك إلى مشاجرهما فاستدعى به فحمل إليه فقال له: أي شيءٍ قلت. قال: قلت لا أقوم لعبد عبدي. قال الملك: و أنا عبد عبدك. قال: نعم أيها الملك أنت استعبدتك الدنيا و أنت خادمها و أنا زهدتها و استعبدتها فهي عبدي و أنت عبدها. فالملك استحسن له ذلك و تقدم بالإحسان إليه فلم يقبل. قيل و أول حكيمٍ شغف بشرب الخمر و استفراغ القوى الشهوانية الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا. ثم اقتدى به في الانهماك من كان بعده فهذان غيرا السنة الفلسفية. و قيل أن شيخ الشيخ أبي علي في الطب أبو سهل المسيحي و كان طبيباً فاضلاً منطقياً عالماً بعلوم الأوائل مذكوراً في بلد خراسان له كناش يعرف بالمائة كتاب مشهور. مات و عمره أربعون سنة.

و في سنة خمس و ثلاثين و أربعمائة توفي أبو الفرج عبد الله بن الطيب و هو عراقي فيلسوف فاضل مطلع على كتب الأوائل و أقاويلهم و عني بشروح الكتب القديمة في المنطق و أنواع الحكمة من تآليف أرسطوطاليس و من الطب كتب جالينوس و بسط القول في الشروح بسطاً شافياً قصد به التعليم و

التفهيم. قال القاضي الأكرم جمال الدين القفطي رحمه الله: لقد رأيت بعض من ينتحل هذه الصناعة يذم أبا الفرج بن الطيب بالتطويل و كان هذا العائب يهودياً ضيق الفطن قد وقف مع عبارة ابن سينا. فاما أنا و كل مصنفٍ فلا يقول إلا أن أبا الفرج بن الطيب قد أحيا من هذه العلوم ما دثرو أبان منها ما خفي. و قد تلمذ له جماعةٌ سادوا و أفادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان. قال ابن بطلان: إن شيخنا ابو الفرج ابن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة و مرض من الفكر فيه مرضةً كان تلفظ نفسه فيها و هذا يدلك على شدة حرصه و اجتهاده و طلب العلم لعينه. و ابن بطلان هذا فهو طبيب نصراني بغدادي و كان مشوه الخلقة غير صبيحها كما شاء الله منه و فضل في علم الأوائل و كان يرتزق بصناعة الطب و خرج عن بغداد إلى الموصل و ديار بكر و دخل حلب و أقام بها مدةً و ما حمدها و خرج عنها إلى مصر فأقام بها مدة قريبة و اجتمع بابن رضوان المصري الفيلسوف في وقته و جرت بينهما منافرة أحدثتها المغالبة في المنظرة. و خرج ابن بطلان عن مصر مغضباً على ابن رضوان و ورد إنطاكية و أقام بها و قد سئم كثرة الأسفار و ضاق عطنه عن معاشرة الأغمار فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض الأديرة بإنطاكية و ترهب و انقطع إلى العبادة إلى أن توفي سنة أربعٍ و أربعين و أربعمائة. و من مشاهير تصانيف ابن بطلان كتاب تقويم الصحة مجدول و كتاب دعوة الأطباء مقامة ظريفة. و رسالة اشتراء الرقيق. و لما جرى لابن بطلان بمصر مع ابن رضوان ما جرى كتب إليه ابن بطلان رسالةً يقطعه فيها و يذكر معايبه و يشير إلى جهله بما يدعيه من علم الأوائل و رتبها على سبعة فصول الأول فضل من لقي الرجال على من درس في الكتب. الثاني في أن الذي علم المطالب من الكتب علماً رديئاً شكوكه بحسب علمه يعسر حلها. الثالث في أن إثبات الحق في عقلٍ لم يثبت فيه المحال أسهل من إثباته عند من ثبت في عقله المحال. الرابع في أن من عادات الفضلاء عند قراءاتهم كتب القدماء أن لا يقطعوا في مصنفها بطعنٍ إذا رأوا في المطالب تبايناً و تناقضاً لكن يخلدوا إلى البحث و التطلب. الخامس في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة من مقدمات صادقة يلتمس أجوبتها بالطريقة البرهانية. السادس في تصفح مقالته في المباهلة التي ضمن فيها: انني أسأله ألف مسألةٍ و يسألني مسألةً واحدة. السابع في تتبع مقالته في النقطة الطبيعية و التعيين على موضع الشبهة في هذه التسمية. و ختم الرسالة بقوله: و ليتحقق أن اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب. فإن لنا موقف حساب. و مجمع ثواب و عقاب. يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم. و يطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية في هلاكهم. و انهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسبي و لا يغضون عنه كما أغضيت عن ثلب عرضي. فليكن من لقائهم على يقين. و يتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين. و الله يوفقنا و إياه للعمل بطاعته و التقرب إليه بابتغاء مرضاته و هو حسبي و نعم الوكيل. و ذكر ابن بطلان في الفصل الرابع من رسالته إلى ابن رضوان

حكايةً ظريفةً وجب إيرادها ههنا قال: إنني حضرت مع تلميذٍ من تلامذة الشيخ يعني الشيخ ابن رضوان ظاهر التجمل بادي الذكاء إن صدقت الفراسة فيه بحضرة الأمير أبي علي ابن جلالة الدولة بن عضد الدولة فناخسرو في حمى نائبة أخذت أربعة أيام و لا تبدو ببردٍ و تقشعٍ بنداوة و قد سقاه ذلك الطبيب دواءً مسهلاً و هو عازمٌ على فصده من بعد على عادة المصريين في تأخير الفصد بعد الدواء و إطعام المريض القطائف بجلاب في نوب الحمى. فسألت الطبيب مستخبراً عن الحمى. فقال بلفظة المصريين: نعم سيدي حمى يوم مركبة من دم و صفراء نائبة أربعة أيام فلما سقيناه الدواء تحلل الدم و بقيت الصفراء و نحن على فصده لنأمن الصفراء بمشيئة الله. فذهبت لا أعلم مما أعجب أمن كون حمى يوم تنوب في أربعة أيام بعلامات الموظبة أم من كونها من أخلاط مركبة أم من الدواء الذي
حلل الدم الغليظ و ترك الصفراء اللطيفة. و ما أشبه ذلك من حكايته إلا بما سمعت بإنطاكية أن طبيباً رومياً شارطمريضه به غب خالصة على برئه دراهم معلومة و أخذ في تدبيره بما غلظ المادة فصارت شطر غب بعد ما كانت خالصة. فأنكروا ذلك عليه و راموا صرفه فقال: إنني أستحق نصف الكراء لأن الحمى ذهب نصفها. و ظن من جهة التسمية أن الشطر قد ذهب من الحمى. و ما زال يسألهم عما كانت فيقولون غباً. و عما هي الآن فيقولون شطراً فيتظلم و يقول: فلم منعتموني نصف القبالة. و حكي أن ابن رضوان هذا كان في أول أمره منجماً يقعد على الطريق و يرتزق ثم قرأ شيئاً من الطب و المنطق و كان من المفلفلين لا المحققين و لم يكن حسن المنظر و لا الهيئة و مع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة بمصر و أخذوا عنه و سار ذكره و صنف كتباً مختطفة ملتقطة مستنبطة من غيره و كان تلاميذه ينقلون عنه من التعاليل الطبية و الألفاظ المنطقية ما يضحك منه إن صدق النقلة. و لم يزل ابن رضوان بمصر متصدراً للإفادة إلى أن مات في حدود سنة ستين و أربعمائة. و كان من مشاهير الأطباء في هذه الأيام طبيب نصراني من أهل بغداد يقال له كتيفات خدم البساسيري معروف بالعمل غير موصوف بعلم ارتفع بصائب معالجته.

"المقتدي بن محمد بن القائم" لما توفي القائم بأمر الله بويع عبد الله بن محمد ابن القائم بالخلافة و لقب المقتدي بأمر الله سنة سبع و ستين و أربعمائة. و لم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فإن الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفي في أيام أبيه و لم يكن له غيره و كان المقتدي حملاً في بطن أمه فولد بعد موت أبيه محمد بستة أشهر. و في سنة ثماني و ستين سار اقسيس الخوارزمي و هو أحد الأمراء من عسكر السلطان ملكشاه إلى دمشق فحصرها فغلت الأسعار فبيعت الغرارة بأكثر من عشرين ديناراً فسلموها إليه بالأمان و خطب بها للمقتدي الخليفة العباسي و كان آخر ما خطب فيها للعلويين المصريين. و تغلب

اقسيس على أكثر الشام. و في سنة أربع و سبعين توفي نور الدولة دبيس الأسدي و كان عمره ثمانين سنة و إمارته سبعاً و خمسين سنة و كان مذكوراً بالفضل و الإحسان. و ولي بعده ما كان إليه ابنه منصور و لقب بهاء الدولة فأحسن السيرة و سار إلى السلطان ملكشاه فاستقر له الأمر و خلع الخليفة أيضاً عليه ثم مات في سنة تسعٍ و سبعين و ولي الحلة و النيل و جميع ما كان له ابنه سيف الدولة صدقة. و في سنة خمسٍ و ثمانين قتل نظام الملك الوزير بالقرب من نهاوند قتله صبي ديلمي من الباطنية أتاه في صورة مستمنح أو مستغيث فضربه بسكين كانت معه فقضي عليه. و بقي نظام الملك وزيراً للسلاطين ثلاثين سنة سوى ما وزر لالب أرسلان و هو صاحب خراسان أيام عمه طغرلبك قبل أن يتولى السلطنة. و كان عمره سبعاً و سبعين سنة. و كان سبب قتله أن عثمان ابن جمال الملك بن نظام الملك كان قد ولاه جده رئاسة مرو و أرسل السلطان إليها شحنة اسمه قودن و هو من خواصه فنازع عثمان في شيء فحملت عثمان حداثة ينه و طمعه بجده على أن قبض عليه و أخرق به ثم أطلقه فقصد السلطان مستغيثاً شاكياً فأرسل السلطان إلى نظام الملك رسالةً يقول له: إن كنت شريكي في الملك فلذلك حكم. و إن كنت نائبي فيجب أن تلزم حد التبعية و النيابة و هؤلاء أولادك قد جاوزا حد أمر السياسة و طمعوا إلى أن فعلوا كذا و كذا. فحضر المرسلون عند نظام الملك و أوردوا عليه الرسالة فقال: قولوا للسلطان إن كنت ما علمت إني شريكك في الملك فاعلم. فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري و رأيي أما تذكر حين قتل أبوك فقمت بتدبير أمرك و قمعت الخوارج عليك من أهلك و غيرهم. و أنت ذلك الوقت كنت تتمسك بي فلما قدت الأمور إليك و أطاعك القاصي و الداني أقبلت تتجنى لي الذنوب و تسمع في السعايات. و قولوا له عني إن ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة و إن اتفاقهما سبب كل غنيمة و متى أطبقت هذه الدواة زالت تلك. و أطال فيما هذا سبيله. ثم قال: قولوا للسلطان عني مهما أردتم فقد أهمني ما لحقني من توبيخه و فت في عضدي. فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما جرى عن السلطان فقالوا له ما مضمونه العبودية و الاعتذار. ثم أن واحداً منهم أعلم السلطان بما جرى فوقع التدبير عليه حتى قتل و مات السلطان بعده بخمس و ثلاثين يوماً و انحلت الدولة و وقع السيف و كان قول نظام الملك شبه الكرامة له. و قيل أن ابتداء أمر نظام الملك أنه كان من أبناء الدهاقين بطوس و تعلم العربية و كان كاتباً للأمير تاجر صاحب بلخ و كان الأمير يصادره في رأس كل سنة و يأخذ ما معه و يقول له: قد سمنت يا حسن. و هرب إلى جغري بك داود و هو بمرو فدخل إليه فلما رآه أخذ بيده و سلمه إلى ولده الب أرسلان و قال له: هذا حسن الطوسي فتسلمه و اتخذه والداً و لا تخالفه. و كان نظام الملك إذا دخل عليه الأئمة الأكابر يقوم لهم و يجلس في مسنده و كان له شيخٌ فقيرٌ إذا دخل إليه يقوم له و يجلسه في مكانه و يجلس بين يديه. فقيل له في ذلك فقال: إن أولئك إذا دخلوا علي يثنون علي بما ليس في

فيزيدني كلامهم عجباً و تيهاً. و هذا يذكرني عيوب نفسي و ما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسي لذلك فأرجع عن كثيرٍ مما أنا فيه. و كان مجلسه عامراً بالعلماء و أهل الخير و الصلاح. و أكثر الشعراء مراثيه فمن جيد ما قيل قول شبل الدولة:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً يتيمةً صاغها الرحمن من شرفِ
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرةً منه إلى الصدفِ

ثم سار السلطان ملكشاه بعد قتل نظام الملك إلى بغداد و دخلها في الرابع و العشرين من شهر رمضان. و اتفق أن خرج إلى الصيد و عاد ثالث شوال مريضاً و كان سبب مرضه أنه أكل لحم صيدٍ فحم فافتصد و لم يستوف إخراج الدم فثقل في مرضه و كانتحمى محرقة فتوفي ليلة الجمعة النصف من شوال فسترت زوجته تركان خاتون موته و كتمته و سارت من بغداد و السلطان معها محمولاً و بذلت الأموال للأمراء و استحلفتهم لابنها محمود و كان تاج الملك وزيرها يتولى ذلك لها و أرسلت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة فأجابها و خطب لمحمود و عمره أربع سنين. و سارت تركان خاتون من بغداد إلى أصفهان و بها بركيارق و هو أكبر أولاد السلطان فخرج منها هو و من معه من الأمراء النظامية و ساروا نحو الري. فسيرت خاتون العساكر إلى قتال بركيارق فانحاز جماعةٌ منهم إلى بركيارق فقوي بهم و عاد إلى أصفهان و حاصرها. و كان تاج الملك مع عسكر خاتون فأخذ و حمل إلى بركيارق فهجم النظامية عليه فقتلوه. و كان كثير الفضائل جم المناقب و إنما غطى محاسنه ممالأته على قتل نظام الملك. و في سنة سبع و ثمانين قدم بركيارق بغداد و خطب له بالسلطنة و لقب ركن الدين. و في سنة سبعٍ و ثمانين و أربعمائة خامس عشر محرم توفي الإمام المقتدي بالله فجأةً و كان قد أحضر عنده تقليد السلطان بركيارق ليعلم فيه فقرأه و تدبره و علم فيه. ثم قدم إليه طعام فأكل منه و غسل يديه و عنده قهرمانته شمس النهار. فقال لها: ما هذه الأشخاص التي دخلت علي بغير إذن. "قالت" فالتفت فلم أر شيئاً و رأيته قد تغيرت حالته و انحلت قوته و سقط إلى الأرض ميتاً. و قلت لجاريةٍ عندي: إن صحت قتلتك. و أحضرت الوزير فأعلمته الحال. فشرعوا في البيعة لولي العهد و جهزوا المقتدي و دفنوه و كان عمره ثمانياً و ثلاثين سنة و ثمانية أشهر و كانت خلافته تسع عشرة سنة و ثمانية أشهر و أمه أم ولد أرمنية تسمى أرجوان أدركت خلافته و خلافة ابنه المستظهر و خلافة ابن ابنه المسترشد.

و في سنة ثلاث و سبعين و أربعمائة مات يحيى بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي و كان رجلاً نصرانياً قد قرأ الطب على نصارى الكرخ الذين كانوا في زمانه و أراد قراءة المنطق فلم يكن في النصارى

المذكورين في ذلك الوقت من يقوم بهذا الشأن و ذكر له أبو علي بن الوليد شيخ المعتزلة في ذلك الوقت و وصف بأنه عالمٌ بعلم الكلام و معرفة الألفاظ المنطقية فلازمه لقراءة المنطق. فلم يزل ابن الوليد يحسن له الإسلام حتى استجاب و أسلم فسر بإسلامه أبو عبد الله الدامغاني قاضي القضاة يومئذٍ و قربه و أدناه و رفع محله بأن استخدمه في كتابة السجلات بين يديه و كان مع اشتغاله بذلك يطب أهل محلته و سائر معارفه بغير أجرةٍ و لا جعالةٍ بل احتساباً و مروءةً و يحمل إليهم الأدوية بغير عوض. و لما مرض مرض موته وقف كتبه لمشهد الإمام أبي حنيفة. و من مشاهير تصانيفه كتاب المنهاج و كتاب تقويم الأبدان مجدول.

"المستظهر بن المقتدي" لما توفي المقتدي بأمر الله أحضر ولده أبو العباس أحمد فبويع له و لقب المستظهر بالله و ذلك في سنة سبعٍ و ثمانين و أربعمائة. "و فيها قتل السلطان بركيارق عمه تكش و غرقه و قتل ولده معه". و في سنة ثمان و ثمانين قتل تتش ابن الب أرسلان و استقام الأمر و السلطنة لبركيارق. و فيها في ذي الحجة توفي المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله العلوي صاحب مصر و الشام و كانت خلافته ستين سنة و عمره سبعاً و ستين سنة و ولي بعده ابنه أبو القاسم أحمد و لقب المستعلي بالله. و في سنة تسعٍ و ثمانين حكم المنجمون بطوفان يكون في الناس يقارب طوفا نوح. فأحضر الخليفة ابن عيسون المنجم فسأله. فقال: إن في طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة في برج الحوت و الآن فقد اجتمع ستةٌ منها و ليس فيها زحل فلو كان معها لكان مثل طوفان نوح و لكن أقول إن مدينة أو بقعة من الأرض يجتمع فيها عالمٌ كثيرٌ من بلادٍ كثيرةٍ فيغرقون. فخافوا على بغداد لكثرة من يجتمع فيها من البلاد فأحكمت المسنيات و المواضع التي يخشى منها الانفجار. فاتفق أن الحجاج نزلوا في وادي المناقب فأتاهم سيلٌ عظيم فأغرق أكثرهم و نجا من تعلق بالجبال و ذهب المال و الدواب و الازواد. فخلع الخليفة على المنجم. و في سنة تسعين و أربعمائة قتل ملك خراسان أرسلان أرغون بن الب أرسلان أخو السلطان ملكشاه قتله غلام له. فقيل له: لم فعلت هذا. فقال: لأريح الناس من ظلمه. ثم ملك بركيارق خراسان و سلمها إلى أخيه الملك سنجر. و في سنة إحدى و تسعين جمع بردويل ملك الإفرنج جمعاً كثيراً و خرج إلى بلاد الشام و ملك إنطاكية. و كان الإفرنج قبل هذا قد ملكوا مدينة طليطلة من بلاد الأندلس و غيرها ثم قصدوا جزيرة سقلية فملكوها و تطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئاً. فلما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الإفرنج و ملكهم إنطاكية جمع العساكر و سار إلى الشام و نزل على إنطاكية و حاصرها و فيها من الملوك بردويل و سنجال و كندفري و القومص صاحب الرها و بيموند صاحب إنطاكية. و قلت الأقوات عندهم فأرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم و

قال: لا تخرجون إلا بالسيف. و كان مع الإفرنج راهب مطاع فيهم و كان داهية من الرجال فقال لهم: إن فطروس السليح كان له عكازة ذات زج مدفونة بكنيسة القسيان فإن وجدتموها فإنكم تظفرون و إلا فالهلاك متحقق. و أمرهم بالصوم و التوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم و معهم عامتهم و حفروا عليها في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر. فقال لهم: أبشروا بالظفر. فقويت عزيمتهم و خرجوا اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة و ستة و نحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من خرج. فقال: لا تفعلوا لكن أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم. فلما تكاملوا و لم يبق بإنطاكية أحد منهم ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمون و آخر من انهزم سقمان بن ارتق فقتل الإفرنج منهم ألوفاً و غنموا ما في العسكر من الأقوات و الأموال و الدواب و الأسلحة فصلحت حالهم و عادت إليهم قوتهم و ساروا إلى معرة النعمان فملكوها. و في سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة لما رأى المصريون ضعف الأتراك صاروا إلى البيت المقدس و حصروه و به الأمير سقمان و ايلغازي ابنا ارتق التركماني و ابن عمهما سونج و نصبوا عليه نيفاً و أربعين منجنيقاً و ملكوه بالأمان و خرج عنه سقمان و أصحابه و استناب المصريون فيه رجلاً يعرف بافتخار الدولة. فقصده الإفرنج و نصبوا عليه برجين و ملكوه من الجانب الشمالي و ركب الناس السيف و لبث الإفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. و قتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً و غنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء. و في سنة ثلاث و تسعين جرى حربٌ بين السلطان بركيارق و بين أخيه السلطان محمد و انهزم بركيارق و تنقل في البلاد إلى أصفهان. و لم يدخلها و سار إلى خوزستان. و في سنة أربع و تسعين كان المصاف الثاني بينهما و كان مع بركيارق خمسون ألفاً و مع أخيه محمد خمسة عشر ألفاً فالتقوا و اقتتلوا فانهزم السلطان محمد و سار طالباً خراسان إلى أخيه الملك سنجر و هما لأمٍ واحدةٍ فأقام بجرجان و أتاه الملك سنجر في عساكره إلى

الدامغان و خرب العسكر البلاد و عم الغلاء تلك الأصقاع حتى أكل الناس بعضهم بعضاً بعد فراغهم من أكل الميتة و الكلاب. و في سنة خمسٍ و تسعين توفي المستعلي بالله الخليفة العلوي المصري و كانت خلافته سبع سنين و ولي بعده ابنه أبو علي المنصور و عمره خمس سنين و لقب بأحكام الله و لم يقدر يركب وحده على الفرس لصغر سنه و قام بتدبير دولته الأفضل بن أمير الجيوش أحسن قيام. و في سنة سبعٍ و تسعين وقع الصلح بين السلطانين بركيارق و أخيه محمد ابني ملكشاه و تقررت القاعدة أن بركيارق لا يعترض أخاه محمداً في الطبل و أن لا يذكر معه على منابر البلاد التي صارت له و هي ديار بكر و الجزيرة و الموصل و الشام. و في سنة ثماني و تسعين توفي السلطان بركيارق بن ملكشاه و كان قد مرض بأصفهان بالسل و البواسير فلما آيس من نفسه خلع على ولده ملكشاه و عمره حينئذٍ أربع سنين

و ثمانية أشهر و أحضر جماعة الأمراء و أعلمهم أنه قد جعل ابنه و لي عهده في السلطنة و جعل الأمير ايز أتابكة فأجابوه كلهم بالسمع و الطاعة و خطب لملكشاه بالجوامع ببغداد. و في سنة تسعٍ و تسعين و أربعمائة سار السلطان محمد من أذربيجان إلى الموصل ليأخذها من جكرميش صاحبها و حصرها. فقاتل أهل البلد أشد قتال و كانت الرجالة تخرج و يكثرون القتل في العسكر و دام القتال من صفر إلى جمادى الأولى. فوصل الخبر إلى جكرميش بوفاة السلطان بركيارق فأرسل إلى محمد يبذل له الطاعة. و دخل إليه الوزير محمد و قال له: المصلحة أن تحضر الساعة عند السلطان فإنه لا يخالفك في جميع ما تلتمسه منه. و أخذ بيده و قام فسار معه جكرميش فلما رآه أهل الموصل قد توجه إلى السلطان جعلوا يبكون و يحثون التراب على رؤوسهم. فلما دخل على السلطان محمد أقبل عليه و أكرمه و عانقه و لم يمكنه من الجلوس و قال: ارجع إلى رعيتك فإن قلوبهم إليك و هم متطلعون إلى عودتك. فقبل الأرض و عاد و عمل من الغد سماطاً بظاهر الموصل عظيماً و حمل إلى السلطان من الهدايا و التحف و لوزيره أشياء جليلة المقدار. و في سنة خمسمائة سار الجاولي سقاوو إلى الموصل محارباً في ألف فارس و خرج إليه جكرميش صاحبها في ألفي فارس. فلما اصطفوا للحرب حمل الجاولي من القلب على قلب جكرميش فانهزم من فيه و بقي جكرميش وحده لا يقدر على الهزيمة لفالجٍ كان به فهو لا يقدر يركب و إنما يحمل في محفةٍ فأسر و أحضر عند الجاولي فأمر بحفظه و حراسته. و لما وصل الخبر إلى الموصل اقعدوا في الأمر زنكي بن جكرميش. ثم إن الجاولي حصر الموصل و أمر أن يحمل جكرميش كل يومٍ على بغلٍ و ينادى أصحابه بالموصل ليسلموا البلد و يخلصوا صاحبهم مما هو فيه و يأمرهم هو بذلك فلا يسمعون منه و كان يسجنه في جبٍ فأخرج يوماً ميتاً. فكتب أصحابه إلى الملك قلج أرسلان بن سليمان بن قتلميش السلجوقي صاحب مدينة قونية و أقسرة يستدعونه إليهم ليسلموا البلد إليه. فسار في عساكره. فلما سمع جاولي بوصوله رحل عن الموصل فتوجه قلج أرسلان إلى الموصل و ملكها و نزل بالنغرقة و خرج إليه زنكي و لد جكرميش و أصحابه و خلع عليهم و جلس على التخت و أسقط خطبة السلطان محمد و خطب لنفسه و أحسن إلى العسكر و رفع الرسوم المحدثة في الظلم ثم سار عنها إلى جاولي و هو بالرحبة و التقيا على نهر الخابور فهزم أصحاب جاولي أصحاب قلج أرسلان و ألقى قلج أرسلان نفسه في الخابور و حمى نفسه من أصحاب جاولي بالنشاب فانحدر به الفرس إلى ماءٍ عميقٍ فغرق. و ظهر بعد أيام فدفن بالشمسانية. و سار جاولي إلى الموصل و ملكها. و في سنة اثنتين و خمسمائة استولى مودود و عسكر السلطان محمد على الموصل و أخذوها من أصحاب جاولي. و في سنة ثلاث و خمسمائة سار تنكري الفرنجي صاحب إنطاكية إلى الثغور الشامية فملك طرسوس و أذنة و نزل على حصن الأكراد فسلمه أهله إليه. و ملك الفرنج مدينة بيروت و كانت بيد نواب الخليفة العلوي. و في سنة ستٍ في المحرم سار

الأمير مودود صاحب الموصل إلى الرها فنزل عليها و رعى عسكره زروعها و رحل عنها إلى سروج و فعل بها كذلك و لم يحترز من الفرنج بل أهملهم فلم يشعر إلا و جوسلين صاحب تل باشر قد دهمهم و كبسهم و كانت دواب العسكر منتشرةً في المرعى فأخذ كثيراً منها و قتل كثيراً من العسكر و عاد إلى تل باشر. و فيها مات باسيل الأرمني صاحب دروب بلاد

ابن لاون و هو المسمى كوع باسيل أي اللص باسيل لأنه سرق عدة قلاعٍ من الثغور فتملكها الأرمن إلى الآن. و في سنة سبعٍ و خمسمائة اجتمع المسلمون و فيهم الأمير مودود بن التون تكش صاحب الموصل و دخلوا بلاد الفرنج و التقوا عند طبرية و اشتد القتال و صبر الفريقان. ثم إن الفرنج انهزموا فأذن الأمير مودود للعساكر في العود و الاستراحة ثم الاجتماع في الربيع. و دخل دمشق ليقيم بها عند طغدكين صاحبها إلى الربيع فدخل الجامع ليصلي فيه فوثب عليه باطني كأنه يدعو له و يتصدق منه فضربه بسكين فجرحه أربع جراحات فمات من يومه. و قتل الباطني و أخذ رأسه فلم يعرفه أحد فأحرق. و في سنة إحدى عشرة في ذي الحجة مرض السلطان محمد بن ملكشاه ابن الب أرسلان فلما آيس من نفسه أحضر ولده محموداً و قبله و بكى كل واحدٍ منهما و أمره أن يخرج و يجلس على تخت السلطنة و عمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة. فقال لوالده أنه يومٌ غير مبارك يعني من طريق النجوم. فقال: صدقت و لكن على أبيك و أما عليك فمبارك بالسلطنة. فخرج و جلس على التخت بالتاج و السوارين. و كان السلطان محمد عظيم الهيبة عادلاً حسن السيرة شجاعاً و في سنة اثنتي عشرة و خمسمائة سادس عشر ربيع الآخر توفي الإمام المستظهر بالله و كان عمره إحدى و أربعين سنة و ستة أشهر و خلافته أربعاً و عشرين سنة. و مضى في أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن الب أرسلان و السلطان بركيارق و السلطان محمد ابنا ملكشاه.

قال أبو الصلت أمية المغربي: لما دخلت إلى مصر في حدود سنة عشر و خمسمائة أدركت بها طبيباً إنطاكياً يسمى جرجيس و يلقب بالفيلسوف على نحو ما قيل للغراب أبو البيضاء و للديغ سليم. و قد تفرغ للتولع بأبي الخير سلامة بن رحمون اليهودي الطبيب المصري و الإزراء عليه و كان يزور فصولاً طبيةً و فلسفيةً يبرزها في معارض ألفاظ القوم و هي محال لا معنى لها فارغة لا فائدة فيها ثم ينفذها إلى من يسأله عن معانيها و يستوضحه أغراضها فيتكلم عليها و يشرحها بزعمه دون تيقظٍ و لا تحفظٍ باسترسالٍ و استعجالٍ و قلة اكتراثٍ و إهمالٍ فيوجد فيها عنه ما يضحك منه. "قال" و أنشدت لجرجيس هذا في أبي الخير سلامة بن رحمون و هو من أحسن ما سمعت في هجو طبيبٍ مشؤوم:

إن أبا الخير على جهله ... يخف في كفته الفاضلُ

عليله المسكين من شؤمه في بحر هلكٍ ما له ساحلُ
ثلاثةٌ تدخل في دفعةٍ طلعته و النعش و الغاسلُ

"قال" و كان أبو الخير هذا يهودياً مصرياً قد نصب نفسه لتدريس كتب المنطق جميعها و جميع كتب الفلسفة الطبيعية و الإلهية و شرح بزعمه و فسر و لخص و لم يكن في تحصيله و تحقيقه هنالك بل كان يكثر كلامه فيضل. و يسرع جوابه فيزل. و كان مثله في عظيم ادعائه و قصوره عن أيسر ما هو متعاطيه كقول الشاعر:

يشمر للج عن ساقه و يغمره الموج في الساحلِ

"قال" و رأيت بمصر أيضاً رزق الله المنجم المعروف بالنخاس و كان شيخ أكثر المنجمين بمصر و كبيرهم و كان شيخاً مطبوعاً متطابياً. و من حكاياته الظريفة عن نفسه قال: سألتني امرأةٌ مصريةٌ أن أنظر لها في مشكلةٍ تخصها. فأخذت ارتفاع الشمس للوقت و حققت درجة الطالع و البيوت الاثني عشر و مراكز الكواكب و رسمت ذلك كله بين يدي في تخت الحساب و جعلت أتكلم على بيتٍ بيتٍ منها على العادة و هي ساكتة فوجمت لذلك و أدركتني فترة و كانت قد ألقت إلي درهماً. "قال" فعاودت الكلام و قلت: أرى عليك قطعاً في بيت المال فاتفظي و احترسي. قالت: الآن أصبت و صدقت قد كان و الله ما ذكرت. قلت: و هل ضاع لك شيءٌ. قالت: نعم الدرهم الذي ألقيت إليك. و تركتني و انصرفت. و لما ذكر أبو الصلت منجمي مصر و عابهم قال: لا تتعلق أمثلتهم من علم النجوم بأكثر من زايجةٍ يرسمها و مراكز يقومها و أما التبحر و معرفة الأسباب و العلل و المبادي الأول فليس منهم من يرقى إلى هذه الدرجة و يسمو إلى هذه المنزلة و يحلق في هذا الجو و يستضيء بهذا الضوء ما خلا القاضي أبا الحسن علي ابن النصير المعروف بالأديب فإنه كان من الأفاضل الأعيان المعدودين من حسنات الزمان و له في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى و المرتبة الأولى.

"المسترشد بن المستظهر" لما توفي المستظهر بالله بويع ولده المسترشد بالله أبو منصور و ذلك في سنة اثنتي عشرة و خمسمائة فكان ولي عهدٍ قد خطب له ثلاثاً و عشرين سنة. و فيها توفي بغدوين ملك القدس و كان قد سار إلى ديار مصر في جمعٍ من الفرنج قاصداً ملكها و بلغ مقابل تنيس و سبح في النيل فانتقض جرحٌ كان به فلما أحس بالموت عاد إلى القدس فمات به و وصى ببلاده للقمص صاحب الرها و هو الذي كان أسره جكرميش و أطلقه سقاوو جاولي. و في سنة ثلاث عشرة و خمسمائة كانت حربٌ

شديدةٌ بين السلطان سنجر و ابن أخيه السلطان محمود. و في سنة أربع عشرة خرج الكرج و الخزر إلى بلاد الإسلام و معهم قفجاق و غيرهم من الأمم فاجتمع الأمير ايلغازي و دبيس بن صدقة و الملك طغرل و كان له أران و نخجوان و ساروا إلى الكرج حتى قاربوا تفليس و كان المسلمون في عسكرٍ كثيرٍ يبلغون ثلاثين ألفاً فالتقوا و اصطف الطائفتان للقتال فخرج من القفجاق مائتا رجل فظن المسلمون أنهم مستأمنون فلم يحترزوا منهم. فدخلوا بينهم و رموا بالنشاب فاضطرب جيش المسلمين و ظن من وراءهم أنها هزيمةٌ فانهزموا و لشدة الزحام صدم بعضهم بعضاً فقتل منهم عالم عظيم و تبعهم الكرج عشرة فراسخ يقتلون و يأسرون فقتل أكثرهم و أسر أربعة آلاف رجل و نجا الملك طغرل و ايلغازي و دبيس. و عاد الكرج و حاصروا مدينة تفليس و اشتد قتالهم لمن بها و عظم الأمر و تفاقم الخطب على أهلها و دام الحصار إلى سنة خمس عشرة فملكوها عنوةً. و في سنة خمس عشرة عصى سليمان بن ايلغازي بن ارتق على أبيه بحلب و قد جاوز عمره عشرين سنة. فسمع والده الخبر فسار إليه مجداً لوقته فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه فخرج إليه معتذراً فأمسك عنه و قبض على من كان أشار عليه بذلك منهم أميرٌ كان التقطه ارتق و رباه اسمه ناصر فقلع عينيه و قطع لسانه. و منهم إنسانٌ حموي كان قدمه ايلغازي على أهل حلب و جعل إليه الرئاسة فجازاه عن ذلك فقطع يديه و رجليه و سمل عينيه فمات. و أحضر ولده و هو سكران و أراد قتله فمنعه رقة الوالد فاستبقاه فهرب إلى دمشق. و استناب ايلغازي بحلب سليمات بن أخيه عبد الجبار بن ارتق و لقبه بدر الدولة و عاد إلى ماردين. و فيها أقطع السلطان مدينة ميافارقين للأمير ايلغازي ابن ارتق و مدينة الموصل و الجزيرة و سنجار للأمير اقسنقر الرسقي. و في سنة ست عشرة في شهر رمضان توفي الأمير ايلغازي بن ارتق بميافارقين و ملك ابنه حسام الدين تمرتاش قلعة ماردين و ملك ابنه سليمان ميافارقين. و كان بحلب ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق فبقي بها إلى أن أخذها منه ابن عمه. و في سنة سبع عشرة لما رأى بلك بن بهرام بن ارتق ضعف بدر الدولة سليمان ابن عمه عن حوط بلاده من الفرنج سار إليه إلى حلب و ضيق على من بها فتسلمها بالأمان. و في سنة ثماني عشرة سار بلك بن بهرام إلى منبج و ملكها و حصر القلعة فبينما هو يقاتل من بها أتاه سهمٌ فقتله و اضطرب عسكره و تفرقوا و ملك اقسنقر البرسقي حلب و قلعتها و ملك الفرنج مدينة صور. و في سنة عشرين و خمسمائة في ذي القعدة قتل قسيم الدولة اقسنقر البرسقي صاحب الموصل بمدينة الموصل قتله الباطنية يوم الجمعة بالجامع و ملك ابنه عز الدين مسعود الموصل و لم يختلف عليه أحد. قال المؤرخ: و من العجب أن صاحب إنطاكية أرسل إلى عز الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر و كان قد سمعه الفرنج قبل لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية. و في سنة إحدى و عشرين تولى أتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر شحنكية بغداد أسندها إليه السلطان محمود. و فيها توفي

عز الدين مسعود بن اقسنقر و تولى أخوه عماد الدين زنكي الموصل و أعمالها. و في سنة اثنتين و عشرين ملك عماد الدين زنكي بن اقسنقر مدينة حلب و قلعتها و بعد سنة ملك مدينة حماة. و في سنة أربع و عشرين و خمسمائة ثاني ذي القعدة قتل الآمر بأحكام الله أبو علي بن المستعلي العلوي صاحب مصر خرج إلى منتزهٍ له فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه و لم يكن له ولد فولي بعده ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم ابن المستنصر العلوي صاحب مصر و لقب الحافظ لدين الله و لم يبايع له بالخلافة و إنما بويع له لينظر في الأمر نيابةً حتى يكشف عن حمل إن كان للآمر فتكون له الخلافة فيه و يكون هو نائباً عنه. و فيها ظهر ببغداد عقارب طيارة ذوات شوكتين فنال الناس منها خوف شديد و أذى عظيم. و في سنة خمس و عشرين في شوال توفي السلطان محمودابن السلطان محمد بهمذان و كان عمره نحو سبع و عشرين سنة و ولايته ثلاث عشرة سنة و كان حليماً كريماً عاقلاً يسمع ما يكره و لا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافاً لأصحابه عن التطرق إلى شيءٍ منها. و ملك ابنه داود بعده. و في سنة ستٍ و عشرين كاتب السلطان سنجر عماد الدين زنكي و دبيس بن صدقة و أمرهما بقصد العراق فسارا و نزلا بالمنارية من دجيل و عبر الخليفة المسترشد إلى الجانب الغربي فنزل بالعباسية و التقى العسكران بحضرا البرامكة فابتدأ زنكي فحمل على ميمنة الخليفة و بها جمال الدولة إقبال فانهزموا منه. و حمل نصر الخادم من ميسرة الخليفة على ميمنة عماد الدين و دبيس و حمل الخليفة بنفسه و اشتد القتال فانهزم دبيس و عماد الدين و قتل من عسكرهما جماعة و أسر جماعة. و في سنة سبعٍ و عشرين أرسل المسترشد الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرايني الواعظ إلى عماد الدين زنكي برسالةٍ فيها خشونة و زادها أبو الفتوح زيادةً في الجبه ثقةً بقوة الخليفة و ناموس الخلافة. فقبض عليه زنكي و أهانه و لقيه بما يكره. فسمع الخليفة فسار عن بغداد في ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها أتابك زنكي في بعض عسكره و ترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين و نازلها الخليفة في رمضان و قاتلها و ضيق عليها. فتواطأ جماعة من الجصاصين بالموصل على تسليم البلد فسعي بهم فصلبوا. و بقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر و لم يظفر منها بشيء و لا بلغه عمن بها وهن و لا قلة ميرة و قوت فرحل عنها عائداً إلى بغداد. و في سنة ثمانٍ و عشرين تقرر الصلح بين الخليفة المسترشد و أتابك زنكي. و في سنة تسع و عشرين و خمسمائة سار الخليفة المسترشد إلى حرب السلطان مسعود و معه جماعة من أمراء الأكابر فواقعهم السلطان مسعود عاشر رمضان فانحازت ميسرة الخليفة مخامرةً عليه إلى السلطان و اقتتلت ميمنته و ميسرة السلطان قتالاً ضعيفاً و دار به عسكر السلطان و هو ثابت لم يتغير من مكانه و انهزم عسكره و أخذ أسيراً فأنزله السلطان مسعود في خيمة و وكل به من يحفظه و قام بما يجب من الخدمة و ترددت الرسل بينهما بالصلح و تقرير القواعد على مالٍ يؤديه الخليفة و أن لا يعود

يجمع العساكر و لا يخرج من داره و أجاب السلطان إلى ذلك و أركب الخليفة و حمل الغاشية بين يديه و لم يبق إلا أن يعود إلى بغداد فوصل الخبر بقدوم رسولٍ من السلطان سنجر و خرج الناس و السلطان مسعود إلى لقائه و فارق الخليفة بعض من كان موكلاً به و كانت خيمته منفردةً عن العسكر فقصده أربعةٌ و عشرون رجلاً من الباطنية و دخلوا عليه فقتلوه و جرحوه ما يزيد على عشرين جراحةٍ و مثلوا به و جدعوا أنفه و أذنيه و تركوه عرياناً و كان قتله يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة و بقي حتى دفنه أهل مراغة و كان عمره لما قتل ثلاثاً و أربعين سنة و خلافته سبع عشرة سنة و سبعة أشهر.

"الراشد بن المسترشد" لما قتل المسترشد بويع ولده أبو جعفر المنصور و لقب الراشد بالله. و كان المسترشد بايع له بولاية العهد في حياته و جددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين سلخ ذي القعدة سنة تسع و عشرين و خمسمائة. و فيها قتل دبيس بن صدقة صاحب الحلة على باب سرادقه بظاهر خونج أمر السلطان غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه و هو ينكت الأرض بإصبعه فضرب رقبته و هو لا يدري. و مثل هذه الحادثة تقع كثيراً و هو قرب موت المتعادين فإن دبيساً كان يعادي المسترشد و يكره خلافته و لم يكن يعلم أن السلاطين إنما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدةً لمقاومة المسترشد فلما زال السبب زال المسبب. و في سنة ثلاثين و خمسمائة اجتمع الملوك و أصحاب الأطراف ببغداد و خرجوا عن طاعة السلطان مسعود و سار الملك داود بن السلطان محمود في عسكر أذربيجان إلى بغداد و وصل أتابك عماد الدين زنكي بعده من الموصل و خطب للملك داود ببغداد. فلما بلغ السلطان الخبر جمع العساكر و سار إلى بغداد و حصرها نيفاً و خمسين يوماً فلم يظفر بهم فعزم على العود إلى همذان فوصله طرنطاي صاحب واسط و معه سفن كثيرة فعاد إليها فاختلفت كلمة الأمراء المجتمعين ببغداد فعاد الملك داود إلى بلاده و تفرق الأمراء و كان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الخليفة الراشد و سار معه إلى الموصل في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه و دخل السلطان مسعود إلى بغداد و استقر بها و جمع القضاة و الشهود و الفقهاء و عرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد له و فيها بخط يده: إنني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان مسعود بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر. فأفتوا و خلع و قطعت خطبته من بغداد و سائر البلاد و كانت خلافته أحد عشر شهراً و ثمانية عشر يوماً.
و في سنة ثلاثين و خمسمائة كان أبو علي المهندس المصري موجوداً بمصر قيماً بعلم الهندسة و كان فاضلاً فيه و في الأدب و له شعرٌ يلوح عليه الهندسة فمن شعره:

تقسم قلبي في محبة معشرٍ بكل فتى منهم هواي منوطُ
كأن فؤادي مركزٌ و همُ لهُ محيطٌ و أهواي لديه خطوطُ

و له أيضاً:

إقليذس العلم الذي هو يحتوي ما في السماء معاً و في الآفاقِ
هو سلمٌ و كأنما أشكاله درجٌ إلى العلياء للطراقِ
تزكو فوائده على إنفاقه يا حبذا زاكٍ على الإنفاقِ
ترقى به النفس الشريفة مرتقىً أكرم بذاك المرتقى و الراقي

"المقتفي بن المستظهر" لما قطعت خطبة الراشد بالله تقدم السلطان مسعود بعمل محضر يذكر فيه ما ارتكبه الراشد من أخذ الأموال و أشياء تقدح في الإمامة ثم كتبوا فتوى: ما تقول العلماء في من هذه صفته هل يصلح للإمامة أم لا. فأفتوا أن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. فاستشار السلطان جماعةً من أعيان بغداد فيمن يصلح أن يلي الخلافة فذكر الوزير محمد بن المستظهر و دينه و عقله و لين جانبه و عفته فأحضر المذكور و أجلس في الميمنة و دخل السلطان و الوزير و تحالفا و قرر الوزير القواعد بينهما و خرج السلطان من عنده و حضر الأمراء و القضاة و الفقهاء و بايعوه ثاني عشر ذي الحجة سنة ثلاثين و خمسمائة و لقب المقتفي لأمر الله.

و في سنة إحدى و ثلاثين فارق الراشد المخلوع أتابك زنكي من الموصل و سار إلى همذان و بها الملك داود. و فيها رحل إلى أصفهان. فلما كان آخر رمضان وثب عليه نفرٌ من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه و هو يريد القيلولة و كان في أعقاب مرضٍ قد برأ منه و دفن بظاهر أصفهان بشهرستان و كان عمره أربعين سنة. و في سنة اثنتين و ثلاثين وصل أتابك زنكي إلى حماة و أرسل إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أمه ليتزوجها و اسمها زمرد خاتون ابنة جاولي و هي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق على نهر بردى. فتزوجها و تسلم حمص مع قلعتها و إنما حمله على التزوج بها ما رآه من تحكمها في دمشق فظن أنه يملك البلد بالاتصال إليها فلما تزوجها خاب أمله و لم يحصل على شيء فأعرض عنها. و فيها ملك حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين قلعة الهتاخ أخذها من بعض بني مروان و هو آخر من بقي منهم له ولاية. و في سنة ثلاث و ثلاثين ملك أتابك زنكي بن اقسنقر بعلبك. و في سنة أربع ملك زنكي شهرزور و أعمالها. و في سنة سبعٍ و ثلاثين و خمسمائة توفي محمد بن دانشمند صاحب ملطية و الثغر و استولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية و هو

من السلجوقية.

و في سنة تسعٍ و ثلاثين فتح أتابك عماد الدين زنكي مدينة الرها من الفرنج و حاصر قلعة البيرة و هي للفرنج بعد ملك الره و هي من أمنع الحصون و ضيق عليها و قارب أن يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فسار عنها. فخاف من بالبيرة من الفرنج أن يعود إليها فأرسلوا إلى نجم الدين صاحب ماردين و سلموها إليه فملكها المسلمون.

و في سنة أربعين و خمسمائة لخمسٍ مضين من ربيع الآخر قتل أتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل و الشام و هو يحاصر قلعة جعبر قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلةً و هربوا إلى قلعة جعبر. فصاح من بها من أهلها إلى العسكر يعلمونهم بقتله فأظهروا الفرح. فدخل أصحابه إليه فأدركوه و به رمق و فاضت نفسه لوقته و كان قد زاد عمره على ستين سنة قد وخطه الشيب و كان شديد الهيبة على عسكره و رعيته عظيم السياسة و كانت الموصل قبل أن يملكها أكثرها خراب بحيث يقف الإنسان قريب محلة الطبالين و يرى الجامع العتيق و العرصة و دار السلطان ليس بين ذلك عمارة. و كان الإنسان لا يقدر على المشي في الجامع العتيق إلا و معه من يحميه و هو الآن في وسط العمارة. و كانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهةً فصارت في أيامه و ما بعدها من أكثر البلاد فواكه و رياحين. و لما قتل أتابك زنكي أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده و كان حاضراً معه و سار إلى حلب و ملكها. و كان سيف الدين غازي أخوه بمدينة شهرزور و هي إقطاعه فأرسل إليه زين الدين علي كوجك نائب أبيه عماد الدين زنكي بالموصل يستدعيه إلى الموصل فحضر و استقر ملك سيف الدين على البلاد و بقي أخوه نور الدين بحلب و هي له.

و في سنة أربعٍ و أربعين و خمسمائة توفي سيف الدين غازي بن أتابك زنكي صاحب الموصل بها من مرضٍ حاد. فلما اشتد مرضه أرسل إلى بغداد و استدعى أوحد الزمان أبا البركات فحضر عنده و رأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجع الدواء و توفي آخر جمادى الآخرة و كانت ولايته ثلاث سنين. و ولي أمر الموصل و الجزيرة بعده أخوه قطب الدين مودود. و كان أخوه الأكبر نور الدين محمود بالشام و له حلب و حماة فسار إلى سنجار و ملكها و لم يحاققه أخوه قطب الدين ثم اصطلحا و أعاد نور الدين سنجار إلى قطب الدين و تسلم هو مدينة حمص و الرحبة فبقي الشام له و ديار الجزيرة لأخيه.

و فيها غزا نور الدين محمود بن زنكي بلد الإفرنج من ناحية إنطاكية فاجتمعت الفرنج مع البرنس فلقيهم نور الدين و اقتتلوا قتالاً عظيماً فانهزم الفرنج و قتل البرنس. و ملك بعده ابنه بيمند و هو طفل فتزوجت أمه ببرنس آخر ليدبر البلد إلى أن يكبر ابنها. و فيها توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد و ولي الخلافة بمصر

ابنه الظافر بأمر الله أبو المنصور اسمعيل. و في سنة ستٍ و أربعين جمع نور الدين محمود عسكره و سار إلى بلاد جوسلين الفرنجي و هي شمالي حلب. و كان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة و الرأي فسار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا و اقتتلوا و انهزم المسلمون و قتل منهم و أسر جمعٌ كثير و كان في جملتهم سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين و معه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية و اقصرا و قال له: هذا سلاح دار زوج ابنتك و سيأتيك بعده ما هو أعظم منه. فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه و أعمل الحيلة على جوسلين و هجر الراحة ليأخذ ثأره و أحضر جماعة من الأمراء التركمان و بذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين و سلموه إليه لأنه علم عجزه عنه في القتال. فجعل التركمان عليه العيون. فخرج متصيداً فظفر به طائفةٌ منهم و حملوه إلى نور الدين أسيراً. فسار نور الدين إلى قلاع جوسلين فملكها و هي عين تاب و عزاز و قورس و الروندان و برج الرصاص و دلوك و مرعش و نهر الجوز و غير ذلك من أعماله.

و في سنة سبعٍ و أربعين توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان و كان عهده إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود فخطب له الأمير خاصبك بالسلطنة و رتب الأمور و قررها بين يديه. ثم قبض عليه و أرسل إلى أخيه الملك محمد و هو بخوزستان يستدعيه و كان قصده أن يحضر عنده فيقبضه و يخطب لنفسه بالسلطنة. فسار إليه محمد فاجلسه على التخت و خطب له بالسلطنة. ثم شعر محمد بخبث خاصبك فثاني يوم وصوله لما دخل إليه قتله و معه زنكي الجاندار و ألقى رأسيهما و بقيا حتى أكلتهما الكلاب و استقر محمد في السلطنة. و فيها توفي حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين و ميافارقين و كانت ولايته نيفاً و ثلاثين سنة و ولي بعده ابنه نجم الدين البي.

و في سنة ثمان و أربعين و خمسمائة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان و كانت من جملة مملكة العلويين المصريين. و في سنة تسعٍ و أربعين في المحرم قتل الظافر بن الحافظ العلوي صاحب مصر و ولي ابنه الفائز بنصر الله ثاني يوم قتل أبوه و له من العمر خمس سنين فحمله الوزير عباس على كتفه و أجلسه على التخت سرير الملك. و فيها في صفر ملك نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر مدينة دمشق و أخذها من صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بوري بن طغدكين أتابك. و في سنة اثنتين و خمسين و خمسمائة في رجب كان بالشام زلازل كثيرة قوية خربت كثيراً من البلاد فخرب منها حمص و حماة و شيزر و كفرطاب و المعرة و حصن الأكراد و عرقة و اللاذقية و طرابلس و إنطاكية. و أما كثرة القتلى فيكفي فيها أن معلماً كان بمدينة حماة و ذكر أنه فارق المكتب لمهمٍ عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد و سقط المكتب على الصبيان جميعهم. "قال المعلم" فلم يأت أحدٌ يسأل عن صبيٍ كان له.

و فيها في ربيع الأول توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن الب أرسلان أصابه قولنج ثم بعده إسهال. و في

سنة أربعٍ و خمسين ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة و خرج القورج فوق بغداد فامتلأت الصحارى و خندق البلد و وقع بعض السور فغرق بعض القطيعة و باب الأزج و المأمونية و دب الماء تحت الأرض إلى أماكن فوقعت و أخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير و لم يكن يقدر عليها. ثم نقص الماء فكثر الخراب و بقيت المحال لا تعرف و إنما هي تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين. و فيها في ذي الحجة توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد ابن ملكشاه و ملك عمه سليمان شاه بن محمد. و في سنة خمسٍ و خمسين و خمسمائة ثاني ربيع الأول توفي الخليفة المقتفي لأمر الله و كانت خلافته أربعاً و عشرين سنة و عمره ستاً و ستين سنة.و هو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان و حكم على عسكره و أصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء و من عهد المستنصر إلى الآن.

كان في وسط المائة السادسة من الأطباء المشار إليهم في آفاق ثلاثة أفاضل معاً من ثلاث ملل كل منهم هبة الله اسماً و معنىً من النصارى و اليهود و المسلمين هبة الله ابن صاعد بن التلميذ و هبة الله بن ملكا أبو البركات أوحد الزمان و هبة الله بن الحسين الأصفهاني. أما التلميذ الطبيب النصراني البغدادي ففاضل زمانه و عالم أوانه خدم الخلفاء من بني العباس و تقدم في خدمتهم و ارتفعت مكانته لديهم و كان موفقاً في المباشرة و المعالجة عالماً بقوانين هذه الصناعة عمر طويلاً و عاش نبيلاً جليلاً و كان شيخاً بهي المنظر حسن الرواء عذب المجتنى و المجتبى لطيف الروح ظريف الشخص بعيد الهم عالي الهمة ذكي الخاطر مصيب الفكر حازم الرأي. و له في نظم الشعر كلماتٌ راقية رائقة شافية شائقة تعرب عن لطافة طبعه. و من شعره:

كانت بلهنية الشبيبة سكرةً فصحوت و استأنفت سيرة مجملِ
و قعدت أرتقب الفناء كراكبٍ عرف المحل فبات دون المنزلِ

و كان أبو الحسن بن التلميذ يحضر عند المقتفي كل أسبوعٍ مرةً فيجلسه لكبر سنه. و توفي في صفر سنة ستين و خمسمائة و قد قارب المائة و ذهنه بحاله. و سأله ابنه قبل أن يموت بساعة: ما تشتهي. قال: أن أشتهي. و أما هبة الله بن ملكا أبو البركات اليهودي في أكثر عمره المسلم في آخر أمره فكان طبيباً فاضلاً عالماً بعلوم الأوائل و كان حسن العبارة لطيف الإشارة صنف كتاباً سماه المعتبر أخلاه من النوع الرياضي و أتى فيه بالمنطق الطبيعي و الإلهي فجاءت عبارته فصيحة و مقاصده في ذلك الطريق صحيحة. و لما مرض أحد السلاطين السلجوقية استدعاه من بغداد فتوجه نحوه و لاطفه إلى أن برأ و أعطاه العطايا

الجمة من الأموال و المراكب و الملابس و التحف و عاد إلى العراق على غاية ما يكون من التجمل والغنى. و سمع أن ابن أفلح قد هجاه بقوله:

لنا طبيبٌ يهوديٌ حماقته ... إذا تكلم تبدو فيه من فيهِ

يتيه و الكلب أعلى منه منزلةً ... كأنه بعد لم يخرج من التيهِ

و لما سمع ذلك علم أنه لا يبجل بالنعمة التي أنعمت عليه إلا بالإسلام فقوي عزمه على ذلك. و تحقق أن له بناتٍ كباراً و أنهن لا يدخلن معه في الإسلام و أنه متى مات لا يرثنه فتضرع إلى الخليفة في الإنعام عليهن من مالٍ يخلفه و إن كن على دينهن فوقع له بذلك. و لما تحققه أظهر إسلامه و جلس للتعليم و المعالجة و لم يزل سعيداً إلى أن قلب له الدهر ظهر المجن. و وضع من شأنه بعد أن أسن. فأدركته إعلالٌ قصر عن معاناتها طبه. و استولت عليه الآلام مما لم يطق حملها جسمه و لا قلبه. و ذلك أنه عمي و طرش و جذم. فنعوذ بالله من استحالة الأحوال و ضيق المحال و سوء المآل. و لما أحس بالموت أوصى إلى من يتولاه أن يكتب على قبره ما مثاله: هذا قبر أوحد الزمان أبي البركات ذي العبر صاحب المعتبر. و في كبر أبي البركات أوحد الزمان فتواضع أمين الدولة بن التلميذ يقول البديع هبة الله الاصطرلابي.

أبو الحسن الطبيب و مقتفيه ... أبو البركات في طرفي نقيضِ

فذاك من التواضع في الثريا ... و هذا بالتكبر في الحضيضِ

و أما هبة الله بن الحسين بن علي الحكيم الطبيب الأصفهاني فكان من محاسن الدهر و أفاضل العصر و فيه قيل أن عند طبه لا يشترى بقراط بقيراط و لا يستقيم سقراط على الصراط و لحق حق ابن بطلان بالبطلان. و توفي سنة نيفٍ و ثلاثين و خمسمائة بسكتةٍ أصابته و دفن في سرداب داره و هو مسكت فلما فتح بابه بعد أشهرٍ لينقل وجد جالساً عند الدرجة و هو ميت. و له شعرٌ حلوٌ منه ما قاله يصف حماماً في دار صديقٍ له:

و دخلت جنتهُ و زرت جحيمهُ ... و شكرت رضواناً و رأفة مالكِ

و البشر في وجه الغلام نتيجةٌ ... لقد مات ضياء وجه المالكِ

و في الأيام المقتفية دخل أبو الحكم المغربي الأندلسي الحكيم المرسي العراق و هو مجهولٌ لا يُعرف و رأى في بعض تطوافه بأزقة بغداد رجلاً جالساً على باب دار يشعر بالرئاسة لسامنها و بين يديه شابٌ يقرأ عليه شيئاً من كتاب أوقليذس فقرب منهما أبو الحكم ليسمع فإذا المعلم يهذي ما لا يعلم فرد عليه خطأه و بين غلطه. و علم الشاب الحقيقة في الرد فاستوقف أبا الحكم إلى أن يعود و دخل الدار و خرج

يستدعي أبا الحكم دون المعلم فدخل إلى دار سرية فلقي والد الشاب و هو أحد أمراء الدولة فأحسن ملتقاه ثم سأله ملازمة ولده فأجاب. فاشتهر ذكر أبي الحكم فتطلبه الطلبة و ارتفع قدره. و كان كثير الهزل و المزاح. شديد المجون و الارتياح. ثم كره العراق و فارق على نية قصد المغرب. فلما حل بظاهر دمشق سير غلاماً له ليبتاع منها ما يأكلانه في يومهما و أصحبه نزراً يكفي رجلين. فعاد الغلام و معه شواءٌ و فاكهةٌ و حلواء و فقاع و ثلج. فنظر أبو الحكم إلى ما جاء به و قال عند استكثاره: أوجدت أحداً من معارفنا. فقال: لا و إنما ابتعت هذا بما كان معي و بقيت منه هذه البقية. فقال أبو الحكم: هذا بلدٌ لا يحل لذي عقلٍ أن يتعداه. و دخل و ارتاد متزلاً و سكنه و فتح دكان عطارٍ يبيع به العطر و يطب و أقام على ذلك إلى أن أتى أجله.

"المستنجد بن المقتفي" لما اشتد مرض المقتفي و كان ولي عهده ابنه يوسف و كانت للمقتفي حظيةٌ هي أم ولده أبي علي فأرادت الخلافة لابنها و أحضرت عدةً من الجواري و أعطتهن السكاكين و أمرتهن بقتل و لي العهد يوسف إذا دخل على والده. و كان ليوسف خصيٌ صغيرٌ يرسله كل وقتٍ يتعرف أخبار والده فرأى الجواري بأيديهن السكاكين فعاد إلى يوسف و أخبره فاستدعى أستاذ الدار و أخذه معه و جماعة من الفراشين و دخل الدار و قد لبس الدرع و أخذ بيده السيف. فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدةً منهن فجرحها و كذلك أخرى و صاح فدخل أستاذ الدار و معه الفراشون فهرب الجواري و أخذ أخاه أباه علي و أمه فسجنهما و أخذ الجواري و قتل منهن و غرق منهن. فلما توفي المقتفي جلس يوسف ابنه للبيعة فبويع له و لقب المستنجد بالله و خطب له في ربيع الأول سنة خمسٍ و خمسين و خمسمائة.

و في سنة ستٍ و خمسين في صفر توفي الفائز عيسى بن الظافر اسمعيل صاحب مصر و كانت خلافته ست سنين و ولي الأمر بعده بمصر عبد الله بن يوسف بن الحافظ و لقب العاضد لدين الله و هو آخر الخلفاء العلويين بالديار المصرية. و في سنة تسعٍ و خمسين و خمسمائة هرب شاور وزير العاضد صاحب مصر من ضرغام الذي نازعه في الوزارة إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين و مستجيراً به و طلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه و يكون له ثلث دخل البلاد. فتقدم نور الدين بتجهيز الجيوش و قدم عليه أسد الدين شيركوه فتجهز و ساروا جميعاً و شاور في صحبتهم و وصل أسد الدين و العساكر إلى مدينة بلبيس. فخرج إليهم أخو ضرغام بعسكر المصريين و لفيهم فانهزم. و خرج ضرغام من القاهرة فقتل و قتل أخوه أيضاً. و خلع على شاور و أعيد إلى الوزارة. و أقام أسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به شاور و عاد عما كان قرره لنور الدين و أرسل إلى الفرنج يستمدهم فسارعوا إلى تلبية دعوته و نصرته و تجهزوا و ساروا. فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين و قصد مدينة بلبيس و جعلها ظهراً يتحصن

به فحصره بها العساكر المصرية و الفرنج ثلاثة أشهر و هو يغاديهم القتال و يراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً. فراسل الفرنج أسد الدين في الصلح و العود إلى الشام فأجابهم إلى ذلك و صار إلى الشام.
و في سنة ثلاث و ستين و خمسمائة فارق زين الدين علي بن سبكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل و سار إلى إربل و كان هو الحاكم في الدولة و أكثر البلاد بيده. فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين مودود و بقي معه إربل حسبُ. و كان شجاعاً عادلاً حسن السيرة سليم القلب كثير العطاء للجند و غيرهم مدحه الحيص بيص بقصيدةٍ فلما أراد أن ينشده قال: أنا لا أعرف ما تقول و لكني أعلم أنك تريد شيئاً. و أمر له بخمسمائة دينار و فرس و خلعة سنية و ثياب مجموع ذلك ألف دينار و لم يزل بإربل إلى أن مات بها هذه السنة.

و في سنة أربع و ستين و خمسمائة ملك نور الدين قلعة جعبر. و ملك أسد الدين شيركوه مصر و قتل الوزير. و لما ثبت قدم أسد الدين و ظن أن لم يبق له منازع أتاه أجله فتوفي يوم السبت الثاني و العشرين من جمادى الآخرة و كانت ولايته شهرين. و أما ابتداء أمره فإنه كان هو و أخوه نجم الدين أيوب ابنا شاذي من بلد دوين و أصلهما من الأكراد الروادية فقدما العراق و خدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد. فرأى من نجم الدين أيوب عقلاً و رأياً و كان أكبر من شيركوه فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت. فسار إليها و معه أخوه شيركوه. ثم أن شيركوه قتل كاتباً نصرانياً بتكريت لملاحاةٍ جرت بينهما فأخرجهما بهروز من قلعة تكريت فسارا إلى زنكي. و لما ملك بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها فلما قتل زنكي و تسلم عسكر دمشق بعلبك صار هو أكبر الأمراء بدمشق و اتصل أخوه شيركوه بنور الدين فأقطعه حمص و الرحبة و جعله مقدم عسكره. فلما أراد أن يرسل العسكر إلى مصر لم ير هناك من يصلح لهذا الأمر العظيم و المقام الخطير غيره فأرسله فملكها.
و لما توفي أسد الدين شيركوه طلب جماعة من الأمراء النورية ولاية الوزارة للعاضد العلوي صاحب مصر فأرسل العاضد إلى صلاح الدين بن أيوب بن شاذي أحضره عنده و خلع عليه و ولاه الوزارة بعد عمه و لقبه الملك الناصر و كان اسمه يوسف. فكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له:ليس في الجماعة أضعف و لا أصغر سناً من يوسف فإذا ولي لا يرفع علينا رأساً مثل غيره. فثبت قدم صلاح الدين و مع هذا فهو نائب عن نور الدين و كان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار و يكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه و كان لا يفرده بكتاب بل يكتبه: الأمير الاسفهسلار صلاح الدين و كافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا و كذا. و استمال صلاح الدين قلوب الناس و بذل الأموال

فمالوا إليه و أحبوه و ضعف أمر العاضد. ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته و أهله فأرسلهم إليه و شرط عليهم طاعته.

و في سنة خمسٍ و ستين و خمسمائة في شوال مات قطب الدين مودود بن زنكي ابن اقسنقر صاحب الموصل. و لما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي ثم عدل عنه إلى ابنه الآخر و هو سيف الدين غازي و إنما فعل ذلك لأن القيم بأمور دولته كان خادماً له يقال له فخر الدين عبد المسيح و كان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عمه نور الدين و كان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق عبد المسيح و خاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي و هي والدة سيف الدين علي صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين. و رحل عماد الدين إلى عمه نور الدين مستنصراً به ليعينه على أخذ الملك لنفسه.

و في سنة ستٍ و ستين و خمسمائة تاسع ربيع الآخرتوفي الإمام المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي و كانت خلافته إحدى عشرة سنة و عمره ستاً و خمسين سنة. و كان من أحسن الخلفاء سيرةً مع الرعية عادلاً قبض على إنسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته و بذل عنه عشرةآلاف دينار. فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار و تحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه فأكف شره عن الناس. و لم يطلقه. و كان سبب موته أنه كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار و قطب الدين قايماز و صلبهما و كان قد اشتد مرضه. فاجتمع الطبيب بهما و أوقفهما على الخط. فقالا له: عد إليه و قل له: إنني أوصلت الخط إلى الوزير و فعل ذلك. ثم دخل المذكوران على المستنجد و معهما أصحابهما فحملوه و هو يستغيث إلى الحمام و ألقوه و أغلقوا الباب عليه و هو يصيح إلى أن مات.

"المستضيء بن المستنجد" و لما أظهروا موت المستنجد أحضر ابنه أبو محمد الحسن و بايعه أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه أي تاسع ربيع الآخر سنة ست و ستين و خمسمائة و بايعه الناس من الغد في التاج بيعةً عامةً و لقب المستضيء بأمر الله و أظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه و فرق أموالاً جليلة المقدار. و لما بلغ نور الدين محمود ابن زنكي وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل و ملك ولده سيف الدين غازي الموصل و تحكم فخر الدين عبد المسيح عليه أنف لذلك و سار بجريدةٍ في قلةٍ من العسكر و عبر الفرات عند قلعة جعبر و ملك الرقة و الخابور و نصيبين و حاصر سنجار و ملكها و سلمها إلى عماد الدين ابن أخيه و أتى مدينة بلد و عبر دجلة عندها مخاضةً إلى الجانب الشرقي و نزل على حصن نينوى. و من العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنةً كبيرةً فأرسل فخر الدين عبد المسيح إلى

نور الدين في تسليم البلد إليه على أن يقره بيد سيف الدين و يطلب لنفسه الأمان و لماله و أهله فأجيب إلى ذلك و شرط أن فخر الدين يأخذه معه إلى الشام و يعطيه إقطاعاً مرضية. فتسلم البلد و دخل القلعة و أمر بعمارة الجامع النوري و سلم الموصل إلى سيف الدين و سنجار لعماد الدين و عاد إلى الشام و استصحب معه فخر الدين عبد المسيح و كان مقامه بالموصل أربعة و عشرين يوماً. و في سنة سبعٍ و ستين و خمسمائة لما ثبت قدم صلاح الدين بمصر و ضعف أمر الخليفة العاضد بها و صار قصره يحكم فيه صلاح الدين و نائبه قراقوش و قو خصي من أعيان الأمراء الأسدية كلهم يرجعون إليه عزم على قطع خطبة العاضد و كان يخاف المصريين. و كان قد دخل إلى مصر رجلٌ أعمى يعرف بالأمير العالم فلما رأى ما هو فيه من الإحجام و أن واحداً لا يتجاسر يخطب للعباسيين قال: أنا أبتدئ بالخطبة للمستضيء. فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب و دعا للمستضيء فلم ينكر أحدٌ ذلك فقطع الخطباء كلهم بمصر خطبة العاضد و خطبوا للمستضيء و لم ينتطح فيها عنزان. وتوفي العاضد يوم عاشوراء و لم يعلموه بقطع خطبته.

و فيها عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم. فسار صاحبها خوالازم شاه أرسلان بن اقسز في عساكره إلى أموية ليقاتلهم و يصدهم فمرض فأقام بها و سير جيشه مع أميرٍ كبيرٍ فلقيهم فانهزم الخوارزميون و أسر مقدمهم و رجع به الخطا إلى ما وراء النهر. و عاد خوارزم شاه إلى خوارزم مريضاً و توفي بها و ملك بعده ابنه سلطان شاه محمود. و كان ابنه الأكبر علاء الدينتكش مقيماً في جند فقصد ملك الخطا و استمده علىأخيه فسير معه جيشاً كثيفاً مقدمهم فوما و ساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطان شاه منها و معه أمه و قصد خراسان و ملك تكش خوارزم. و في سنة تسعٍ و ستين و خمسمائة توفي نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الشام و ديار الجزيرة و مصر يوم الأربعاء حادي عشر شوال و لم يكن في سير الملوك أحسن من سيرته و لا أكثر تحرياً للعدل منه و كان لا يأكل و لا يلبس و لا يتصرف في الذي يخصه إلا من ملكٍ كان له قد اشترته من سهمه من الغنيمة. و لقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو العشرين ديناراً. فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا و جميع ما بيدي أنا فيه خازنٌ للمسلمين لا أخونهم فيه و لا أخوض نار جهنم لأجلكِ. و لما مات ملك بعده ابنه الملك الصالح اسمعيل و كان عمره إحدى عشرة سنة و أطاعته الناس بالشام و صلاح الدين بمصر و خطب له بها و ضرب السكة باسمه. و في سنة سبعين و خمسمائة لما ملك سيف الدين غازي الديار الجزرية خاف الأمراء الذين في دمشق و حلب لئلا يعبر إليهم سيف الدين فسيروا الملك الصالح و معه العساكر إلى حلب ليصد سيف الدين عن العبور إلى الشام. فلما خلت دمشق

عن السلطان و العساكر سار إليها صلاح الدين فملكها و ملك بعدها حمص و حماة و بعلبك و سار إلى حلب فحصرها. فركب الملك الصالح و هو صبي عمره اثنتا عشرة سنة و جمع أهل حلب و قال لهم: قد عرفتم إحسان أبي إليكم و محبته لكم و سيرته فيكم و أنا يتيمكم و قد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي و لا يراقب الله و لا الخلق. و قال من هذا كثيراً و بكى فأبكى الناس و اتفقوا على القتال دونه فكانوا يخرجون و يقاتلون صلاح الدين عند جبل جوشن و لا يقدر على القرب من البلد فرحل عنه. و فيها ملك البهلوان مدينة تبريز. و في سنة إحدى و سبعين ملك صلاح الدين قلعة عزاز و نازل حلب و بها الملك الصالح و قد أقام العامة في حفظ البلد المقام المرضي و ترددت الرسل بينهم في الصلح فوقعت الإجابة إليه من الجانبين و رحل صلاح الدين عن حلب بعد أن أعاد قلعة عزاز إلى الملك الصالح فإنه أخرج إلى صلاح الدين أختاً له صغيرةً طفلة. فأكرمها صلاح الدين و قال لها: ما تريدين. قالت: أريد قلعة عزاز. و كانوا قد علموها ذلك. فسلمها إليهم و رحل. و في سنة ثلاث و سبعين قتل عضد الدين وزير الخليفة المستضيء و وزر ظهير الدين المعروف بابن العطار و كان خيراً حسن السيرة كثير العطاء و تمكن تمكناً كثيراً.

و في سنة خمسٍ و سبعين و خمسمائة ثاني ذي القعدة توفي الإمام المستضيء بأمر الله و كانت خلافته نحو تسع سنين و عمره تسع و ثلاثون سنة و كان عادلاً حسن السيرة في الرعية قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو فعاش حميداً و مات سعيداً.

و كان في هذا الزمان من الحكماء المشهورين بالمشرق السموءل بن ايهوذا المغربي الأندلسي الحكيم اليهودي قدم هو و أبوه إلى المشرق و كان أبوه يشدو شيئاً من الحكمة و كان ولده السموءل قد قرأ فنون الحكمة و قام بالعلوم الرياضية و أحكم أصولها و فوائدها و نوادرها و له في ذلك مصنفات و صنف كتباً في الطب و ارتحل إلى أذربيجان وخدم بيت بهلوان و أمراء دولتهم و أقام بمدينة مراغة و أولد أولاداً هناك سلكوا طريقته في الطب ثم أسلم وصنف كتاباً في إظهار معايب اليهود و مواضع الدليل على تبديلهم التوراة و مات بالمراغة قريباً من سنة سبعين و خمسمائة. و كان في هذا الأوان أيضاً الرحبي الطبيب نزيل دمشق من أهل الرحبة أصله كان من الرحبة حسن المعالجة لطيف المباشرة نزه النفس يعاني التجارة و رزق بها مالاً جماً و أولاداً مرضيي الطريقة لهم اشتغال جيد في هذا الفن و كان كثير التنعم حسن المركب و الملبس و المأكل و المترل يلزم في أموره قوانين حفظ الصحة الموجودة. و قيل له: ما ثمرة هذا. قال: أن يعيش الإنسان العمر الطبيعي. فقيل له: أنت قد بلغت من السن ما لم يبق بينك و بين العمر الطبيعي إلا القليل فأي حاجةٍ إلى هذا التكلف. فقال: لأبقي ذلك القليل فوق الأرض و أستنشق

الهواء و أتجرع الماء و لا أكون تحت التراب بسوء التدبير. و لم يزل على حالته إلى أن أتاه أجله في أوائل سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة و خلف ثلاثة بنين اثنان منهم طبيبان فاضلان و سيأتي ذكرهما. قال الرحبي هذا: استدعاني نور الدين محمود في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء فدخلنا إليه و هو في بيتٍ صغير بقلعة دمشق و قد تمكنت منه الخوانيق و قارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته و كان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه. فلما دخلنا و رأينا ما به قلت له: كان ينبغي أن لا تؤخر احضارنا إلى أن يشتد بك المرض. الآن ينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضيء فله أثر في هذا المرض. و شرعنا في علاجه و أشرنا بالفصد فقال: ابن الستين لا يفتصد. و امتنع عنه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء.

"الناصر بن المستضيء": و لما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أبي العباس أحمد. فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب. و في سابع ذي القعدة سنة خمسٍ و سبعين و خمسمائة قبض على ابن العطار و وكل عليه في داره ثم نقل إلى التاج و قيد و طلبت ودائعه و أمواله ثم أخرج ميتاً على رأس حمالٍ سراً فغمز به بعض العامة فثار به العامة فألقوه عن رأس الحمال و كشفوا سوءته و شدوا في ذكره حبلاً و سحبوه في البلد و كانوا يضعون بيده مغرفةً و يقولون: و قع لنا يا مولانا. إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة. ثم خلص من أيديهم و دفن. هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم و كفه عن أموالهم و أراضهم. و في سنة ستٍ و سبعين ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل و ولي أخوه عز الدين الموصل و أعطى جزيرة ابن عمر و قلاعها لولده معز الدين سنجر شاه و أعطى قلعة شوش و بلد الحميدية لابنه الصغير ناصر الدين كبك و كان المدبر لدولة عز الدين مجاهد الدين قيماز و استقرت الأمور و لم يختلف اثنان.

و فيها توفي شمس الدولة تورانشاه بم أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية.و في سنة سبعٍ و سبعين في رجب توفي الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها و عمره نحو تسع عشرة سنة. فلما آيس من نفسه أحضر الأمراء و وصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي فتسلم حلب ثم سلمها لأخيه عماد الدين و أخذ عوضاً عنها مدينة سنجار. و في سنة ثماني و سبعين سير صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن فتملكها و تغلب عليها. و فيها عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية و ملك الرها و حران و الرقة و قرقيسياء و ماكسين و عربان و نصيبين و سار إلى الموصل و بها عز الدين صاحبها و نائبه مجاهد الدين قد جمعا بها العساكر الكثيرة من

فارسٍ و راجلٍ و أظهرا من السلاح و آلات الحصار ما حارت له الأبصار. فلما قرب صلاحالدين من البلد رأى ما هاله و ملأ صدره و صدور أصحابه و مع هذا نزل عليها و أنشب القتال. و خرج إليه يوماً بعض العامة فنال منه وأخذ لالكة من رجله فيها المسامير الكثيرة و رمى بها أميراً يقال له جاولي الأسدي و هو مقدم الأسدية و كبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك الماً شديداً و أخذ اللالكة و عاد عن القتال إلى صلاح الدين و قال له: قد قابلنا أهل الموصل بحماقاتٍ ما رأينا مثلها بعد. و ألقى اللالكة و حلف أنه لا يعود يقاتل عليها أنفةً حيث ضرب بها. فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً و لا يحصل على غير العناء و التعب سار عنها إلى سنجار و ملكها. و في سنة تسعٍ و سبعين ملك صلاح الدين مدينة آمد و سلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن و كان صلاح الدين قد نزل بحرزم و طمع أن يملك ماردين فلم ير لطمعه وجهاً فسار عنها إلى إلى آمد على طريق البارعية. و فيها سار صلاح الدين إلى حلب فنزل بجبل جوشن و أظهر أنه يريد يبني مساكن له و لأصحابه و عساكره. فمال عماد الدين زنكي إلى تسليم حلب و أخذ العوض عنها فتقرر الصلح على أن يسلم حلب إلى صلاح الدين و يأخذ عوضها سنجار و نصيبين و الخابور و الرقة و سروج. و جرت اليمين على ذلك فباعها بأوكس الأثمان أعطى حصناً مثل حلب و أخذ عوضها قرىً و مزارع فقبح الناس كلهم ما أتى.

و في سنة ثمانين و خمسمائة مات قطب الدين بن إيلغازي بن نجم الدين البي بن تمرتاش ابن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين و ملك بعده ابنه حسام الدين يولق أرسلان و هو طفل و كان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته بعد موته فرتب نظام الدين التقش مع ولده و قام بتربيته و تدبير مملكته و كان دياً خيراً فأحسن تربية الولد و تزوج أمه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبطٍ و هوجٍ كان فيه. و لم يزل الأمر على ذلك إلى أن مات الولد و له أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام في الملك و ليس له منه إلا الاسم و الحكم إلى النظام و إلى مملوكٍ له اسمه لؤلؤ فبقي كذلك إلى سنة إحدى و ستمائة. فمرض التقش النظام فأتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه قطب الدين بسكينٍ معه فقتله. ثم دخل إلى النظام فقتله أيضاً و خرج وحده ومعه غلامٌ له و ألقى الرأسين إلى الأجناد فأذعنوا له بالطاعة و استولى على قلعة ماردين و قلعة البارعية و الصور و حكم فيها و حزم في أفعاله.

و في سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة حصر صلاح الدين الموصل مرةً ثانيةً فسير أتابك عز الدين صاحبها والدته إليه و معها ابنة عمه نور الدين محمود و غيرهما من النساء و جماعة من أعيان الدولة يطلبون

المصالحة. و كل من عنده ظنوا أنهن إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك لا سيما و معهن ابنة مخدومه و ولي نعمته نور الدين. فلما وصلن غليه أنزلهن و اعتذر بأعذارٍ غير مقبولةٍ و أعادهن خائباتٍ. فبذل العامة غيظاً و حنقاً لرده النساء. فندم صلاح الدين على رد النساء و جاءته كتب القاضي الفاضل و غيره يقبحون فعله و ينكرونه. و كان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقي من العسكر و يعودون. فعزم صلاح الدين على قطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينوى ليعطش اهل الموصل فيملكها بغير قتال ثم علم أنه لا يمكن قطعه بالكلية و إن المدة تطول و التعب يكثر فأعرض عنه و رحل إلى ميافارقين لأنه سمع أن شاه أرمن صاحب خلاط توفي و لم يخلف ولداً و قد استولى على بلاده مملوكٌ اسمه بكتمر. فسير صلاح الدين في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه و مظفر الدين بن زين الدين و غيرهما فساروا إلى خلاط فنزلوا بطوانة. و سار صلاح الدين إلى ميافارقين و سار البهلوان بن ايلدكر صاحب أذربيجان فنزل قريباً من خلاط و ترددت رسل أهل بينهم و بين البهلوان و صلاح الدين. ثم أنهم أصلحوا أمرهم مع البهلوان و صاروا من حزبه و خطبوا له.

و في سنة اثنتين و ثمانين و خمسمائة توفي البهلوان محمد بن ايلدكر صاحب بلاد الجبل و الري و أصفهان و أذربيجان و أران و ملك بعده أخوه قزل أرسلان و اسمه عثمان. و في سنة ثلاث و ثمانين ملك صلاح الدين مدينة طبرية و قلعتها و سار عنها و نزل على عتكة. و لما صمم على الزحف إلى البلد خرج الأعيان من أهلها إليه يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك و أمنهم على نفوسهم و أموالهم و خيرهم بين الإقامة و الظعن فاختاروا الرحيل و ساروا منها متفرقين و حملوا ما أمكنهم من أموالهم و تركوا الباقي على حاله. و سلم صلاح الدين البلد إلى ولده الفضل و غنم المسلمون ما بقي مما لم يطق الفرنج حمله. و فيها ملك صلاح الدين قيسارية و حيفا و صفورية و الشقيف و الفولة. و يافا و تبنين و صيدا و بيروت و جبيل و عسقلان.

و لما فرغ صلاح الدين من أمر هذه الأماكن سار إلى بيت المقدس فلما نزل عليه المسلمون رأوا على سوره من الرجال ما هالهم و بقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأنه في غاية الحصانة و الامتناع فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب فنزلها و نصب تلك الليلة المنجنيقات و نصب الفرنج على سور البلد المنجنيقات و تقاتل الفريقان أشد قتال كل منهما يرى ذلك ديناً و حتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون و لا يمتنعون و يزجرون و لا يتزجرون. فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين و تحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك و تمكن النقابين من النقب أرسلوا باليان بن نيرزان

صاحب الرملة إلى صلاح الدين يطلب الأمان. فأبى السلطان و قال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة إحدى و تسعين و أربعمائة من القتل و السبي. فقال له باليان: ايها السلطان العظيم اعلم أننا في هذه المدينة في خلقٍ كثير و إنما يفترون عن القتال رجاء الأمان. فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أولادنا و نساءنا و نحرق أموالنا و لا نترككم تغنمون منا ديناراً و لا درهماً و لا تسبون و تأسرون رجلاً أو امرأة. فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة و المسجد الأقصى ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين و هم خمسة آلاف أسير و لا نترك لنا دابةً و لا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا و حينئذٍ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله و نموت أعزاء أو نظفر كرماء فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان و أن لا يحرجوا و يحملوا على كوب ما لا يدري عاقبة الأمر فيه عن أي شيءٍ ينجلي. فأجاب صلاح الدين حينئذٍ إلى بذل الأمان للفرنج و استقر أن يزن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني و الفقير و تزن المرأة خمسة دنانير و يزن الطفل من الذكور و الإناث دينارين فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا و إلا صار مملوكاً. فبذل باليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك و سلمت المدينة يوم الجمعة السابع و العشرين من رجب.

و لما فرغ صلاح الدين من أمر بيت المقدس سار إلى مدينة صور و قد خرج إليهاالمركيس و صار صاحبها و قد ساسها أحسن سياسة. فقسم صلاح الدين القتال على العسكر كل جمع لهم وقتٌ معلوم يقاتلون فيه بحيث يتصل القتال على أهل البلد على أن الموضع الذي يقاتلون فيه قريب المسافة تكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد تحفظه و عليه الخنادق التي قد وصلت إلى البحر فلا يكاد الطائر يطير عليها لأن المدينة كالكف في البحر و الساعد متصل بالبر و البحر في جانبي الساعد و القتال إنما هو في الساعد فلذلك لم يتمكن منها صلاح الدين و رحل عنها. و كان للمسلمين خمس قطعٍ من الشواني مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه و الدخول إليه فنازلتهم شواني الفرنج وقت السحر و ضايقتهم و أوقعت بهم فقتلوا من أرادوا و أخذوا الباقين بمراكبهم و أدخلوهم ميناء صور و المسلمون من البر ينظرون إليهم. و رمى جماعةٌ من المسلمين أنفسهم من الشواني فمنهم من سبح و نجا منهم من غرق. و في سنة أربع و ثمانين فتح صلاح الدين جبلة و اللاذقية و صهيون و شغر بكاس و دربساك و بغراس و الكرك و صفد. و هادن صلاح الدين البرنس بيموند صاحب إنطاكية و طرابلس ثمانية أشهر.

و في سنة سبع و ثمانين وصلت إمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج النازلين على عكة يحاصرونها. و كان أول من وصل منهم فيليب ملك افرنسيس و هو من أشرف ملوكهم نسباً و إن كان ملكه ليس بالكثير فقويت به نفوسهم أي الذين كانوا على عكة و لجوا في قتال المسلمين الذين فيها. و كان صلاح الدين

على شفرعم فكان يركب كل يوم و يقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال على مزاحفة البلد و كان فيه الأمير سيف الدين الهكاري المعروف بالمشطوب فلما رأى أن صلاح الدين لا يقدر لهم على نفعٍ و لا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الفرنج و قرر معهم تسليم البلد و خرج من فيه بأموالهم و بذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار و خمسمائة أسير من المعروفين و إعادة صليب الصلبوت و أربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك و أن تكون مدة تحصيل المال و الأسراء إلى شهرين. فلما حلفوا له سلم البلد إليهم فدخله الفرنج سلماً و احتاطوا على من فيه من المسلمين و على أموالهم و حبسوهم إلى حين ما يصل إليهم ما بذل لهم و راسلوا صلاح الدين في إرسال المال و الأسرى و الصليب حتى يطلقوا من عندهم. فشرعوا في جمع المال و كان هو لا مال له إنما يخرج ما يصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار أشار الأمراء بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على الإطلاق من أصحابه. فقال ملوك الفرنج: نحن لا نحلف إنما ترسل إلينا المائة الألف ديناراً التي حصلت و الأسارى و الصليب و نحن نطلق من نريد و نترك من نريد حتى يجيء باقي المال فنطلق الباقين منهم. فلم يجبهم السلطان إلى ذلك. فلما كان يوم الثلاثاء السابع و العشرون من رجب ركب الفرنج و خرجوا ظاهر البلد بالفارس و الراجل و ركب المسلمون إليهم و حملوا عليهم فانكشفوا عن موقفهم و إذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف و قتلوهم و استبقوا الأمراء و من كان له مال و قتلوا من سواهم من سوادهم و أصحابهم و من لا مالله. فلما رأى صلاح الدين ذلك رحل إلى ناحية عسقلان و أخربها. و في سنة ثمان و ثمانين رحل الفرنج نحو عسقلان و شرعوا في عمارتها. و فيها عقدت الهدنة بين صلاح الدين و الانكتار ملك الفرنج لمدة ثلاث سنين و ثمانية أشهر أولها يوم أول أيلول.

و فيها منتصف شعبان توفي السلطان قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ابن سليمان بن قتلميش بن سلجوق بمدينة قونية وكان ذا سياسةٍ حسنةٍ و هيبةٍ عظيمةٍ و عدلٍ وافرٍ و غزواتٍ كثيرةٍ إلى بلاد الروم. فلما كبرفرق بلاده على أولاده فاستضعفوه و لم يلتفتوا إليه و حجر عليه و لده قطب الدين. ثم أخذه و سار به إلى قيسارية ليأخذها من أخيه فحصرها مدةً فهرب منه والده و دخل إلى قيسارية. و لم يزل قلج أرسلان يتحول من ولدٍ إلى ولدٍ و كل منهم يتبرم به حتى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو فسار معه لإي عساكره إلى قونية فملكها و بها توفي قلج أرسلان و يقي ولده غياث الدين في قونية مالكاً لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين.

و في سنة تسعٍ و ثمانين و خمسمائة توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذيبدمشق و عمره سبع و خمسون سنة و كان حليماً كريماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب

أصحابه. و حكي أنه كان يوماً جالساً و عنده جماعةٌ فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزةٍ فأخطأته و وصلت إلى صلاح الدين فوقعت بالقرب منه. فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه هناك ليتغافل عنها. و طلب مرةً الماء فلم يحضر فعاود الطلب في مجلسٍ واحدٍ خمس مراتٍ فلم يحضر فقال: يا أصحابنا و الله قد قتلني العطش. و أما كرمه فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيءٍ يخرجه. ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينارٍ واحدٍ صوري و أربعين درهماً ناصرية. و لما توفي صلاح الدين ملك بعده ولده الأكبر الأفضل نور الدين دمشق و الساحل و البيت المقدس و بعلبك و صرخد و بصرى و بانياس و هونين و تبنين إلى الداروم. و كان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها. و كان ولده الملك الظاهر غازي بحلب فملكها و أعمالها مثل حارم و تل باشر و اعزاز و دربساك و منبج. و كان بحماة محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فأطاع الملك الظاهر. و كان بحمص شيركوه ابن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الأفضل. و كان الملك العادل أخو صلاح الدين بالكرك فسار إلى دمشق. فجهز الأفضل معه عسكراً و سار إلى بلاد الجزرية و هي له ليمنعها من عز الدين صاحب الموصل. و فيها أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط و كان بين قتله و موت صلاح الدين شهران. فإنه أسرف في إظهار الشماتة بموت صلاح الدين و فرح كثيراً فلم يمهله الله تعالى. و ملك بعده ظهير الدين هزار دیناري خلاط و هو أيضاً من مماليك شاه أرمن. و فيها سلخ شعبان توفي اتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل بالموصل و ملك بعده ابنه نور الدين أرسلان شاه. و كان عز الدين خيراً محسناً حليماً قليل المعاقبة حيياً كثير الحياء لم يكلم جليساً له إلا و هو مطرق و ما قال في شيءٍ سئله حباً و كرم طبع.

و في سنة إحدى و تسعين و خمسمائة كتبالفنش ملك الفرنج و مقر ملكه طليطلة إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كتاباً يقول فيه: إنك أمير المسلمين و لا يخفى عليك ما هم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل و إهمال الرعية و اشتمالهم على الراحات و أنا أسومهم الخسف و أخلي الديار و أسبي الذراري و أمثل بالكهول و أقتل الشبان و لا عذر لك في التخلف عن نصرتهم و أنت تعتقد أن الله فرض عليكم قتال عشرةٍ منا بواحدٍ منكم. و الآن نخفف عنكم فنحن نقاتل عدداً منكم بواحدٍ منا. ثم بلغني عنك أنك أخذت في الاحتفال و تمطل نفسك عاماً بعد عام تقدم رجلاً و تؤخر أخرى و لا أدري الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك. و أنا أقول ما فيه المصلحة أن تتوجه بجملة من عندك في الشواني و المراكب و أجوز إليك بجملتي و أبارزك في أعز الأماكن عندك فإن كانت لك فغنيمةٌ عظيمةٌ جاءت إليك و هدية مثلت بين يديك و إن كانت لي كانت يدي العليا عليك و استحققت ملك الملتين و التقدم على الفئتين. فلما قرأ يعقوب كتابه جمع العساكر و عبر المجاز إلى الأندلس و اقتتلوا قتالاً شديداً فكانت الدائرة أولاً

على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمةٍ و غنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً. فلا يفخرن ثروان بثروته و لا جبار بجبروته و من يفتخر فبالله تعالى فليفتخر كما جاء في الكتاب الإلهي. ثم إن الفنش عاد إلى بلاده و ركب بغلاً و أقسم أنه لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة و جرت لهم مع المسلمين وقائع كثرة إلى أن ملكوا الآن أكثر مدن الأندلس.

و في سنة اثنتين و تسعين سار الملك العزيز من مصر إلى دمشق و حصرها و أرسل إلى أخيه أن يفارق القلعة و يسلم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له و يسلم جميع أعمال دمشق. فخرج و تسلم العزيز القلعة و دخلها و اقام بها أياماً ثم سلمها إلى عمه الملك العادل و عاد إلى مصر فسار الأفضل إلى صرخد. و في سنة ثلاث و تسعين ملك العادل يافا من الفرنج و ملك الفرنج بيروت من المسلمين.

و في سنة أربع و تسعين توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب سنجار و نصيبين و الخابور و الرقة و ملك بعده ابنه قطب الدين محمد و ملك نور الدين مدينة نصيبين. و فيها قصد خوارزمشاه بخارا و كان قد ملكها الخطا فنازلها و حصرها و امتنع أهلها منه و قاتلوه مع الخطا لما رأوا من حسن سيرتهم معهم حتى أنهم أخذوا كلباً أعور و ألبسوه قباءً و قلنسوةً و قالوا: هذا خوارزمشاه. لأنه كان أعور. و طافوا به على السورُم ألقوه في منجنيق إلى العسكر و قالوا: هذا سلطانكم. فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزمشاه البلد بعد أيامٍ يسيرةٍ عنوةً و عفا عن أهله و أحسن إليهم.

و فيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين في شهر رمضان و كان صاحبها حسام الدين يولق أرسلان صبياً فسلم بعض أهلها الربض بمخامرة فنهب العسكر أهلها نهباً قبيحاً فلما تسلم العادل الربض تمكن من حصر القلعة و قطع الميرة عنها و بقي عليها إلى أن رحل عنها سنة خمسٍ و تسعين. و في سنة خمسٍ و تسعين في العشرين من المحرم توفي الملك العزيز صاحب مصر و أرسل الأمراء من مصر إلى الأفضل أخيه يدعونه إليهم ليملكوه لأنه كان محبوباً إلى الناس يريدونه فدخل إلى مصر و ملكها. و في سنة ستٍ و تسعين سار العادل فنزل على القاهرة و حصرها فأرسل الأفضل إليه في الصلح فتقرر أن يسلم الديار المصرية إلى ابن عمه و يأخذ العوض عنها ميافارقين و حاني و جبل جور و تحالفوا على ذلك. و خرج الأفضل من مصر و سار إلى صرخد و أرسل من يتسلم ميافارقين و حاني و جبل جور فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميافارقين و سلم ما عداها. فترددت الرسل في ذلك و العادل يزعم أن ابنه عصاه. فأمسك الأفضل عن المراسلة في ذلك لعلمه أن هذا فعله بأمر العادل. و فيها في شهر رمضان توفي خوارزمشاه تكش بن أرسلان و ولي ملك خوارزم بعده ابنه قطب الدين محمد و

لقب علاء الدين لقب أبيه. و في سنة سبعٍ و تسعين في شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان مدينة ملطية و كانت لأخيه معز الدين قيصر شاه فسار إليه و حصره أياماً و ملكها و سار منها إلى ارزن الروم و كانت لولد الملك محمد بن صلتق و هم بيتٌ قديمٌ قد ملكوا ارزن الروم. فلما قاربها ركن الدين خرج صاحبها إليه ثقةً به ليقرر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه و اعتقله عنده و أخذ البلد و هذا كان آخر أهل بيته الذين ملكوا. و فيها حصر الملك الظاهر و أخوه الملك الأفضل ابنا صلاح الدين مدينة دمشق و هي لعمهم الملك العدل و عادوا إلى تجديد الصلح على أن يكون للظاهر منبج و أفامية و كفر طاب و المعرة و يكون للأفضل سميساط و قلعة نجم وسروج و رأس عين و جملين. و سار الظاهر إلى حلب و الأفضل إلى سميساط و وصل العادل إلى دمشق. و في سنة تسعٍ و تسعين و خمسمائة في المحرم سير الملك العادل عسكراص مع ولده الملك الأشرف موسى إللا ماردين فحصروها و شحنوا على أعمالها و أقام الأشرف و لم يحصل له غرض. فدخل الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب في الصلح بينهم و أرسل إلى عمه العادل في ذلك فأجاب إليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة و خمسين ألف دينار فجاء صرف الدينار أحد عشر قيراطاً من أميري و يضرب اسمه على السكة و يكون عسكره في خدمته أي وقتٍ طلبه.

و فيها و هي سنة ألف و خمسمائة و أربع عشرة للإسكندر كان ابتداء دولة المغول و ذلك إن في هذا الزمان كان المستولي على قبائل الترك المشارقة أونك خان و هو المسمى ملك يوحنا من القبيلة التي يقال لها كريت و هي طائفةٌ تدين بدين النصرانية و كان رجل مؤيد من غير هذه القبيلة يقال له تموجين ملازماً لخدمة أونك خان من سن الطفولية إلى أن بلغ حد الرجولية و كان ذا بأس في قهر الأعداء فحسده الأقران و سعوا به إلى أونك خان و ما زالوا يغتابونه حتى اهمه بتغير النية و هم باعتقاله و القبض عليه. فانضم إليه غلامان من خدم أونك خان فألماه القضية و عينا له الليلة التي فيها يريد أونك كبسه و في الحال أمر تموجين أهله بإخلاء البيوت عن الرجال و تركها على حالها منصوبةًو كمن هو مع الرجال بالقرب من البيوت. و في وقت السحر لما هجم أونك و أصحابه على بيت تموجين لقيها خاليةً من الرجال و كر عليه تموجين و أصحابه من الكمين و أوقعوا بهم و ناوشوهم القتال و أثخنوا فيهم و هزموهم و حاربوهم مرتين حتى قتلوه و أبطاله و سبوا ذراريه. و في أثناء هذا الأمر ظهر بين المغول أميرٌ معتبر كان يسيح في الصحارى و الجبال في وسط الشتاء عرياناً حافياً و يغيب أياماً ثم يأتي و يقول: كلمني الله و قال لي أن الأرض بأسرها قد أعطيتها لتموجين و ولده و سميته جنكزخان فسماه جنكزخان تبت تنكري و كان يرجع إلى قوله و لا يعدل عن رأيه. و لما علا شأن جنكزخان أرسل الرسل إلى جميع

شعوب الترك فمن أطاعه و تبعه سعد و من خالفه خذل و أنعم على ذينك الغلامين و ذريتهم بأن جعلهم ترخانية و الترخان هو الحر الذي لا يكلف بشيء من الحقوق السلطانية و يكون ما يغنم من الغزوات له مطلقاً لا يأخذ منه نصيبٌ للملك و زاد لهؤلاء أن يدخلوا على الملوك بغير إذنٍ و لا يعاقبوا على ذنبٍ إلى تسعة ذنوب و كان لجنكز خان من الأولاد الذكور و الإناث جماعة و كانت الخاتون الكبيرة زوجته تسمى أويسونجين بيكي. و في رسم المغول اعتبار أبناء الأب الواحد بالشرف إنما يكون بالنسبة إلى الأمهات. و كان لهذه خاتون أربعة بنين ولاهم جنكزخان الأمور العظان في مملكته. الأول توشي ولي أمرالصيد و الطرد و هو أحب الأمور إليهم. و الثاني جغاتاي و لي أمر الحكومات و السياسة أي الناموس و القضاء. و الثالث أوكتاي و لي تدبير الممالك لغزارة عقله و إصابة رأيه. و الرابع تولي و لي أمر الجيوش و تجهيز الجنود و النظر في مصالح العساكر. و كان لجنكزخان أخ يقال له أوتكين فعين له و لكل واحدٍ من الأولاد بلاداً يقيمون بها. أما أوتكين فأقام بحدود الخطا. و توشي أقام بحدود قباليغ و خوارزم لإلى أقصى سقسين و بلغار. و جغاتاي بحدود بلاد الإيغور بالقرب من المايغ إلى سمر قند و بخارا. و أقام أوكتاي و هو ولي العهد بحدود إيميل و قوتاق و جوره تولي أيضاً في تلك النواحي و هي وسط مملكتهم كالمركز بالنسبة إلى الدائرة.

و في سنة ستمائة ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم. أقام الفرنج بظاهرها محاصرين للروم من شعبان إلى جمادى الأولى و كان بالمدينة كثيرٌ من الفرنج مقيمين نحو ثلاثين ألفاُ و لعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم و الفرنج الذين بظاهر البلد و وثبوا فيه و ألقوا النار فاحترق نحو ربع البلد. فاشتغل الروم بذلك ففتح الفرنج الأبواب و دخلوها و وضعوا السيف ثلاثة أيامٍ و قتلوا حتى الأساقفة و الرهبان و القسيسين الذين خرجوا إليهم من كنيسة إيبا سوفيا العظمى و بأيديهم الأناجيل و الصلبان يتوسلون بها ليبقوا عليهم. فلم يلتفتوا إليهم و قتلوهم أجمعين و نهبوا الكنيسة. و كان الفرنج ثلاثة ملوك ذوقيس البنادقة و في مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية و هو شيخ أعمى إذا ركب يقاد فرسه. و الثاني المركيس مقدم الافرنسيس. و الثالث كندافلند و هو أكثرهم عدداً. فلما استولوا اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فملكوه عليها و تكون لذوقس البنادقة الجزائر مثل اقريطش و رودس و غيرهما و يكون لمركيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل نيقية و لاذيق و فيلادلف و لم تدم له فإنها تغلب عليها بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكري.

و فيها في ذي القعدة توفي السلطان ركن الدين صاحب الروم و ملك ابنه قلج أرسلان و كان صغيراً. و كان غياث الدين كيخسرو أخو ركن الدين يومئذٍ بقلعة من قلاع القسطنطينية و لما سمع بموت أخيه سار

إلى قونية و قبض على الصبي و ملكها و جمع الله له البلاد جميعها و عظم شأنه و قوي أمره و كان ذلك في رجب سنة إحدى و ستمائة. و فيها أغارت الكرج على أذربيجان و أكثروا النهب و السبي ثم اغاروا على خلاط وارجيش فأوغلوا في البلاد حتى بلغوا ملازكرد و لم يخرج إليهم من المسلمين أحد يمنعهم فجاسوا خلال البلاد ينهبون و يأسرون. و في سنة ثلاث و ستمائة قبض عسكر خلاط على صاحبها محمد بن بكتمر و ملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان. و في سنة أربع و ستمائة ملك الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل مدينة خلاط. و لما سار عنها إلى ملاذكرد ليقرر قواعدها و ثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم و عصوا و نادوابشعار شاه أرمن و إن كان ميتاً يعنون بذلك رد الملك إلى أصحابه و مماليكه. فعاد إليهم الأوحد و قتل بها خلقاً كثيراً من أعيان أهلها فذل أهل خلاط و تفرقت كلمة الفتيان و كان الحكم إليهم و كفي الناس شرهم فإنهم كانوا يقيمون ملكاً و يقتلون آخر و السلطنة عندهم لا حكم لها و إنما الحكم لهم و إليهم. و في سنة ستٍ و ستمائة ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوببلد الخابور و مدينة نصيبين و حصر سنجار ثم عاد عنها.

و فيها استولى جنكزخان على بلاد قراخطا و كان أمير بلاد الايغور و هم طائفةٌ كثيرةٌ من الترك في طاعة ملك الخطا فلما صار الصيت لجنكزخان و شاع ذكره في البلاد أرسل إليه أمير الايغور و هو الذي يسمونه ايدي قوب أي صاحب الدولة يطلب الأمانلنفسه و رعيته و الدخول في زمرته. فأكرم جنكزخان رسله و تقدم بوصوله إليه. فبادر ايدي قوب إلى الحضور في خدمته من غير توقف. فأقبل عليه جنكزخان و أحسن قبوله و أعاده إلى بلاده مكرماً.

و في سنة سبعٍ و ستمائة أواخر رجب توفي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل و كانت مدة ملكه ثماني عشرة سنة و كان شهماً شجاعاً ذا سياسةٍ للرعايا شديداً على أصحابه أعاد ناموس البيت الأتابكي و جاهه و حرمته بعد أن كانت قد ذهبت. و لما حضره الموت رتب في الملك ولده الملك القاهر عز الدين مسعود و أمر أن يتولى تدبير مملكته و يقوم بحفظها و ينظر في مصالحها مملوكه بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله و سداد رأيه و حسن سياسته و كمال السيادة فيه. و أعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة العقر الحميدية و قلعة شوش و سيره إلى العقر.

و في سنة تسعٍ و ستمائة قصد ثلاثة نفر تجار من البخاريين ديار التاتار و معهم البضائع من الثياب المذهبة و الكرباس و غيرهما مما يليق بالمغول بما سمعوا أن للمتاع عندهم قيمة وافرة و أن الطرق قد أقام بها جنكزخان جماعة يسمونهم قراقجية أي مستحفظين يخفرون المترددين إليهم فقوي عزمهم على ذلك فساروا نحوهم. و لما وصلوا إلى نواحيهم وافاهم المستحفظون و وقفوا على ما معهم من السلع فرأوا

قماش واحدٍ منهم اسمه أحمد لائقاً للخازن فسيروه مع صاحبيه إليه. فعرض أحمد متاعه على الحجاب و طلب في ثمن كل ثوبٍ كان مشتراه عليه عشرة دنانير إلى عشرين ديناراً ثلاثة بواليش. فغضب لذلك جنكزخان و قال: هذا الغافل كأنه يظن أننا ما رأينا ثياباً قط و أمر الخازن فأراه من الأقمشة التي هداها إليه ملوك الخطا أشياء نفيسة و تقدم أن يكتب ما معه و أهبه لمن حضر من الحاشية و اعتقل أحمد. و طلب صاحبيه فعرضا عليه متاعهما برمته و قالا: هذا كله إنما أتينا به لنقدمه خدمةً للخان لا لنبيعه عليه. فألحوا عليهما أن يثمناه فلم يفعلا. فأمر جنكزخان أن يعطيا لكل ثوبٍ مذهبٍ باليش من ذهب و لكل كرباسين باليش من فضةٍ و عوض لأحمد أيضاً مثل ما أعطاهما و تقدم إلى الأولاد و الخواتين و الأمراء أن ينفذوا معهم جماعةً من أصحابهم و معهم بواليش الذهب و الفضة ليجلبوا لهم من ظرائف البلاد و نفائسها ما يصلح لهم فامتثلوا ما أمرهم به فاجتمع معهم مائة و خمسون تاجراً من مسلمٍ و نصرانيٍ و تركيٍ و أرسل معهم رسولاً إلى السلطان محمد يقول له: إن التجار وصلوا إلينا و قد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين و قد سيرنا معهم جماعةً من غلماننا ليحصلوا من ظرائف تلك الأطراف فينبغي أن يعودا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين و تنحسم مواد النفاق من ذات البين. فلما وصل التجار إلى مدينة أترار طمع أميرها غاير خان فيما معهم من الأموال فطالع السلطان محمد في أمرهم و حسن له إبادتهم و اغتنام مالهم فأذن له في ذلك فقتلهم طراً إلا واحداً منهم فإنه هرب من السجن. و لما رأى ما جرى على أصحابه لحق بديار التاتار و أعلمهم بالمصيبة. فعظم ذلك جنكزخان و تأثر منه إلى الغاية و هجر النوم و صار يحدث نفسه و يفتكر فيما يفعله. و قيل أنه صعد إلى رأس تلٍ عالٍ و كشف رأسه و تضرع إلى الباري تعالى طالباً نصره على من باداه بالظلم و بقي هناك ثلاثة أيامٍ بلياليها صائماً. و في الليلة الثالثة رأى في منامه راهباً عليه السواد و بيده عكازة و هو قائم على بابه يقول له: لا تخف افعل ما شئت فإنك مؤيد. فانتبه مذعوراً ذعراً مشوباً بالفرح و عاد إلى مترله و حكى حلمه لزوجته و هي ابنة أونك خان. فقالت له: هذا زي أسقفٍ كان يتردد إلى أبي و يدعو له و مجيئه إليك دليل انتقال السعادة إليك. فسأل جنكزخان من كان في خدمته من نصارى الايغور. هل ههنا أحدٌ من الأساقفة. فقيل له عن مار دنحا. فلما طلبه و دخل عليه بالبيرون الأسود قال: هذا زي من رأيت في منامي لكن شخصه ليس ذاك. فقال الأسقف: يكون الخان قد رأى بعض قديسينا. و من ذلك الوقت صار يميل إلى النصارى و يحسن الظن بهم و يكرمهم. و في سنة عشرٍ و ستمائة قصد جنكزخان بلاد السلطان محمد و لما وصل إلى نواحي تركستان أتاه الأمير أرسلان خان من غياليغ و الأمير ايدي قوب من بيشباليغ و الأمير سفتاق من الماليغ و ساروا في عساكرهم. و لما اجتمعت العساكر جميعها بقصبة مدينة أترار سير جنكزخان ابنه الكبير فب تومانين عسكر إلى جانب خجند و توجه هو بنفسه إلى بخارا و رتب على محاصرة أترار و لديه جغاتاي

و أوكتاي فدام القتال عليها مدة خمسة أشهرٍ لأن السلطان محمداً كان قد سير إليها غاير خان في خمسة آلاف فارسٍ و قراجا خاص حاجب في عشرة آلاف و كانوا كلهم بها. و لما ضاقت الحيلة بمن في المدينة و عجزوا عن المقاومة شاور قراجا لغاير خان في الصلح و تسليم البلد. فأبى غاير خان إلا المجاهدة حتى الموت لعلمه أن المغول لا يبقون عليه فلم ير في المصالحة مصلحةً. فتوقف قراجا إلى هجوم الليل و خرج في أكثر عسكره إلى خارج من باب دروازه الصوفي. فعوقوه إلى الصبح ثم حمل إلى ابني جنكزخان فاستنطقاه و استعلما منه كنه أحوال البلد و أمرا بقتله و قتل كل من معه قائلين: إذا كنت ما أبقيت على مخدومك و ولي نعمتك فلا تبقي
و لا علينا. و زحف العسكر إلى المدينة فدخلوها و أخرجو أهلها جميعهم إلى ظاهرها و أغاروا على ما فيها. و بقي غاير خان في عشرين ألفاً من عسكره متفرقين في دروب المدينة لم يتمكن منهم المغول و كانوا يخرجون خمسين خمسين يكاوحون و يطعنون في عسكر المغول و يقتلون ثم يقتلون. و كان هذا دأبهم شهراً إلى أن بقي غاير خان و معه نفران يجالدون في سطح دار السلطنة و كان قد برز مرسوم الخان أن لا يقتل غاير خان في الحرب لكن يحمل إليه حياً. فلذلك كثر التعب معه و قتل صاحباه و بقي وحده يقاتل بالآجر الذي كان الجواري يناولنه من الجدار. فلما عجز عن المناولة أحاطبه المغول و قبضوه و حملوه إلى جنكزخان بعد عوده من بخارا إلى سمرقند و قتل هناك في كوك سراي. و في سنة اثنتي عشرة في شعبان ملك السلطان محمد مدينة غزنة و كان استولى قبل ذلك على عامة خراسان و ملك باميان.

و في سنة ثلاث عشرة في العشرين من جمادى الآخرة توفي الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب و هو صاحب مدينة حلب و خلف أولاداً ذكوراً من جملتهم الملك العزيز محمد من ابنة عمه الملك العادل و كان عمر ولده هذا سنتين و شهوراً و وصى به إلى مملوكه شهاب الدين طغرل الخادم فصار أتابكه و قام بتربيته أحسن قيام. و في سنة خمس عشرة و ستمائة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه ابن مسعود بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل ليلة الاثنين لثلاث بقين من ربيع الأول و كانت ولايته سبع سنين و تسعة أشهرٍ و أوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه و عمره حينئذٍ نحو عشر سنين و جعل الوصي عليه و المدبر لدولته بدر الدين لؤلؤاً. و كان عمه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب العقر يحدث نفسه بالملك. فرقع بدر الدين ذلك الخرق و رتق ذلك الفتق و أحسن السيرة مع الخاص و العام و خلع على كافة الناس و غير ثياب الحداد عنهم فلم يخص بذلك شريفاً دون مشرف و لا كبيراً دون صغير. و بعد أيامٍ وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية و لبدر الدين بالنظر في أمور دولته و التشريفات لهما أيضاً. و كان مظفر الدين كوكبري بن زين

الدين صاحب اربل قام في نصر عماد الدين زنكي فملكه قلعة العمادية و باقي قلاع الهكارية و الزوزان. فراسله بدر الدين يذكره الأيمان و العهود و يطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا و رضي منه بالسكوت لا لهم و لا عليهم. فلم يفعل و أظهر معاضدة زنكي. فأرسل بدر الدين إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل و هو صاحب ديار الجزيرة و خلاط و انتمى إليه و صار في طاعته و طلب منه المعاضدة. فأجابه بالقبول و بذل له المساعدة و أرسل إلى مظفر الدين يقبح هذه الحالة و يقول له أن يرجع إلى الحق و إلا قصده هو بنفسه و عسكره. فلم تحصل الإجابة منه إلى شيءٍ من ذلك إلى أن حضرت الرسل من الخليفة الناصر و من الملك الأشرف في الصلح فأطاعوا و اصطلحوا و تحالفوا بحضور الرسل. و لما تقرر الصلح توفي نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل و رتب في الملك بعده أخوه ناصر الدين محمود و له من العمر نحو ثلاث سنين و حلف له الجند و ركبه بدر الدين فطابت نفوس الناس إذ علموا أن لهم سلطاناً من البيت الأتابكي. و فيها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب سابع جمادى الآخرة و كان عمره ثلاثاً و سبعين سنة و كانت مدة مملكته ثماني عشرة سنة. و خلف ولده الملك الكامل صاحب مصر. و الملك المعظم صاحب دمشق. و الملك الأشرف صاحب حران و الرها و خلاط. و الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين. و الملك الحافظ صاحب قلعة جعبر. و الملك العزيز صاحب بانياس. و الملك الصالح اسمعيل صاحب بصرى. و الملك الفائز يعقوب و الملك الأمجد عباس و الملك الأفضل و الملك القاهر.

و لما مات نور الدين الملك القاهر صاحب الموصل و ملك أخوه ناصر الدين تجدد لعماد الدين و مظفر الدين الطمع لصغر سن ناصر الدين فجمعا الرجال و تجهزا للحركة. فلما بلغ ذلك بدر الدين لؤلؤاً أرسل إلة عز الدين ايبك مقدم عسكر الأشرف الذي بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم فساروا إلى الموصل رابع رجب سنة خمس عشرة و استراحوا أياماً ثم عبروا دجلة و نزلوا شرقيها على فرسخٍ من الموصل. و جمع مظفر الدين عسكره و سار إليهم و معه زنكي فعبر الزاب و سبق خبره. و عند انتصاف الليل سار ايبك و لم يصبر إلى الصبح فتقطعوا في الليل و الظلمة و التقوا هم و الخصم على ثلاثة فراسخ من الموصل. فأما عز الدين فحمل على ميسرة مظفر الدين فهزمها و بها زنكي. و ميمنة مظفر الدين حملت على ميسرة بدر الدين و هزمتها. و بقي بدر الدين في النفر الذي معه في القلب و تقدم إليه مظفر الدين في من معه في القلب إذ لم يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد إلى الموصل هارباً و عبر دجلة إلى القلعة و تبعه مظفر الدين و أقام وراء تل حصن نينوى ثلاثة أيامٍ و رحل ليلاً من غير أن يضربوا كوساً و بوقاً. ثم ملك عماد الدين قلعة الكواشي و ملك بدر الدين تل أعفر و ملك الأشرف سنجار و سار يريد الموصل ليجتاز منها إلى

اربل. فقدم بين يديه عسكره ثم وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى سنة ست عشرة و ستمائة و كان يوم وصوله مشهوداً ترجل له بدر الدين و حمل الغاشية بين يديه. و أتاه رسل الخليفة و مظفر الدين في الصلح و بذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها إلى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية و طال الحديث في ذلك نحو شهرين. ثم رحل الأشرف يريد مظفر الدين فوصل قرية السلامية بالقرب من الزاب و كان مظفر الدين نازلاً عليه من جانب اربل فأعاد الرسل إلى الاشرف في طلب الصلح و كان عسكر الاشرف قد طال بيكاره و الناس قد ضجروا فوقعت الإجابة إلى الصلح و عاد الاشرف إلى سنجار و كان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة و ستمائة. و في سنة ست عشرة و ستمائة توفي السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ابن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم و لم يخلف ولداً يصلح للملك لصغر سنهم. و أخرج الجند أخاه علاء الدين كيقباذ من قلعة المنشار التي على الفرات بقرب ملطية و كان مسجوناً بها فملكوه و حلف الناس له فأحسن تدبيره لملكه و كان شديداً على أصحابه ذا عزم و حزم و هيبة عظيمة.

و في سنة سبع عشرة و ستمائة في أوائل المحرم نزل جنكزخان في عساكره على مدينة بخارا و أحاط بها العساكر من جميع جوانبها. زوكان بها من عسكر السلطان محمد عشرون ألفاً مقدمهم كوك خان و سونج و كشلي خان. و لما تحققوا عجزهم عن مقاومة المغول خرجوا من الحصار بعد غروب الشمس فأدركهم المحافظون من عسكر المغول على نهر جيحون فأوقعوا فيهم و قتلوهم كافةً و لم يبقوا منهم أثراً. فلما فارق المقاتلون المدينة لم يبق لأهلها حيلة إلا التسليم و الخروج و طلب الأمان فخرج الايمة و الأعيان إلى خدمة جنكزخان يتضرعون إليه و يطلبون حقن دمائهم حسب. فتقدم باخراج كل من بالمدينة إلى ظاهرها فخرجوا و دخل هو و ولده تولي إلى المدينة فوقف على باب مسجد الجامع و قال: هذا دار السلطان. فقالوا: لا بل خانة يزدان أي بيت الله. فنزل و دخل الجامع و صعد إلى المنبر و قال لاكابر بخارا: إن الصحراء خاليةٌ عن العلف فأنتم أشبعوا الخيل مما عندكم في الانبار. ففتحوها و صاروا ينقلون ما فيها من الغلات و رموا ما في الصناديق من الكتب و جعلوها اواري للخيل و أحضروا الطعام و الشراب هناك و أكلوا و شربوا و طربوا. ثم خرج جنكزخان إلى منزله و جمع الايمة و المشايخ و السادات و العلماء و قال لهم: إن الله ملك الكل و ضابط الكل أرسلني لأطهر الأرض من بغي الملوك الجائرة الفسقة الفجرة و ذكر لهم ما فعله أمير اترار بإذن سلطانه بالتجار إلى غير ذلك ثم أمرهم أن يعتزلوا الأغنياء و أصحاب الثروة بمعزل عن الفقراء فعزلوهم و كانوا مائتي ألف و ثمانين ألفاً. فقال لهم:إن الأموال التي فوق الأرض لا حاجة بنا إلى استعلامها منكم و إنما نريد أن تظهروا لنا الدفائن تحت

الأرض. فقبلوا بالسمع و الطاعة. و وكلوا مع كل قوم باسقاقاً يستخرج المال و أشار سراً إلى المستخرجين أن لا يكلفوهم ما لا يطيقونه و يرفقوا بهم و ذلك لما رأى من حسن إجابتهم إلى ما أمروا به. و لأن جماعة من عسكر السلطان كانوا مختفين بالمدينة أمر فرموا في محالها النار فاحترقت المدينة بأسرها لأن جل عمائرها من خشب فبقيت عرصة بخارا قاعاً صفصفاً و تفرق أهلها منتزحين إلى خراسان.

و فيها في ربيع الأول نزل جنكزخان على مدينة سمرقند و كان قد رتب السلطان محمد فيها مائة ألف و عشرة آلاف فارس يقومون بحراستها. فلما نازلها منع أصحابه عن المقاتلة و أنفذ سنتاي نوين و معه ثلاثون ألف محارب في أثر السلطان محمد. و غلاق نوين و بسور نوين إلى جانب طالقان. و أحاط باقي العسكر بالمدينة وقت سحر فبرز إليهم مبارزو الخوارزمية و نازعوهم القتال و جرحوا جماعةً كثيرةً من التاتار و أسروا جماعة و أدخلوهم المدينة فلما كان من الغد ركب جنكزخان بنفسه و دار على العسكر و حثهم على القتال فاشتد القتال ذلك اليوم بينهم و دام النهار كله من أوله إلى أول الليل و وقف الأبطال من المغول على أبواب المدينة و لم يمكنوا أحداً من المجاهدين من الخروج فحصل عند الخوارزمية فتور كثير و وقع الخلف بين أكابر المدينة و تلونت الآراء فبعض مال إلى المصالحة و التسليم و بعض لم يأمن على نفسه و إن أومن خوفاً من غدر التاتار فقوي عزم القاضي و شيخ الاسلام على الخروج فخرجا إلى خدمة جنكزخان و طلبا الأمان لهما و لأهل المدينة فلم يجبهما إلا إلى أمان أنفسهما و من يلوذ بهما. فدخلا إلى المدينة و فتحا أبوابها فدخل المغول و اشتغلوا ذلك اليوم بتخريب مواضع من السور و هدم بعض الأبرجة و لم يتعرضوا إلآ احد إلى أن هجم الليل فدخلوا إلى المدينة و صاروا يخرجون من الرجال و النساء مائةً مائةً بالعدد إلى الصحراء و لم ينكفوا إلا عن القاضي و شيخ الاسلام و عمن التجأ إليهما فاحتمى بهما نيفٌ و خمسون ألفاً من الخلق. و لما أصبح الصباح شرع المغول في نهب المدينة و قتل كل من لحقوه مختبئاً في المغائر و متوارياً بالستائر و قتلوا تلك الليلة نحو ثلاثين ألف تركي و قنقلي و قسموا بالنهار ثلاثين ألفاً على الأولاد و الأمراء و أطلقوا الباقي ليرجعوا إلى المدينة و يجمعوا من بينهم مائتي ألف دينار ثمن أرواحهم و كان المحصل لهذا المال ثقة الملك و الأمير عميد و هما من أكابر سمرقند و الشحنة طايفور. و من هناك توجه جنكزخان بعساكره إلى نواحي خوارزم و أنفذ الرسل إليهم يدعوهم إلى الايلية و الدخول في طاعته و شغلهم أياماً بالوعد و الوعيد و التأميل و التهديد إلى أن اجتمعت العساكر و رتب آلات الحرب من منجنيق و ما يرمى بها. و لأن صقع خوارزم لم يكن فيه حجر كان المغول يقطعون من أشجار التوت قطعاً كالحجارة و يرمون بها و ملأوا الخندق بالتراب و الخشب و الهشيم و

أنشبوا الحرب و القتال على المدينة من جميع جوانبها حتى عجز من فيها عن المقاومة فملكوا سورها و أضرموا النار في محالها فأتت على أكثر دورها و ما فيها فأيس المغول من الانتفاع بشيءٍ من غنائمها فأعرضوا عن الحريق و صاروا يملكون محلةً محلةً لأن أهلها كانوا يمتنعون فيها أشد امتناع. و لم يزالوا كذلك إلى أن ملك المغول كل المحال و أخرجوا الخلائق كافةً إلى الصحراء و فرزوا الصناع و المحترفين إلى الناحية و كانوا مائة ألف و أسروا البنين و البنات و النساء اللواتي ينتفع بهن و قسموا الباقي من الرجال و النساء و العجائز على العسكر ليقتلوهم فقتل كل واحدٍ منهم أربعاً و عشرين شخصاً. و في أوائل سنة ثماني عشرة و ستمائة عبر جنكزخان نهر جيحون و قصد مدينة بلخ فخرج إليه أعيانها و بذلوا له الطاعة و حملوا الهدايا و أنواعاً من الترغو أي المأكل و المشرب.فلم يقبل عليهم بسبب أن السلطان جلال الدين بن السلطان محمد كان في تلك النواحي يهيئ أسباب الحرب و يستعد للقتال فأمر بخروج أهل بلخ إلى الصحراء ليعدوهم كالعادة فلما خرجوا بأسرهم رمى فيهم السيف. و من هناك توجه نحو الطالقان و قتل أكثر أهلها و أسر من صلح للأسر و أبقى البعض. و سار إلى الباميان فعصى أهلها و قاتلوا قتالاً شديداً و اتفق أن أصيب بعض أولاد جغاتاي بسهم جرح فقضى نحبه و كان من أحب أحفاد جنكزخان إليه فعظمت المصيبة بذلك و اضطرمت النيران في قلوب المغول و جدوا في القتال إلى أن فتحوها و قتلوا كل من فيها حتى الدواب و البقر و الأجنة التي في بطون الحبالى أيضاً و لم يأسروا منها أحداً قط و تركوها أرضاً قفراً و لم يسكنها أحدٌ إلى اليوم و سموها ماوباليغ أي قرية بؤس.

و لما فرغ جنكزخان من تخريب بلاد خراسان سمع أن السلطان جلال الدين قد استظهر بالعراق فسار نحوه ليلاً و نهاراً بحيث أن المغول لم يتمكنوا من طبخ لحمٍ إذا نزلوا. فحين وصلوا إلى غزنة أخبروا بأن جلال الدين من خمسة عشر يوماً رحل عنها و هو عازمٌ على أن يعبر نهر السند. فلم يستقر جنكزخان و رحل في الحال و حمل على نفسه بالسير حتى لحقه في أطراف السند فطاف به العسكر من قدامه و من خلفه و داروا عليه دائرةً وراء دائرةٍ كالقوس الموتورة و نهر السند كالوتر و هو في وسط. و بالغ المغول في المكاوحة و تقدم جنكزخان أن يقبض حياً و وصل جغاتاي و أوكتاي أيضاً من جانب خوارزم. فلما رأى جلال الدين أنه يوم عملٍ شهمٍ و ضرغم أبطال المغول و تطلب أطلابهم و حمل عليهم حملاتٍ و شق صفوفهم مرةً بعد مرةٍ و طال الأمر بمثل ذلك لامتناع المغول عن رميه بالنشاب ليحضروه غير مؤوف بين يدي جنكزخان امتثالاً لمرسومه فكانوا يتقدمون إليه قليلاً قليلاً. فلما عاين تضييق الحلقة عليه نزل فودع أولاده بل أكباده من نسائه و خواصه باكياً كئيباً ثم رمى عنه الجوشن و ركب جنيبه و هو كالأسد الغيور و هم بالعبور واقحم فرسه النهر فانقحم و عام و خلص إلى الساحل و جنكزخان و

أصحابه ينظرون إليه و يتأملونه حيارى. و لما شاهد ذلك جنكزخان وضع يده على فمه متعجباً و التفت إلى ولديه و قال لهما: من أبٍ مثل هذا الابن ينبغي أن يولد. إذا نجا من هذه الوقعة فوقائع كثيرة تجري على يديه. و من خطبه لا يغفل من يعقل. و أراد جماعة من البهادورية أن يتبعوه في الماء فمنعهم جنكزخان قائلاً: إنكم لستم من رجاله لأنه كان يرامي المغول بالسهام و هو في وسط الشط. فلما فاتهم أخذوا أمر الخان بإحضار حرمه و أولاده و تقدم بقتل جميع الذكور حتى الرضع. و لأن جلال الدين عندما أراد الخوض في النهر ألقى جميع ما كان صحبته من آنية الذهب و الفضة و النقرة فيه أمر الغواصين فأخرجوا منها ما أمكن إخراجه. و كان هذا الأمر الذي هو من عجائب الأنام و دواهي الأيام في رجب فقيل في المثل: عش رجباً تر عجباً.

و فيها أعني سنة ثماني عشرة و ستمائة كان اجتماع الملك المعظم و الملك الأشرف مع نجدة صاحب ماردين و عسكر حلب و الملك الناصر صاحب حماة و الملك المجاهد صاحب حمص و اتصال الجميع بالملك الكامل على عزم قصد الفرنج و رد دمياط منهم. فأحاطوا بهم و ضيقوا السبيل عليهم فأجابوا إلى الصلح على تسليم دمياط و إطلاق ما بأيديهم من أسراء المسلمين و إطلاق ما بأيدي المسلمين من أسراهم و قرر الصلح عاماً مع الدكادنائب البابا و ملك عكا و ملوك فرنجة و مقدمي الداوية و الاسبتارية و تسلم الكامل دمياط يوم الأربعاء تاسع عشر رجب. و كانت مدة مقام الفرنج بها سنة كاملة و أحد عشر شهراً. و في سنة إحدى و عشرين و ستمائة توفي الملك الأفضل علي بن صلاح الدين و قد نزل عن ملك مصر و الشام و قنع بسميساط كرهاً. و كان عنده علمٌ و فطنةٌ لكنه كان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عما يجب للدول و تدبير الممالك. و لما أخذت منه البلاد كتب إلى الخليفة الناصر كتاباً ضمنه شكاية عمه العادل و أخيه العزيز حيث أخذا منه البلاد و نكثا عهد أبيه له بها. و كتب في أول الكتاب بيتين من الشعر عملهما و أحسن فيهما و هما:

مولاي إن أبا بكرٍ و صاحبه ... عثمان قد أخذا بالسيف حق علي

فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقي ... من الأواخر ما لاقى من الأولِ

يريد بأبي بكر عمه و بعثمان أخاه و بعلي نفسه. فأجابه الناصر عن كتابه بكتابٍ كتب فيه:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً ... بالصدق يخبر أن أصلك طاهرُ

غصبوا علياً حقه إن لم يكن ... بعد النبي له بيثرب ناصرُ

فاصبر فإن غداً عليه حسابهم ... وأبشر فناصرك الإمام الناصرُ

و كان الملك الأفضل قد شغله أبوه في صباه بشيءٍ من العلم فحصل منه طرفاً من العربية و الشعر و كان ينظمه و يعتني به بالنسبة إلى حاله.

و في سنة اثنتين و عشرين و ستمائة توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد في ليلة عيد الفطر و كان عمره سبعين سنة و مدة خلافته ستاً و أربعين سنة و أحد عشر شهراً.

و كان في الأيام الامامية الناصرية الحكيم عبد السلام بن جنكي دوست الجبلي البغدادي قد قرأ علوم الأوائل و أجادها و اشتهر بهذا الشأن شهرةً تامة و حصل له بتقدمه حسدٌ من أرباب الشر فثلبه أحدهم بأنه معطل فأوقعت الحفظة عليه و على كتبه فوجد فيها الكثير من علوم الفلاسفة و برزت الأوامر الناصرية باخراجها إلى موضعٍ ببغداد يعرف بالرحبة و أن يحرق الجم منها بحضور الجمع ففعل ذلك و أحضر لها عبيد الله التيمي المعروف بابن المارستانية و جعل له منبر و صعد عليه و خطب خطبةً لعن بها الفلاسفة و من يقول بقولهم و ذكر الركن هذا بشر و كان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً يتكلم عليه و يبالغ في ذمه و ذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار. قال القاضي الأكرم الوزير جمال الدين بن القفطي رحمه الله: أخبرني الحكيم يوسف السبتي الاسرائيلي قال: كنت بغداد يومئذٍ تاجراً و حضرت المحفل و سمعت كلام ابن المارستانية و شاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم و هو يقول: و هذه الداهية الدهياء و النازلة الصماء و المصيبة العمياء. و بعد إتمام كلامه خرقها و ألقاها في النار. فاستدللت على جهله و تعصبه إذ لم يكن في الهيئة كفرٌ و إنما هي طريقٌ إلى الإيمان و معرفة قدر الله جل و عز فيما أحكمه و دبره. و استمر الركن عبد السلام في السجن معاقبةً على ذلك إلى أن أفرج عنه سنة تسعٍ و ثمانين و خمسمائة.

و في هذه السنة توفي يحيى بن سعيد بن ماري الطبيب النصراني صاحب المقامات الستين صنفها و أحسن فيها و كان فاضلاً في علوم الأوائل و علم العربية و الشعر يرتزق بالطب. و من شعره في الشيب:

نفرت هند من طلائع شيبي و اعترتها سآمةٌ من وجومي

هكذا عادة الشياطين ينفر ن إذا ما بدت نجوم الرجومِ

و من أطباء الدار الامامية الناصرية صاعد بن هبة الله بن المؤمل أبو الحسن النصراني الحظيري المتطبب و أخوه أبو الخير الاركيذياقون و هما أخوا الجاثليق المعروف بابن المسيحي. أما صاعد فخدم الخليفة الناصر و تقرب قرباً كثيراً و كانت له المعرفة التامة بالطب و المنطق و صنف كتاباً صغير الحجم سماه الصفوة جمع فيه أجزاء الطب علميها و عمليها و ألحق في آخر الفن الأول من الجزء الثاني ثلاثة فصول في الختانة

لكونها منوطة بالأطباء ببغداد و إن كان لا يسمع لأحدٍ من المتقدمين و لا المتأخرين فيها قولاً بل فيما يطول القلفة. و كان ينسخ بخطه كتب الحكمة. و مات في آخر سنة إحدى و تسعين و خمسمائة. و أما الاركيذياقون و كان أيضاً فاضلاً صنف كتاباً مختصراً لخص فيه مباحث كتاب الكليات من القانون سماه الاقتضاب ثم اختصره و سمى المختصر انتخاب الاقتضاب. و حكى لي بعض الأطباء ببغداد أن أباه حمله و هو مترعرع إلى ابن التلميذ ليشغله فقال: هذا ابنك صغيرٌ جداً. فقال: غرضي التبرك منك. فأقرأه المسألة الأولى من مسائل حنين.

و في سنة أربع و تسعين و خمسمائة توفي محمد بن عبد السلام المقدسي ثم المارديني كان أبوه قاضي ماردين و جده قاضي دنيسر قرأ الطب على ابن التلميذ فبلغ منه الغاية حتى أن الملوك كانت تخطبه من النواحي و الأقطار و كان على علو السن يكرر على كتب كبار. و قرأ عليه الشهاب السهروردي شيئاً من الحكمة. و لم يصنف كتاباً مع غزارة علمه و تمكنه و حسن تصرفه فيه إلا أنه شرح أبيات ابن سينا التي أولها:هبطت إليك. و كان أبو الخير بن المسيحي يفخم أمره و يعظم شأنه.

و في سنة خمسٍ و ستمائة مات موسى بن ميمون اليهودي الأندلسي و كان قد قرأ علم الأوائل بالأندلس و أحكم الرياضيات و قرأ الطب هناك فأجاده علماً و لم يكن له جسارةعلى العمل.و أكره على الإسلام فأظهره و أسر اليهودية. و لما التزم بجزيات الإسلام من القراءة و الصلاة فعل ذلك إلى أن أمكنته الفرصة في الرحلة بعد ضم أطرافه فخرج عن الأندلس إلى مصر و معه أهله و نزل مدينة الفسطاط بين يهودها فأظهر دينه و ارتزق بالتجارة في الجوهر و ما يجري مجراه. و لما ملك العزيز مصر و انقضت الدولة العلوية اشتمل عليه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني و نظر إليه و قرر له رزقاً و كان يشارك الأطباء و لا ينفرد برأيه لقلة مشاركته و لم يكن وقفاً في المعالجة و التدبير. و كان عالماً بشريعة اليهود و صنف كتاباً في مذهب اليهود سماه بالدلالة و بعضهم يستجيده وبعضهم يذمه و يسميه الضلالة. و غلب عليه النحلة الفلسفية و صنف رسالة في المعاد الجسماني و أنكر عليه مقدمو اليهود فأخفاها إلا عمن يرى رأيه.و رأيت جماعة من يهود بلاد الفرنج الغتم بإنطاكية و طرابلس يلعنونه و يسمونه كافراً. و له تصنيفات حسنة في الرياضيات و مقاربة في الطب. و ابتلي في آخر زمانه برجلٍ من الأندلس فقيه يعرف بأبي العرب وصل إلى مصر و حاققه على إسلامه و رام أذاه فمنعه عنه القاضي الفاضل و قال له: رجلٌ يكره لا يصح إسلامه شرعاً. و لما قرب وفاته تقدم إلى مخلفيه أن يحملوه إذا انقطعت رائحته إلى بحيرة طبرية فيدفنوه هناك لما فيها من قبور صالحيهم ففعل به ذلك.

و في سنة ست و ستمائة في ذي الحجة توفي بهراة الإمام الفخر الرازي محمد بن عمر المعروف بابن

الخطيب بالري. و كان من أفاضل أهل زمانه بز القدماء في الفقه و علم الأصول و الكلام و الحكمة و رد على أبي علي بن سينا و استدرك عليه. و كان يركب و حوله السيوف المجذبة و له المماليك الكثيرة و المرتبة العالية و المترلة الرفيعة عتد السلاطين الخوارزمشاهية. و عن له أن تهوس بعمل الكيمياء و ضيع في ذلك مالاً كثيراً و لم يحصل على طائل.و سارت مصنفاته في الأقطار و اشتغل بها الفقهاء. و رحل إلى ما وراء النهر لقصد بني مارة ببخارا و لم يلق منهم خيراً و كان فقيراً يومئذٍ لا جدة له فخرج من بخارا و قصد خراسان و اتفق اجتماعه بخوارزمشاه محمد بن تكش فقربه و أدناه و رفع محله و أسنى رزقه.و استوطن مدينة هراة و تملك بها ملكاً و أولد أولاداً و أقام بها حتى مات و دفن في داره.و كان يخشى أن العوام يمثلون بجثته لما كان يظن به من الانحلال. و في مسيره إلى ما وراء النهر يقصد بخارا في حدود سنة ثمانين و خمسمائة اجتاز بعبد الرحمن بن عبد الكريم السرخسي الطبيب و نزل عليه فأكرمه و قام بحقه مدة مقامه بسرخس فأراد أن يفيده مما لديه فشرع له في الكلام على كليات القانون و شرح المستغلق من ألفاظ هذا الكتاب و رسمه باسمه و ذكره في مقدمته و وصفه و أثنى عليه. و في سنة ثماني و ستمائة توفي المسيحي ابن أبي البقاء النيلي نزيل بغداد و كنيته أبو الخير و يعرف بابن العطار و كان خبيراً بالعلاج قيماً به له ذكر و قرب من دار الخليفة يطب النساء و الحواظي عاش عمراً طويلاً و حصل مالاً جزيلاً و خلف ولداً طبيباً لم يكن رشيداً يكنى أبا علي. و لما مات أبوه اتفق أن كان على بعض مسراته إذ كبس في ليلة الجمعة حادي عشر ربيع الأول من سنة سبع عشرة و ستمائة و عنده امرأة مسلمة تعرف بست شرف. فلما قبض عليه أقر على جماعة من المسلمات كن يأتينه لأجل دنياه من جملتهن زوجة ابن البخاري صاحب المخزن اسمها اشتياق. فخرج الأمر بسجن المرأتين بسجن الطرارات و فدى أبو علي نفسه بستة آلاف دينار.

و في سنة تسع عشرة و ستمائة في المحرم توفي علي بن أحمد أبو الحسن الطبيب المعروف بابن هبل و كان من أهل بغداد عالماً بالطب و الأدب ولد ببغداد و نشأ بها ثم جاز إلى الموصل و خرج إلى أذربيجان و أقام بخلاط عند صاحبها شاه أرمن يطبه و قرأ الناس عليه. و فارق تلك الديار لسببٍ و هو أن بعض الطشتدراية قال له يوماً و قد نظر قارورة الملك في بعض أمراضه: يا حكيم لم لا تذوقها. فسكت عنه. فلما انفصل المجلس قال له في خلوةٍ: قولك هذا اليوم عن أصل أم من قول غيرك أو هو شيءٌ خطر لك. فقال: إنما خطر لي لأني سمعت أن شرط اختبار القارورة ذوقها. فقال: الأمر كذلك و لكن لا في كل الأمراض و قد أسأت إلي بهذا القول لأن الملك إذا سمع هذا ظن أنني قد أخللت بشرطٍ واجبٍ من شروط خدمته. ثم أنه عمل على الخروج لأجل هذه الحركة و الخوف من عاقبتها بعد أن رشا الطشت دار حتى

لا يعود إلى مثلها. و خرج و عاد إلى الموصل و قد تمول فأقام بها إلى حين وفاته. و عمر حتى عجز عن الحركة و عدم بصره فلزم منزله قبل وفاته بسنتين و مات و عمره خمس و تسعون سنة. و كان الناس يترددون و يقرأون عليه. و صنف كتاباً حسناً في الطب سماه المختار يجيء في أربع مجلدات.

و في سنة عشرين و ستمائة ثامن و عشرين جمادى الأولى ليلة الخميس قتل أبو الكرم صاعد بن توما النصراني الطبيب البغدادي و يلقب بأمين الدولة. كان فاضلاً حسن العلاج كثير الإصابة و كان من ذوي المروآت تقدم في أيام الإمام الناصر إلى أن صار في منزلة الوزراء و استوثقه على حفظ أمواله و خواصه و كان يودعها عنده و يرسله في أمورٍ خفيةٍ إلى الوزير و يظهر له كل وقت. و كان حسن الوساطة جميل المحضرتقضى على يده حاجات الناس. و كان الإمام الناصر في آخر أيامه قد ضعف بصره و أدركه سهو في أكثر أوقاته. و لما عجز عن النظر في القصص استحضر امرأةً من النساء البغداديات تعرف بست نسيم و قربها و كانت تكتب خطاً قريباً من خطه و جعلها بين يديه تكتب الأجوبة و شاركها في ذلك خادمٌ اسمه تاج الدين رشيق فصارت المرأة تكتب في الأجوبة ما ترد فمرةً تصيب و مراراً تخطئ. و اتفق أن كتب الوزير القمي المدعو بالمؤيد مطالعةً و عاد جوابها و فيه إخلالٌ بين فتوقف الوزير و أنكر ثم استدعى الحكيم صاعد بن توما و سأله عن ذلك سراً. فعرفه ما الخليفة عليه من عدم البصر و السهو الطارئ في أكثر الأوقات و ما يعتمده المرأة و الخادم من الأجوبة. فتوقف الوزير عن العمل بأكثر الأمور الواردة عليه. و تحقق الخادم و المرأة ذلك و حدسا أن الحكيم هو الذي دله على ذلك. فقرر رشيق مع رجلين من الجند أن يغتالا الحكيم و يقتلاه و هما رجلان يعرفات بولدي قمر الدين من الأجناد الواسطية. فرصدا الحكيم في بعض الليالي إلى أن خرج من دار الوزير عائداً إلى دار الخليفة فتبعاه إلى باب الغلة المظلمة و وثبا عليه بسكينيهما و جرحاه و انهزما. فبصر بهما و صاح: خذوهما. فعادا إليه و قتلاه و جرحا النفاط الذي بين يديه. و حمل الحكيم ابن توما إلى منزله و دفن بداره في ليلته. و بعد تسعة أشهر نقل إلى تربة آبائه في لبيعة بباب المحول. و بحث الخليفة و الوزير عن القاتلين فعرفا و أمر بالقبض عليهما و في بكرة تلك الليلة أخرجا إلى موضع القتل و شق بطناهما و صلبا على باب المذبح المحاذي لباب الغلة التي جرح في بابها.

"الظاهر بن الناصر": و لما توفي الناصر لدين الله بويع ابنه الإمام الظاهر بأمر الله عدة الدين أبو نصر محمد في ثاني شوال من سنة اثنتين و عشرين و ستمائة. و كان والده قد بايع له بولاية العهد و كتب بها إلى الآفاق و خطب له بها مع أبيه على سائر المنابر. و مضت على ذلك مدة ثم نفر عنه بعد ذلك و خافه على نفسه فإنه كان شديداً قوياً أيداً عالي الهمة فأسقط من ولاية العهد في الخطبة و اعتقله و ضيق عليه و

مال إلى أخيه الصغير الأمير علي إلا أنه لم يعهد إليه. فاتفقت وفاة الأمير علي الصغير في حياة والده و خلف أولاداً أطفالاً فبعث بهم إلى ششتر. فعلم الإمام الناصر أنه لم يبق له ولد تصير الخلافة إليه بعده غيره فعهد إليه و بايع له الناس و هو في الحبس مضبوط عليه و كانت عامة أهل بغداد يميلون إليه. فلما توفي الناصر أخرجه أرباب الدولة و بايعوه بالخلافة. و قال لما بويع: كيف يليق أن يفتح الإنسان دكاناً بعد العصر. قد نيفت على الخمسين سنة و أتقلد الخلافة. ثم أظهر من العدل و الأمن ما لم يمكن وصفه و أزال الظلم و رد على الناس أموالاً جزيلةً و أملاكاً جليلةً كانت قد أخذت منهم و أزال مكوساً كثيرةً و كانت قد جددت. و ارتفع عن الناس ما كانوا ألفوه من الخوف في زمان والده فأظهروا نعمتهم و امتنع المفسدون من السعايات. و عقد لبغداد جسراً ثانياً عظيماً جديداًو أنفق عليه مالاً كثيراً فصار في بغداد على دجلتها جسران. و ما زالت دولته كذلك عادلةً آمنةً منذ ولي إلى أن توفي في رابع عشر شهر رجب سنة ثلاث و عشرين و ستمائة بعد تسعة أشهرٍ من ولايته.

و فيها مات يوسف بن يحيى بن اسحق السبتي المغربي. هذا كان طبيباً من أهل قادس و قرأ الحكمة بجلادةٍ فشدا فيها و عانى شيئاً من علوم الرياضة فأجادها و كانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة. و لما ألزم اليهود في تلك البلاد بالإسلام أو الجلاء كتم دينه و ارتحل إلى مصر بماله و اجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود بمصر و قرأ عليه شيئاً و سأله إصلاح هيئة ابن أفلح الأندلسي فإنها صحبته من سبتة فاجتمع هو و موسى على إصلاحها و تحررها.و خرج من مصر إلى الشام و نزل حلب و أقام بها و اشترى ملكاً قريباً و تزوج و خدم أطباء الخاص في الدولة الظاهرية بحلب و كان ذكياً حاد الخاطر. قال القاضي الأكرم رحمه الله: كان بيني و بين يوسف هذا مودة طالت مدتها فقلت له يوماً: إن كان للنفس بقاءٌ و تعقل به حال الموجودات من خارج بعد الموت فعاهدني على أن تأتيني إن مت قبلي و آتيك إن مت قبلك. فقال: نعم. و وصيته أن لا يغفل. و مات و أقام سنتين ثم رأيته في النوم و هو قاعد في عرصة مسجد من خارجه في حضيرةٍ له و عليه ثيابٌ جدد بيضٌ من النصفي فقلت له: يا حكيم ألست قررت معك أن تأتيني لتخبرني بما ألفيت. فضحك و أدار وجهه فأمسكته بيدي و قلت: لا بد أن تقول لي كيف الحال بعد الموت. فقال لي: الكلي لحق بالكل و بقي الجزئي في الجزء. ففهمت عنه في حاله كأنه أشار إلى النفس الكلية عادت إلى عالم الكل و الجسد الجزئي بقي في الجزء و هو المركب الأرضي. فتعجبت بعد الاستيقاظ من لطيف إشارته. نسأل الله العفو عند العود إليه بعد الموت.

"المستنصر بن الظاهر" و لما توفي الإمام الظاهر بأمر الله بويع ابنه جعفر المنصور و لقب المستنصر بالله بويع يوم مات والده. و لما بويع البيعة العامة ركب للناس ركوباً ظاهراً و استمر على هذه الحالة مدةً طويلةً لا يختفي في ركوبه من الناس و أظهر من العدل و حسن السيرة أضعاف ما أظهره والده و أفاض من

الصدقات ما أربى على من تقدمه و تقدم بإنشاء مدرسته المعروفة بالمستنصرية التي لم يعمر في الدنيا مثلها فعمرت على أعظم وصف في صورتها و آلاتها و اتساعها و زخرفها و كثرة فقهائها و وقوفها. و وقفها على المذاهب الأربعة و رتب فيها أربعة من المدرسين في كل مذهبٍ مدرساً و ثلاثمائة فقيه. لكل مذهب خمسة و سبعون فقيهاً. و رتب لهم من المشاهرات والخبز و الطعام في كل يوم ما يكفي كل فقيه و يفضل عنه و بنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصاً للفقهاء و طبيباً خاصاً يتردد إليهم في بكرة كل يوم يفتقدهم و مخزناً فيه كل ما يحتاج إليه من أنواع ما يطبخ من الأطعمة و مخزناً آخر فيه أنواع الأشربة و الأدوية.

و في سنة أربع و عشرين و ستمائة توفي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق في سلخ ذي تاقعدة و كان عمره ثمانياً و أربعين سنة. و كانت همته عالية و صار ملكه بدمشق و القدس و السواحل إلى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود فاستقر ملكه بها و حمل عمه الملك العزيز وعمه الملك الصالح الغاشية بين يديه.

و فيها قفل جنكزخان من الممالك الغربية إلى منازله القديمة الشرقية ثم رحل من هناك إلى بلاد تنكوت و هنالك عرض له مرض من عفونة ذلك الهواء الوخيم و لما قوي من مرضه استدعى أولاده جغاتاي و أوكتاي و الغ نوين و كلكان و جورختاي و أوردجار و قال لهم: إنني قد أيقنت مفارقة الدنيا لعجز قوتي عن حمل ما بي من الآلام و لا بد من شخصٍ يقوم بحفظ المملكة على حالها و الذب عنها. و قد أعلمتكم غير مرة أن ابني أوكتاي يصلح لهذا الشأن لما رأيت من مزية رأيه المتين و عقله المبين و الآن فقد جعلته و لي عهدي و قلدته ما بيدي من جميع الممالك فما قولكم في هذا الذي استصوبته. فجثا الأولاد و النوينية المذكورون على ركبهم و قالوا: جنكزخان هو المالك للرقاب و نحن العبيد السامعون المطيعون في جميع ما يتقدم به على وفق مراده و مرسومه. و عند فراغه من الوصية اشتد وجعه و توفي لأربعٍ مضين من شهر رمضان سنة أربع و عشرين و ستمائة و كان مدة ملكه نحو خمس و عشرين سنة. فأرسل الولدان و الأمراء الرسل إلى باقي الأولاد و الأمراء ليجتمعوا في القوريلتاي أي المجمع الكبير.

و في سنة خمس و عشرين و ستمائة ترددت الرسل بين الفرنج و الملك الكامل في طلب الصلح فاتفق على تسليم البيت المقدس إلى الفرنج فتسلموه و مواضع كثيرة أخر من بلاد الساحل. و إنما أجابهم الكامل لما رأى من كثرة عساكرهم و إمداد البحر لهم بالرجال و الأموال فخاف على بلاده أن تؤخذ منه عنوةً فأرضاهم بذلك.

و في سنة ست و عشرين و ستمائة تم اجتماع الأولاد و أمراء المغول فوصل من طرف القفجاق الأولاد توشي هردو باتو سيبان تنكون بركه بركجار بغاتيمور أقناس جغاتاي. و من طرف أتميل أوكتاي. و من

طرف المشرق عمهم أوتكين و بلكتاي نوين و الجتاي نوين و الغ نوين. و أما الأولاد الصغار فكانوا في أردو جنكزخان. و في زمن الربيع حضروا كلهم في عساكرهم و ثلاثة أيام متوالية فرحوا جميعاً ثم شرعوا فيما تقدم به جنكزخان من الوصية و العهد بالمملكة إلى أوكتاي فامتثلوا كلهم الأوامر الجنكزخانية و اعترفوا بأهليته لذلك. فاستقالهم أوكتاي الولاية قائلاً: إن أمر الوالد و إن كان لا اعتراض عليه لكن ههنا أخٌ أكبر مني و أعمامٌ هم أولى مني بها. فلم يقيلوه إياها و أصروا على أنه لا بد من امتثال مرسوم الوالد و داموا على إصرارهم أربعين يوماً و ما زالوا يتضرعون إليه و يلحون عليه بالمسألة حتى أجاب إلى ذلك فكشفوا رؤوسهم و رموا مناطقهم على أكتافهم و أخذ جغاتاي أخوه الكبير بيده اليمنى و أوتكين عمه بيده اليسرى فأجلساه على سرير المملكة و لقباه قاان و لزم له الغ نوين كأس شراب فسقاه و جثا كل من كان حاضراً داخل الخزكاه و خارجها على ركبتيه تسع مرات و دعوا له ثم برزوا كلهم إلى خارج و جثوا ثلاث مرات حيال الشمس. و إنما اختص ألغ نوين بلزوم الكاس لأنه أصغر أولاد جنكزخان و في عادة المغول أن الابن الصغير لا يقتسم و لا يخرج عن بيت أبيه و إذا مات الأب فهو يتولى تدبير المنزل. ففي تلك الأربعين يوماً كان يقول أوكتاي: إن الغ نوين هو صاحب البيت و أكثر مواظبةً لخدمته و أبلغ مني تعلماً لسياسته فالمصلحة تفويض هذا الأمر إليه. فلذلك سبق الجميع بتصريح الطاعة. و أما الأمراء فانتخبوا من بناتهم الأبكار الصالحة لخدمة قاان أربعين بنتاً و حملوهن مزيناتٍ بالحلي الفاخرة و الخيول الرائعة إلى خدمته. و لما فرغ من هذه الأمور صرف همته إلى ضبط الممالك و جهز جورماغون في ثلاثين ألف فارسٍ و سيرهم إلى ناحية خراسان و أنفذ سنتاي بهادر في مثل ذلك العسكر إلى جانب قفجاق و سقسين و بلغار و جماعة أخرى إلى التبت و قصد هو بنفسه بلاد الخطا.

و في سنة سبعٍ و عشرين و ستمائة في أوائلها نزل السلطان جلال الدين خوارزمشاه على خلاط و حاصرها أشد حصار و شتى عليها و نصب عليها عشرين منجنيقاً على ناحية البحر و فيها أخو الملك الأشرف تقي الدين عباس و مجير الدين يعقوب و الأمير حسام الدين القيمري و عز الدين ايبك مملوك الأشرف. فدام الحصار على أهل خلاط و اشتد حتى أكلوا لحوم الكلاب و بلغ الخبز كل رطل بالشامي بدينار مصري فتسلم خوارزمشاه المدينة و القلعة و انهزم حسام الدين القيمري و أفلت على فرسٍ وحده و مضى إلى قلعة قيمر ثم تجهز إلى خدمة الملك الأشرف إلى الرقة و أقام عز الدين ايبك و تقي الدين و مجير الدين مع خوارزمشاه يركبون معه و يلعبون بالكرة. و لما طارت الأخبار إلى الملك الأشرف بذلك انزعج و أسار جريدة إلى أبلستين. فتلقاه صاحب الروم علاء الدين كيقباذ من فراسخ و اجتمعا و لحقت الملك الأشرف عساكره و خرج علاء الدين بعساكره إلى اق شهر هو و الملك الأشرف و خرج

الخوارزمي من خلاط للقائهم و كان في أربعين ألفاً والتقوا اقتتلوا قتالاً شديداً في يوم الجمعة و كان الغلبة فيه للملك الأشرف و الرومي و باتوا ليلة السبت على تعبيتهم إلى الفجر من يوم السبت فالتقوا و اقتتلوا فانكسر الخوارزمي كسرةً عظيمةً و انهزم و قتل من أصحابه خلقٌ لا يحصي عددهم إلا الله و انهزم مثلهم و أسر مثلهم و بلغت هزيمتهم إلى جبال طرابيزون فوقع منهم في شقيف هناك ألف و خمسمائة رجل. و ساق خوارزمشاه إلى صوب خرتبرت فوصلها في يوم و ليلة و نجا بنفسه و مضى إلى بلاد العجم فأقام في خوى. و كان قد بعث تقي الدين عباس أخا الأشرف أسيراً مقيداً إلى بغداد هدية فأعاده الخليفة المستنصر مكرماً إلى الأشرف فوصل الأشرف إلى خلاط و أصلح أحوالها و رممها ثم بعث رسولاً إلى خوارزمشاه يسأله الإحسان إلى من معه من الأسارى فأجابه بأن عندي منكم ملوكاً و عندكم منا مماليك فإن أجبتم إلى الصلح فأنا موافق عليه. فأجابه الملك الأشرف: إنك فعلت ببلادنا ما فعلته و ما أبقيت من سوء المعاملة و المقابحة شيئاً إلا و قد عملته خربت البلاد و سفكت الدماء فإن أردت الصلح فانزل عن البلاد التي تغلب عليها و لم تكن لأبيك لنعمر منها ما خربت. و أما قولك بأن عندك منا ملوكاً فالذي عندك أخي مجير الدين يعقوب نحن نقدر أنه مات فأخوتي عوضه و نحن بحمد الله في جماعة أهل بيت و أولاد و أقارب نزيد على ألفي فارس و أنت أبتر ما لك أحد و خلفك أعداءٌ كثيرة. فمضى الرسول بهذا الجواب فلم يجبه الخوارزمي إلى ما طلبه و لا استقر بينهما أمر. و كان عز الدين ايبك قد سجنه خوارزمشاه في قلعة اختمار فأحضر و قتل. ثم وصله خبر عبور جورماغون نوين نهر أموية في طلبه فتوجه إلى تبريز و أرسل رسولاً إلى الخليفة و آخر إلى الملك الأشرف و صحبته زوجة الأمير حسام الدين القيمري التي كان قد أسرها من خلاط و رسولاً إلى السلطان علاء الدين صاحب الروم يستجيشهم و يعلمهم كثرة عساكر التاتار و حدة شوكتهم و شدة نكايتهم و أنه إذا ارتفع هو من البين يعجزون عن مقاومتهم و انه كسد الاسكندر يمنعهم عنهم فالرأي أن يساعده كلٌ منهم بفوجٍ من عسكره ليرتبط بذلك جأش أصحابه و يحجم بهم العدو عن البلاد فيحجم. قال من هذا النوع و أكثر و استصرخهم فلم يصرخوه و استغاثهم فلم يغيثوه فشتى بأرمية و أشتوا. و في الربيع توجه إلى نواحي ديار بكر و صار يزجي أوقاته بالتمتع و اللهو والشراب و الطرب كأنه يودع الدنيا و ملكها الفاني. و بينما هو في ذلك يسر لا بل يغر فجئه هجوم بايماس نوين في عسكره ليلاً فتكلف للانتباه و عاين نيران المغول بالقرب من مكانه فتقدم إلى الأمير أورخان أن يلم به الجماعة و يشغل المغول عند الصبح بالاقدام تارةً و الاحجام أخرى و فر هو مع ثلاثة نفر من مماليكه تائهاً في جبال ديار بكر. فلما أصبحوا ظن المغول أن جلال الدين خوارزمشاه فيهم فجدوا في طلبهم طاردين في أعقابهم و هم منهزمون بين أيديهم و لما تحققوا أنه ليس معهم رجعوا عنهم. فأما جلال الدين خوارزمشاه فأوقع به قومٌ من الأكراد ببعض جبال آمد و لم

يعرفوه و قدروه من بعض جند الخوارزمية فقتلوه و المملوكين طمعاً في ثيابهم و خيلهم و سلاحهم. استنبط ذلك من جهة أن بعد مديدةٍ يسيرةٍ دخل بعض أولئك الأكراد إلى آمد و عليه من سلاح جلال الدين. فعرفه مملوكٌ له كان قد لجأ إلى صاحب آمد فقبض الكردي و قرر فأقر بما افتعله هو وأصحابه فأحضرهم و قتلهم حنقاً عليهم. و قال قوم أن المقتول لم يكن جلال الدين و إنما كان سلاحداره لأنه يومئذٍ لم يحمل سلاحاً و لا كان يلبس ثياب العادة و إنما كان بزي الصوفية مع اصحابه و لذلك دائماً كان يرجف الناس أن جلال الدين خوارزمشاه قد رأوه بالبلد الفلاني و بالمدينة الفلانية حتى أنه في سنة اثنتين و خمسين و ستمائة اتفق جماعة من التجار عابرين على نهر جيحون و هناك القراغول و هم مستحفظو الطرق فأنكروا على فقيرٍ كان صحبة التجار مجهول فلما قرروه أقر أنه جلال الدين خوارزمشاه فقبضوه و كرروا عليه العذاب و السؤال فلم يغير كلامه إلى أن مات تحت العقوبة. فإن لم يكن هو و اعتمد ذلك إلى هذه الغاية فلا شك أن الجنون فنون.

و لما استقر قاان في الملك و انقاد له القاصي و الداني من جيوش المغول عزم على فتح بلاد الخطا و سير في مقدمته أخويه جغاتاي و الغ نوين و باقي الأولاد في عساكر عظيمة. فساروا و نازلوا أولاً مدينةً يقال لها حرجا بنو يقسين و هي على شط قراموران فأحاطوا بها و حصروها مدة أربعين يوماً و كان فيها عشرة آلاف من فرسان الخطا فلما عاينوا العجز عن مقاومة المغول ركبوا السفن التي كانوا أعدوها هاربين. و طلب أهل البلد الأمان فأومنوا و رتب المغول عندهم الشحاني و قصدوا باقي المواضع. و جهز قاان أخاه الغ نوين و ولده كيوك و سيرهم في عشرة آلاف فارس في المقدمة و سار هو بعقبهم فتمهل و معه العسكر الكبير. فجيش التون خان ملك الخطا مائة ألف من شجعانه و قدمم عليهم أميراً من أمرائه و أنفذهم للقاء المغول. فلما وصلوا إليهم استحقروهم لقلتهم بالنسبة إليهم و تهاونوا في أمرهم و أرادوا أن يسوقوهم كما هم إلى ملكهم التون خان ليفرجوا بهم عنه غمه إذا هو ضرب عليهم حلقة و صادهم صيداً. فشغلهم المغول بفتور المكافحة و أطمعوهم إلى أ، وصلت الأفواج التي مع قاان فأوقعوا بعسكر الخطا و لم يفلت منهم إلا الترر. و كان التون خان بمدينة تسمى نامكينك فلما بلغه الخبر بما جرى على أصحابه ارتاع و آيس من حياة الدنيا و جمع أولاده و نساءه و كل من يعز عليه و دخلوا بيتاً من بيوت الخشب و أمر بضرب النار فيه فاحترق هو و من معه أنفةً من الوقوع في أسر المغول. و دخلت عساكر المغول إلى المدينة و نهبوا و أسروا البنين و البنات و أمنوا الباقي. و فتحوا غيرها من المدن المشهورة و رتب بها قاان الشحاني و قفل إلى مواضعه القديمة و بنى بها مدينة سماها اردوباليق و هي مدينة قراقورم و أسكنها خلفاً من أهل الخطا و تركستان و الفرس و المستعربين. و بينما هم مسرورون بفتح بلاد الخطا توفي تولي خان و كان أحب الأخوة إلى قاان فاغتم لذلك كثيراً و أمر أن زوجته المسماة سرقوتنى بيكي

و هي ابنة أخي اونك خان تتولى تدبير عساكره و كان لها من الأولاد أربعة بنين مونككا قوبلاي هولاكو أريغ بوكا. فأحسنت تربية الأولاد و ضبط الأصحاب و كانت لبيبة مؤمنة تدين بدين النصرانية تعظم محل المطارنة و الرهبان و تقتبس صلواتهم و بركتهم و في مثلها قال الشاعر:

فلو كان النساء كمثل هذه لفضلت النساء على الرجالِ

و بعد قليل مات أيضاً الأخ الكبير و هو المسمى توشي و خلف سبعة بنين و هم تمسل هردو باتوا سيبقان تنكوت بركه بركجار. و من بين هؤلاء لباتوا سلم قاان البلاد الشمالية و هي بلاد الصقالبة و اللان و الروس و البلغار و جعل مخيمه على شاطىء نهر اتلو غزا هذه النواحي فقتل فيها خلائق بلغ عددهم مائتي ألف و سبعين ألفاً علم ذلك من آذان القتلى التي قطعوها امتثالاً لمرسوم قاان لأنه تقدم بقطع الأذن اليمنى من كل قتيل. و بعد فراغ باتوا من أمر الصقالبة تجهز للدخول إلى نواحي القسطنطينية فبلغ ذلك ملوك الفرنج فجاؤوا حافلين حاشدين و التقوا المغول في أطراف بلد البلغار و جرت بينهم حروب كثيرة انجلت عن كسرة المغول و هزيمتهم و هربهم فقفلوا من غزاتهم هذه و لم يعودوا يتعرضون إلى بلاد يونان و فرنجة إلى يومنا هذا.

و في سنة ثلاثين و ستمائة أرسل السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم رسولاً إلى قاان و بذل الطاعة. فقال قاان للرسول: اننا قد سمعنا برزانة عقل علاء الدين و إصابة رأيه فإذا حضر بنفسه عندنا يرى منا القبول و الإكرام و نوليه الاختاجية في حضرتنا و تكون بلاده جارية عليه. فلما عاد الرسول بهذا الكلام تعجب منه كل من سمعه و استدل على ما عليه قاان من العظمة. و فيها أخذ علاء الدين خلاط و سرمارى من الملك الأشرف و غزا الأشرف مدينة حصن منصور و أغار عليها و أخذ الكامل مدينة آمد من صاحبها و عوضه عنها قرى بالشام. و فيها توفي مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل في رمضان و حمل إلى مكة فدفن بها و ولي اربل إنسان شريف يقال له أبو المعالي محمد بن نصر بن صلايا من قبل الخليفة المستنصر. و في سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة مات ناصر الدين محمود بن القاهر نور الدين صاحب الموصل و وصل التقليد من الخليفة لبدر الدين لؤلؤ بالولاية فخطب له على المنابر بالسلطنة. و في سنة اثنتين و ثلاثين حصر السلطان علاء الدين مدينة الرها و ملكها عنوةً فدخلها الروميون و وضعوا السيف بها ثلاثة أيام و قتلوا النصارى و المسلمين فتكاً و نهباً فأصبح الرهاويون فقراء لا يملكون شيئاً و نهبت البيع و أخذ ما فيها من الكتب و الصلبان و آلات الذهب و النقرة و حمل أهل حران مفاتيح قلعتها فملكوها هدنة و ملكوا الرقة و البيرة أيضاً. فلما عاد عنها عسكر

الروم قصد الملك الكامل الرها و حاصرها أربعة أشهر ثم ملكها و هدم برجاً كبيراً من أبرجة قلعتها و حمل من وجد بها من الروميين كل اثنين على جمل و بعث بهم إلى مصر مقيدين.
و في سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة غزا التاتار بلد اربل و عبروا إلى بلد نينوى و نزلوا على ساقية قرية ترجلى و كرمليس فهرب أهل كرمليس و دخلوا بيعتها و كان لها بابان فدخلها المغول و قعد أميران منهم كل واحد على باب و أذنوا للناس في الخروج عن البيعة فمن خرج من أحد بابيها قتلوه و من خرج من الباب الآخر اطلقه الأمير الذي على ذلك الباب و أبقاه فتعجب الناس لذلك.
و في سنة أربع و ثلاثين و ستمائة توفي السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم بغتة لأنه كان قد صنع دعوةً عظيمة حضر بها الأمراء الأكابر و أتباعهم و أكثر الجند.

فبينما هو يظهر السرور و الفرح و يتباهى بما أعطي من الملك إذ حس بوجع في أحشائه و أخذته خلفة فاختلف إلى المتوضأ فانسهل برازاً دموياً صرفاً كثير المقدار و سقطت قوته في الحال. و في اليوم الثاني من هذا العرض مات و كان ملكه ثماني عشرة سنة و كان عاقلاً عفيفاً ذا بأس شديد على حاشيته و أمرائه و كانت الدولة السلجوقية قبله محلولةً بسبب الخلف الواقع بين أولاد قلج أرسلان فلما وليها علاء الدين أعاد جدتها و جدد ناموسها و ألقى الله هيبته في قلوب الخلق فأطاعوه و اتسع ملكه جداً و دان له العالم و بحق قيل له سلطان العالم و حضر عنده الملوك و أذعنوا له بالطاعة و كان قاسي القلب. و لما توفي أحضر الأمراء ولده غياث الدين كيخسرو فبايعوه و حلفوا له. و فيها توفي الملك العزيز بن الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب و ولي بعده ابنه الملك الناصر صلاح الدين و هو آخر الملوك من بيت أيوب قتله هولاكو في سنة ثماني و خمسين و ستمائة. و فيها أعني سنة أربع و ثلاثين في شهر شوال غزا التاتار بلد اربل و هرب أهل المدينة إلى قلعتها. فحاصروها أربعين يوماً ثم أعطوا مالاً فرحلوا عنها. و لما ولي السلطان غياث الدين كيخسرو السلطنة ببلد الروم قبض على غاير خان أمير الخوارزمية فهرب باقي الخوارزمية و أمراؤهم و لما اجتازوا بملطية و كاختين و خرتبرت أسروا سيف الدولة السوباشي و قتلوا ببرمير سوباشي خرتبرت و أغاروا على بلد سميساط و عبروا إلى السويداء فأقطعهم الملك الناصر صاحب حلب ما بين النهرين الرها و حران و غيرهما فكفوا عن الفساد و الغارات. و في سنة خمس و ثلاثين و ستمائة توفي الملك الأشرف بن الملك العادل بن أيوب بدمشق و كان عمره ستين سنة و كان كريماً سخياً مقبلاً على التمتع بالدنيا و لذاتها يزجي أوقاته برفاغية من العيش. و فيها مات أيضاً الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب صاحب مصر بدمشق و دفن بها و كان عمره سبعين سنة و كان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة كثير الإصابة سديد الرأي شديد الهيبة عظيم الهمة محباً للفضائل و أهلها.

و فيها غزا التاتار العراق و وصلوا إلى تخوم بغداد إلى موضع يسمى زنكاباذ و إلى سرمرأى. فخرج إليهم مجاهد الدين الدويدار و شرف الدين إقبال الشرابي في عساكرهما فلقوا المغول و هزموهم و خافوا من عودهم فنصبوا المنجنيقات على سور بغداد. و في آخر هذه السنة عاد التاتار إلى بلد بغداد و وصلوا إلى خانقين فلقيهم جيوش بغداد فانكسروا و عادوا منهزمين إلى بغداد بعد أن قتل منهم خلقٌ كثير و غنم المغول غنيمة عظيمة و عادوا. و فيها حدث ببغداد مد دجلتها مداً عظيماً هائلاً و غرق دور كثيرة و غرق سفينتان فهلك فيهما نحو خمسين نسمة. و في سنة سبع و ثلاثين و ستمائة جهز السلطان غياث الدين جيوشاً إلى ارمينية فامتنع المغول من الدخول إلى بلد الروم.

و في سنة ثماني و ثلاثين و ستمائة ظهر ببلد اماسيا من أعمال الروم رجل تركماني ادعى النبوة و سمى نفسه بابا فاستغوى جماعة من الغاغة بما كان يخيل إليهم من الحيل و المخاريق. و كان له مريد اسمه اسحق يتزيا بزي المشايخ فأنفذه إلى أطراف الروم ليدعو التركمانيين إلى المصير إليه. فوافى اسحق هذا بلد سميساط و أظهر الدعوة لبابا فاتبعه خلقٌ كثير من التركمان خصوصاً و كثف جمعه و بلغ عدد من معه ستة آلاف فارس غير الرجالة فحاربوا من خالفهم و لم يقل كما يقولون لا إله إلا الله بابا رسول الله فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين و النصارى من أهل حصن منصور و كاخنتين و كركر و سميساط و بلد ملطية ممن لم يتبعهم و كانوا يهزمون كل من لقيهم من العسكر حتى وصلوا إلى أماسيا. فأنفذ إليهم السلطان غياث الدين جيشاً فيه جماعة من الفرنج الذين في خدمته فحاربوهم و كان الجند المسلمون لم يتجرأوا عليهم و يحجموا عنهم لما توهموا منهم. فأخر الفرنج المسلمين و تولوا بأنفسهم محاربة الخوارج فكشفوهم و رموا فيهم السيف و قتلوهم طراً و أسروا الشيخين بابا و اسحق فضرب عنقاهما و كفوا الناس شرهم.

و في سنة تسع و ثلاثين حاصر جرماغون نوين مدينة ارزن الروم و ملكها عنوةً و قتل فيها خلائق من أهلها و سبى الذراري و شن الغارة عليها و قتل سنان سوباشها. و في سنة أربعين و ستمائة سار السلطان غياث الدين كيخسرو إلى ارمينية في جمع كثيف و جهاز لم يتجهز أحد مثله في عساكره و عساكر اليونانيين و الفرنج و الكرج و الأرمن و العرب لمحاربة التاتار فالتقى العسكران بنواحي ارزنكان بموضع يسمى كوساذاغ و أوا وهلة باشر المسلمون و من معهم الجيوش النصرانية الحرب و هلوا وادبروا ولوا هاربين فانهزم السلطان مبهوتاً فأخذ نساءه و أولاده من قيسارية و سار إلى مدينة انقورة فتحصن بها. و أقام المغول يومهم ذلك مكانهم و لم يقدموا على التقدم فظنوا أن هنال كميناً إذ لم يروا قتالاً يوجب هزيمتهم و هم في تلك الكثرة من الأمم المختلفة. فلما تحققوا الأمر انتشروا في بلاد الروم فنازلوا

أولاً مدينة سيواس فملكوها بالأمان و أخذوا أموال أهلها عوضاً عن أرواحهم و أحرقوا ما وجدوا بها من آلات الحرب و هدموا سورها. ثم قصدوا مدينة قيسارية فقاتل أهلها أياماً ثم عجزوا ففتحوها عنوة و رموا فيها السيف و أبادوا أكابرها وأغنياءها معاقبين على اظهار الأموال و سبوا النساء و الأولاد و خربوا الأسوار و عادوا و لم يتوغلوا في باقي بلاد السلطان. و لما سمع أهل ملطية ما فعل التاتار بقيسارية هلعوا و جزعوا أفحش الجزع. فأجفل رشيد الدين الخويني أميرها و معه أصحابه طالبين حلب و كذلك من أمكنه الهرب من أماثلها. و كان من جملة من يريد الخروج بأهله والدي فأحضر الدواب و كان لنا فيها بغل للسرج فلما أرادوا شد الاكاف عليه ليحملوه شمص و تفلت. فبينما هم يتبعونه في الزقاق ليلزموه قالوا لهم: إن الفتيان من العامة وثبوا في باب المدينة و ينهبون كل من رأوه يخرج. فأمسك والدي عن الخروج و اجتمع بالمطران دينوسيوس و تشاوروا في مرابطة المدينة و جمعا المسلمين و النصارى في البيعة الكبيرة و تحالفوا أن لا يخون بعضهم بعضاً و لا يخالفوا المطران في جميع ما يتقدم إليهم من مداراة التاتار و القيام بحفظ المدينة و البيتوتة على أسوارها و كف أهل الشر عن الفساد. فنظر الله إلى حسن نياتهم و دفع العدو عنهم و وصلوا بالقرب من ملطية و لم يتعرضوا إليها. و أما الذين خرجوا من المدينة مجفلين فأدركهم المغول عند قرية يقال لها باجوزة على عشر فراسخ من المدينة فقتلوا الرجال و سبوا النساء و الأولاد و من سلم منهم في المغائر و الشعاب و الأودية الغائرة من النساء و الرجال عاد إلى ملطية عرياناً حافياً و كان ذلك في شهر تموز سنة الف و خمسمائة و أربع و خمسين للإسكندر. و كر المغول على مدينة ارزنكان و ملكوها عنوة و قتلوا رجالها و سبوا الذراري و نهبوها و خربوا سورها و مضوا. و لما راى السلطان العجز عن مقاومة التاتار أرسل إليهم رسلاً يطلب الصلح فصالحوه على مال و خيل و أثواب و غيرها يعطيهم كل سنة مبلغاً معيناً مقاطعة.

و فيها توفي الإمام المستنصر بالله الخليفة ببغداد و كان عاقلاً عادلاً لبيباً كريماً كثير الصدقات عمر المدارس و المساجد و الرباطات القديمة و كان قد تهدم معظمها و من شدة غرامه بمدرسته المعروفة بالمستنصرية اعمر لصقها بستانا خاصاً له فقل ما يمضي يوم إلا و يركب في السيارة و يأتي البستان يتنزه فيه و يقرب من شباك مفتح في إيوان المدرسة ينظر إلى البستان و عليه ستر فيجلس وراء الستر و ينظر إلى المدرسة و يشاهد أحوالها و أحوال الفقهاء و يشرف عليهم و يتفقد احوالهم. و كانت مدة خلافته نحو ثماني عشرة سنة.

و في سنة خمس و عشرين و ستمائة توفي حسنون الطبيب الرهاوي و كان فاضلاً في فنه علماً و عملاً ميمون المعالجة حسن المذاكرة بما شاهده من البلاد. و كان أكثر مطالعته في كتاب اللوكري في الحكمة.

و كان شيخاً بديناً بهياً دخل إلى مملكة قلج أرسلان و خدم أمراء دولته كأمير اخور سيف الدين و اختيار الدين حسن و اشتهر ذكره. ثم خرج لى ديار بكر و خدم من حصل هناك من بيت شاه أرمن و هزارديناري ثم الداخلين على تلك الديار من بيت ايوب و رجع إلى الرها. و لما تحقق أن طغرل الخادم تولى أتابكية حلب و له به معرفة من دار أستاذه اختيار الدين حسن في الديار الرومية جاء إليه إلى حلب و لم يجد عنده كثير خير و خاب مسعاه فإنه كان منكسراً عند اجتماعه به و انفصاله عنه. فلما عوتب الخادم على ذلك من أحد خواصه قال: أنا مقصر بحقه لأجل النصرانية. و لما عزم على الارتحال إلى بلده أدركته حمى أوجبت له إسهالاً سحجياً ثم شاركت الكبد في ذلك فقضى نحبه و دفن في بيعة اليعاقبة بحلب.

و في سنة ست و عشرين و ستمائة توفي يعقوب بن صقلان الطبيب النصراني الملكي المقدسي و كان مولده بالقدس الشريف و به قرأ شيئاً من الحكمة على تاذوري الفيلسوف الانطاكي و سيأتي ذكره بعد هذا التاريخ. و أقام يعقوب هذا بالقدس على حالته في مباشرة البيمارستان إلى أن ملكه الملك الأعظم بن الملك العادل بن أيوب فاختص به و لم يكن عالماً و إنما كان حسن المعالجة بالتجربة البيمارستانية و لسعادة كانت له. ثم نقله الملك المعظم إلى دمشق و ارتفعت عنده حاله و كثر ماله و أدركه نقرس و وجع مفاصل أقعده عن الحركة حتى قيل أن الملك المعظم كان إذا احتاج إليه في أمراضه استدعاه بمحفة تحمل بين الرجال. و لم يزل على ذلك إلى أن مات المعظم صاحبه و مات هو بعده بقليل.

و من الأطباء المشهورين في هذا الزمان الحكيم أبو سالم النصراني اليعقوبي الملطي المعروف بابن كرابا خدم السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم و تقدم عنده و كان قليل العلم بالطب إلا أنه كان أهلاً لمجلسه لفصاحة لهجته في اللسان الرومي و معرفته بأيام الناس و سير السلاطين. و في سنة اثنتين و ثلاثين لما سار علاء الدين من ملطية إلى خرتبرت ليملكها تخلف عنه أبو سالم هذا و لم يسر في ركابه و كان السلطان لا يصبر عنه ساعة. و لما بات السلطان على الفرات و لم يأته الحكيم أمر الشحنة الذي على الزواريق أن نهار غد إن جاء أبو سالم قبل الزوال فليعبر و إن جاء بعده لا تمكنه من العبور. فلما كان من الغد تأخر مجيئه إلى العصر فأخبره الشحنة بمرسوم السلطان فأحس بتغير فعاد إلى منزله و شرب سماً و مات. و منهم الحكيم شمعون الخرتبرتي و كان أيضاً ضعيف العلم لكنه كان خيراً ديناً كثير الصوم و الصلاة. و انتشى له ولد حسن محصل و أجاد الخط العربي و صار فيه طبقة و مات في حداثة سنه ففجعت مصيبته أباه.

و في هذا الزمان كان جماعة من تلامذة الإمام فخر الدين الرازي سادات فضلاء أصحاب تصانيف جليلة في المنطق و الحكمة كزين الدين الكشي و قطب الدين المصري بخراسان و أفضل الدين الخونجي بمصر و

شمس الدين الخسروشاهي بدمشق و أثير الدين الأبهري بالروم و تاج الدين الارموي وسراج الدين الارموي بقونية. حكى النجيب الراهب المصري الحاسب بدمشق عن الملك الناصر داود بن الملك المعظم بن الملك العادل ابن ايوب صاحب الكرك أنه كان يتردد إلى شمس الدين الخسروشاهي يقرأ عليه كتاب عيون الحكمة للشيخ أبي علي بن سينا و كان إذا وصل إلى رأس المحلة التي بها منزل الخسروشاهي أومأ إلى من معه من الحشم و المماليك ليقفوا مكانهم و يترجل و يأخذ كتابه تحت إبطه ملتفاً بمنديل و يجيء إلى باب الحكيم و يقرعه فيفتح له و يدخل و يقرأ و يسأل عما خطر له ثم يقوم و لم يمكن الشيخ من القيام له.

"المستعصم بن المستنصر": و في سنة أربعين و ستمائة بويع المستعصم يوم مات أبوه المستنصر و كان صاحب لهو و قصف شغف بلعب الطيور و استولت عليه النساء و كان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول و كان إذا نبه على ما ينبغي أن يفعله في أمر التاتار إما المداراة و الدخول في طاعتهم و توخي مرضاتهم أو تجيش العساكر و ملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم و استيلائهم على العراق فكان يقول: أنا بغداد تكفيني و لا يستكثروها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد و لا أيضاً يهجمون علي و أنا بها و هي بيتي و دار مقامي. فهذه الخيالات الفاسدة و أمثالها عدلت به عن الصواب فأصيب بمكاره لم تخطر بباله.

و في سنة إحدى و أربعين غزا يساور نوين الشام و وصل إلى موضع يسمى حيلان على باب حلب و عاد عنها لخفيٍ أصاب خيول المغول و اجتاز بملطية و خرب بلدها و رعى غلاتها و بساتينها و كرومها و أخذ منها أموالاً عظيمة حتى خشل النساء و صلبان البيع و وجوه الأناجيل و آنية القداس المصوغة من الذهب و الفضة ثم رحل عنها. و طلب طبيباً يداويه في سحج عرض له فأخرج إليه و الدي و سار معه إلى خرتبرت فدبره حتى برأ. ثم جاء و لم يطل المقام بملطية و رحل بنا إلى إنطاكية فسكناها. و أقحطت البلاد بعد ترحال التاتار و وبئت الأرض فهلك عالم و باع الناس أولادهم باقراص الخبز.

و في سنة اثنتين و أربعين أغر التاتار على بلد بغداد و لم يتمكنوا من منازلتها. و فيها سير السلطان غياث الدين جيشاً عظيماً إلى مدينة طرسوس فحاصروها مدة و ضيقوا عليها و كادوا يفتحونها عنوة فاتفق أن مات السلطان غياث الدين في تلك الأيام. فلما بلغهم موت السلطان رحلوا عنها خائبين و كان الوقت خريفاً و تواترت على الروميين الأمطار و توحلت خيولهم فنال منهم رجالة الأرمن و غنموا أثقالهم. و كان السلطان غياث الدين مقبلاً على المجون و شرب الشراب غير مرضي الطريقة منغمساً في الشهوات الموبقة تزوج ابنة ملك الكرج فشغفه حبها و هام بها إلى حد أن أراد تصويرها على الدراهم فأشير عليه

أن يصور صورة أسد عليه شمس لينسب إلى طالعه و يحصل به الغرض. و خلف غياث الدين ثلاثة بنين عز الدين و أمه رومية ابنة قسيس و ركن الدين و أمه أيضاً رومية و علاء الدين و أمه الكرجية. فولي السلطنة عز الدين و هو الكبير و حلف له الأمراء و خطب له على المنابر و كان مدبره و الأتابك له الأمير جلال الدين قرطاي رجل خير دين صائم الدهر ممتنع عن أكل اللحم و مباشرة النساء لم ينم في فراش وطيء و إنما كان نومه على الصناديق في الخزانة أصله رومي و هو من مماليك السلطان علاء الدين و تربيته و كان له الحرمة الوافرة عند الخاص و العام. و في سنة ثلاث و أربعين ترددت رسل المغول في طلب السلطان عز الدين ليحضر بنفسه في خدمة قاان. فتعلل محتجاً بمعاداة من يجاوره من ملوك اليونانيين و الأرمن اياه و أنه متى فارق بلاده ملكها هؤلاء و كان يرضي الرسل بالهدايا و بذل الأموال و يدافعهم من وقت إلى وقت. ثم سير أخاه ركن الدين و فوض تدبيره إلى بهاء الدين الترجمان و جعله أتابكه و أرسله صحبته و استوزر عز الدين لنفسه رجلاً اصفهانياً و هو صاحب علم و فضل يلقب بشمس الدين فتمكن من الدولة إلى حد أن تهيأ له التزوج بأم السلطان عز الدين فثقل ذلك على الأمراء طراً.

و فيها مرض قاان و لما اشتد مرضه سير رسولاً في طلب ابنه كيوك فأهرع إليه من غير توقف فلم يمهل القضاء ليجتمع بالوالد فأقام بالمكان الذي بلغه فيه وفاته و كانت والدته توراكينا خاتون ذات دهاء كافية فطنة فاتفق جغاتاي و باقي الأولاد على أنها تتصرف في تدبير الممالك إلى وقت القوريلتاي لأنها أم الأولاد الذين لهم استحقاق الخانية. و في سنة أربع و أربعين و ستمائة تم اجتماع الأولاد و الأحفاد و أمراء المغول في وقت الربيع و حضر في المجمع من غير المغول أيضاً مما وراء النهر و تركستان الأمير مسعود بيك و من خراسان الأمير أرغون آغا و صحبته أكابر العراق و اللور و أذربيجان و شروان. و من الروم السلطان ركن الدين. و من الأرمن الكندسطبل اخو التكفور حاتم. و من كرجستان الداودان الكبير و الصغير. و من الشام أخو الملك الناصر صاحب حلب. و من بغداد فخر الدين قاضي القضاة و من علاء الدين صاحب الالموت محتشمو قهستان. فإذ تم هذا المجمع العظيم الذي لم يعهد مثله وقع الاتفاق على كيوك. و كان له أخوان آخران أحدهما يسمى كوبان و الآخر طفل يسمى سيرامون. و إنما اختير هو من دونهما لكونه مشهوراً بالغلبة و الشطط و الاقتحام و التسلط و كان هو أكبر الأخوة فأهل للولاية و أجلس على سرير الملك و خدموه و دعوا له كالعادة و أطاعوه و كيوك خان سموه. و في سنة خمس و أربعين و ستمائة و لى كيوك خان على بلاد الروم و الموصل و الشام و الكرج نويناً اسمه ايلجيكتاي. و على ممالك الخطا الصاحب يلواج. و على ما وراء النهر و تركستان الأمير مسعود. و على بلاد خراسان و العراق و أذربيجان و شروان و اللور و كرمان و فارس و طرف الهند الأمير أرغون آغا.

و قلد سلطنة بلد الروم السلطان ركن الدين. و أمر بعزل السلطان عز الدين. و جعل داود الصغير المعروف بابن قيز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس. و أما رسول الخليفة فخاطبه خطاب واعد و موعد بل واعظ و منذر.و أما رسل الملاحدة فصرفهم مذلين مهانين. و كتب يراليغ عهد وامان للتكفور و الملك الناصر صاحب حلب.

و كان بمقام الأتابكية لكيوك خان أمير كبير اسمه قداق و كان معمداً مؤمناً بالمسيح و شاركه في ذلك أمير آخر اسمه جينقاي فهذان أحسنا النظر إلى النصارى و حسنا يقين كيوك خان و والدته و أهل بيته بالمطارنة و الأساقفة و الرهابين فصارت الدولة مسيحية و ارتفع شأن الطوائف المنتمية إلى هذا المذهب من الفرنج و الروس و السريان و الأرمن. و التزم الخاص و العام من المغول و غيرهم ممن هو بينهم أن يقولوا في السلام برخمر و هو لفظ مركب سرياني معناه بارك مالكي.

و في سنة ست و أربعين و ستمائة وصل السلطان ركن الدين و بهاء الدين الترجمان إلى بلد الروم و معهما ألفا فارس من المغول. فهم الوزير شمس الدين الأصفهاني أن يأخذ السلطان عز الدين و يصعد إلى بعض القلاع التي على البحر و يقيما هناك عاصيين إلى أن يفعل الله ما يشاء. فعلم بذلك جلال الدين قرطاي الرجل الصالح فقبض على الوزير الأصفهاني و سير فأعلم بهاء الدين الترجمان بذلك فأنفذ جماعة من أمراء المغول فأتوا إلى قونية و قرروا الوزير على الأموال و الخزائن ثم قتلوه. و اجتمع بهاء الدين الترجمان بجلال الدين قرطاي و اتفقا على أن توزع البلاد على الأخوين فتكون قونية و اقسرا و انقرة و إنطاكية و باقي الولايات الغربية لعز الدين. و قيسارية و سيواس و ملطية و ارزنكان و ارزن الروم و غيرها من الولايات الشرقية لركن الدين. و أقطعا لعلاء الدين الأخ الصغير من الأملاك الخاصة ما يكفيه و ضربوا السكة باسم الثلاثة و كتبوا السلاطين الأعاظم عز و ركن و علاء.

و في سنة سبع و أربعين و ستمائة توفيت توراكينا خاتون أم كيوك خان فتشاءم كيوك خان بذلك المقام و رحل عنه متوجهاً إلى البلاد الغربية. و لما وصل إلى ناحية قمستكي و بينها و بين مدينة بيش بالغ خمس مراحل أدركه أجله في تاسع ربيع الآخر فأرسلت زوجته المسماة اغول غانميش رسولاً إلى باتوا و أعلمته بالقضية و توجهت هي إلى جانب قوتاق و إيميل و أقامت بالمكان الذي كان يقيم به كيوك خان أولاً.

فسيرت سرقوتني بيكي زوجة تولي خان و هي أكبر الخواتين يومئذٍ إليها رسولاً تعزيها و حمل إليها ثياباً و بوقتاقاً. و فيها سار باتوا من بلاده الشمالية متوجهاً إلى المشرق ليجتمع بكيوك خان لأنه كان يلج إليه بالمسير إليه فلما وصل إلى موضع يقال له الاقماق و بينه و بين مدينة قياليق ثماني مراحل بلغه وفاة كيوك خان فأقام هناك و سير رسولاً إلى أغول غانميش زوجة كيوك خان و أذن لها بالتصرف في الممالك إلى أن

يقع الاتفاق على من يصلح أن يلي الأمر و أرسل أيضاً إلى الجوانب ليجتمع الأولاد و العشائر و الأمراء. و فيها خرج ريدافرنس ملك فرنجة قاصداً للديار المصرية فجمع عساكره فأرسلها و راجلها جموعاً عظيمة و أزاح عليهم فسار عن بلاده بأموال جزيلة و أهبة جميلة و أرسى بعكا و انبث أصحابه في جميع بلاد الساحل. فلما استراحوا جاؤوه حاشدين حافلين و ساروا في البحر إلى دمياط و ملكوها بغير تعب و لا قتال لأن أهلها لما بلغهم ما هم عليه الفرنج من القوة و الكثرة و العدة الكاملة هالهم أمرهم فرحلوا عنها مخفين. فوصل إليها الفرنج و لقوها خالية عن المقاتلين غير خاوية من الأرزاق فدخلوها و غنموا ما فيها من الأموال. و كان الملك الصالح بن الملك الكامل صاحب مصر يومئذ بالشام يحاصر مدينة حمص. فلما سمع بذلك بأن الفرنج قد ملكوا دمياط رحل عن حمص و سار مسرعاً إلى الديار المصرية و مرض في الطريق و عند وصوله إلى المنصورة عرض له في فخذه الداء الذي يسمونه الأطباء غانغرانا ثم استحكم الفساد فيها حتى آل أمرها إلى سفاقلس و هو موت العضو أصلاً فقطعوها و هو حي. و بينما هو يكابد الشدائد في هذه الحالة وافاه مقدمو دمياط الذين أخلوها منهزمين فلما قيل له ما صنعوا لأنهم فروا عنها من غير أن يباشروا حرباً و قتالاً عظم ذلك عليه فأمر بصلبهم و كانوا أربعة و خمسين أميراً فصلبوا كما هم بثيابهم و مناطقهم و خفافهم. ثم مات من غد ذلك اليوم. و تولى تدبير المملكة الأمير عز الدين المعروف بالتركماني و هو أكبر مماليك الترك. و كان مرجوعه في جميع ذلك مما يعتمده من الأمور إلى حظية الملك الصالح المتوفى المسماة شجر الدر و كانت تركية داهية الدهر لا نظير لها في النساء حسناً و في الرجال حزماً. فاتفقا على تمليك الملك المعظم بن الملك الصالح. و كان يومئذٍ مقامه بحصن كيفا من ديار بكر فأرسلا رسولاً في طلبه و حثاه على المصير إليهم. فسار إلى الديار المصرية من غير توقف فبايعوه و حلفوا له و سلموا إليه ملك أبيه.

و في سنة ثماني و أربعين و ستمائة سير ريدافرنس عسكراً نحو ألفي فارس نحو المنصورة ليجس بهم ما هم عليه المصريون من القوة. فلقيهم طرف من عسكر المسلمين فاقتتلوا قتالاً ضعيفاً فانهزم المسلمون بين أيديهم فدخل الفرنج المنصورة و لم ينالوا منها نيلاً طائلاًلأنهم حصلوا في مضايق أزقتها و كان العامة يقاتلونهم بالحجارة و الآجر و التراب و خيولهم الضخمة لم تتمكن من الجولان بين الدروب. و كان القائد لعسكر المسلمين فخر الدين عثمان المعروف بابن السيف أحد الأمراء المصريين شيخ كبير أحاط به الفرنج و هو في الحمام يصبغ لحيته فقتلوه هناك. و عادوا إلى ريدافرنس و أعلموه بما تم لهم مع ذلك العسكر و بالمدينة. فزاد طمعه و طمع من معه من البطارقة ظانين أنه إذا كان الالتقاء خارج الجدران بالصحراء لم يكن للمسلمين عليهم مقدرة.فعبى جيوشه و سار بهم طالباً أرض مصر. فصبر المصريون إلى

أن عبر الفرنج الخليج من النيل المسمى اشمون و هو بين البرين بر دمياط و بر المنصورة. فتوجهوا نحوهم و التقى العسكران و اقتتل الفريقان قتالاً شديداً. و انجلت الحرب عن كسرة الفرنج و هزموا افحش هزيمة و منعهم الخليج المذكور من أن يفوزوا و ينجوا بأرواحهم فغرق منهم خلق كثير و قتل آخرون و أسر الملك ريدافرنس و معه جماعة من خواصه و أكابره. فلما حصل ملك الفرنج في قبضة الملك المعظم قال له المماليك الصغار أقرانه: إننا نرى الأمر كله إلى شجر الدر و الأمراء و ليس لك من السلطنة إلا اسمها فلو كنت في الحصن كنت أرفه خاطراً منك و أنت صاحب مصر و الحكم لغيرك و السبب في هذا ليس إلا حاجتك إليهم في مقاومة الفرنج و ليس لك عدو سواهم فالرأي أن تصالح هذا الملك و من معه من أمرائه إلى أي مدة شئت فإنه لا يخالفك في جميع ما تريد منه إذا اصطنعته و وهبت له روحه و تأخذ منه الأموال و الجواهر التي له في دمياط و يسلم إليك دمياط و يذهب في حال سبيله و تأمن شره و شر أهل ملته و تستريح من الأمراء و استخدام الجند و تبقي في ملكك من اخترت و تزيل من كرهت. فصغا المعظم إلى قولهم و استصوب رأيهم و دبر الأمر مع ريدافرنس و حلفه كما أراد من غير أن يشاور الأمراء الكبار في شيءٍ من ذلك. فأحسوا بالقضية و تحققوا تغير المعظم عليهم و ما قد نوى أن يفعل بهم فنقموا عليه و وثبوا به فهرب منهم و صعد إلى برج من خشب كان هناك فضربوا فيه النار فلما وصلت إليه و شاطته رمى نفسه إلى الخليج النيلي. فجاؤوا إليه و رموه بالنشاب و هو في الماء فمات غريقاً جريحاً.

و اتفق الأمراء التراك و قدموا عليهم أميراً منهم يلقب بعز الدين التركماني و نهضوا إلى ريدافرنس و جددوا معه اليمين و افتدي منهم بألف ألف دينار و تسلم دمياط فأطلقوه ثم سار التركماني من المنصورة إلى مصر و أقطع الإسكندرية لأمير من الترك يقال له فارس اقطاي و تزوج شجر الدر و صار ملك مصر في قبضتهما. و أما ريدافرنس لما وصل إلى دمياط أخذ أهله و من تخلف من أصحابه و خرج عنها و سلمها إلى المسلمين و أقام هو بعكا و بنى مدينة قيسارية و أصلحها و أسكنها جماعة ثم سار إلى بلده.

و لما ولي التركماني الديار المصرية كان الأمر كله إلى شجر الدر لا تمكنه التصرف إلا فيما يصدر عن رأيها فكره ذلك و لم يطق احتماله و هم بإهلاكها. فشعرت بذلك و سبقته. ففعلت به ما أراد أن يعمل بها و أشلت عليه المماليك الصغار. و في بعض الأيام لما دخل الحمام و كانوا يسكبون على رأسه الماء ليغتسل جرحوه بالسكاكين فقتلوه. و قيل مقلوا رأسه في الماء داخل الخزانة إلى أن اختنق مغطوطاً. و أمرت شجر الدر أن يخرج و يدفن فأخرجوه و دفنوه في الدار. و لما بلغ ذلك الأمراء الكبار عظم عليهم فعلها فوثبوا بها و قتلوها و رموها في الخندق فأكلتها الكلاب. و قدموا عليهم واحداً منهم اسمه قوتوز فحلفوا له و ملكوه و لقبوه الملك المظفر. و لما استولى المماليك على الديار المصرية سار الملك الناصر

صاحب حلب بجريدة إلى دمشق فسلمها إليه أهلها فملكها و أقام بها و صارت دار مملكته. ثم راسله بعض المماليك من مصر ليسير إليهم فيسلموا له مصر فعبى عسكره و سار إلى نحو الديار المصرية ليملكها كما ملك دمشق. فلمابلغ أمراء الترك ذلك بادروا إليه في عساكرهم و التقوا الشاميين بناحية غزة و كسروهم و هزموهم فعاد الملك الناصر فيمن معه خائباً خاسراً. و فيها ملك بدر الدين لؤلؤ جزيرة ابن عمر و أسر صاحبها الملك مسعود بن الملك المعظم من بيت أتابك زنكي و سيره في ركوة إلى الموصل و تقدم إلى من وكل به ليرميه ليلة في دجلة فغرقوه و أخبروا أنه رمى نفسه و هم نيام و لم يحسوا بما فعل.

و فيها اجتمع أولاد الملوك و أمراء المغول فوصل من حدود قراقورم مونككا بن تولي خان. و أما سيرامون و باقي أحفاد و خواتين قاان فسيروا قنقورتقاي و كتبوا خطهم أنه قائم مقامهم و أن باتوا هو أكبر الأولاد و هو الحاكم هو راضون بما يرضاه. و أما أغول غانميش خاتون زوجة كيوك خان و من معها من أولاد الملوك فوصلوا إلى خدمة باتوا و لم يقيموا عنده أكثر من يوم بل رجعوا إلى أوردوهم و استنابوا أميراً منهم يقال له تيمور نوين و أذنوا له أن يوافق ما يتفق عليه الجمع كله و إن اختلفت الأهواء لا يطيع أحداً حتى يعلمهم كيفية الحال. فبقي جغاتاي و مونككا و سائر من كان حاضراً من الأولاد و الأحفاد و الأمراء يتشاورون أياماً في هذا الأمر و فوضوا الأمر إلى باتوا لأنه أكبر الجماعة و أشدهم رأياً. فبعد ثلاثة أيام من يوم التفويض قال: إن مثل هذا الخطب الخطير ليس فينا من يفي بحق القيام به غير مونككا فوافقوه كلهم على ذلك و أجلسوه على سرير المملكة و باتوا مع باقي الأولاد و الأكابر خدموه جاثين على ركبهم كالعادة. و انصرف كل واحدٍ إلى مقامه على بناء أنهم يجتمعون في السنة المقبلة و يعملون مجمعاً كبيراً ليحضره من الأولاد و الأكابر من لم يحضر الآن. و في سنة تسع و أربعين و ستمائة في وقت الربيع حضر أكثر الأولاد مثل بركة أغول و أخوه بغاتيمور و عمهم الجتاي الكبير و الأمراء المعتبرين من اردو جنكزخان. و في اليوم التاسع من ربيع الآخر كشفوا رؤوسهم و رموا مناطقهم على أكتافهم و رفعوا منوككا على سرير المملكة و مونككا قاان سموه و جثوا على ركبهم تسع مرات. و كان له حينئذٍ سبعة من الأخوة: قبلاي، هولاكو، اريغبوكا، موكا، بوجك، سبكو، سونتاي، فترتبوا جالسين على يمينه و الخواتين على يساره و عملوا الفرحة سبعة أيام. و بينما هم يحسرون و يسرون إذ وصل قدغان أغول و ابن أخته ملك أغول و قراهولاكو و قاموا بمراسم التهنئة و شرائط الخدمة. و كان الجماعة بانتظار أغول غانميش زوجة كيوك خان و ولدها خواجة أغول و أمرائهم و لم يصل بعد أحد منهم. و في سنة خمسين و ستمائة توجهت أغوا غانميش و جماعتها في عساكرهم نحو أردو مونككا خان. و كان المقدم على جيوشهم سيرامون و ناقوا. و لما قربوا اتفق أن رجلاً من أردو مونككا قاان من

الذين يربون السباع لأولاد الملك هرب منه أسد فخرج في طلبه دائراً عليه بالجبال و الصحاري فاجتاز بطرف من عسكر سيرامون و لقي صبياً منهم قد انكسرت عجلته و هو جالس عندها. فلما رأى السباع المذكور مجتازاً استدعاه ليستعين به في ترميم عجلته فأجابه السباع إلى ذلك و نزل من فرسه و أخذ يصلح معه العجلة. فوقع بصره على أسلحة مستورة في باطن العجلة فسأل الغلام عنها. فقال له: ما أغفلك كأنك لست منا كيف لم تعرف أن كل العجل التي معنا كهذه مشحونة بآلات الحرب. فلما تحقق ذلك ترك طلب الأسد الآبق و سار مسيرة ثلاثة أيام في يوم واحد عائداً إلى أصحابه و أعلمهم بما رأى و سمع. فأمر مونككا قاان أن يمضي إليهم منكسار في ألفي فارس و يستكشف حالهم. فمضى و ذكر لهم ما نقل عنهم فلم يتمالكوا و داخلهم الرعب و لم يسعهم إلا التسليم لما يقضى عليهم. و لما حضر الكبير منهم و الصغير وقع السؤال و ثبتت الجريمة عليهم فجوزوا بما استوجبوا من الهلاك و تقسيم عساكرهم على الأولاد و الأمراء. و لما فرغ خاطر مونككا قاان من أمر المخالفين شرع في ترتيب العساكر و ضبط الممالك فأقطع بلاد الخطا من حد الميري إلى سليكاي و تنكوت و تبت لقبلاي أغول أخيه. و البلاد الغربية لهولاكوأخيه الآخر و من جهة تحصيل الأموال. و ولى على البلاد الشرقية من شاطئ جيحون إلى منتهى بلاد الخطا الصاحب المعظم يلواج و ولده مسعود بيك. و على ممالك خراسان و مازندران و هندوستان و العراق و فارس و كرمان و لور و اران و أذربيجان و كرجستان و الموصل و الشام الأمير أرغون آغا. و أمر أن المتمول الكبير ببلاد الخطا يؤدي في السنة خمسة عشر ديناراً و الوضيع ديناراً واحداً. و ببلاد خراسان يزن المتمول في السنة عشرة دنانير و الفقير ديناراً واحداً. و من مراعي ذوات الأربع الذي يسمونه قويجور يؤخذ من كل من له مائة رأس من جنس واحد رأس واحد و ن ليس له مائة لا يؤخذ منه شيء. و أطلق العباد و أرباب الدين من الوثنيين و النصارى و المسلمين من جميع المؤونات و الأوزان و التكليفات.

و فيها و هي سنة ألف و خمسمائة و ثلاث و ستين للإسكندر توجه حاتم ملك الأرمن إلى خدمة مونككا قاان أخذ قربان خميس الفصح و رحل عن مدينة سيس يوم الجمعة الصلبوت و خرج متنكراً مع رسول له بزي بعض الغلمان و أخذ على يده جنيباً يجذبه خلف الرسول لأنه كان خائفاً من السلطان صاحب الروم.و ذكر الرسول اين ما جاء و اجتاز من بلد الروم أنه قد أرسله الملك حاتم ليأخذ له الأمان من مونككا قاان فإذا أمنه توجه هو بنفسه إلى حضرته. حدثني الملك حاتم عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد سنين من عودته من خدمة مونككا قاات قال: عبرت بقيسارية و سيواس مع الرسول و لم يعرفني أحد من أهلها قط إلا لما دخلنا مدينة ارزنكان عرفني رجل من السوقية كان قد سكن عندنا فقال: إن كانتا هاتان عيني فهذا ملك سيس. فلما سمع الرسول كلامه التفت إلي و لطمني على خدي و قال: يا

نذل صرت تتشبه بالملوك. فاحتملت اللطمة لأزيل بها ظن من كان ظنه يقيناً.
و في سنة إحدى و خمسين و ستمائة توجه هولاكو إيلخان من نواحي قراقورم إلى البلاد الغربية. و سير معه مونككا قاان الجيوش من كل عشرة اثنين و صحبه أخوه الصغير سنتاي أغول و من جانب باتوا بلغاي بن سبقان و قوتار أغول و قولي في عساكر باتوا. و من قبل جغاتاي تكودار أغول بن بوخي أغول. و من جانب جيحكان بيكي بوقا تيمور في عسكر الاويرات. و من ناحية الخطا ألف بيت من صناع المنجنيقات و أصحاب الحيل في إصلاح آلات الحرب. فكان أمير الترك كيدبوقا الباورجي. و كان القائم مقام هولاكو بأردو مونككا قاان ولده جومغار بسبب أن أمه أكبرخواتين هولاكو أبيه. و أخذ صحبته ابنه الكبير اباقا و ابنه الآخر يسمون و من الخواتين الكبار دوقوز خاتون المؤمنة المسيحية و الجاي خاتون. و في سنة اثنتين و خمسين و ستمائة تواترت الايلجية في طلب السلطان عز الدين صاحب الروم ليحضر هو بنفسه في خدمة مونككا قاان. فتجهز و سار حتى وصل إلى مدينة سيواس. و لما سمع أن الأمراء قد مالوا إلى ركن الدين أخيه و يرومون تمليكه عاد مسرعاً إلى قونية و أرسل أخاه علاء الدين و كتب معه كتباً يذكر فيها: إنني قد سيرت أخي علاء الدين و هو سلطان مثلي و أنا لم يمكنني المجيء بسبب أن أتابكي و مدبري جلال الدين قرطاي قد مات و ظهر لي أعداء من ناحية المغرب فإذا كفيت شرهم جئت المرة الأخرى. فلما سار علاء الدين توفي في الطريق و لم يصل إلى الاردو. و أراد عز الدين أن يقتل ركن الدين أخاه الآخر و يأمن غائلته فأحس الأمراء بذلك و هربوه بأن ألبسوه ثياب بعض غلمان الطباخين و وضعوا على رأسه خوانجه فيها طعام و أخرجوه من الدار و القلعة في جماعة من الصبيان قد حملوا طعاماً إلى بعض الدور. فلما خرج أركبوه فرساً و ساروا به حتىأوصلوه إلى قيسارية و انضم إليهم هناك جماعة من الأمراء و جيشوا و توجهوا نحو قونية ليحاربوا عز الدين. فبرز إليهم عز الدين بمن نعه من العسكر فكسرهم و هزمهم و أسر ركن الدين أخاه و اعتقله بقلعة دوالوا. و في سنة ثلاث و خمسين و ستمائة وصل رسول بايجو نوين إلى السلطان عز الدين يطلب منه مكاناً يشتي به لأن بلد موغان الذي كان يشتوبه صار مشتى لهولاكو. فأبى السلطان أن يجيبه إلى ذلك و طمع فيه و ظنه منهزماً بين يدي هولاكو و جيش و حاربه عند خان السلطان بين قونية و اقسرا و انكسر عز الدين و هرب متوغلاً في بلاده الداخلة. فأخرج بايجو اخاه ركن الدين من الحبس و ملكه على جميع بلاد الروم.

و فيها وصل الملك حاتم و دخل بلده أول أيلول و كان مجيئه صحبة بايجو نوين. و فيها في شهر شعبان نزل هولاكو بمروج مدينة سمرقند و اقام بها أربعين يوماً. و هناك أدرك أخاه سنتاي أغول أجله و أخبر بوفاة أخيه الآخر في طرف بلادر فتكدر خاطره لهاتين الوقعتين فوصل إليه الأمير أرغون و أكثر أكابر

خراسان و قووا عزمهم فعبروا ماء جيحون و كان الوقت شتاءً شديد البرد لا يقشع الغيم و لا ينقطع وقوع الثلج من تلك البقاع إلى وقت حلول الشمس برج الحمل. فأمر الأمراء أن يقصدوا في عساكرهم قلاع الملاحدة و كان مقدم الاسمعيلية يومئذٍ ركن الدين خوزشاه بن علاء الدين فأخرب خمس قلاع من قلاعه التي لم يكن فيها ذخائر للحصار. و أقبل رسول هولاكو إلى حد قصران. و كان كيدبوقا قد سبق ففتح قلعة شاهديز و ثلثاً آخر من قلاعهم. و لما وصل إيلخان إلى عباساباذ سير ركن الدين إلى العبودية صبياً عمره نحو سبع أو ثماني سنين و ذكر أنه ولده. فلم يخف صنيعه على هولاكو و لكن لم يكاشفه في ذلك بل أعز الصبي و أكرمه ثم أعاده إليه. و بعد وصول هذا الابن المزور إلى ركن الدين سير أخاه شيرازنشاه في ثلاثمائة رجل على سبيل الحشر. فسير هولاكو الثلاثمائة إلى جمالاباذ من بلد قزوين و أعاد أخاه محملاً رسالة إليه و هي أنه إلى خمسة أيام إن لم يصل بنفسه إلى الخدمة يحكم قلعته و يستعد للحرب. فأرسل رسولاً يقول: إنه لا يتجاسر على الخروج خوفاً من حشمه الذين معه داخل القلعة لئلا يثبوا به فإذا وجد فرصة جاء. فعرف هولاكو أنه مماطل مدافع من وقت إلى آخر فرحل رابع عشر شوال من سنة أربع و خمسين و ستمائة من بيشكام و نزل على القلعة المحاذية لميمون دره و تقدم بقتل الثلاثمائة رجل من الملاحدة الذين كانوا بجمالاباذ قزوين سراً و صار أهل قزوين يضربون بذلك مثلاً لمن يقتل فيقولون انبعث إلى جمالاباذ. و لما عاين ركن الدين نزول هولاكو بالقرب سير رسولاً يقول: إن سبب تماطلي لم يكن غير أنني ما كنت أحقق وصوله المبارك و الآن أنا نازل اليوم أو غداً. و كان تلك الليلة ليلة الميلاد. فلما عزم على الخروج ثاوره العلاة من الملاحدة و واثبه الفدائيون و لم يمكنوه من الخروج. فسير إلى هولاكو و أعلمه ما هم عليه من التمرد. فأمره أن يداري الوقت معهم محافظاً نفسه منهم و كيف ما كان يحتال للنزول و لو متنكراً. و تقدم إلى الأمراء ليحتفوا بالقلعة و ينصبوا المنجنيقات و يقاتل كل منهم من يقاتله من الاسمعيلية. فلما اشتغل الملاحدة بقتال المغول نزل ركن الدين و معه ولده و خواصه إلى عبودية هولاكو و أظهر الخجلة بل الندامة معترفاً بما اقترفه في الأيام الماضية من الجرائم و الآثام. فشملته لطائف عواطف ايلخان و بدل ما عند ركن الدين من الاستيحاش و الاستنفار بالاستيناس و الاستبشار. و لما تحقق من بالقلعة ما نال صاحبهم من الطمأنينة و الكرامة سلموا القلعة و نزلوا عنها فحاول المغول هدمها و فتحوا أيضاً جميع القلاع التي في ذلك الوادي. و توجه ايلجي إلى متولي قلعة الموت ليتبع مولاه ركن الدين في توخي الايلية و تسليم القلعة. فأبى إلا العصيان إلى أن نازله بلغاي أغول في عساكر جمة فطلب الأمان و سلمها و خرج عنها في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة. و في تلك الأيام وصل شمس الدين محتشم قلاع قهستان و أخذ يرليغاً و سار معه أصحاب ركن الدين إلى قهستان ليخرب جميع القلاع التي هناك و هي تزيد على خمسين حصناً حصيناً و تسلموها و فتحوها إلا قلعتين

منها هما كرذكوه و كمشير فإنهم لم يطيقوا فتحها في الحال إلا بعد سنتين. و وصل أكابر الديلم صالحوا المغول على تخريب قلاعهم. و في أواسط ذي الحجة عاد هولاكو إلى الاردو بناحية همذان و سير ركن الدين و بنيه و بناته و أزواجه إلى قزوين. و في سنة خمس و خمسين و ستمائة التمس ركن الدين خوزشاه من هولاكو أن يسيره إلى عبودية مونككا قاان. فأعجبه ذلك و أرسله و معه تسعة نفر من أصحابه صحبة الايلجية. فلما وصلوا إلى مدينة بخارا خاصم الايلجية و تسافه عليهم فحقدوا عليه. فلما وصلواإلى قراقورم لم يؤذن لركن الدين أن يحضر و برز مرسوم مونككا قاان إليه أن: يجب عليك العود إلى بلدك و التقدم إلى نوابك ليسلموا قلعتي كرذكوه و كمشير فإذا سلموهما و أخربتهما تحضر مرة أخرى و يكون لك التليشميشي أي الإكرام و
القبول. فنكص ركن الدين بهذا الرجاء على عقبه. و في الطريق أهلك مع من كان معه من أصحابه. و وصل يرليغ مونككا قاان إلى هولاكوليقتل الملاحدة بأسرهم و لا يبقى منهم أثر. فأرسل قراقاي اليبتكتجي إلى قزوين و قتل بني ركن الدين و بناته و إخوته و أخواته مع جميع عساكر الملاحدة و أوتكو حنا نوين أيضاً أخرج من رعايا الاسمعيلية بحجة الحشر اثني عشر ألف رجل و قتلهم كلهم و أخلى الأرض من كل من ألحد في دينه.

و فيها سير السلطان عز الدين رسولاً إلى خدمة هولاكو شاكياً على بايجو نوين أنه أزاحه عن ملكه. فأمر هولاكو أن يتقاسما الممالك هو و أخوه ركن الدين. فظهر عز الدين فأتى إلى قونية و مضى ركن الدين مع بايجو نوين إلى مخيمه. و لخوف عز الدين من بايجو نوين وجه مملوكه طفلاً إلى نواحي ملطية و خرتبرت ليستخدم له عسكراً من الأكراد و التركمان و العرب. فوصل هذا المملوك و سير في طلب شرف الدين أحمد ابن بلاس من بلد الهكار و شرف الدين محمد بن الشيخ عدي من بلد الموصل الكرديين فأتياه. فأقطع ابن بلاس ملطية و ابن الشيخ عدي خرتبرت. أما ابن بلاس فلم يقبله اهل ملطية لأنهم كانوا مستحلفين لركن الدين فكان يضطهدهم و يجور عليهم. فما احتملوه و آل أمرهم معه إلى أن وثبوا بأصحابه و قتلوا منهم نحو ثلاثمائة رجل و هرب هو مع من تبعه من أصحابه و اجتازوا ببلد قلوذيا و أحرقوا دير ماذيق يوم الشعانين و عبروا إلى بلد آمد و هناك أدركهم صاحب ميافارقين و قتل ابن بلاس و أسر أصحابه. و أما ابن الشيخ عدي فرحل من خرتبرت ليتصل بالسلطان عز الدين فأدركه أنكورك نوين و قتله و من معه. ثم ولى السلطان عز الدين ملطية رجلاً بطلاً شجاعاً يقال له علي بهادر فقبله أهل ملطية خوفاً من صرامته. و هذا علي حارب الاعجزية و هم قوم مفسدون من التركمان كانوا يغيرون على البلاد و يقتلون أهلها و يسبون الذراري فأسر مقدمهم المسمى جوتي بك و سجنه بقلعة المنشار و

هزم جيوشهم . فأمن الناس شرهم و انفتحت السبل و امتار الناس الطعام و فرج الله عنهم غمهم قيلاً. و بينما هم فرحون بذلك إذ وافاهم بايجو نوين في عساكره و صاروا يقاتلون متسلمي القلاع ليسلموها إلى ركن الدين. و نزلوا على مدينة ابلستين و قتلوا من أهلها نحو ستة آلاف رجل و أسروا النساء و البنين و البنات. و جاؤوا إلى ملطية فهرب علي بهادر إلى كاختة. و خرج أهل ملطية إلى خدمة بايجو نوين بأنواع الترغو و التحف. و كن ذلك في منتصف أيلول سنة ألف و خمسمائة و ثماني و ستين للإسكندر.
فحلفهم لركن الدين و رحل عنهم بعد أن أخذ أموالاً و ولى ركن الدين على ملطية مملوكاً له اسمه فخر الدين اياز. و لما خرج بايجو من حدود الروم طالباً للعراق عاد علي بهادر إلى ملطية فأغلق أهلها الأبواب و لم يمكنوه من الدخول خوفاً من بايجو. فحصرها أياماً و اشتد الغلاء بها و بلغ المكوك من الملح إلى أربعين درهماً و الحنطة المكوك بسبعين درهماً. فضجر الناس و ضاقت بهم الحيلة ففتح العامة الحاكة و غيرهم باباً من أبواب المدينة في بعض الليالي فدخلها علي بهادر و أصحابه التركمانيون عنوةً و أصعد إلى المنابر جماعة ينادون و يقولون: إن الأمير قد أمن الرعية النصارى منهم و المسلمين فليخرج كل واحدٍ إلى عمله و دكانه و ليشتغل ببيعه و شرائه فإنما كلامه مع الحكام.فلما أصبحوا قبض على فخر الدين اياز مملوك السلطان ركن الدين و سجنه و أركب شهاب الدين العارض على بهيم حقير و طوفه بملطية ثم قتله و شد أحد طرفي رسن في رقبة المعين الايكد بشاسي و الطرف الآخر في رقبة كلب و مشاه بالأسواق ثم ضرب عنقه. و عاقب المستوفي الرومي القسيس قالويان و ولده كيريوري و اخويه باسيل و مانويل و استصفى أموالهم ثم قتلهم. و قتل أيضاً الأمراء الثلاثة أولاد الأمير شهاب الدين إيسو الكردي. و اشتد الجوع بملطية و بلدها حتى أكل الناس الكلاب و السنانير و كانوا ينقعون الجلود اليابسة التي لدم بها النعال فيأكلونها مطبوخة. و اجتاز جماعة من أصحابنا بقرية اسمها باعبدون ببلد جوباس من أعمال ملطية فرأوا جماعة من النساء قد اجتمعن في بيت و قدامهن ميت ممدود و بأيديهن السكاكين و هن يشرحن لحمه و يشوينه و يأكلن. و امرأة أخرى شوت ابنها الصغير في تنورٍ لها و لما كبسها مجاوروها حلفت أنها لم تقتله و إنما مات ففعلت به ذلك زاعمة أنها به أولى من الديدان.و بعد ما فعل علي بهادر تلك الرزايا بأعيان ملطية و مثل بأماثلها لم يهنأ له بها عيش لما كان أهلها عليه من البلاء و الجلاء و الجدب. فخرج عنها ملماً بالسلطان عز الدين.

و فيها مرض ثاوذوروس ملك الروم بمدينة نيقية و كان في خدمته بطريق يقال له ميخائيل و يلقب بباليولوغس أي الكلام المتقدم. و ذلك أن العلماء من الروم بعد تغلب الافرنج على القسطنطينية تقدموا فقالوا إن ملكاً في اسمه الميم و الخاء من حروف اليونانيين يترع الفرنج عنها و يعيدها إلى الروم. فكان

الملك ثاوذوروس يخاف هذا ميخائيل لئلا يتغلب على الملك. و لما اشتد خوفه منه سجنه و اعتقله ببعض قلاع بلد تسالونيقي و لم يمكنه إهلاكه بغير جريمة تظهر منه. و في مرضه هذا أرسل بطريقاً يقال له غاذينوس ليأتيه به. فلما وصل غاذينوس هذا إلى ميخائيل قال له سراً: أنت الملك فكن لبيباً و أسلم نفسك إلي و لا تظهر كراهية أصلاً و رأساً ليزول بذلك ما حصل عند الملك من الخيالات في شأنك. فأجاب ميخائيل إلى ذلك و حمله مقيداً إلى الملك. و لما مثل بين يديه بكى و أظهر الكآبة العظيمة. فرق له الملك و حن إليه و أقبل عليه و أوصى إليه في تربية قالويان ابنه و تدبيره و كان الابن وقتئذٍ طفلاً و أشرك معه في ذلك البطريرك ارسانيوس. و بعد مدة مديدة توفي ثاوذوروس و دفن في دير مغنيسيا. و كان له أخت تسمى كيرايلونيا و لها ختن على ابنتها يقال له موزالون فخرجت معه إلى الدير بحجة زيارة قبر الملك و أقاما به أياماً يتشاوران في أمر الملك و اتفقا على أن يقبضا على ميخائيل و من يرى رأيه و يتولى تدبير الطفل موزالون. فشعر ميخائيل بدسيستهما و سير عليهما جماعة من جند الفرنج الذين كانوا في خدمته و أمرهم أن يقتلوهما معاً حيث وجدوهما. فدخل الفرنج الدير و لقوهما في البيعة وقت صلاةالعشاء فقطعوهما موضعهما و نادوا بشعار ميخائيل بمدينة نيقيا قائلين: ميخائيل يا منصور ميخائيل ملك يونان باليولوغس أوطوقراطور رومانيا. و من هناك سار ميخائيل إلى مدينة نيقية و خطب له بالمملكة بجميع تلك البلاد و اعتقل الطفل قالويان ابن الملك ببعض القلاع و نفى البطريرك ارسانيوس الذي وبخه على فعله هذا. و لما تمكن من الملك لم يكن له اهتمام إلا بأخذ قسطنطينية فسار إليها مرة و لم يقدر على فتحها فصبر إلى أن ثارت الفتنة بين البنادقة و الجنوية بمدينة عكا فسار البنادقة أجمعين عن القسطنطينية إلى عكا لنصرة أصحابهم و كانوا هم الحفظة لها. و احتال حيلة أخرى بأن أشار إلى متولي بعض قلاع الروم ليكاتب بغدوين الفرنجي صاحب القسطنطينية و يقول له: إن هذا ميخائيل قد تغلب على مملكة الروم بغير استحقاق و هو ظالم معتد على بيت أستاذه و أنا كاره له و أنت أولى بهذه القلعة منه لأنك ملك ابن ملك و ميخائيل خارجي. فابعث لي عسكراً و أنا أسلمها إليهم و لا بد من منجنيقات تكون معهم فينصبونها و يظهرون القتال و الزحف ليكون لي عذر عند الناس إذا سلمتها. فاغتر بغدوين الفرنجي بكلامه و قدره صادقاً بما قال فأرسل من كان عنده من المقاتلين إلى تلك القلعة و نازلوها و اشتغلوا بنصب المنجنيقات و الاستعداد للقتال. و حينئذٍ عبرميخائيل في عساكره خليج القسطنطينية و نزل عليها و هي خالية عن رجال الحرب و حال بينها و بين العسكر الذي كان على القلعة المذكورة. فدله بعض الرعاة على باب عتيق للمدينة قد عفا أثره و لم يفتح من عهد قسطنطينوس فنبشوه و دخلوا المدينة و ملكوها ليلاًو تغافلوا عن بغدوين صاحبها عمداً حتى خرج في أهل بيته و صار إلى بلاد الفرنج في البحر. و كان مدة بقاء القسطنطينية بيد الفرنج نحو ثلاث و خمسين سنة ثم عادت إلى

الروم كما كانت أولاً.

و فيها في شهر شوال رحل هولاكو عن حدود همذان نحو مدينة بغداد. و كان في أيام محاصرته قلاع الملاحدة قد سير رسولاً إلى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدة فاراد أن يسير و لم يقدر و لم يمكنه الوزراء و الأمراء و قالوا: إن هولاكو رجل صاحب احتيال و خديعة و ليس محتاجاً إلى نجدتنا و إنما غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة. فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن إرسال الرجال. و لما فتح هولاكو تلك القلاع أرسل رسولاً آخر إلى الخليفة و عاتبه على إهماله تسيير النجدة. فشاوروا الوزير فيما يجب أن يفعلوه فقال: لا وجه غير إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال و الهدايا و التحف له و لخواصه. و عندما أخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر و المرصعات و الثياب و الذهب و الفضةو المماليك و الجواري و الخيل و البغال و الجمال قال الدويدار الصغير و أصحابه: إن الوزير إنا يدبر شأن نفسه مع التاتار و هو يروم تسليمنا إليهم فلا نمكنه من ذلك. فبطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة و اقتصر على شيءٍ نزر لا قدر له. فغضب هولاكو و قال: لا بد من مجيئه هو بنفسه أو يسير أحد ثلاثة نفر إما الوزير و إما الدويدار و إما سليمانشاه. فتقدم الخليفة إليهم بالمضي فلم يركنوا إلى قوله فسير غيرهم مثل ابن الجوزي و ابن محيي الدين فلم يجديا عنه. و أمر هولاكو بايجو نوين و سونجاق نوين ليتوجها في مقدمته على طريق اربل و توجه هو على طريق حلوان. و خرج الدويدار من بغداد و نزل بجانب ياعقوبا. ولما بلغه أن بايجو نوين عبر دجلة و نزل بالجانب الغربي ظن أن هولاكو قد نزل هناك فرحل عن ياعقوبا و نزل بحيال بايجور و لقي يزك المغول أميراً من أمراء الخليفة يقال له ايبك الحلبي فحملوه إلى هولاكو فأمنه أن تكلم بالصحيح و طيب قلبه فصار يسير أمام العسكر و يهديهم. و كتب كتاباً إلى بعض أصحابه يقول لهم: ارحموا أرواحكم و اطلبوا الأمان لأن لا طاقة لكم بهذه الجيوش الكثيفة. فأجابوه بكتاب يقولون فيه: من يكون هولاكو و ما قدرته ببيت عباس من الله ملكهم و لا يفلح من يعاندهم و لو أراد هولاكو الصلح لما داس أرض الخليفة و لما أفسد فيها. و الآن إن كان يختار المصالحة فليعد إلى همذان و نحن نتوسل بالدويدار ليخضع لأمير المؤمنين متخشعاً في هذا الأمر لعله يعفو عن هفوة هولاكو. فلما عرض ايبك الكتاب على هولاكو ضحك و استدل به على غباوتهم. ثم سمع الدويدار أن التاتار قد توجهوا نحو الأنبار. فسار إليهم و لقي عسكر سونجاق نوين و كسرهم و هزمهم و في هزيمتهم التقاهم بايجو نوين فردهم و هجموا جميعاً على عسكر الدويدار فاقتتلوا قتالاً شديداً و انجلت الحرب عن كسرة الدويدار فقتل أكثر عسكره و نجا هو في نفر قليل من أصحابه و دخل بغداد.

و في منتصف شهر المحرم من سنة ست و خمسين و ستمائة نزل هولاكو بنفسه على باب بغداد و في يوم و ليلة بنى المغول بالجانب الشرقي سيباً أعني سوراً عالياً و بنى بوقاتيمور و سونجاق نوين و بايجو نوين بالجانب الغربي كذلك و حفروا خندقاً عميقاً داخل السيبا و نصبوا المنجنيقات بإزاء سور بغداد من جميع الجوانب و رتبوا العرادات و آلات النفط. و كان بدء القتال ثاني و عشرين محرم. فلما عاين الخليفة العجز في نفسه و الخذلان من أصحابه أرسل صاحب ديوانه و ابن درنوش إلى خدمة هولاكو و معهم تحف نزرة. قالوا: إن سيرنا الكثير يقول: قد هلعوا و جزعوا كثيراً. فقال هولاكو: لم ما جاء الدويدار و سليمانشاه. فسير الخليفة الوزير العلقمي و قال: أنت طلبت أحد الثلاثة و ها أنا قد سيرت إليك الوزير و هو أكبرهم. فأجاب هولاكو: إنني لما كنت مقيماً بنواحي همذان طلبت أحد الثلاثة و الآن لم أقنع بواحد. و جد المغول بالقتال بإزاء برج العجمي و بوقاتيمور من الجانب الغربي حيث المبقلة و سونجاق نوين و بايجو نوين من جانب البيمارستان العضدي. و أمر هولاكو البتيكتجية ليكتبوا على السهام بالعربية: ان الاركاونية و العلويين و الداذنشمدية و بالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه و حريمه و أمواله. و كانوا يرمونها إلى المدينة. و اشتد القتال على بغداد من جميع الجوانب إلى اليوم السادس و العشرين من محرم. ثم ملك المغول الأسوار و كان الابتداء من برج العجمي. و احتفظ المغول الشط ليلاً و نهاراً مستيقظين لئلا ينحدر فيه أحد. و أمر هولاكو أن يخرج إليه الدويدار و سليمانشاه و أما الخليفة إن اختار الخروج فليخرج و إلا فليلزم مكانه. فخرج الدويدار و سليمانشاه و معهما جماعة من الأكابر. ثم عاد الدويدار من الطريق بحجة أنه يرجع و يمنع المقاتلين الكامنين بالدروب و الأزقة لئلا يقتلوا احداً من المغول فرجع و خرج من الغد و قتل. و عامة أهل بغداد أرسلوا شرف الدين المراغي و شهاب الدين الزنكاني ليأخذ لهم الأمان. و لما رأى الخليفة أن لا بد من الخروج أراد أو لم يرد استأذن هولاكو بأن يحضر بين يديه فأذن له و خرج رابع صفر و معه أولاده و أهله. فتقدم هولاكو أن ينزلوه بباب كلواذ و شرع العساكر في نهب بغداد و دخل بنفسه إلى بغداد ليشاهد دار الخليفة و تقدم بإحضار الخليفة فأحضروه و مثل بين يديه و قدم جواهر نفيسة و لآلىء و دراً معباة في أطباق ففرق هولاكو جميعها على الأمراء و عند المساء خرج إلى منزله و أمر الخليفة أن يفرز جميع النساء التي باشرهن هو و بنوه و يعزلهن عن غيرهن ففعل فكن سبعمائة امرأة فأخرجهن و معهن ثلاثمائة خادم خصي. و بقي النهب يعمل إلى سبعة أيام ثم رفعوا السيف و بطلوا السبي. و في رابع عشر صفر رحل هولاكو من بغداد و في أول مرحلة قتل الخليفة المستعصم و ابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل و قتل ابنه الكبير و معه جماعة من الخواص على باب كلواذ و فوض عمارة بغداد إلى صاحب الديوان و الوزير و ابن درنوش. و أرسل بوقا تيمور إلى الحلة ليمتحن أهلها هل هم على الطاعة أم لا. فتوجه نحوها و رحل

عنها إلى مدينة واسط و قتل بها خلقاً كثيراً أسبوعاً. ثم عاد لى هولاكو و هو بمقام سياكوه.
و كان من الفضلاء المعتبرين في هذه السنين القاضي الأكرم جمال الدين بن القفطي مصنف كتاب تاريخ الحكماء مولده بقفط من أعمال صعيد مصر سنة ثماني و ستين و خمسمائة رحل به أبوه طفلاً و أسكنه القاهرة المعزية وبها قرأ و كتب و شدا شيئاً من الأدب. ثم خرج إلى الشام فأقام بحلب و صحب بها الأمير المعروف بالميمون القصري. و اجتمع في هذه المدة بجماعة من العلماء و استفاد بمحاضرتهم و فقه بمناظرتهم. ثم لازم منزله بعد وفاة الأمير المذكور إلى أن ألزم بالخدمة في أمور الديوان في أيام الملك الظاهر فتولى ذلك و هو كاره للولاية متبرم بها. فلما مات الملك الظاهر عاد فانقطع في منزله مستريحاً من معاناة الديوان مجتمع الخاطر على شأنه من المطالعة و الفكرة منقبضاً عن الناس محباً للتفرد و الخلوة لا يكاد يظهر لمخلوقٍ حتى قلده الملك العزيز وزارته سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة. فلم يزل في هذا المنصب مدة أيام الملك العزيز و الملك الناصر ابنه حتى توفي ثالث عشر رمضان سنة ست و أربعين و ستمائة.

و من حكماء هذا الزمان نجم الدين النخجواني كان ذا يد قوية في الفضائل و عارضة عريضة في علوم الأوائل تفلسف ببلاده و سار في الآفاق و طوف و دخل الروم و ولي المناصب الكبار ثم كره كدر الولاية و نصبها فارتحل إلى الشام و أقام بحلب منقطعاً في دار اتخذها لسكناه لا يمشي إلى مخلوق و لكن يمشى إليه إلى أن مات بها. و كان شديد الميل إلى مذهب التناسخ و له مؤاخذات على منطق الإشارات و شرحها أيضاً و تناول الأفضل الخونجي بالاستنقاص و زيف أقواله في كتاب الكشف فيما يتعلق بعكس النقيض و الموضوع الخارجي و الحقيقي و منعه إنتاج الصغرى الممكنة في الشكل الأول و انعكاس السالبة الكلية الضرورية كنفسها إلى غير ذلك.
و منهم الحكيم ثاذري الإنطاكي اليعقوبي النحلة أحكم اللغة السريانية و اللاطينية بإنطاكية و شدا بها شيئاً من علوم الأوائل. ثم هاجر إلى الموصل و قرأ على كمال الدين ابن يونس مصنفات الفارابي و ابن سينا و حل أوقليذس و المجسطي. ثم عاد إلى إنطاكية و لم يطل المكث بها و لما رأى في نفسه من التقصير في التحصيل فعاد مرة ثانية إلى ابن يونس و أنضج ما استنهأ من علمه و انحدر إلى بغداد و أتقن علم الطب و قيد أوابده و تصيد شوارده و قصد السلطان علاء الدين ليخدمه فاستغربه و لم يقبل عليه فرحل إلى الأرمن و خدم قسطنطين أبا الملك حاتم و لم يستطب عشرتهم فسار مع رسول كان هناك للأمبرور ملك الفرنج فنال منه أفضالاً و وجد له به نوالاً و أقطعه بمدينة كما هي بأعمالها. فلما صلح حاله و كثر ماله اشتاق إلى بلده و أهله و لم يؤذن له بالتوجه فأقام إلى أن امكنته الفرصة بخروج الملك في بعض غزواته إلى بلاد المغرب فضم أطرافه و جمع أمواله و ركب سفينة كان قد أعدها لهربه و سار في البحر مع

من معه من خدمه يطلبون بر عكا. فبينما هم سائرون ذهبت عليهم ريحٌ رمت بهم إلى مدينة كان الملك قد أرسى بها فلما أخبر ثاذري بذلك تناول شيئاً من سم كان معه و مات خجلاً لا وجلاً لأن الملك لم يكن يسمح بإهلاك مثله.

و من الأطباء المشاهير في هذا الزمان الحكيم مسعود البغدادي المعروف بابن القس طبيب حاذق نبيل خدم الخليفة المستعصم و اختص به و طب حرمه و أولاده و خواصه و ارتفعت منزلته لديه. و لما جرى ببغداد ما جرى انقطع عن الناس و لزم منزله إلى أن مات. و خلف ولده غرس النعمة أبا نصر و كان أبو نصر فاضلاً عاقلاً ذا فنون خبيراً بأصول الهندسة فاكاً مشكلاتها و كان ضئيلاً مسقاماً لا يقطع استعمال ماء الشعير صيفاً و شتاءً و كان غزاؤه دوائياًنزراً و مات كهلاً.

و منهم الحكيم عيسى البغدادي المعروف بابن القسيس الحظيري كان أبوه طبيباً فاضلاً يقرأ عليه و يؤخذ منه. و كان حاد المزاج يسرع إليه الغضب. جرى لي معه مفاوضة في أمر تقديم السريان الليل على النهار مستدلين التوراة و هو قوله تعالى: و صار مساء و صار صباح يوماً واحداً. قلت: هذه الحجة عليهم لا لهم لأنها تنبئ عن تقدم نهار آخره مساء و تأخر ليلٍ آخره صباح ليتم بمجموعهما يوم واحد لأن الحاصل من المساء إلى الصباح إنما هو ليلة واحدة و هي نصف يوم لا يوم تام. فلم ينصفني في هذا و لا أجاب عنه بشيء أكثر من قوله: هذا مذهب أهل ملتك فكيف يسعك تكذيبهم. فقلت: أنا تابع فيه لليونانيين و أقيم عذر السريانيين و هو أن شهورهم قمرية و القمر إنما يرى استهلاله مساءً لا صباحاً فجعلوا مبادئ تواريخهم أوائل الليل و مثلهم العبرانيون و العرب لأن الليل مقدم على النهار في نفس الأمر. و مما يستدل به على علو همة الحكيم عيسى ابن القسيس أنه نسخ كتاب القانون بخطه في شبيبته ثم خرجت النسخة عن ملكه بحكم شرعي و حصلت في خزانة المدرسة المستنصرية. فلما أسن طلب النسخة و قابلها و صححها و أعادها إلى مكانها. فنسبه باغضوه إلى فضول و محبوه إلى مثوبة يتوخاها. فقال: كلا الفريقين مخطئ و إنما فعلت ذلك لئلا يزرى علي بعد موتي. و عمر طويلاً و مات شيخاً كبيراً.

و منهم تقي الدين الرأس عيني المعروف بابن الخطاب طبيب مشهور الذكرمتقن لصناعة الطب علمها و عملها غاية الاتقان خدم السلطان غياث الدين و بعده ابنه عز الدين و صار له منزلة عظيمة منهما و رفعاه من حد الطب إلى المعاشرة و المسامرة و أقطعاه إقطاعات جزيلة و كان في خدمتهما بزي جميل و أمر صالح و غلمان و خدم و صادف من دولتهما كل ما سره.

و منهم شرف الدين بن الرحبي و أخوه جمال الدين الدمشقيان. أما شرف الدين فكان بارعاً بالجزء النظري من الطب له معرفة تامة به و اطلاع على أصوله تصدر لإفادة هذا الشأن و أخذ عنه جماعة من

الطلبة و كان قليل التعرض لمباشرة المرضى. و سمعت وقت تحصيلي بدمشق أن له نعاليق و حواشي على القانون و لم أرها. و أما جمال الدين أخوه فكان له عناية تامة في الجزء العملي من الطب و تجارب فاضلة فيه و نفوذ مشهور في المعالجة. صحبته مدة أباشر معه المرضى بالبيمارستان النوري بدمشق و كان حسن الأخلاق لم أر في الجماعات أحسن منه زياً و صمتاً و نطقاً و مبسماً.

و منهم بدر الدين المعروف بابن قاضي بعلبك كان فاضلاً خبيرا بالمباشرة و المعالجة جميل التحيل للبرء و صنف كتاباً لطيف الحجم سماه مفرح النفس جمع فيه جملة ما يتعلق بالحواس الخمسة من المفرحات و أضاف إليه الأدوية المفردة القلبية و مركبات أيضاً حارة و باردة و معتدلة للملوك و الفقراء و أوساط الناس و أخذ فيه على الرئيس في جعله الكسفرة عديدة المفرحات.

و منهم نفيس الدولة الدمشقي النصراني الملكي المعروف بابن طليب و سيأتي ذكره في جملة أطباء هولاكو إذ هو أكبرهم.

و منهم الموفق يعقوب الدمشقي السامري كان طبيباً حاذقاً مصيباً في علاجه مستحضراًللشروح و كان ضنيناً بما يحسنه يشارط من قصده من سائر البلاد للاستفادة على إسماعه أي كتاب أراد قراءته دراهم معلومة. و هذه خساسة مباينة للأنفس الفاضلة.

و من فضلاء هذا الزمان في علوم الأوائل و جميع الفضائل نجم الدين الدمشقي المعروف بابن اللبودي تولى أمور الديوان و قلد الوزارة و الغالب عليه الهندسة و العدد.

و منهم عز الدين الضرير كان من الأفاضل و الأعيان المعدودين من حسنات الزمان. و له مشاركة حسنة في سائر الأنواع الفلسفية و الآداب العربية و كان قوي الذكر و التخيل بحيث أنه كان يقرأ عليه و هو مكفوف ست مقالات من كتاب أوقليذس و كان يحفظ الأشكال بحروفها و يتكلم في حلها.

الدولة العاشرة

المنتقلة إلى ملوك المغول

"هولاكو بن تولي خان" و لما ملك هولاكو بغداد و رتب بها الشحاني و الولاة أنفذ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إليه ابنه الملك الصالح اسمعيل و معه جماعة من عسكره نجدةً له. فأظهر له هولاكو عبسة و قال: أنتم بعد في شك من أمرنا و مطلتم نفوسكم يوماً بعد يوم و قدمتم رجلاً و أخرتم أخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه فلو انتصر الخليفة و خذلنا لكان مجيئكم إليه لا إلينا. قل لأبيك: لقد عجبنا منك تعجباً كيف ذهب عليك الصواب و عدل بك ذهنك عن سواء السبيل و اتخذت اليقين ظناً و قد لاح لك

الصبح فلم تستصبح. فلما عاد الصالح إلى الموصل و بلغ أباه ما حمل من الرسالة الزاجرة أيقن بدر الدين أن المنايا قد كشرت له عن أنيابها و ذلت نفسه و هلع هلعاً شديداً و كاد يخسف بدره و يكسف نوره. فانتبه من غفلته و أخرج جميع ما في خزائنه من الأموال و اللآلئ و الجواهر و المحرمات من الثياب و صادر ذوي الثروة من رعاياه و أخذ حتى حلي حظاياه و الدرر من حلق أولاده و سار إلى طاعة هولاكو بجبال همذان. فأحسن هولاكو قبوله و احترمه لكبر سنه و رق له و جبر قلبه بالمواعيد الجميلة و استأمن إليه و داعبه و قدمه إلى أن أصعده إليه على التخت و أذن له أن يضع بيده في أذنيه حلقتين كانتا معه فيهما درتان يتيمتان. و أقام في خدمته أياماً ثم عاد إلى الموصل مسروراً مبروراً بل مذعوراً مما شاهد من عظمة هولاكو و هيبته و دهائه.

و فيها توجه الأشرف بن الملك الغازي بن الملك العادل صاحب ميافارقين إلى الملك الناصر صاحب حلب يطلب منه نجدة ليمنع المغول من الدخول إلى الشام. فاستخف برأيه و لم يسمع مشورته بل سوفه بكلام و سرحه من عنده بالأمان. و لما وصل إلى ميافارقين مدينته طرد شحاني المغول منها و صلب رجلاً قسيساً كان قد وصل إليه من خدمة قاان باليراليغ و البوايز. و بينما هو كذلك أدركته عساكر المغول و أحاطت بمدينته و في رأس العسكر يشموت بم هولاكو. و في يوم و ليلة بنى المغول حول مدينته سوراً و حفروا خندقاً عميقاً ثم نصبوا عليها المنجنيقات و ابتدأوا بالقتال و قاتلوا قتالاً شديداًمن الجانبين. و لما راى المغول أن المدينة لم يمكنهم أخذها بالقتال أبطلوا القتال و حاصروها و منعوا الناس من الدخول إليها و الخروج عنها.

و في سنة سبع و خمسين و ستمائة أرسل هولاكو إيلجية إلى الملك الناصر صاحب حلب برسالة يقول فيها: يعلم الملك الناصر أننا نزلنا بغداد في سنة ست و خمسين و ستمائة و فتحناها بسيف الله تعالى و أحضرنا مالكها و سألناه مسئلتين فلم يجب لسؤالنا فلذلك استوجب منا العذاب كما قال في قرآنكم أن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم. و صان المال. فآل الدهر به إلى ما آل. و استبدل النفوس النفيسة.بنقوش معدنية خسيسة. و كان ذلك ظاهر قوله تعالى: وجدوا ما عملوا حاضراً. لأننا قد بلغنا بقوة الله الإرادة. و نحن بمعونة الله في الزيادة. و لا شك أن نحن جند الله في أرضه خلقنا و سلطنا على من حل عليه غضبه. فليكن لكم في ما مضى معتبر. و بما ذكرناه و قلناه مزدجر. فالحصون بين أيدينا لا تمنع. و العساكر للقائنا لاتضر و لا تنفع. و دعاؤكم علينا لا يستجاب و لا يسمع. فاتعظوا بغيركم. و سلموا إلينا أموركم. قبل أن ينكشف الغطا. و يحل عليكم الخطا. فنحن لا نرحم من شكا. و لا نرق لمن

بكا. قد أخربنا البلاد. و أفنينا العباد. و أيتمنا الأولاد. و تركنا في الأرض الفساد. فعليكم بالهرب. و علينا بالطلب. فما لكم من سيوفنا خلاص. و لا من سهامنا مناص.فخيولنا سوابق. و سهامنا خوارق. و سيوفنا صواعق. و عقولنا كالجبال. و عددنا كالرمال. فمن طلب منا الأمان سلم. و من طلب الحرب ندم. فإن أنتم أطعتم أمرنا و قبلتم شرطنا كان لكم ما لنا و عليكم ما علينا. و إن أنتم خالفتم أمرنا و في غيكم تماديتم فلا تلومونا و لوموا أنفسكم. فالله عليكم يا ظالمين فهيئوا للبلايا جلباباً. و للرزايا أتراباً. فقد أعذر من أنذر. و أنصف من حذر. لأنكم أكلتم الحرام و ختنم بالإيمان. و أظهرتم البدع و استحسنتم الفسق بالصبيان. فابشروا بالذل و الهوان. فاليوم تجدون ما كنتم تعلمون. سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فقد ثبت عندكم أننا كفرة. و ثبت عندنا أنكم فجرة. و سلطنا عليكم من بيده الأمور مقدرة. و الأحكام مدبرة.فعزيزكم عندنا ذليل. و غنيكم لدينا فقير. و نحن مالكون الأرض شرقاً و غرباً. و أصحاب الأموال نهباً و سلباً. و أخذنا كل سفينة غصباً. فميزوا بعقولكم طرق الصواب قبل أن تضرم الكفرة نارها. و ترمي بشرارها. فلا تبقي منكم باقية. و تبقى الأرض منكم خالية. فقد أيقظناكم. حين راسلناكم. فسارعوا إلينا برد الجواب بتةً. قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً. و أنتم تعلمون. فطلبه ليحضر عنده. و لما شاور الأمراء لم يمكنوه من المشي إلى هولاكو و بقي متحيراً خائفاً مذعوراً لم يدر ما يصنع. غير أنه استجار الله و سير ولده الملك العزيز و صحبته الأموال الكثيرة و الهدايا و التحف. و بقي هناك من أوائل الشتاء إلى الربيع ثم عاد إلى أبيه قائلاً: قد قال ملك الأرض: نحن للملك الناصر طلبنا لا لولده فالآن إن كان قلبه صحيحاً معنا يجيء إلينا و إلا فنحن نمشي إليه. فلما سمع الملك الناصر ذلك بقي متردداً في رأيه لأن الأمراء لم يمكنوه من المشي إليه و هو فقد وقع عنده الخوف و الجزع و لم يطمئن على القعود. ثم سير هولاكو في طلب سلطان الروم عز الدين و أخيه ركن الدين فأطاعاه و مشيا إليه و أحسن قبولهما و التقاهما مرحباً بهما فرحاناً و تقدم إليهما بأن عز الدين يتملك على قيسارية إلى تخوم إرمينية الكبرى و ركن الدين يتملك من اقسرا و إلى ساحل البحر حدود الافرنج. ثم أنه بعد ذلك توجه إلى الشام و توجها في خدمته إلى قريب الفرات و عادا إلى بلادهما مسرورين مغبوطين.

و في هذه السنة توفي السلطان الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ صاحب الموصل في عشرين يوماً مضت من شهر تموز و تولى ولده الملك الصالح اسماعيل الموصل و ولده علاء الدين سنجار و ولده سيف الدين الجزيرة.

و في سنة ثماني وخمسين و ستمائة دخا هولاكو إلخان الشام و معه من العساكر أربعمائة ألف و نزل بنفسه على حران و تسلمها بالأمان و كذلك الرها و لم يدن لأحدٍ فيهما سوء. و أما أهل سروج فإنهم

أهملوا أمر المغول فقتلوا عن أقصاهم. و تقدم هولاكو فنصب جسراً على الفرات قريباً من مدينة ملطية و آخر عند قلعة الروم وآخر عند قرقيسياء و عبرت العساكر جملتها و قتلوا عند منبج مقتلة عظيمة. ثم تفرقت العساكر على القلاع و المدن.و نفر قليل من العسكر طلب حلب فخرج إليهم الملك المعظم ابن صلاح الدين الكبير فالتقاهم و انكسر قدام المغول و دخل المدينة منهزماً. و طرفٌ منهم وصل إلى المعرة و خربوها. و تسلموا حماة بالأمان و حمص أيضاً. فلما بلغ ذلك الملك الناصر أخذ أولاده و نساءه و جميع ما يعز عليه و توجه منهزماً إلى برية الكرك و الشوبك. و عندما وصلت المغول إلى دمشق خرج أعيانها إليهم و سلموها لهم بالأمان و لم يلحق بأحد منهم أذىً. و اما هولاكو فإنه بنفسه نزل على حلب و بنى عليها سيباً و نصب المنجنيقات و استضعف في سورها موضعاً عند باب العراق و أكثر القتال و الزحف عليه. و في أيام قلائل ملكوها و دخلوها يوم الأحد الثالث و العشرين من كانون الثاني من هذه السنة و قتل فيها أكثر من الذي قتل ببغداد. و بعد ذلك أخذوا القلعة في أسرع ما يكون وقتاً. ثم أن هولاكو رحل عنها و أحاط بقلعة الحارم و اختار أن يسلموها إليه و يؤمنهم على أنفسهم فلم يطمئنوا إلى قوله و إنما طلبوا منه رجلاً مسلماً يحلف لهم و يكون صاحب شريعة يطمأن إليه حيث يحلف لهم بالطلاق و المصحف أن لا يدنو لأحد منهم سوء و ينزلوا و يسلموا إليهم القلعة. فسألهم هولاكو: من تريدون أن يحلف لكم. قالوا: فخر الدين الوالي بقلعة حلب فإنه رجل صادق مؤمن خير. فتقدم هولاكو إليه فدخل إليهم و حلف لهم على جميع ما يريدون. فحينئذٍ فتحوا الأبواب و نزل الناس خلائق كثيرة و تسلم المغول القلعة. ثم أن هولاكو تقدم بقتل فخر الدين الوالي أولاً ثم بقتل جميع من كان في القلعة من الصغار و الكبار الرجال منهم و النساء حتى الطفل الصغير في المهد. و رحل هولاكو من هناك عائداً إلى البلاد الشرقية. و رتب في الشام أميراً كبيراً يسمى كتبوغا و معه عشرة آلاف فارس من العسكر. و لما وصل إلى تل باشر وصلت العساكر التي حاصرت ميافارقين و معهم الأشرف صاحبها و أهوا أنهم أخذوها و قتلوا كل من فيها و لم يتخلف فيها إلا أنفار قليلة لأنهم هلكوا جوعاً و ماتوا. و لولا ذلك لم يتمكن المغول من أخذها. و قتل الأشرف صاحبها و بعد ذلك ندم هولاكو على قتله. ثم أنه ولى عليها رجلاً أميراً من أمراء الأشرف يسمى عبد الله. و لما وصل هولاكو قريب ماردين سير يطلب صاحب ماردين إليه. فأبى و لم ينزل إليه. بل سير ولده مظفر الدين لأنه كان في خدمة هولاكو هو و الملك الصالح ابن السلطان بدر الدين لما كان بالشام. قال له هولاكو: تصعد إلى أبيك و تقول له ينزل إلينا و لا يعصي و إن عصى لم يصب خيراً. و لما صعد إلى أبيه و خاطبه لم يقنع بأنه لم يسمع مشورته بل قيده و حبسه عنده. فعند ذلك أحاطت المغول بماردين و ابتدأوا بالقتال و لولا أن وقع فيها الوباء و الموت و مات السلطان و أكثر أهلها لما أخذوها لا في سنتين و لا في ثلاثة. و لما مات السلطان نزل ابنه

الملك المظفر و سلم إليهم القلعة و الخزائن و الأموال. و تحقق عند ملك الأرض هولاكو ما جرى عليه من أبيه فلأجل ذلك أكرمه و أحسن إليه و ملكه موضع أبيه. و كتبوغا كبير عسكر المغول الذي نزل بالشام لم يزل يستفحص عن أخبار الملك الناصرالمنهزم في البراري حتى عرف موضعه و سير عليه بعض العسكر فلزموه و سيروه إلى هولاكو. و لما مثل بين يديه فرح به و وعده بكل خير و جميل و أنه يعيده إلى ملكه و هو يومئذٍ نازل بجبال الطاق. فبينما هم في ذلك وصل خبر أن قوتوز التركماني الذي تولى مصر لما بلغه أن هولاكو رجع إلى المشرق و كتبوغا بعشرة آلاف فارس في الشام استضعفه و جمع عسكراً كثيراً و خرج التقى به و كسره و قتله و استأسر أولاده و كان ذلك في السابع و العشرين من رمضان من سنة ثماني و خمسين و ستمائة. فغضب هولاكو لذلك و تقدم بقتل الملك الناصر و قتل أخيه الملك الظاهر و جميع من معهم.و لم يخلص منهم غير محيي الدين المغربي بسبب أنه
كان يقول إنني رجل أعرف بعلم السماء و الكواكب و التنجيم و لي كلام أقوله لملك الأرض. قال محيي الدين المذكور لما اجتمعنا به في مدينة مراغة: إنني لما قلت لهم هذا الكلام أخذوني و أحضروني بين يدي هولاكو فتقدم أن يسلموني إلى خواجا نصير الدين. و حكى لنا صورة ما جرى للملك الناصر قال:
كنت في خدمته يوم الأربعاء عشرين شوال و هو يسألني عن مولده إذ وصل أمير من المغول و معه نحو خمسين فارساً. فخرج الملك النصر من الخيمة و التقاه و عرض عليه النزول. فامتنع قائلاً: إن هولاكو سيرني و يقول: هذا اليوم لنا فرحة و قد عملنا دعوة و حضر الأمراء كلهم فتحضر أنت و أخوك و أولادك للأمر الذي لك عندنا. فجمع الملك الناصر جماعته مقاربةً عشرين نفراً و ركبوا و ساروا صحبة ذلك الأمير.و بعد ساعة وصل أيضاً عشرون فارساً آخر و قالوا: يحضر الجماعة كلهم و لا يبقى في الخيم غير الفراشين و المماليك الصغار و الطباخين و الغلمان. و باقي الجماعة الخيالة و الكتاب يحضرون في الدعوة. "قال" فأخذونا إلى مواضع أودية عميقة بين حجارة عالية و نزلنا عن الخيل فاحتاط كل واحد منهم بواحد منا و كتفونا. فلما عاينت ذلك بقيت أقول بصوت عالٍ: إنني رجل منجم و أعرف بحركات الكواكب و معي كلام أقوله في خدمة السلطان ملك الأرض. فأخذوني و أقعدوني ورائهم مع جملة أتباعهم و شرعوا بقتل الجماعة و لم يخلص منهم غير ولدي الملك الناصر فاستأسروهما. ثم ركبوا و عادوا إلى البيوت التي للملك الناصر و نهبوها و قتلوا باقي الجماعة التي تخلفت هناك. ثم عرضوا الأمر على هولاكو و أنا صرت في خدمة خواجا نصير الدين في الرصد بمراغة و ابنا الملك الناصر في خدمته.

"جلوس قوبلاي قاان على كرسي المملكة": فمن هذا التاريخ بعض ملوك الخطا تمرد و عصى على المغول لكونه قوي البأس متمكناً في أمره كثير العساكر يحكم على أربعمائة مدينة. و أوجب ذلك أن مونككا

قاان بنفسه تمير لملتقى هذا المتمرد فترك أخاه الصغير و هو أريغبوكا مكانه و استصحب أخاه قوبلاي و دخل إلى بلاد الصين. و أول الملتقى اتفق أن أصابه نشابة و مات. فأخذ أخوه قوبلاي العساكر و خرج من بلاد الخطا. ثم وصل إلى خان باليق و أقام هناك. و اتفق عظماؤه و الأكثرون من المغول أن يكون هو موضع أخيه قاان. و أما الأخ الصغير و هو أريغبوكا فقال: إن عند توجه قاان إلى الخطا سلم إليه الملك فهو الأولى أن يكون موضع أخيه بمقتضى الياسا الذي لهم. و حصلت المنازعة و المقاومة بين الأخين لأجل ذلك مدة سبع عشرة سنة إلى أن عجز الأخ الصغير و بطل عزمه و قوي أمر قوبلاي قاان و ظهر منه العدل الحسن و الدراية و التدبير و الكفاية. و إنه كان يحب الحكماء و العلماء و المتدينين من سائر المذاهب و الأمم. و قيل عنه أنه كان قليل المباشرة للنساء بل باعتدال و متوسط التدبير بالشهوات و الشراب و اللذات و اللهو و لم يتناول من اللحوم إلا ألطفها بخلاف باقي الطوائف من المغول.

و أما قوتوز التركماني صاحب مصر بعد ما كسر كتبوغا و تمكن من الشام أقام الشحاني و النواب في حلب و دمشق و سائر بلاد الشام و عاد إلى ديار مصر بحيث أن هناك يجمع العساكر و يشتد و يقوى على ملتقى المغول. و لما وصل قريباً من غزة نهض عليه بيبرز المعروف بالبندقدار الصغير و هو مملوك البندقدار الكبير و قتله و أخذ جماعة و دخل إلى مصر و تسلمها و تمكن و قوي و لقبوه ركن الدين الملك الظاهر و اشتد بأسه و تسلط على جميع المدن و القلاع التي على ساحل البحر للإفرنج. و في سنة تسع و خمسين و ستمائة عاد دخل المغول إلى الشام و في رأس العسكر أمير يسمى كوكالكي و دخلوا إلى قريب حمص و نهبوا و سبوا و قتلوا خلقاً كثيراً و عادوا إلى حلب و كان قد انهزم جميع أهل القرايا إلى حلب فتقدم كوكالكي أن يخرج أهل القرايا و المدن إلى ظاهر البلد و ينعزل أهل كل مدينة و قرية بمعزل بحيث يعدونهم و يسيرون كل قوم إلى مكانهم و وطنهم. و تسلمهم المغول كأنهم يسيرونهم إلى ضياعهم و عندما يبعدون يقولون: أنتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمتم من قدامنا. فقتلوهم عن أقصاهم و لم يفلت منهم غير أهل حلب بحيث أنهم لم ينتقلوا عن حلب. و عاد المغول خرجوا من الشام ثم عاد المصريون تملكوا الشام.

و فيها هرب علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار إلى مصر. و لما أقام هناك مدة يسيرة كتب إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل صاحب الموصل يعرفه قوة البندقدار و عظمته و أشار عليه بترك الموصل و قصده خدمة البندقدار بحيث أنه إذا استولى البندقدار على قهر المغول و أخذ البلاد منهم يكون له اليد البيضاء عنده و يملكه مع الموصل بلاداً أخرى من المشرق. و لما وصل الكتاب إلى الملك الصالح و وقف عليه وضعه تحت طراحته و كان عنده في ذلك الوقت من الأمراء شمس الدين محمد بن يونس الباعشيقي

من جملة أمراء أبيه النواب ببلد نينوى. فغافله و أخذ الكتاب من تحت الطراحة و خرج من عنده و لم يلبث حتى وصل إلى قريته باعشيقا. بعد ذلك مد يده ليأخذ الكتاب فلم يجده فوقع عنده أن شمس الدين بن يونس قد أخذ الكتاب و صار عنده القلق العظيم لأجل ذلك و سير القصاد في الحال في طلبه و قد عزم على قتله. و عندما وصل المماليك إليه أشغلهم بالأكل و الشرب و قال لهم: أن هذه الليلة كلوا و اشربوا و عند الصباح نركب إلى خدمة السلطان. و أوصى غلمانه فأكثروا عليهم الشراب و أسكروهم و ناموا. فأخذ شمس الدين بن يونس أولاده و ما يعز عليه و ركب من أول الليل و توجه يقصد أربل و كان له مشورة مع الرؤساء النصارى بناحية برطلي فعبر عليهم و عرفهم أن الملك الصالح قد عزم على قتل جميع أكابر النصارى ببلد نينوىو أنه بعد ذلك يتوجه إلى الشام. و كان قد حصل لهم الشعور بذلك من قبل فصدقوه و تهيروا هم و ما يعز عليهم من أولادهم. و شاع الخبر في جميع النصارى ببلد نينوى فكل من أمكنه العبور إلى اربل سارع بالعبور فعبر أكثر أهل البلد من النصارى و كان ذلك ليلة يوم الخميس.أما المماليك الذين كانوا قد وصلوا إلى شمس الدين بن يونس فلما أصبحوا و صحوا من سكرهم فلم يجدوه فظنوا أنه قد سبقهم بالدخول إلى الموصل إلى الملك الصالح. و لما دخلوا و عرفوا الملك الصالح بما جرى وقع في الجزع و الخوف و قال: لا نأمن أن ابن يونس يمشي يعرف بالقضية المغول و يجيب علينا العساكر و يجيء. فتهير هو و جماعة من الأمراء و الأولاد و أخذوا ما يقدرون عليه مما يمكنهم حمله و خرج من المدينة يوم الجمعة ثاني يوم عبور ابن يونس و النصارى إلى اربل صلى الجمعة و خرج متوجهاً إلى الشام و بطلت عزيمته أنه يخرج هو و العسكر إلى بلد نينوى و يلزم أكابر النصارى و يأخذ أموالهم و يقتلهم ثم يمشي إلى الشام. ثم أنه لما خرج من الموصل وقع الخلف بين أمرائه اموالهم فمنهم من تبعه و منهم من عاد إلى الموصل. و الذين عادوا إلى الموصل كان كبيرهم الأمير علم الدين سنجر. فلما وصلوا إلى الموصل و كانت زوجة الملك الصالح تركان الخوارزمية في المدينة لم تتوجه معه و لا تبعته و كان في الموصل شحنة اسمه ياسان فاتفقوا هم و أتباعهم و غلقوا أبواب الموصل في وجوههم و لم يمكنوهم من الدخول. فنزلوا خارج المدينة و شرعوا يقاتلون أياماً يسيرة. فعند ذلك كان في المدينة رجل اسمه محيي الدين بن زبلاق من كتاب الإنشاء الذين كانوا للسلطان بدر الدين فاتفق هو و جماعة من أهل المدينة و خامروا على تركان خاتون و على الشحاني و فتحوا الأبواب. و لما دخل علم الدين و جماعته هرب الشحنة ياسان و تركان و أتباعهم و تحصنوا في قلعة الموصل. و ثار أهل الموصل على النصارى من الأعوام و نهبوهم و قتلوا كل من وقع بإيديهم و سلم من دخل في دين الإسلام. و أما أكراد الجبال فكان قد قرر معهم الملك الصالح أن يتهيروا و يجمعوا جموعهم و ينزلوا إلى نينوى. و يوم السبت ثاني الجمعة التي خرج الملك الصالح من المدينة نزلوا إلى بلد نينوى و نهبوا النصارى المتخلفين و سبوا و قتلوا. و بينما

هم كذلك و ذلك في أيام يسيرة من أيار تلك السنة وقع الخبر أن عسكر المغول قد أقبل من صوب الجزيرة فخرج الأمير علم الدين سنجر و جماعته من الموصل و اجتمع إليه أمراء الأكراد. فلما صادف العسكر قاتلوهم وقاتلوه. و كان في رأس العسكر تورين شحنة الموصل فأحاطوا بعلم الدين سنجر و جميع من معه و قتلوهم عن أقصاهم و لم يفلت منهم إلا الطويل العمر. بعد ذلك بقي أمر بلد الموصل و الموصل مدة مديدة في حيرة. و عند أواخر الصيف تواترت الأخبار بوصول عساكر المغول. و قريب من كانون الأول وصل العسكر و أحاط بالموصل و في رأس العسكر أمير
كبير اسمه سمدغو محب للنصارى. و بينما هم قد نزلوا على الموصل وصل الخبر برجوع الملك الصالح من الشام. و لما سمع المغول ذلك تأخروا عن المدينة إلى حين ما دخل إليها ثم عاد المغول أحاطوا بها و بنوا السيبا حولها في ليلة واحدة و ابتدأوابالقتال من داخل و من خارج و كان ذلك من كانون الأول إلى الربيع و قل القوت على أهل المدينة.و سير الأمير سمدغو يخدع الملك الصالح و يعده بالمواعيد الحسنة و بطل القتال و قعدوا قعوداً. و كان في وسط هذه المدة المذكورة وصل عسكر من الشام و مقدمهم أمير اسمه برلوا نجدة للملك الصالح الذي وعد به. فسارع المغول و التقوه عند سنجار و أحاطوا بهم و قتلوهم جميعهم و كسبوا ما معهم من الخيل و السلاح و غير ذلك. بعد ذاك لما صار الأمير سمدغو يخاطب الملك الصالح و يطايبه انخدع و فتح أبواب المدينة و خرج إليهم بالمطربين و الأغاني و المساخرة بين يديه. و حينما مثل بين يدي سمدغو احتاط المغول به و دخل العسكر الموصل و سبوا و نهبوا و قتلوا مدة ثمانية أيام و قتل فيها عالم لا يحصي عددهم إلا الله تعالى. و بعد ذلك قرر الأمير سمدغو في الموصل حاكماً الأمير شمس الدين بن يونس و رحل عنها. و كان قد قتل ولد الملك الصالح علاء الملك صبي حدث أسقوه خمراً كثيراً ثم شدوه و قطعوه وترين في المدينة عند القلعة و صحبوا الملك الصالح إلى هولاكو و قتل هناك.

و في سنة إحدى و ستين و ستمائة شخص اسمه زكي الاربلي منادٍ في سوق البهائم قد كان من أجناد الموصل سعى في الأمير شمس الدين بن يونس و قال أنه قد جمع الأموال و الجواهر من خزائن بيت بدر الدين. و ذكر عنه أنه سقاه سماً ليموت و أنه استعان بحكيم نصراني اسمه الموفق النصيبي حتى داواه. و لما سألوا لابن يونس ذلك أنكره فضربوه أشد ضرب ليقر. و بينما هم في ذلك وقع من ثيابه ورقة فيها آية من القرآن. فالساعي فيه و هو الزكي الاربلي قال أنها سحر لأجل المغول. فرسم بقتله. و تولى الموصل الزكي الاربلي موضعه. و في سنة أربع و ستين و ستمائة توفي هولاكو و كان حكيماً حليماً ذا فهم و معرفة يحب الحكماء و العلماء. و بعده بقليل اندرجت طقز خاتون زوجته و كانت أيضاً عظيمة في رأيها و خبرتها.

"اباقا ايلخان" بعد ذلك اجتمعت الأولاد و الأمراء و الخواتين و اتفقوا على أن اباقاابن هولاكو يقعد على كرسي المملكة لأن عنده العقل و الكفاية و العلم و الدراية. و لما جلس و تمكن كان سعيداً منصوراً في جميع حركاته و سكناته محبوباً من جميع الخلق. و كان قد سير هولاكو طلب ابنة ملك القسطنطينية خطبها لنفسه. فلما أخذها الرسل و خرجوا بها و وصلوا إلى القيسارية بلغهم الخبر بموت هولاكو و لم تتمكن من الرجوع إلى بلادها فوصلت إليه و دخل عليها. و فيها وصل اليرليغ من أباقا إلى بغداد أن علاء الدين صاحب الديوان يكون حاكماً مطلقاً لا يكون فوق يده يد. و كان شحنة بغداد قرابوغا و نائبه اسحق الأرمني يرومان أذيته فانكفأا عنه و صارا يتحيلان له بأذى فحصلا شخصاً أعرابياً و علماه أن يقول عنه أنه سير جاء به من البادية بحيث يكون له دليلاً عندما يريد أن يأخذ ماله و أولاده و ما يتعلق به و يمشي إلى الشام. و أوثقا مع البدوي هذا الكلام. حينئذٍ سيرا احتاطا بدار صاحب الديوان و البدوي يحملانه إلى الاردو. و عندما ضرب البدوي و قرر أقر أن اسحق الأرمني علمه ذلك فقتل البدوي و اسحق. و فيها سير البندقدار صاحب مصر إلى حاتم ملك الأرمن بحيث يدخل في طاعته و يحمل الجزية و يمكن الناس من مشترى الخيل و البغال و الحنطة و الشعير و الحديد من بلده و هم أيضاً يخرجون إلى الشام و يتاجرون و يبيعون و يشترون. و ملك الأرمن خوفاً من المغول لم يجب إلى ذلك. فلم يتأخر البندقدار عن إنفاذ العسكر و الركب إلى بلد الأرمن. و حاتم الذي هو ملك الأرمن لما تحقق ذلك خرج إلى بلد الروم يطلب النجدة من أمير المغول هناك يسمى نفجي. فقال له: نحن بلا أمر السلطان اباقا لا يمكن أن نفعل ذلك. و هجم المصريون على بلد الأرمن. و لما لم يكن ملكهم حاضراً اجتمعت أخوته و أولاده و أمراؤه و جمعوا أتباعهم و خرجوا ليمنعوا المصريين من الدخول إلى البلد. و لما التقوهم عند موضع يقال له حجر سروند انكسرت الأرمن و استؤسر ولد الملك حاتم و قتل ولده توروس و انهزم الأمراء و العسكر. و نهبوا و أخربوا بيعة سيس الكبيرة و كان الخراب العظيم في سيس و إياس و أقاموا هناك مدة عشرين يوماً ينهبون و يحرقون و يسبون. و بعد خروجهم من البلد و صل الملك حاتم و قد صحب معه عسكراً من المغول و الروم فما وجدوا أحداً بل البلد خراباً و اشتغلوا بالأكل و الشرب و مدوا أيديهم و جمعوا جميع ما كان قد تخلف من المصريين تموه هم و الملك مشتغل بالهم و الغم على ما جرى على ولديه و أصحابه و بلده. و كانت المضرة منهم أشد و أصعب. و أما حاتم ملك الأرمن فإنه شرع يخاطب البندقدار في خلاص ولده و يعده بالأموال و المدن و القلاع إلى غير ذلك. فجاوبه: ان نحن ما لنا رغبة في الأموال و المدن و غيرها. و أنما لنا شخص صديق أسير عند المغول يسمى سنقر الأشقر تخلصه و تسيره و تأخذ ولدك. ففعل ذلك و خلص ولده. و ذلك أنه في سنة ثماني و ستين و ستمائة

قصد الملك حاتم خدمة ملك الأرض اباقا و بكى لديه و طلب منه سنقر الأشقر ليخلص به ولده. فرحمه و رق لبكائه و قال له: تمشي إلى بلدك تستريح و نحن نطلب هذا سنقر من أي مكان هو فيه و نسيره إليك. فعاد حاتم من خدمة اباقا. و كان أمير من أمرائه سبقه إلى بلده في مهم له فاجتاز به بروانة فاستشار به أنه يريد يخطب لنفسه ابنة الملك حاتم. فأجابه بأن الملك حاتم واصل عقيبنا إليكم فأنتم التقوه و أحسنوا إليه و هو يجيبكم إلى ذلك. و لما وصل الملك حاتم إلى بروانة و قد جمع بروانة أكابره و التقاه أحسن ملتقى و أكرمه و قدم له تقدمات نفيسة إلى أن خجل الملك حاتم بحيث لم يعلم ما الذي أوجب هذا الإسراف في خدمته. فلما أظهر بروانة ما في قلبه أجابه بالسمع و الطاعة و أظهر له الفرح و البشاشة و الغبطة و قرر معه أنه لا يمكن التعريس قبل خلاص أخي البنت فإذا خلص نفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

و في سنة تسع و ستين و ستمائة وصل سنقر الأشقر من بلاد سمرقند إلى الملك حاتم و هو سيره إلى البندقدار مكرماً و أوهبه و أعطاه. ثم أن البندقدار سير له ولده أيضاً بحرمة عظيمة و خيالة كثيرة. و في هذه السنة حاصر البندقدار مدينة إنطاكية و أخذها و قتل فيها و سبى و أحرق كنائسها المشهورة في العالم. و فيها توجه الملك حاتم إلى اباقا و شكر و دعا

له على خلاص ولده من الأسر و استقال من السلطنة و طلب أن يكون ولده موضعه و أنه شيخ عاجز. فقال له: إنه إذا حضر عندنا نحن نملكه. فتوجه إلى بلده و سير ولده إلى عبودية اباقا.

و في سنة سبعين و ستمائة في شهر نيسان تزلزلت الأرض في بلاد الأرمن و خربت قلاع كثيرة و مات فيها مائة ألف نفر من الناس غير الدواب. و في سنة خمس و سبعين و ستمائة نزل اباقا إلى بغداد ليشتي بها و صار غلاء عظيم و مجاعة و عزت الأسعار.

و في هذا التاريخ توفي خواجا نصير الدين الطوسي الفيلسوف صاحب الرصد بمدينة مراغة حكيم عظيم الشأن في جميع فنون الحكمة. و اجتمع إليه في الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين. و كان تحت حكمه جميع الأوقاف في جميع البلاد التي تحت حكم المغول. و له تصانيف كثيرة منطقيات و طبيعيات و إلاهيات و أوقليدس و مجسطي. و له كتاب أخلاق فارسي في غاية ما يكون من الحسن جمع فيه جميع نصوص أفلاطون و أرسطو في الحكمة العملية. و كان يقوي آراء المتقدمين و يحل شكوك المتأخرين و المؤاخذات التي قد أوردوا في مصنفاتهم. و كان من الفضلاء في زمانه نجم الدين القزويني منطقي عظيم صاحب كتاب العين. و مؤيد الدين العرضي و فخر الدين المراغي و قطب الدين الشيرازي و محيي الدينالمغربي. و من الأطباء المشهورين فخر الدين الاخلاطي و تقي الدين الحشائشي. و اشتهر هذا في عمل الترياق شهرة عظيمة و إن لم يكن من الأطباء المشتغلين المشهورين و بسفاهته استظهر على باقي

الأطباء في هذا الزمان. و بينهم نفيس الدين بن طليب الدمشقي و ولده صفي الدين النصراني الملكي. و في هذا التاريخ و هو سنة خمس و سبعين و ستمائة و هي سنة سبع و ثمانين و خمسمائة للإسكندر عزم بندقدار أن يدخل بنفسه إلى بلد الروم لأن كان عنده أقوام قد هربوا من بلد الروم الذين هربوا إلى الشام قد قووا عزمه على ذلك. و لما أحس الملك لاون ابن ملك الأرمن سير إلى أمراء المغول الذين في بلد الروم و عرفهم ذلك و حذرهم. و أما بروانة فإنه بوجهين كان يكذب ملك الأرمن في هذا قوله الأول أنه كان يختار ورود البندقدار إذ له معه وعد. و الثاني لأنه كان يبغض ملك الأرمن و كان يختار أن يزيف قوله. و لما أن الأمراء المغول أهملوا الأمر إذ هاجمهم المصريون و هم سكارى فلم يلحق أحدهم أن يركب فرسه. و أن الياسا الذي لهم أنهم لا يهربون قبل أن ياتقوا العدو.و لما التقوا وقعت الكسرة فيهم و قتل جميع أكابر المغول أحدهم طوغو و الآخر توذان بهادر. و كان مع المغول ثلاثة ألف كرج فوقفوا و بذلوا المجهود فقتل منهم ألفان و تخلف ألف واحد. و قتل أيضاً من عسكر المصريين خلق كثير. و لما حقق بروانة كسرة المغول هرب و تحصن في بعض القلاع. و أما البندقدار فإنه نزل عند القيسارية في موضع سمي كيقوباد و بقي هناك خمسة عشر يوماً و دخل إلى القيسارية مرة واحدة و لم يدن منه لأحد من الرعايا شر و لا كلفهم شيئاً أصلاً و إنما جميع ما يحتاجون إليه كانوا يشترونه مشترىً. وكان يقول: إني ما جئت إلى ههنا لأخرب البلد لكن لأفك صاحبه من الأسر. و أما اباقا ايلخان فحين وصلت إليه الأخبار بذلك غضب غضباً شديداً و جمع العساكر و قصد بنفسه الروم. و لما عرف البندقدار أنه لا يمكنه مقاومته رحل عن بلد الروم و توجه إلى الشام. و لما وصل اباقا إلى بلد الروم لم يجد أحداً من المصريين و في الحال نزل البروانة إليه و لم يره اباقا شيئاً من الغضب و إنما أحسن إليه و أكرمه و أخذه صحبته إلى الطاق لما عاد حيث يستشيره كم يقدر أن يكون في الروم عسكر يقاوم المصريين. و عمل دعوة عظيمة و سقاه من لبن الخيل شيئاً كثيراً لأنه ما كان يشرب خمراً. و فيما هو قد خرج مع البروانة ليريق ماءه أشار اباقا إلى أناس من حوله ليقتلوه فقتلوه و قطعوه قطعاً و كان ذلك في ثاني يوم من شهر آب لتلك السنة. و أما البندقدار فلما قرب من حمص أدركه أجله و مات يقولون أصابه في الحرب مع المغول نشابة في وركه و لم يمكن إخراج النصل منه و بقي أياماً كثيرة و لما أذن للجرائحي أن يخرجه و جاهد في إخراجه مع خروج النصل فارق الدنيا. و آخرون قالوا أن أناساً من جماعته سقوه في لبن الخيل سماً و لما أحس عاد سقى لمن أسقاه منه فماتا اثناهما.

و في سنة تسع و سبعين و ستمائة لما قام الألفي ليتملك على الديار المصرية و الشام لم يوافق في ذلك سنقر الأشقر. و لما تمكن الألفي و قوي جانبه هرب منه سنقر الأشقر و وصل إلى الرحبة و اتفق هو و

أمير بدوي اسمه عيسى بن مهنا و سيرا رسولاً إلى اباقا ايلخان يستدعيانه ليركب إلى الشام و يسلما إليه البلاد الشامية و الديار المصرية. و لما وصلت عساكر المغول إلى الشام خاف سنقر الأشقر منهم على نفسه و لم يلتق بهم بل هرب و تحصن في قلعة صهيون.فوصل المغول إلى حلب و أي موضع صادفوه خربوه. و كان وصولهم إلى الشام في وقت الشتاء من سنة ثمانين و ستمائة و كان مقدمهم قونغرتاي أخو اباقا الصغير و عاد المغول إلى البلاد. و في سنة إحدى وثمانين و ستمائة دخل المغول إلى الشام في خمسين ألفاً و في رأسهم مونكاتمور الأخ الأصغر لأباقا و أخذوا معهم ملك الأرمن بعساكره. و اجتمع عسكر الشام و في رأسهم الألفي و سنقر الأشقر فإنهما اصطلحا في ذلك الوقت على محاربة المغول. و التقى العسكران بين حماة و حمص في يوم الخميس سلخ تشرين الأول لتلك السنة و قوي جانب المغول على جانب الشاميين. و لما قاربوا لينتصروا عليهم نصرة و يهزموهم إذ خرج على المغول كمين العرب من بني تغلب من ميسرتهم فتوهم المغول أن عساكر كثيرة قد أحاطت بهم من قدامهم و من خلفهم و لم يلحق الهرب أصحاب الميسرة مع أهل القلب. و أصحاب الميمنة و فيهم ملك الأرمن مع خمسة آلاف كرج لم يشعروا بالكمين و إنما كسروا المصريين الذين في مقابلتهم و ساقوا خلفهم إلى باب مدينة حمص و قتلوا فيهم خلقاً كثيراً و لم يزالوا إلى أن وصل إليهم الخبر بهرب أصحابهم. فعند ذلك رجعوا و في الرجعة صادفوا جماعة من عسكر المصريين الذين ساقوا خلف أصحابهم الهاربين و عاد بينهم القتال و قتل من الجانبين خلق كثير. و رجعوا و قد حملوا شيئاً كثيراً من الأموال و الخيل و السلاح الذي نهبوا. و لما وصل مونكاتمور إلى الجزيرة و هو قد خرج يومئذٍ من الحمام عملوا سراً مع بعض الشرابدارية و سقوه سماً. و لما أحس بتغير مزاجه توجه نحو نصيبين و قضى نحبه. و أما أهل الجزيرة فإنهم لما شعروا بذلك أدركهم الخوف العظيم و لزموا للصفي القرقوبي و كتفوه و داروا به في أسواق الجزيرة ثم قتلوه.

و أما اباقا ايلخان فإنه توجه نحو بغداد و منها إلى همذان. و في يوم عيد النصارى الكبير لتلك السنة دخل إلى البيعة في تلك المدينة و عيد مع النصارى. و يوم الاثنين ثاني العيد عمل له شخص فارسي اسمه بهنام دعوة عظيمة في داره. و ليلة الثلاثاء تغير مزاجه و صار يرى خيالات في الهواء.و يوم الأربعاء و هو أول يوم من نيسان لتلك السنة و هو العشرون في ذي القعدة انتقل من هذا العالم. و مونكاتمور انتقل يوم الأحد سادس عشر المحرم في بلد الجزيرة.

"السلطان أحمد" و لما توفي اباقا ايلخان اجتمع الأولاد و الأمراء و حصل الاتفاق بينهم أن أحمد بن هولاكو من قوتاي خاتون يصلح للتدبير و المملكة و أنه مستحق لهذا الملك و هو أولى به و الطريق له بعد اباقا. و لما جلس على كرسي المملكة يوم الأحد الحادي و العشرين من حزيران لتلك السنة سنة

إحدى و ثمانين و ستمائة و عنده الكفاية و الدراية و الكرم أخرج من الخزائن و الأموال شيئاً كثيراً و قسم على الأولاد و الأمراء و العساكر و أظهر الإحسان و الشفقة إلى جميع المغول و إلى الأمم الباقية و خصوصاً إلى أكابر النصارى. و أرسل الرسل إلى سلطان مصر بسبب الصلح و كتب إليه رسالة هذه نسختها: بقوة الله تعالى باقبال قاان فرمان أحمد. أما بعد فإن الله تعالى بسابق عنايته و بنور هدايته قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا و ريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته و الاعتراف بوحدانيته. و الشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة و السلام بصدق نبوته. و حسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده في بريته. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين. و إصلاح أمور الإسلام و المسلمين. إلى أن أفضى بعد أبينا الجيد و أخينا الكبير نوبة الملك إلينا فأفاض علينا من جلابيب ألطافه و لطائفه. ما تحقق به آمالنا في جزيل آلائه و عوارفه. و جلا هذه المملكة علينا. و أهدى عقيلتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريلتاي المبارك و هو المجمع الذي ينقدح فيه آراء جميع الأخوان والاخوة والأولاد و الأمراء الكبار و مقدمي العساكر و زعماء البلاد و اتفقت كلمتهم على أن ينفذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتهم و امتلأت القلوب رعباً لعظم صولتهم و شديد بطشهم إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها شم الأطواد. و عزيمة تلين لها الصم الصلاد. ففكرنا فيما مخضت زبدة عزائمهم عنه و اجتمعت أهواؤهم و آراؤهم عليه فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من إنشاء الخير العام. الذي يقوم بقوته شعار الإسلام. و أن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء. و تسكين الدهماء. و يجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن و الأمان. ويستريح المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة و الإحسان. تعظيماً لأمر الله و شفقة على خلق الله. فألهمنا الله إطفاء تلك النائرة.و تسكين الفتن الثائرة. و إعلام من أشار بذلك الرأي ما أرشدنا الله إليه من تقديم ما يرجى به شفاء العالم من الأدواء. و تأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء. و إننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال إلا بعد إيضاح المحجة. و لا نأذن لها إلا بعد تبين الحق و تركيب الحجة. و قوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح. و تنفيذ ما ظهر لنا به وجه الإصلاح. اذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن فهو نعم العون في أمور الدين. فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه. و نقمة على من أعرض عنه و عصاه. و أنفذنا أقضى القضاة قطب الدين و الأتابك بهاء الدين و هما من ثقات هذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا. و يتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل سنتنا. و بينا لهم أننا من الله على بصيرة و أن الإسلام يجب ما قبله. وانه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق و أهله. و يشاهدون عظيم نعم الله على الكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان. و لا يحرمونها بالنظر إلى سالف الأحوال. و كل يوم هو في شان. فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل يستحكم به دواعي الاعتماد. و

حجة يثقون بها من بلوغ المراد. فلينظر إلى ما قد ظهر من مآثرنا مما اشتهر خبره و عم أثره. فإنا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى بإعلاء أعلام الدين و إظهاره في إيراد كل أمر و إصداره تقديماً. وإقامة نواميس الشرع المحمدي على قانون العدل الأحمدي إجلالاً و تعظيماً. و أدخلنا السرور على قلوب الجمهور و عفونا عن كل من اخترع سيئة و اقترف. و قابلناه بالصفح و قلنا عفا الله عما سلف. و تقدمنا بإصلاح أمور أوقاف السلمين من المساجد و المشاهد و المدارس. و عمارة بقاع البر و الربط الدوارس. و إيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقها بشروط واقفها. و منعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها و أن لا يغير أحد شيئاً مما قرر أولاً فيها. و أمرنا بتعظيم أمر
الحج و تجهيز وفدها و تأسيس سبيلها و تسييرقوافلها. و أطلقنا سبيل التجار و المترددين إلى البلاد و ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم. و حرمنا على العساكر العسكر و الشحاني في الأطراف التعرض لهم في مصادرهم و مواردهم. و قد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زي الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك فلم نر إهراق دمه صيانةً لحرمة ما حرمه الله تعالى و أنفذناه إليهم. و لا يخفى عليهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين. فإن عساكرنا طال ما رأوهم في زي الفقراء و النساك و أهل الصلاح فساءت ظنونهم في تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا. و فعلوا بهم ما فعلوا. و رفعت الحاجة بحمد الله تعالى إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق و تردد التجار و غيرهم. فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور و أمثالها فلا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية و عن شوائب التكلف و التصنع عرية. و إذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي النفرة التي كانت موجبة للمخالفة. فإنها إن كانت بطريق الدين. و الذب عن حوذة المسلمين. فقد ظهر بفضل الله و يمن دولتنا النور المبين. و إن كان لما سبق من الأسباب. فمن يجري الآن طريق الصواب. فإن له عندنا الزلفى و حسن مآب. و قد رفعنا الحجاب بفصل الخطاب و عرفناكم ما عزمنا عليه من نية خالصة لله تعالى و أتينا باستيفائها. و حرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها. ليرضى الله و الرسول. و تاوح على صفائحها آثار الاقبال والقبول. و تستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة. و تنجلي بنور الائتلاف و اللمة ظلمة الاختلاف و الغمة. فيسكن في سابغ ظلها البوادي و الحواضر. و تقوى القلوب التي بلغت من الجهد إلى الحناجر. و يعفى عن سائر الهفوات و الجرائر. فإن وفق الله تعالى سلطان مصر لما فيه صلاح العالم. و انتظام أمور بني آدم. فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى. و سلوك الطريقة المثلى. بفتح أبواب الطاعة و الاتحاد. و بذل الإخلاص بحيث تعمر تلك الممالك و البلاد. و تسكن الفتن الثائرة. و تغمد السيوف الباترة. تحل الكافة أرض الهوينا و روض الهدون. و تخلص أرقاب المسلمين من أغلال الذل و الهون. و إن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة. و منع عن معرفة قدر هذه النعمة. شكر الله مساعينا و أبلى عذرنا و ما

كنا معذبين حتى نبعث رسولاً. و الله الموفق للرشاد و السداد. و هو المهيمن على جميع البلاد و العباد. و حسبنا الله وحده. و كتب في أواسط جمادى الأولى سنة إحدى و ثمانين و ستمائة بمقام الطاق.

ثم أن ملك مصر كتب إلى السلطان أحمد جواب هذه الرسالة: من سلطان مصر سيف الدين أبي مظفر قلاوون. أما بعد حمد الله الذي أوضح لنا نبأ الحق منهاجاً. و جاء بنا فجاء نصر الله و الفتح و دخل الناس في دين الله أفواجاً. و الصلاة على سيدنا و نبينا محمد الذي فضله على كل شيء نحي أسه و كل نبي ناجي. و على آله و صحبه صلاة تثير ما دحي و تنير من داجي. و الرضى عن الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين و سليل الخلفاء المهتدين. و ابن عم سيد المرسلين الخليفة الذي تتمسك ببيعته أهل هذا الدين. أنه ورد الكتاب الكريم. الملتقى بالتكريم. و المشتمل على النبأ العظيم. من دخوله في الدين. و خروجه عمن خالف من العشيرة و الأقربين. و لما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر المعلم. و الحديث الذي صح عند أهل الإسلام إسلامه و أصح الحديث ما روي عن مسلم. و توجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه و تعالى في أن يثبته على ذلك بالقول و العمل الثابت. و أن ينبت حب حب هذا الدين في قلبه كما أنبته في أحسن المنابت. و حصل التأمل للفضل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية في أول العمر و عنفوان الصبا و الإقرار بالوحدانية. و دخوله في الملة المحمدية بالقول و العمل و النية. و الحمد لله على أن شرح صدره للإسلام. و ألهمه شريف هذا الإلهام. فحمدنا الله على أن يجعلنا من السابقين الأولين إلى هذا و المقال المقام. و يثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد و جهاد تتزلزل دونه الأقدام. و أما إفضاء النوبة في الملك و ميراثه بعد والده و أخيه الكبير إليه. و إفاضة هذه المواهب العظيمة عليه و توقله الأسرة التي طهرها إيمانه و أظهرها سلطانه فقد أورثه الله من اصطفاه من عباده. و صدق المبشرات له من كرامة أوليائه و عباده. و أما حكاية اجتماع الأخوان و الأولاد و الأمراء الكبار في قوريلتاي الذي ينقدح فيه زند الآراء و إن كلمتهم اتفقت على ما سبق به حكم أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب و انه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم و انتهت إليه أهواؤهم فوجده مخالفاً لما في ضميره إذ قصد الصلاح و دأبه الإصلاح. و انه أطفأ تلك النائرة. و سكن تلك الثائرة. فهذا فعل الملك التقي المشفق على قومه. و من يفي الفكر في العواقب. بالرأي الثاقب. و إلا فلو تركوا آراءهم حتى يحملهم الهوى لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة. لكن هو كمن خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى. و لم يوافق قول من ضل و لا فعل من غوى. و أما القول أنه لا يحب المسارعة للمقارعة إلا بعد إيضاح المحجة و تركيب الحجة. فانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا و حجته المتركبة على من عدت طواغيه عن سلوك هذه المحجة مسكتة. و إن الله سبحانه و الناس كافة قد عملوا أن قيامنا إنما هو لنصر هذه الملة و جهادنا و

اجتهادنا إنما هو لله. و حيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول.فقد ذهبت الأحقاد و زالت الذحول. و بارتفاع المنافرة. تحصل المناصرة. فالإيمان كالبنيان يشد بعضه من بعض. و من أقام مناره فله أهلٌ بأهلٍ في كل مكان وجيران بجيران في كل أرض. و أما تركيب هذه الفوائد الجمة على اذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن أعاد الله من بركاته فلم ير ولي من قبل كرامة كهذه الكرامة. و الرجاء ببركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان. و يعود شمل الإسلام كأحسن ما كان. و لا ينكر بمن بكرامته ابتدأ هذا التمكن في الوجود. إن كل حق ببركته إلى مصابه يعود. و اما إنفاذ أقضى القضاة قطب الدين و الأتابك شهاب الدين الموثوق بنقلهما في إبداع رسائل هذه البلاغة. فقد حضرا و أعادا كل قول حسن من حوال أحواله و خطرات خاطره و مناظرات منظره. و من كل ما يشكر و يحمد. و يفيض حديثهما فيه عن مسند أحمد. و أما الإشارة إلى أن النفوس كانت تتطلع لى إقامة دليل تستحكم بسببه دواعي الأمر و مصادره من العدل و الإحسان. بالقلب و اللسان. و التقدم بإصلاح الأوقاف فهذه صفات من يريد لملكه دواماً. فلما ملك عدل. و لم يلتفت إلى لوم من عذل. على أنها لو كانت من الأفعال الحسنة. و المثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة. فهي واجبات كلية تؤدى و هي أكبر من أنه يأجر أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر أو له يدخر. و إنما يفتخر الملك العظيم بأن يعطي ممالك و أقاليم و حصوناً

و أن يبذل في تشييد ملكه عن مصون. و أما تحريمه على العساكر و القراغولات و الشحاني بالأطراف التعرض إلى أحد بالأذى. و إصفاء موارد الواردين و الصادرين من شوائب القذى. فمن حين بلغنا تقدمه بذلك تقدمنا مثله أيضاً إلى سائر النواب بالرحبة و البيرة و حلب و عين تاب و تقدمنا إلى مقدمي العساكر بأطراف تلك الممالك بمثل ذلك. و إذا اتخذ الأمان و انعقد الإيمان بختم هذه الأحكام ترتبت عليه جميع الحكام. و أما الجاسوس الفقير الذي أمسك ثم أطلق و أن بسبب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء قتلت جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن فهذا باب من تلك الأبواب كان فتحه. و زند منه كان قدحه. و كم متزي بالفقر من ذلك الجانب سيروه. و إلى الاطلاع على الأمور سوروه. و ظفر النواب منهم بجماعة فرفع عنهم السيف. و لم يكشف ما غطته خرقة الفقر بلم و لا كيف. و أما الإشارة إلى أن في اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم. و ينتظم شمل بني آدم. فلا ريب لمن طرق باب الاتحاد و من جنح السلم فما حاد. و من ثنى عنانه عن المكافحة. كمن مد يد المصالحة للمصافحة. و الصلح و إن كان سيد الأحكام فلا بد من أمور تبنى عليها قواعده و يعلم من مدلولها فوائده. فإن الأمور المسطورة في كتابه كليات لازمة يفهم بها كل معنى و يعلم أن يتهيأ صلح أو لم. و ثم أمور لا بد و أن يحكم في سلكها عقوداً لعهود تنظم قد يحملها لسان المشافهة التي إذا أفردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس. و

أحرزها صدور الرسل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس.و أما الاستشهاد بقوله تعالى: و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً. فما على السبق من الود بنسج و لا على السبيل بنهج. بل الفضل لمن تقدم . في الدين حقوق ترعى. و إفادات تستدعى. و عند الانتهاء إلى جوابٍ ما لعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب. و سمعنا المشافهة التي على لسان أقضى القضاة قطب الملة و الدين. و انتظام عقده بسلك المؤمنين. و ما بسطه من عدلٍ و إحسان. و سيرة مشكورة يكل عن وصفها اللسان. فقد أنزل الله على رسوله في حق من أمتن بإسلامه: قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان. و من المشافهة أنه قد أعطاه الله من العطايا ما اغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرضٍ و ماء. فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل. فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة.تمت المصادقة. و رأى الله تعالى و الناس كيف يكون مصافينا. و ادلال معارفينا عند تصافينا. و كم من صاحبٍ وجد حيث لا يوجد الأب و الأخ و القرابة. و ما تم أمر الدين المحمدي و استحكم في صدور الإسلام إلا بمظاهرة أصحابه. فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد. و حسن الوداد. و جميل الاعتقاد. و كبت الأعداء و الأضداد. و الاستناد إلى من يشتد به الأزر عن الاستناد. فقد فهم المراد. و من المشافهة إذ كانت عزيمتنا غير ممتدة إلى ما في يده من أرض و ماء فلا حاجة إلى إنفاذ المفترين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود. فالجواب لو كف كف العدوان من هنالك. و خلا للملوك المسلمين ما لهم من ممالك. سكنت الدهماء. و حقنت الدماء. و حقه أن ينهي عن خلقٍ و يأتي بمثله. و لا يأمر بشيءٍ و ينسى فعله. و قونغرتاي بالروم الآن و هي بلادٌ في أيديكم. و خراجها يجبى إليكم. قد سفك فيها الدماء و قتل و سبى وهتك و باع الأحرار. و أبى إلا التمادي على ذلك الإضرار. و من المشافهة أنه حصل التصميم على أن يبطل هذه الإغارات. و لا يفتر عن هذه الإثارات. فيعين مكاناً يكون فيه اللقاء. و يعطي الله النصر لمن يشاء. فالجواب عن ذلك الآن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرةً و مرةً و مرةً قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم. و خاف أن لا يعاودها فيغادره مصرع ذلك اليوم. و وقت اللقاء علمه عند الله لا يقدر. و ما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدر. و ما نحن ممن ينتظر فلتة. و لا له إلى غير ذلك لفتة. و ما أمر ساعة النصر إلا كالساعة التي لا تأتي إلا بغتةً. و الله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة. و القادر على إتمام كل خيرٍ و نعمة. إن شاء الله تعالى. كتب في مستهل شهر رمضان المعظم سنة إحدى و ثمانين و ستمائة.

و في هذا التاريخ نقل إلى السلطان أحمد أن أخاه قونغرتاي له كلام مع أرغون ابن اباقا و أنهم يريدون قتله فخاف و سارع إلى قونغرتاي و قتله. و لما بلغ الخبر أرغون بقتل عمه حزن لذلك و صعب عليه و

أظهر تغيير قلبه على أحمد. فلما شعر أحمد بتغيير قلب أرغون عليه سير عسكراً عظيماً و كبيرهم أمير من المغول اسمه الينباخ فتوجهوا إليه و هو بخراسان. فلما وصل العسكر إليه انهزم أرغون من قدامه. فأهمل الينباخ أمره و اشتغل بالأكل و الشرب و السكر. و في بعض الليالي هجم أرغون على عسكر الينباخ و بعض العسكر معه. و لما سمع السلطان أحمد بذلك غضب وانزعج عظيماً ثم سير إلى جميع البلاد و جمع العساكر العظيمة و قصد أرغون. فلما رأى أرغون أنه عاجز عن مقاومته صعد إلى حصنٍ هناك و معه ثلاثمائة نفر من الفرسان البهادورية أتباعه و تحصن هناك من غير أن يحبس نفسه في مكان لكنه منتقل من موضع إلى موضع لأنه كان يفكر بقوله: كل محاصر مأخوذ و لم تطعه نفسه بالرجوع إلى طاعة السلطان أحمد. فبينما هو في هذه الأفكار و أميرٌ واحدٌ من أمراء أبيه اباقا كان محبوباً عند والده اسمه بوغا تقدم إلى السلطان أحمد قائلاً له: إن أعطيتني عهداً بأن لا تؤذي أرغون و لا يدنيه السوء فإني أمضي إليه و أحضره بين يديك. فسمع كلامه و استصوب مشورته و وقع الاتفاق على هذا. و حينئذٍ صعد بوغا في الحال إلى أرغون و خاطبه و جاء به إلى أحمد و فرح السلطان بذلك و عمل الدعوات و الأفراح ثلاثة أيام. و في اليوم الثالث تغير قلب السلطان أحمد على أرغون و جالت الأفكار في خاطره طالباً قتله. فدعى الأمير الينباخ و جماعة أخرى معه و وكل على أرغون و أوصاهم على الاحتياط به لئلا يهرب و أنه متوجه إلى بلاد أذربيجان إلى أمه قوتاي خاتون و أمرهم أن يصحبوه إليه. و لما جاء الليل عزم على الرحيل و كشف سره إلى بعض الأكابر حيث يقول: إن لم أهلك أرغون و سائر الأولاد لم أسترح و لا تنتظم السلطنة لي. و عند الصباح رحل و أوصى أن يصحبوا إليه أرغون قليلاً قليلاً. فأما الأمير بوغا فلما تحقق هذا الأمر و عرف ما في ضمير أحمد ما تبعه و أبطأ معتاقاً إلى الليل. و في الليل دار على جميع الأولاد و عرفهم ضمير أحمد و ما قد عول عليه أن يفعله بهم. فأخذتهم الغيرة و نهضوا في تلك الليلة بأجمعهم و قصدوا أرغون مكان كان موكل عليه و أخرجوه و ألبسوه السلاح و أركبوه الفرس و ركبوا جميعهم في خدمته إلى الموضع الذي كان فيه الينباخ و هجموا عليه و دخلوا قتلوه و قتلوا معه جميع الأكابر أصحابه في الخيمة و نادوا في العسكر أن أبناء الملوك قد قتلوا الينباخ و أصحابه فكل من هو في موضعٍ يلزم مكانه و لا يتحرك و لا يخف. و عند الصباح سيروا في طلب عسكر أرغون أحضروهم و ركبوا في جمعٍ عظيمٍ و ساقوا في أعقاب أحمد و أدركوه عند أمه فلزموه و كتفوه و استحفظوا به و نهبوا الاردو الذي له جميعها. و لما وصل أرغون و جماعة الأولاد اتفقوا على أن يملكوا عليهم أرغون و يكون الملك له موضع والده اباقا و أحمد ينعزل لآنه ما يصلح أن يدبرهم. و انتهت سلطنة أحمد إلى هذه الحالة و ذلك يوم الأربعاء حادي عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

"أرغون ايلخان" و لما جلس أرغون على كرسي المملكة اتفق الأكثرون من أمراء المغول و أكابرهم أن يقتلوا أحمد. فكان يقول أرغون: لا أوافق على قتله بل أم قونغرتاي و أولادها هم يعرفون به و الذي يختارون أن يفعلوا به فليفعلوا. حينئذٍ بقي تحت التوكل أياماً و بعد ذلك قتله أولاد قونغرتاي و انتقموا منه و أخذوا دم والدهم. و كان ذلك يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة. ثم أن أرغون لما استقام له الأمر رتب كل واحد من الأولاد في رأس عسكر من عساكر مملكته. ثم قيل لأرغون أن صاحب الديوان هو قتل اباقا والدك بسمٍ سقاه. و لما يسير يطلبه من السلطان أحمد فما كان يسمح له به و لا كان يسلمه إله. فتحقق أرغون أن أحمد اختار موت والده. فلما استقر أرغون في الملك هرب شمس الدين صاحب الديوان إلى الجبال التي في الأهواز و احتمى بطائفةٍ من الأكراد يسمون باللور و كان كبيرهم شخص اسمه يوسف شاه. و لما وصل إلى طاعة أرغون قبله قبولاً حسناً و أكرمه لأنه قبل عليه أن يلزم صاحب الديوان و يحمله إلى عبوديته. و فعل ذلك و لزمه و حمله إلى أرغون. و لما قدم قدم أموالاً كثيرة نحو مائة تومانٍ من ذهب. ثم أنهم عرضوا عليه أن يشتري نفسه بحيث لا يهرق دمه فطلب المهلة ليبيع أملاكه و ما تخلف له و يقرض و يوصل ذلك. حينئذٍ حصل بطريق القرض من أصحابه و أهله و أنسبائه و أحبائه و أصدقائه قريباً من أربعين توماناً آخر من الذهب و قال: هذا الذي قد حصل و لا يمكن أن يحصل غيره فأنتم الذي تختارون فعله فافعلوه. فبرز الأمر من الملك أرغون بقتله و قتل يوم الثلاثاء خامس شهر شعبان لهذه السنة وافق ذلك سابع شهر تشرين الأول سنة ست و تسعين و خمسمائة و ألف للإسكندر. و كانت هذه آخرة مثل ذلك الرجل العظيم الهيوب الحكيم الذي كانت الدولة بأسرها معلقة بخنصره. و كان عنده العقل و الخبرة و كان كاملاً بجميع السياسات و التدابير و التواضع الحسن. و يقولون عنه أنه ما سبقه أحد بالسلام بل هو كان يبتدئ من تقدم إليه.

الفهرس

المقدمة 2
الدولة الأولى 3
للأولياء قبل الدخول إلى أرض الميعاد 3
الدولة الثانية 15
المنتقلة من الأولياء إلى القضاة 15
قضاة بني إسرائيل 15
الدولة الثالثة 19
المنتقلة من قضاة بني إسرائيل إلى ملوكهم 19
الدولة الرابعة 30
المنتقلة إلى ملوك الكلدانيين 30
الدولة الخامسة 33
المنتقلة إلى ملوك الفرس 33
الدولة السادسة 40
المنتقلة إلى ملوك اليونانيين الوثنيين 40
الدولة السابعة 45
المنتقلة إلى ملوك الإفرنج 45
الدولة الثامنة 63
المنتقلة إلى ملوك اليونانيين المتنصرين 63
الدولة التاسعة 66
المنتقلة إلى ملوك العرب المسلمين 66
الدولة العاشرة 213
المنتقلة إلى ملوك المغول 213
الفهرس 232

To PDF: http://www.al-mostafa.com